عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



ثلاث مدن مشرقية

سواحل البحر الأبيض المتوسط بين التألق والهاوية

(الجزء الثاني)

فيليب مانسيل

ترجمة: مصطفى قاسم

المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب

عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978
أسسها أحمد مشاري العدواني (1923-1990) ود. فؤاد زكريا (1927-2010)

ثلاث مدن مشرقية

سواحل البحر الأبيض المتوسط بين التألق والهاوية

(الجزء الثاني)

فيليب مانسيل
ترجمة: مصطفى قاسم

ديسمبر 2017
455

ترسل الاقتراحات على العنوان التالي:

السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28613 - الصفاة
الرمز البريدي 13147
دولة الكويت
هاتف: 22431704 (965)
www.kuwaitculture.org.kw

التنضيد والإخراج والتنفيذ
وحدة الإنتاج في المجلس الوطني

ISBN 978 - 99906 - 0 - 570 - 9

العنوان الأصلي للكتاب

Levant:

Splendour and Catastrophe on the Mediterranean

By

Philip Mansel

John Murray. UK, 2010

طُبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

ربيع الأول 1439 هـ ـ ديسمبر 2017

المحتوى

II

مدن على حافة الهاوية

«يحيا الدستور، تحيا الحرية
الكاملة، تحيا الأمة»
من الهتافات في شوارع سميرنا في أغسطس 1908

كان السلطان في القسطنطينية يضيف أكشاكا ومدارس ومكاتب إلى مدينة قصره يلدز المطلة على البسفور. بينما بدأ بعض أكبر مسؤوليه، وكذلك جنوده الذين لم يتقاضوا رواتبهم، يفقدون الثقة به. كانت الإمبراطورية على شفا جرف هارٍ، أو ربما انبعاث جديد. وأخيرا في العام 1908 اندلعت ثورة، ليس في القسطنطينية ولا في سميرنا، بل في سالونيك.

كانت «ملكة بحر إيجة»، كما أطلق البعض على سالونيك، تبدو من بعيد مثل سميرنا، حيث ترتفع البيوت البيضاء ذات الأسقف الحمراء المبنية على الطراز التركي بشرفاتها البارزة التي تكاد تتلامس فوق مجرى الشوارع، بين المآذن

«بدأت نهاية المشرق مع اندلاع الحرب في البلقان، عندما توعّدت بلغاريا وصربيا والجبل الأسود واليونان بتحريض من الدبلوماسيين الروس لمهاجمة الإمبراطورية في 8 أكتوبر 1912»

وأشجار السرو، مع تل صاعد إلى قلعة. وكما هي الحال في سميرنا أيضا، كانت البيوت تشكل مدرجا حول الخليج. كانت المدينة المحاطة بالبساتين تبدو «خيالية في كمالها»[1]. لكن بالقرب منها، بتعبير جندي إنجليزي خدم هناك في أثناء الحرب العالمية الأولى، كانت القذارة والقبح، «خصوصا الروائح الكريهة لا توصف». وكانت الشوارع غير المعبدة تغص بالأطفال الشحاذين[2]. وفيما وراء البساتين، كانت هناك «مستنقعات موبوءة». وكانت الملاريا متفشية. وكان الكعك المعروض في مقهى فلوكا Floca الذي كان يعد المقهى الأنيق بالمدينة، يسمى «غاتو موش» Gâteaux Mouches[*]، لأن الذباب كان يغطيه، وكان كذلك «يوخزنا ويقرصنا ويثير غضبنا»[3].

كان رصيف الميناء، مثل سميرنا، يكتظ بقوارب الكياك والسفن الشراعية والسفن البخارية. وكانت تصطف على رصيف الميناء مقاهٍ وحانات تسمى موزيكات[**]. ووفقا لبيير لوتي Pierre Loti فإن هذه الحانات كانت تسمح بـ «دعارة غريبة في أقبية، كانت المصطكاء والراكي يشربان فيها إلى حد السُّكْر الكامل»[4]. كانت الموزيكات تظل مفتوحة حتى وقت متأخر من الليل ولا يُسمَع فيها غير الموسيقى اليونانية والغجرية، فضلا على نقر هراوة الحارس الليلي وهو «يضرب على حصى الرصيف معلنا الساعة». كانت تهيمن على الساحة الرئيسة سراي الكوناك الحكومية التي تكتظ بطالبي الحاجات والدرك والسجناء[5]. كان أحد الشوارع التجارية الرئيسة يسمى شارع الفرنجة، كما كانت الحال في سميرنا والإسكندرية[6].

في العام 1850 بلغ عدد سكان سالونيك نحو سبعين ألفا، زاد بحلول العام 1906 إلى مائة وأربعة عشر ألفا وستمائة وثلاثة وثمانين، كان منهم سبعة وأربعون ألفا وسبعة عشر يهوديا، وثلاثة وثلاثون ألفا وسبعمائة وستة وخمسون يونانيا، وتسعة وعشرون ألفا وستمائة وخمسة وستون مسلما (ربما كان نصفهم من الدونمة من ذوي الأصول اليهودية). كان اليهود، في كل تعدادات السكان، يشكلون زهاء نصف سكان «أم إسرائيل» Madre de Israel، كما أطلقوا على سالونيك. وظلت هيمنة

(*) أي «كعك الذباب»، وهي محاكاة للاسم الذي عرفت به مراكب التنزه المكشوفة في باريس «باتو موش» Bateaux mouches، والتي تعني بالفرنسية «قوارب الذباب». [المحررة].

(**) ربما استمدت اسمها موزيكات من الموسيقى التي كانت تعزف بها. [المترجم].

اليهود واضحة حتى العام 1923، حتى إن معظم الدكاكين كانت تغلق في يوم السبت والعطلات اليهودية الأخرى، وكان معظم السكان يتحدثون بعض الكلمات الإسبانية المعروفة في المدينة باسم الجوديزمو، أي لغة اليهود(*). وكان البقالون والندل يونانيين، وباعة اللبن ألبانا، وباعة الملابس يهودا، وكمسرية الترام أتراكا، وماسحو الأحذية غجرا[7].

وفي المكاتب، مثلما كانت الحال في سميرنا والإسكندرية، كان كثيرون يتحدثون اللغة الفرنسية، حتى إن السلطان عبدالمجيد نفسه تحدثها مع وجهاء المدينة اليهود والمشرقيين في زيارته للمدينة في العام 1859. وعلى رغم أن كثيرين كانوا يحنون إلى عذوبة اللغة اللادينووية، فقد انتشرت اللغة الفرنسية على نطاق واسع، حتى إن المدارس الحديثة جميعها، أيا كان دين أصحابها، كانت تدرِّسها، وكذلك بعض المدارس الألمانية[8]. كانت توجد صحيفة باللغة الفرنسية تدعى «جورنال دي سالونيك» Journal de Salonique أسست في العام 1895، سرعان ما وصل توزيعها إلى نحو ألف نسخة. وبينما كانت لفرنسا الهيمنة الثقافية، كانت الهيمنة التجارية من نصيب النمسا التي كان لها النصيب الأكبر من صادرات المدينة ووارداتها. فكان أثاث بيوت الوجهاء ولباسهم يأتيان من فيينا أو يصنعهما في سالونيك حرفيون تدربوا في فيينا[9].

غير أن سالونيك كانت كئيبة مقارنة بسميرنا، فلا مكتبات ولا مسارح ولا حفلات موسيقية، ولا حياة اجتماعية إلا في مقاهٍ مثل أوليمبياس Olympias ووايت تاور White Tower (البرج الأبيض). كان القناصل، كما تذكر أحدهم، هم أرستقراطية المدينة[10]. وكانت هناك أيضا أرستقراطية يهودية منفصلة. ساعد رجال الأعمال من عائلات ألاطيني Allatini ودي بوطون de Botton ومودیانو Modiano، على نحو ما فعلوا في موطنهم ليفورنو، في انتشال سالونيك خلال بضع سنوات من العصور الوسطى إلى القرن التاسع عشر. فأنشأوا مصانع للطابوق والبيرة والصابون. وأنشأ الدكتور مويس ألاطيني Dr Moise Allatini - أعظم مُجدّدي سالونيك - أول مدرسة فرنسية في العام 1858. وكان كذلك يقدم المساعدة والرعاية الطبية للجميع،

(*) الجوديزمو Judezmo، هو اسم الشكل المنطوق للغة القشتالية (الإسبانية) التي جاء بها اليهود من إسبانيا، والتي يسمى شكلها المكتوب اللادينو Ladino. [المترجم].

أيا كان دينهم. هُدِمت الأسوار البحرية للمدينة في العام 1866، وشُقت شوارع جديدة بها فيلات أقرب إلى الطرز الفرنسية والنمساوية من السرايات الكلاسيكية المُحْدَثة في سميرنا، إذ ظهر في سالونيك طرازا لويس الثالث عشر والقوطي المُحْدَث على شواطئ بحر إيجة[11]. وتحول رصيف الميناء الذي شُيِّد إبان العقد الثامن من القرن التاسع عشر، وهو الوقت نفسه الذي بُني فيه رصيف ميناء سميرنا، إلى مكان الالتقاء الرئيس بالمدينة، ومُهِّدت الشوارع تدريجيا، وأخيرا رُكبت بالوعات[12]. وكان الوالي يلجأ أحيانا - مدفوعا بحماسه إلى التطوير الحضري - إلى استخدام سجناء مكبلين في أغلال لكنس الشوارع تحت أعين الدرك اليقظة[13].

ساعد الربط بالسكك الحديد بفيينا في العام 1888 وبالقسطنطينية في العام 1896 في فتح المنطقة الداخلية لسالونيك. وفي العام 1888 تأسس بنك سالونيك برأسمال فرنسي ونمساوي. وبدأت الأزياء الأوروبية تحل محل الأزياء التقليدية[14]. كانت العمالة رخيصة، حتى إنه عند إنشاء الترام في العام 1893 قال مديره البلجيكي إنه لو كان يعرف بانخفاض أجور العمال في سالونيك إلى هذا الحد لما اشترى خيولا لجرها[15].

لم تكن هناك أحياء منفصلة لليهود أو المسيحيين أو المسلمين. وكان بعض السكان يختارون المستخدمين وكذلك المربيات والزوجات/ الأزواج من الأديان الأخرى. وكان المسيحيون والمسلمون يتزاورون في بيوت بعضهم البعض، ويزورون قبور أولياء بعضهم البعض. وظل المسيحيون يصلون في قسم من كنيسة سانت ديميتريوس St Dernetrius حتى بعد تحويلها إلى جامع. نشأ مصطفى كمال المسلم، الذي وُلد في سالونيك في العام 1881 لمسؤول عثماني ربما تجري في عروقه دماء مقدونية، في بيت من طابقين في حي أحمد شوباشي Ahmad Subachi. وبعد أن التحق بمدرسة إسلامية تقليدية، تركها على خلاف نصيحة أمه ليلتحق بالمدرسة الفوزية Fevziye school، التي كان كثير من الدونمة يرتادونها. ثم التحق بمدرسة عسكرية حكومية لكي ينضم إلى صفوف الجيش. يرجع كثيرون حماس مصطفى كمال اللاحق للإصلاح جزئيا إلى خلفيته السيلانيكية. وفي الكلية العسكرية بالقسطنطينية، كان يُعرَف في بادئ الأمر باسم مصطفى السيلانيكي[16](*).

(*) مع أننا استخدمنا التعريب «سالونيك» لمدينة Salonica التزاما بالأسماء التي يستخدمها المؤلف، وليس الاسم العثماني «سيلانيك»، فقد عدنا في النسب إليها إلى الاسم العثماني لأنه الأقرب إلى الأذن العربية والمتداول في الكتابات العربية. [المترجم].

وجد تنوع سكان سالونيك تجسيدا له واحتفاء به في سلسلة من البطاقات البريدية تسمى «أزياء سالونيك». ففي حين احتفت البطاقات البريدية السميرنية عادة بنشاطات اقتصادية مثل تعبئة التين أو نقل السلع إلى الكردون، ظهرت على نظيراتها السلانيكية فلاحات يونانيات يتزيّنّ بعملات ذهبية، ومقدونيون بطماقهم(*) السميك وعباءاتهم البيضاء ومآزرهم المطرزة، وألبان بعباءاتهم الضخمة المصنوعة من جلد الغنم، وأتراك ببذلاتهم وطرابيشهم الأنيقة[17]. وقد أعجب زائر فرنسي يدعى القبطان كانودو Captain Canudo بسالونيك ووصفها بأنها «تقاطع طرق للأقوام بكل معنى الكلمة... حتى إنك تعتقد أنك تجد هناك قوة الحياة نفسها، تهدر وتغلي، في دوامة إنسانية في مركز محيط من الحيوية الأوروبية والأفريقية والآسيوية»[18].

كانت سالونيك أيضا ساحة حرب. وكان الجنس يمس عصب العرق. من ذلك أنه في السابع من مايو 1876 حاول أقارب فتاة بلغارية تدعى استيفانا منعها من اعتناق الإسلام. كانت الفتاة تريد الزواج من خير الله المسلم الذي كانت تربطها به علاقة حب. طلب أقاربها مساعدة أصحاب النفوذ الجدد: القناصل. وارتكب القنصل العام الفرنسي ونائب القنصل الألماني ومليونير محلي يدعى مستر آبوت Mr Abbot حماقة تمثلت في دخول أحد المساجد في أثناء صلاة الجمعة بلا قواسيهم، ففتك بهم حشد من «الذئاب المسعورة» على مرأى من الوالي نفسه. أغلقت المدينة المذعورة دكاكينها. وردا على ذلك، أرسلت القوى العظمى بوارجها لتجريب مدافعها في المدينة. وفي السادس عشر من مايو شُنِق ستة مسلمين، بعضهم لا علاقة له بجريمة القتل، على رصيف الميناء بجوار مقهى وايت تاور، في حضور المسؤولين والقناصل وحشد كبير وبحارة بريطانيين بزيهم الرسمي. وكما حدث في الإسكندرية في العام 1863، أُجبِرت السلطات الحكومية على إعلان ذلتها أمام السكان المحليين بضغط القوى الأجنبية[19].

كان كثير من سكان سالونيك لا يغادرون المدينة إلا نادرا. وكانت الجبال الجرداء غير المأهولة مأوى للكوميتاشي comitaci والشتنيك chetnik والشيتي cetes، وهي

(*) كساء للساق من جلد أو قماش، يلبس للتدفئة والحماية، أشبه بالجورب لكنه لا يشمل القدمين، كان المقدونيين يثبتونه بشريط جلدي يلف فوقه متقاطعا حول الساق [المترجم].

عصابات من قطاع الطرق اتخذوا من القومية (اليونانية أو الألبانية أو المقدونية أو البلغارية أو التركية) مبررا للنهب والقتل. وكان قطاع الطرق يقاتلون الدرك في الجبال. وكانوا يقطعون خطوط القطارات ويحرقون القرى ويقتلون «الخونة»[20].

تأسست المنظمة الثورية المقدونية الداخلية Internal Macedonian Revolutionary Organization; IMRO في سالونيك في العام 1893. وسرعان ما شكّلت هذه المنظمة التي كانت تؤمن بفكرة «مقدونيا للمقدونيين» (مع أن بعض أعضائها أرادوا أن تكون مقدونيا جزءا من بلغاريا الكبرى)، محاكم ظل وقوات مسلحة وضرائب خاصة بها، كأنها دولة داخل الدولة[21]. وبدافع العداء الشديد لليونانيين، مارست هذه المنظمة الإرهاب على قرى كان أغلب سكانها يفضلون البقاء على الحياد. وفي التاسع والعشرين من أبريل 1903 فجّر بلغاريون بقيادة مدرس يدعى ديلتشيف Delchev الفرع السيلانيكي للبنك العثماني والمقاهي المحيطة وكذلك سفينة فرنسية في الميناء، على أمل إفاقة مقدونيا من سباتها وإيجاد ذريعة للتدخل الأوروبي. وردا على ذلك، شهدت شوارع المدينة عمليات انتقامية بحق البلغاريين الذين كان من السهل التعرف عليهم بلباسهم، إلى أن وصل الحاكم فهمي باشا بنفسه لاستعادة النظام، وإن ألقيت قنبلة على عربته[22].

ردا على ذلك، أصبحت العصابات اليونانية أكثر عدوانية، وأنشأت هي الأخرى دولتها الخاصة داخل الدولة. كان اليونانيون يعتبرون مقدونيا «رئة اليونان» التي من دونها تموت اليونان. وفي 12 أغسطس 1906 ذبح بلغاريون سكان بلدة أنخيلوس Anchilaos اليونانية الصغيرة، ما اضطر الممثل البلغاري في القسطنطينية إلى الاستقالة خجلا[23]. وأخذ آلاف المقدونيين المذعورين يهاجرون إلى القسطنطينية أو أمريكا[24].

وحدهم اليهود في سالونيك الذين لم تكن لهم طموحات قومية قوية. لذلك وصفهم السلطان عبدالحميد بأنهم «مطيعون ومخلصون وأوفياء»، وبدوره رد التحالف الإسرائيلي العالمي بتحية عبدالحميد بوصفه بـ «السلطان الكريم وحامي رعاياه الإسرائيليين». أعطت الإمبراطورية العثمانية اليهود حرية من التدخل الحكومي أكثر مما أعطتهم الدول البلقانية الجديدة. وغادر كثيرون منهم بلغاريا إلى سالونيك، ما أسهم في زيادة عدد سكانها اليهود من ثمانية وعشرين ألفا بين العامين 1882 و 1884 إلى سبعة وأربعين ألفا في العام 1905[25]. وفيها وجدوا ملاذا

من معاداة السامية. سحرت سالونيك ديفيد بن غوريون الشاب، لكن أفزعه عدم اكتراثها بالدعوة الصهيونية، فغادرها سريعا[26].

غير أن سالونيك لم تعد ملجأ وملاذا. إذ تأسست فيها في العام 1904 منظمة من الثوريين المعارضين للسلطان تسمى جمعية الاتحاد والترقي (Committee of Union and Progress; CUP). تمثلت نواة هذه المنظمة في ضابطين شابين، هما أنور وجمال، فضلا على طلعت بيه، الموظف بمكتب البرق. كان الثلاثة راديكاليين يعارضون الحكم المطلق للسلطان ويسعون إلى تحويل الإمبراطورية العثمانية إلى مَلكية دستورية ومجتمع حديث. وبحلول العام 1907 كان هناك فرع لجمعية الاتحاد والترقي في سميرنا على اتصال بفرعي سالونيك وباريس. وكان الرسول الأساسي بينهم هو الدكتور ناظم. وفي العام 1907 اجتمع خليل منتيشي بناظم في غرفة خاصة في النادي الرياضي، خوفا من عيون السلطان لو التقيا علنا، وحذره من ثورة وشيكة في مقدونيا، وطلب منه أن ينشر الخبر بين القوات في سميرنا. وفعل الدكتور ناظم ما طُلب منه، إذ تنكر في هيئة تاجر تبغ يدعى يعقوب أغا. في ذلك الوقت، كانت الضرائب الجديدة وتأخر الرواتب ذرائع أقوى ضد حكومة السلطان من دعاية تركيا الفتاة. وفي يونيو 1907 دفع تأخر الرواتب الجند إلى احتلال مكتب البريد الرئيس بسميرنا[27]. وفي نوفمبر 1907 بدأ الفلاحون في معظم الأناضول في الامتناع عن دفع الضرائب[28].

وإلى جانب المنظمة الثورية المقدونية الداخلية واليونانيين، أوجدت تركيا الفتاة هي الأخرى دولة لنفسها داخل الدولة. واخترقت الجيش، حتى إن المفتش العام حسين حلمي نفسه كان متعاطفا مع أفكارها. وكما كانت الحال مع الكريتيين، تميّز أعضاء تركيا الفتاة بالنزعة القومية المتطرفة التي تميّز التخوم. ثمة ضابط آخر من أعضاء تركيا الفتاة، هو نيازي، كان من أصل ألباني. كانت لأنور جذور تركية مسيحية أو غاغوزية(*)، ولطلعت جذور من البوماك(**) أو من البلغاريين الذين اعتنقوا الإسلام. أما جمال فجاء من جزيرة ميتليني في بحر إيجة، وكان جاويد -

(*) الغاغوز Gagauz، (نسبة إلى منطقتهم غاغوزيا Gagauzia) وهي مجموعة تتحدث اللغة التركية، أغلبيتهم من المسيحيين الأرثوذكس، يعيشون في جنوب غرب أوكرانيا وجنوب شرق رومانيا وشمال شرق بلغاريا واليونان. [المترجم].
(**) البوماك Pomak، جماعات مسلمة تتحدث اللغة البلغارية تعيش في بلغاريا وشمال اليونان وتركيا وألبانيا ومقدونيا وكوسوفو، يسمون أيضا المسلمون السلاف Slavic Muslims. [المترجم].

مدير مدرسة سالونيك للفنون والحرف - من الدونمة. أما الدكتور ناظم فقد ولد في سالونيك ودرس في باريس. وقد وحّدت قلوبهم جميعا الكراهية لما أسماه خليل عم أنور «الحكم الأبله للقصر»[29].

في سالونيك، استغلت تركيا الفتاة هامش الحرية الذي لم يكن له نظير في أي مكان آخر في الإمبراطورية بسبب مزيج من الجغرافيا وخصائص السكان. وقد اجتمع الطابع التحرري للمدينة الأدنى في طابعها الإسلامي بين المدن الكبرى في الإمبراطورية (كان المسلمون يشكلون عادة زهاء 30 في المائة من السكان) مع قربها من أكبر الفيالق العسكرية في الإمبراطورية العثمانية القابعة على بعد ثمانين ميلا في مناستر Monastir (بيتولا حاليا)(*)، ليجعلا من سالونيك فاعل تغيير سياسي أشد تأثيرا من القسطنطينية أو سميرنا أو بيروت.

تميّزت سالونيك بميزة أخرى، هي العدد الكبير للقنصليات الأجنبية ومكاتب البريد والمحافل الماسونية. وقد تواصلت تركيا الفتاة مع المنفيين السياسيين في باريس، وهرّبت رجالا وكتبا هدامة باستخدام القناصل اليونانيين، فضلا على شبكة أعضائها الخاصة[30]. وفي سالونيك خططوا للثورة في المقاهي القريبة من مقهى وايت تاور[31].

ثمة مكان اجتماع آخر لأعضاء تركيا الفتاة هو بيت شخص يوناني يدعى الدكتور زاناس Dr Zannas، بالقرب من القنصلية الفرنسية في الشارع الواسع الجديد المسمى الحميدي. كان عدد الزوار الكبير للطبيب يرجع إلى جودة الرعاية الطبية التي كان يقدمها، حتى إن الوالي حسن فهمي باشا نفسه كان أحد زبائن الطبيب. كما رشا الطبيب ضباط شرطة عثمانيين لإمداده بالمعلومات[32]. ومثلما كانت الإسكندرية في العام 1882، كانت سالونيك قنبلة موقوتة تنتظر الانفجار.

***

ظن أعضاء تركيا الفتاة خطأ أن لقاءات بين إدوارد السابع ونيقولا الثاني على يختيهما في بحر البلطيق في التاسع والعاشر من يونيو 1908 أريد بها التخطيط لتقسيم الإمبراطورية العثمانية(**)، وهو الظن الذي اجتمع مع خوف من الوصول

(*) تتبع بيتولا Bitola حاليا في جمهورية مقدونيا. [المترجم].

(**) إدوارد السابع ملك المملكة المتحدة، حكم من 22 يناير 1901 إلى 6 مايو 1910، ونيقولا الثاني آخر أباطرة روسيا وملك بولندا ودوق فنلندا الأكبر، حكم من 1 نوفمبر 1894 إلى 15 مارس 1917. [المترجم].

الوشيك للجان تحقيق من طرف السلطان ليعجلا بثورة تركيا الفتاة. وبعد اجتماع في سالونيك في الرابع من يوليو، لاذ ضباط تركيا الفتاة بالجبال وأرسلوا بيانات إلى القناصل الأجانب - وهو دليل على أهمية القناصل في بنية السلطة المحلية - وبيانات إلى الثوار أنفسهم. وبدأت عمليات اغتيال بحق الضباط الموالين للسلطان. وفي مناستر أُعْلِن في العشرين من يوليو إعادة الحكومة الدستورية (التي عملت فترة قصيرة في العامين 1876 و1877 إلى أن حلها عبدالحميد)[33]. وأُرْسِل من سميرنا فوجان عسكريان لقمع الثورة، لكنهما رفضا إطلاق النار، إذ كان جنودهما في ذلك الحين لم يتقاضوا رواتبهم منذ شهور فضلا على اختراقهما من جانب عملاء جمعية الاتحاد والترقي[34].

وفي الرابع والعشرين من يوليو استسلم السلطان وأعلن إجراء الانتخابات للبرلمان العثماني في الخريف. قرأ حسين حلمي باشا مرسوم السلطان أمام سراي الكوناك بسالونيك. وفي أثناء قراءته توقف ثلاث مرات ليطلب الهتاف للسلطان، لكنه لم يجنِ غير الصمت[35]. وفي الساحة الرئيسة بالمدينة أعلن أنور بيه الزعيم الشاب الوسيم للثورة: «إننا لم نعد أتراكا أو يونانيين أو بلغاريين، وإنما إخوة. تحيا أرض الأجداد! تحيا الأمة! تحيا الحرية!» وتلت ذلك خطابات وهتافات حماسية ومواكب تلوّح بالأعلام، قادت واحدة منها عذراء ترتدي ثوبا أبيض ترمز إلى طهر الدستور العثماني.

وعلى مدار الأيام التالية، سلم قطاع الطرق الملطخة أيديهم بالدماء أسلحتهم من الخرطوش والمسدسات والخناجر (أو بالأحرى الأسلحة القديمة التي لم تعد منها فائدة) وأعلنوا توقهم إلى الحرية والأخوة والعدالة من شرفات فندق أوليمبوس بالاس Olympos Palace Hotel وحلقة سالونيك. وأخذ الرجال الذين قضوا نصف حياتهم في إحراق القرى وقتل المسالمين يعانقون الضباط العثمانيين الذين كانوا فيما سبق يحاولون القبض عليهم. وحتى قاطع الطريق الأكثر وحشية بين الجميع، ساندانسكي Sandansky، المعروف باسم «ملك الجبال» شارك في هوس الإخاء. وتحوّلت صور قطاع الطرق في استديوهات سالونيك إلى بطاقات بريدية باسم «عصابات قطاع الطرق» أو «رؤساء قطاع الطرق» بأسماء مثل «حسن جاويش» أو «ليفانوس» أو «باولوس وعصابته»[36]. وكما كانت الحال

في القسطنطينية، تعانق الأئمة والكهنة والأحبار[37]. وتراجع عدد جرائم القتل في مقدونيا من ألف وسبعمائة وثمانٍ وستين في العام 1907 إلى مائتين وإحدى وتسعين جريمة في العام 1909[38].

كانت المدينة برمتها، بل الإمبراطورية برمتها، ترتدي شارات أو «أوشحة الحرية» باللونين الأبيض والأحمر لثورة تركيا الفتاة، إذ يرمز الأبيض إلى أن تركيا يجب أن تكون نقية، والأحمر إلى الاستعداد لإراقة الدماء لجعلها كذلك. وبعد ثلاثين عاما من حكم عبدالحميد المطلق انبعثت تركيا الحديثة في سالونيك. وحتى العام 1912 ظل الحزب الثوري الحاكم، وهو جمعية الاتحاد والترقي، يعقد مؤتمراته وينشر صحيفته يني فلسف Yeni Felsefe (أي «الفلسفة الجديدة») في سالونيك. كان كل شيء يناقَش، من طبيعة المجتمع إلى تنظيم العمل وحقوق المرأة وتوطين المسلمين البوسنيين في مقدونيا، وللمرة الأولى إصلاح اللغة التركية. وتشكلت في المدينة في العام 1911 مجموعة من كُتاب تركيا الفتاة يُدعَون «الأقلام الفتية»، كان من بينهم القومي اليهودي التركي تكينالب Tekinalp (اسمه بالمولد مويس كوهين Moise Cohen).

عاشت سالونيك أسمى أوقاتها، على نحو ما حدث في باريس بعد ثورة العام 1830. ومثل باريس، اعْتُبِرت سالونيك المدينة المقدسة للثورة أو نبع الحرية. وأُعيدت تسمية الساحة الرئيسة فيها إلى «ساحة الحرية» Place de la Liberte، وتشبيها للمدينة بالكعبة أو الحجر الأسود المقدس الموجود في وسط المسجد الحرام، كانت هناك خطط كذلك لتغيير اسم سالونيك إلى «كعبة الحرية» Kaaba of Liberty. بيد أن أحدا لم يكن يتخيل أن المدينة على وشك الضياع من الإمبراطورية إلى الأبد[39]. وفي العام 1908 قررت عائلة إفرينوس زاده القديمة التي شاركت في فتح منطقة البلقان للعثمانيين في أوائل القرن الخامس عشر(*)، أن تستعيد قبور أسلافها الواقعة فيما يسمى حاليا جيانيتسا Giannitsa في اليونان

(*) من المشاهير في التاريخ العثماني الذين يحملون لقب أو إفرينوس زاده evrenoszade، غازي أحمد فاتح البلقان في أوائل القرن الخامس عشر وحفيده شريف أحمد والي مدينة يانيستا (بالتركية يني شهر أو المدينة الجديدة) اليونانية في نحو العام 1667، وهي المدينة التي ضمت مقبرة العائلة وتحولت لاحقا إلى متحف أثري. وثمة إفرينوس أقدم يقال إنه كان الحاكم البيزنطي المسيحي لبورصة، اعتنق الإسلام وصار من القادة العسكريين في عهد عثمان غازي الأول (حكم من العام 1258 إلى العام 1326) الذي نسبت إليه الدولة العثمانية. [المترجم].

على مسافة خمسة وعشرين ميلا غربي سالونيك، كأنهم كانوا سيبقون هناك لخمسمائة سنة أخرى[40].

وفي 13 أبريل 1909 وقعت محاولة للثورة المضادة في القسطنطينية من جانب قوات موالية للسلطان روعتها الزندقة المزعومة في حق جمعية الاتحاد والترقي. وفي شوارع العاصمة أخذت الصيحات «تحيا الشريعة!» تتردد. فيما ظلت سالونيك وفية لدورها «كعبة للحرية»، وتعهد ثلاثون ألف متظاهر في ساحة الحرية بحماية الدستور. وتقدم «جيش المعركة» operation army، بقيادة شوكت باشا وأنور ومصطفى كمال، بمتطوعين من قطاع الطرق البلغاريين واليونانيين والألبان بالقطار إلى القسطنطينية. ومن أجل نيل التأييد الشعبي، كان عليهم أن يتعهدوا بحماية السلطان. لكنهم على خلاف تعهدهم حاصروا قصر يلدز في الثالث والعشرين من أبريل وخلعوا السلطان. ونُفي السلطان في القطار العائد إلى سالونيك التي عاش فيها قيد الإقامة الجبرية في فيلا ألاطيني Villa Allatini. ونصّبوا خلفا له أخاه الأصغر الأكثر ليبرالية الذي حكم باسم محمد الخامس[41].

***

وكما حدث في سالونيك، عمّت الفرحة سميرنا لدى وصول أخبار ثورة تركيا الفتاة. اختفى جواسيس السلطان بين عشية وضحاها. وبدا أن الناس قد نسوا الاختلافات القومية. وفي مقهى باريس على الكردون، طلب الضباط العثمانيون من الفرقة الموسيقية أن تعزف السلام الحميدي والسلام الوطني الفرنسي والسلام الوطني اليوناني. ونظم طلاب مدرسة السلطان الثانوية مواكب على الكردون جيئة وذهابا لابسين «أوشحة الحرية». وأخذت الفرق الموسيقية في الشوارع تعزف السلام الحميدي والسلامات الوطنية اليونانية والفرنسية والبريطانية. وفرّ كثير من مسؤولي السلطان، ومنهم الحاكم، إلى أثينا، أو جُرّدوا من رتبهم أو أرسلوا إلى سالونيك[42].

نظمت الجاليات المختلفة مواكب منفصلة احتفالا بالدستور. وفي فندق كريمر، أقام الأرمن مأدبة تكريما لممثل جمعية الاتحاد والترقي. واستُقبِل ولي عهد اليونان الأمير أندرو وزوجته وهما في طريق عودتهما من زيارة إلى أقاربهما

في روسيا بحشود مهللة من اليونانيين في مقر إقامة رئيس الأساقفة الذي تباحث معه وقتذاك ممثل لجمعية الاتحاد والترقي، ربما باللغة اليونانية، حول المصالحة والتعاون بين الشعبين[43]. تبيّن البطاقات البريدية والبقايا التذكارية للثورة التي أُعيد نشرها في ذكراها المئوية في العام 2008، شوارع سميرنا وقد عُلّقت فيها الأعلام التركية واليونانية والإيطالية ورايات تعلن بالأرمنية واليونانية والعثمانية والفرنسية «الحرية والمساواة والعدالة والإخاء، يحيا الدستور، يحيا الجيش، تحيا الأمة»[44].

وفي القسطنطينية، ظل السلطان يحظى بشعبية، لكن في سميرنا كان اسمه لا يذكر، وهو دليل آخر على ما أسماه مؤرخ المدينة فانجليس كيتشريوتيس Vangelis Kechriotis «الحكم الذاتي الوقح». حتى إن بعض الثوار حاولوا أن يهدموا برج الساعة الإسلامي - القوطي الزخرفي الذي شُيّد أمام سراي الكوناك في العام 1901 بسبب المال الذي جُمِع من أجله بالاكتتاب العام إحياء للذكرى الخامسة والعشرين لجلوس السلطان على العرش[45].

وعلى رغم البهجة التي عمّت الجميع، ظلت الهواجس تسيطر على البعض. من ذلك ما كتبه القنصل الفرنسي في سميرنا بول بلانك Paul Blanc من أن «ما توحّده الحرية، يمكن للدين أن يمزقه في لحظة حرجة... سيظل المسلمون يشعرون دائما بأنهم العرق الفاتح». كان الإخاء مستحيلا، إذ كانت الجماعات كلها في حقيقة الأمر لا تريد المساواة، بل مزيدا من الامتيازات. وقد تذمر أحد الوجهاء اليونانيين للقنصل من أن اليونانيين يشبهون ورثة ينتظرون وفاة قريب غني أخبرهم من فوره بأنه يتعافى. وفي أكتوبر خرج طلاب المدارس الأتراك والأرمن واليونانيون واليهود في سميرنا في مظاهرات حاشدة إلى كل القنصليات في المدينة للتأكيد على سيادة التفاهم بين الجاليات وشجب مَنْ يحاولون بث الفرقة[46].

لكن سرعان ما تقوضت الوحدة الثورية في كل من سالونيك وسميرنا بفعل الولاءات القومية. سُمِح في العام 1908 بفتح أندية قومية مختلفة. وسرعان ما أُفسح الهتاف «تحيا الحرية!» المجال لهتافات مثل «تحيا ألبانيا!» أو أيا كانت أمة مَنْ يهتف هذه أو تلك[47]. كما صوّت الناخبون في انتخابات البرلمان في كتل قومية، وإن لم يفعل جميعهم ذلك. وأكدت مظاهرة يونانية ضخمة ضمت ثلاثين ألف

متظاهر أن سميرنا نالت الحق في انتخاب نائبين يونانيين. وفي خريف العام 1908 كان كل نواب سميرنا موالين لجمعية الاتحاد والترقي، وهم تركيان ويونانيان وأرمني واحد ويهودي واحد[48].

بعد الثورة جاءت الإضرابات. غدت سالونيك مركزا للاشتراكية واجتماعات العمال[49]. صدرت صحيفة تدعى «لا سوليداريداد أوفراديرا» La Solidaridad Ovradera (تضامن العمال) وبدأ تكوين النقابات[50]. كانت الإضرابات في سميرنا من جانب عمال الشحن والحمّالين، وفي سالونيك من جانب عمال مصانع ألاطيني، تنتهي بشروط سخية للعمال[51]. بيد أن اليونانيين والإيطاليين في سميرنا كانوا أكثر تطرفا من المسلمين في مطالبهم المتعلقة بالأجور. وبحلول شهر أكتوبر وافق عمال السكة الحديد المضربون على شروط الإدارة بعد ضغوط من القنصل الفرنسي (كانت مِلكية سكة حديد أيدين في ذلك الوقت فرنسية) وجمعية الاتحاد والترقي، وهي تقليص يوم العمل من عشر ساعات ونصف الساعة إلى عشر ساعات، بدلا من ثماني ساعات كما أرادوا[52]. إذ كان منفذو الإضرابات في المشرق أكثر انبطاحا من أقرانهم في المدن الغربية. ففي المقابل، أدت الإضرابات في فرنسا إلى مواجهات مع الجيش وإطلاق النار، وفي ليفربول أدى إضراب عمال النقل في العام 1911 إلى إدخال السفن الحربية إلى نهر المرزي(*).

ظلت سميرنا موالية لجمعية الاتحاد والترقي. من ذلك أن متظاهرين حملوا في العام 1912 صناديق تحوي بطاقات التصويت إلى البلدية وهم يهتفون «يحيا العثمانيون! تحيا جمعية الاتحاد والترقي!»[53]. كانت أخت «الكافر» رفيق نجية هانم Naciye Hanim من عائلة كاتب زاده، مدفوعة بمناخ الحرية التالي للعام 1908، أول امرأة مسلمة في سميرنا تكتب عن قضايا المرأة. وبسبب اقتناعها بأن «مكانة المرأة في المجتمع هي المحك إلى درجة تطوره»، تذمرت نجية من أن نساء سميرنا كن متخلفات عن أخواتهن في سالونيك والقسطنطينية[54].

(*) نهر المرزي Mersey، نهر في شمال غرب إنجلترا يمتد لمسافة 112 كيلومترا من ستكوبورت إلى ليفربول على البحر الآيرلندي. [المترجم].

كان عُشاقي زاده معمر بيه، ابن عم خالد ضياء، رئيس بلدية تحديثيا ملتزما بترسيخ علاقات جيدة بين الجاليات. كان عُشاقي زاده ابن رجل الأعمال التركي الأبرز بالمدينة، وهو تاجر السجاد الغني حاجي علي Haci Ali (فاز بوسام ذهبي في معرض باريس للعام 1867)، وكان عُشاقي زاده عضوا بالنادي الرياضي، ولذلك استعان بمستخدمين من كل الجاليات، وكان أول عضو تركي في بورصة التبغ بنيويورك وبورصة القطن بنيو أورلينز. وعلى نحو استثنائي أيضا، تعامل مع أبنائه وبناته على قدم المساواة. فأرسل ابنته لطيفة التي ولدت في العام 1899 إلى المدرسة، وكانت - مثل أبيها - تعرف الإنجليزية والفرنسية[55](*).

في هذه السنوات، بدت سميرنا بتعبير الصحيفة اليهودية لابوث ديل بيبلو: «مدينة تجارية كبرى ينتظرها مستقبل رائع». وكتبت صحيفة لوكورييه دي سميرن: «إن النظر إلى سميرنا من بعيد يدخل الفرحة إلى قلبك، ذلك لأننا جميعا سميرنيون من داخلنا». كانت البلدية الرئيسة بالمدينة يديرها مجلس يتكون من ستة أتراك وأربعة يونانيين ويهودي واحد وأرمني واحد[56]. وكان مسرح سميرنا الفخم الذي افتتح في العام 1911 يحوي «أجهزة عديدة مستوردة من فيينا يمكنها أن تعيد إنتاج أصوات المطر والرياح والرعد» وإضاءة متعددة الألوان[57]. وبحلول العام 1914 كانت سميرنا تضم ثلاثة وخمسين جامعا وثلاثة وخمسين مسجدا وخمسا وثلاثين كنيسة وسبعة عشر معبدا. ومن بين مدارسها، كانت إحدى عشرة تركية، وإحدى عشرة أجنبية، واثنتا عشرة أرمنية، وتسع عشرة يهودية، و - بما يشي بهيمنتهم - ست وسبعون يونانية، إضافة إلى ثلاث كليات يونانية لإعداد المدرسين[58]. وفي سنواتها الأخيرة كمدينة كوزموبوليتانية، كانت أعداد كبيرة من اليهود قد بدأت في الإقامة والعمل في الأحياء المسيحية وارتياد المدارس المسيحية[59]. وفي العام 1910 فُتِح أول محل يهودي باسم غران بازار دي أورينت Gran Bazar de Oryente (سوق الشرق الكبير) في الشارع

(*) معمر بيه عشاقي زاده Usakizade Muammar Bey، هو نفسه معمر أوشاكليغيل الذي ستتزوج ابنته لطيفة هانم من مصطفى كمال في العام 1923، علما بأن أتاتورك، وبغرض فرض الوحدة على الشعب وإحداث قطيعة مع الخلفيات العرقية أو الثقافية المتباينة لشعبه، استخدم القانون لفرض أسماء تركية خالصة للعائلات، فتحول اسم عائلة عشاقي زاده إلى أوشاكليغل Usakligil، وتحول اسم عائلة الشريف المنحدرة من أشراف مكة إلى طرغان Targan الذي يعني الشريف أيضا. [المترجم].

الفرنجي[60]. وكان مما أثار رعب الحبر الأكبر أن الفتيات اليهوديات بدأن يخرجن في الليل، حتى في يوم السبت[61].

ظلت جمعية الاتحاد والترقي تضم أعضاء يونانيين وأرمنا ويهودا. وظل في مقدور حاكم جديد، كان في زيارة إلى رئيس الأساقفة، أن يعلن أن «اليونانيين والأتراك أبناء وطن واحد». كان اليونانيون الذين تعود جذورهم إلى قبادوقيا(*)، التي كانوا فيها بعيدين عن اليونان وأقرب إلى وضعية الأقلية وإلى تحدث اللغة التركية، في أغلبيتهم عثمانيين في وجدانهم أكثر من السميرنيين[62]. كان من هؤلاء أريستيديس جورجانتزوغلو باشا Aristides Georgantzoglou Pasha المولود في قبادوقيا في العام 1850، الذي عمل في سميرنا موظفا حكوميا ووكيلا للنائب العام بين العامين 1877 و1894، واشتهر بكفاءته ونزاهته. وفي العام 1908 أصبح أحد النائبين اليونانيين لسميرنا. وقد أثبتت حياته المهنية ولاءه للإمبراطورية[63].

انتخب النائب اليوناني الآخر عن سميرنا، وهو كاروليدي أفندي Karolidi Effendi، للبرلمان العثماني على رغم حمله جنسية الدولة اليونانية وعمله أستاذا للتاريخ بجامعة أثينا. وبفضل تحدثه اللغة التركية إلى جانب اليونانية، أراد كاروليدي أن يبيّن أنه يستطيع أن يكون عثمانيا جيدا وفي الوقت عينه ممثلا لما أسماه «سميرنا الهيلينية والنزعة الهيلينية والعقل والعلم الهيلينيين والمصلحة القومية الهيلينية». وفي البرلمان العثماني اعترض كاروليدي أفندي على قانون الجمعيات الذي أريد به وضع كل المنظمات القومية والدينية تحت الإشراف الحكومي، وقال في ذلك: «لا يمكنني أن أكون عثمانيا جيدا من دون أن أكون يونانيا جيدا. ولا أستطيع أن أحب المسلمين من دون أن أكون مسيحيا جيدا»[64].

تمنى البعض أن تتعايش القوميات المختلفة ضمن الإمبراطورية العثمانية في سلام مثلما كانت الحال في إمبراطورية النمسا - المجر التي كانت تُذكَر كثيرا بوصفها نموذجا في رسائل القادة، على رغم أن مرارة النزاعات في هذه الإمبراطورية لم تكن تبعث على الطمأنينة[65]. زار السلطان محمد الخامس - وبرفقته أنور باشا -

---

(*) قبادوقيا أو كبادوكيا Cappadocia، منطقة تاريخية في الأناضول الأوسط تتطابق تقريبا مع المحافظات التركية نوشهر Nevsehir وقيصرية Kayseri وآق سراي Aksaray ونيغدة Nigde. [المترجم].

سالونيك في يونيو 1911، على نحو ما فعل أبوه في العام 1859. وقيل إنه لم يرجع من هذه الزيارة بمفاتيح مدينة مفتوحة، بل بقلوب رعاياه. وقد احتفل يونانيو سالونيك بوصوله ببناء قوس نصر على الطريقة العثمانية[66].

غير أن المدينة استفاقت على خيبة الأمل بسبب سياسة النظام الجديد المتمثلة في العثمنة Ottomanization وإغلاق الأندية والمنظمات القومية في أغسطس 1909. وكما حدث قبل العام 1908، بدأ السيلانيكيون يشعرون مجددا بأنهم «يجلسون على برميل بارود... والشرر يتطاير من الفتيل الموجود على جانبه». وفي التلال خارج المدينة، عادت عصابات قطاع الطرق إلى النشاط[67]. وفي حين مارس السلطان عبدالحميد سياسة فرق تسد، وحّدت تركيا الفتاة كل القوميات ضدها. وفي العام 1912 شرعت الحكومة العثمانية في محاولة فرض منهج مدرسي موحد، شكّل تهديدا لصميم تقدير الذات اليوناني، وهو التعليم الكلاسيكي. قال جاويد بيه، أحد نواب سالونيك في البرلمان، إن الدولة «يجب أن تسيطر على الأفكار التي تخترق المدارس، وإلا فإن الدستور والوحدة العثمانية سيكونان مستحيلين على أرض الواقع»[68]. وحتى الألبان أنفسهم انقلبوا على الإمبراطورية وبدأوا في مهاجمة المدن غير الألبانية مثل أوسكوب (تُعرَف حاليا باسم سكوبيه(*))[69].

***

بدأت نهاية المشرق مع اندلاع الحرب في البلقان، عندما توحدت بلغاريا وصربيا والجبل الأسود واليونان بتحريض من الدبيلوماسيين الروس لمهاجمة الإمبراطورية في 8 أكتوبر 1912. كان الأسطول اليوناني قد حصل قبل عام على طرّاد عشرة آلاف طن بثلاث مداخن صُنع في ليفورنو، كانت الإمبراطورية العثمانية تريده، لكنها لم تتمكن من تحمل ثمنه. اشتُري الطرّاد للأسطول اليوناني بتبرع من ممتلكات جورج أفيروف، رئيس الجالية اليونانية بالإسكندرية في الأعوام 1885 - 1899[70](**). وفي خريف 1912 تمكن الطرّاد أفيروف - كما سُمي - من إغراق سفن عثمانية وتحرير خيوس

(*) سكوبيه Skopje (أو أوسكوب Uskub سابقا)، عاصمة جمهورية مقدونيا. [المترجم].

(**) أيضا بتبرع من اليوناني السكندري جورج أفيروف George Averoff- إلى جانب تركة إيفانجليس زاباس Evangelis Zappas وابن عمه قسطنطينوس زاباس Constantinos Zappas - جرى تجديد استاد باناثينيكو الذي لُعِبت فيه أول دورة ألعاب أوليمبية في العام 1896. [المترجم].

وإيقاف نقل الجنود العثمانيين عبر بحر إيجة إلى البلقان. فقد كانت الإسكندرية - بمعنى من المعاني - تموّل التوسع اليوناني[71].

وبمساعدة بعض عصابات قطاع الطرق التي جعلت مقدونيا تعيش حالة من الرعب قبل العام 1908، قاتلت الجيوش البلقانية أفضل مما كان متوقعا، وقاتل الجيش العثماني أسوأ مما كان في مقدوره، ربما بسبب الترقيات غير المستحقة لضباط من غير ذوي الخبرة ممن كانوا يؤيدون جمعية الاتحاد والترقي. كشفت القوى العظمى – باستثناء ألمانيا – عن نواياها. إذ أعلنوا معارضتهم لأي تغييرات للحدود لمصلحة الإمبراطورية العثمانية في حال انتصارها، لكن تلك القوى لم تعارض التغييرات لمصلحة الدول البلقانية عندما هُزِمت الإمبراطورية العثمانية. وظهر الأسطول اليوناني قبالة سالونيك. وأرسلت القوى العظمى بوارجها، تحت ذريعة ضمان النظام، وفي الحقيقة لحماية مواطنيها.

وبغرض حماية سالونيك وسكانها وضمان الانتقال السلمي من الحكم العثماني إلى الحكم اليوناني، أخذ المجلس البلدي والقناصل الأجانب زمام المبادرة، إذ قرروا مع الحاكم العثماني أن تبقى الشرطة والدرك العثمانيان في المدينة. وفي الخامس من نوفمبر طُلِب من القائد العثماني ألا يقاتل بالقرب من سالونيك، وفي السابع من نوفمبر ذهب القناصل الأجانب إلى مقر قيادة الجيش اليوناني للتفاوض على دخول الجيش اليوناني إلى المدينة. جرت المفاوضات باللغة الفرنسية. وبغرض تجنب ما أسماه «إراقة دماء غير ضرورية»، وافق القائد العثماني حسن تحسين باشا على طلب القناصل بعدم الدفاع عن سالونيك، علاوة على أنه كان يعرف أن الجيش اليوناني أقوى من جيشه[72].

وفي الثامن من نوفمبر طوّقت القوات اليونانية والبلغارية سالونيك. وقرر حسن تحسين باشا الاستسلام لليونانيين، جزئيا لمنع البلغاريين من دخول صولون Solon، كما كان البلغاريون يسمون المدينة التي كان بعضهم يعتبرها بلغارية عن حق. فكما كانت الحال في حروب قطاع الطرق قبل العام 1908، كان اليونانيون والأتراك يفضل بعضهم بعضا على البلغاريين. جرى الاستسلام «بطريقة هادئة وودية». وفي التاسع من نوفمبر، وصلت القوات اليونانية إلى ضواحي سالونيك. وسلمت القوات العثمانية بنادقها، ودخل ستة وعشرون ألف جندي عثماني في الأسر[73].

وفي العاشر من نوفمبر، وبقيادة ولي العهد الأمير قسطنطين، دخلت القوات اليونانية المدينة. غنى اليونانيون نشيدهم الوطني في حالة من النشوة، وتعالت الصيحات «المسيح بُعِث!»، كأنهم في عيد الفصح، وأخذوا يدوسون على الطرابيش التي كانوا قبل أيام يضعونها فوق رؤوسهم. وغطت الأعلام اليونانية الزرقاء والبيضاء الشوارع[74]. وفي قداس الشكر، صاح رئيس الأساقفة «المجد للأحفاد المتألقين لمقاتلي ماراثون وسلاميس(*)، للمحررين البواسل لوطننا الحبيب! ... يجب أن تنير الأشعة الذهبية للحرية كل أركان الأمة التي لم تحرر بعد»، وهو يقصد بذلك القسطنطينية وسميرنا وما بعدهما. طُبِعت الصحف اليونانية باللون الأزرق(**)، واخْتُتِمت المقالات بالدعوة: «إلى المدينة! إلى القسطنطينية»[75].

حدث الانتصار اليوناني بسهولة غير متوقعة جرأت إلفثيريوس فينيزيلوس على التخطيط في اجتماعات في لندن مع لويد جورج وتشرشل (اللذين كانا في ذلك الوقت عضوين بحكومة حزب الأحرار) والقنصل العام اليوناني في لندن والمموّل السخي لحزب الأحرار الإنجليزي سير جون استافريدي John Stavridi، لتحالف إنجليزي - يوناني وتصفية الإمبراطورية العثمانية، على فرض أنها مسألة أشهر فقط [76]. كان من رأي لويد جورج أن اليونانيين هم «شعب المستقبل في شرق البحر الأبيض المتوسط» وحليف ثمين للإمبراطورية البريطانية. وحين دخل الجيش اليوناني سالونيك، شرب لويد جورج نخب طرد

(*) معركة ماراثون battle of Marathon معركة وقعت في العام 490 قبل الميلاد خلال الغزو الفارسي الأول لبلاد اليونان، وكانت نقطة الذروة في المحاولة الفارسية الأولى بقيادة الملك داريوس الأول لإخضاع اليونان، وكانت أيضا نقطة التحول في هذه الحروب، إذ تمكن جيش أثينا بمساعدة مدينة بالاتيا Palataea من هزيمة الفرس الأكثر عددا. ومن اسم هذه المعركة استمد اسم سباقات الجري، إذ تقول أسطورة إن عداء يونانيا يدعى فيديبيديس Pheidippides أرسل من أثينا إلى أسبرطة لطلب المساعدة وإنه قطع أكثر من 225 كيلومترا ليصل في اليوم التالي، وتقول أسطورة أخرى إن الجيش الأثيني زحف من سهل ماراثون إلى أثينا بسرعة كبيرة قاطعا 40 كيلومترا على رغم كمية الدروع وإجهاد المعارك بغرض إيقاف قوة بحرية فارسية، وحين وصلوا رحلت السفن الفارسية، ما عُدّ إعلانا للنصر. ولاحقا جُمعت الأسطورتان معا في نسخة غير موثوق بها للأحداث تقول إن فيديبيديس جرى من ماراثون إلى أثينا لإعلان النصر، ليموت وهو يقول «لقد انتصرنا». [المترجم].

وقعت معركة سلاميس Battle of Salamis في المضيق بين اليابسة وجزيرة سلاميس الواقعة في الخليج الساروني والقريبة من أثينا، في العام 480 قبل الميلاد، بين تحالف من الدول المدينية اليونانية والإمبراطورية الفارسية، كانت نقطة التحول في الغزو الفارسي الثاني لبلاد اليونان، إذ انتصر فيها الأسطول اليوناني بعد أن هُزم في معركة تيرموبيل Thermopyle ومعركة أرتميزيوم Artemisium. [المترجم].

(**) بلون العلم اليوناني. [المترجم].

الإمبراطورية العثمانية من أوروبا، ومن ضمن ذلك القسطنطينية. كان لويد يكن تبجيلا قاتلا لفينيزيلوس الرفيق الليبرالي الذي كان يعتبره أعظم رجل دولة يوناني منذ بيريكليس[77](*).

***

كانت سالونيك أول مدينة كبرى تُنْزَع عنها مشرقيتها. وعلى غرار ما حدث مع الكثير من الجوامع الأخرى، أعيد ضريح غاليريوس في العام 1912 كنيسة مرة أخرى، وهو الذي أُنشئ في البداية باعتباره معبدا رومانيا ثم تحول إلى كنيسة ومنها بعد العام 1430 إلى جامع[78](**). ومنذ ذلك الحين أصبح لزاما أن تكتب لافتات الدكاكين والشوارع باللغة اليونانية. وكان من يُسمَع في الشارع وهو يتحدث اللغة الفرنسية يتعرض أحيانا للاعتداء عقابا على فعلته، وفي القسطنطينية نفسها سعى الديبلوماسيون اليونانيون منذ العام 1908 إلى إقناع اليونانيين المحليين بترك المدارس الفرنسية والتوقف عن تحدث اللغة الفرنسية وكتابة لافتات محلاتهم باليونانية[79].

أدى اغتيال الملك جورج عاهل اليونان وهو يسير في سالونيك في الثالث عشر من مارس 1913 إلى «أعمال انتقامية» ضد المسلمين واليهود، في معظمها من جانب أفراد الشرطة والجيش اليونانيين، أُزهِقت فيها الكثير من الأرواح. وبعد الهجوم على المدرسة البلغارية، اندلع قتال بين الجنود اليونانيين والبلغاريين في الأول من يونيو 1913، وفرّ البلغاريون من المدينة. ومع أن اليهود احتفظوا ببعض الامتيازات، مثل الاستثناء من الخدمة العسكرية والحق في إمساك دفاتر الحسابات باللغة الإسبانية، فقد كان «التحرر» اليوناني بالنسبة إليهم أسوأ كثيرا من الحكم العثماني. فغادر الكثيرون منهم إلى فرنسا، منهم حاييم ناخوم Haim Nahoum والد عالم الاجتماع إدغار موران Edgar Morin. وحيث إن حاييم كان يتحدث اللغة الفرنسية ويشعر بـ«ارتباط وثيق بباريس»، فسرعان ما شعر بأنه في بلده[80]. وخلال سنة واحدة،

(*) بيريكليس Pericles خطيب وجنرال أثيني إبان العصر الذهبي اليوناني، بين الحروب الفارسية والبيلوبونيزية، يعد من أبرز رجال الدولة اليونانيين وأشدهم تأثيرا. [المترجم].

(**) إبان القرن الرابع، كلف الإمبراطور الروماني غاليريوس ببناء قوس غاليريوس Arch of Galerius والمبنى الدائري Rotunda (ضريح غاليريوس Galerius Mausoleum) كجزء من قصره في سالونيك، استخدم المبنى الدائري الشبيه بالبانثيون الروماني في البداية معبدا وثنيا، ومع اعتماد المسيحية تحوّل إلى كنيسة أغيوس غورغيوس Agios Georgios أو كنيسة الروتندا Rotunda. [المترجم].

تغيرت التركيبة السكانية كثيرا. تكشف الإحصاءات اليونانية للعام 1913 عن مدينة تضم مائة وسبعة وخمسين ألفا وثمانمائة وتسعة وثمانين ساكنا، تسعة وثلاثون في المائة منهم يهود، وتسعة وعشرون في المائة مسلمون، وخمسة وعشرون في المائة يونانيون، وأربعة في المائة بلغاريون، وثلاثة في المائة متنوعون. بينما كانت النسب الثلاث الأول في العام 1905 اثنين وأربعين في المائة وأربعة وعشرين في المائة وتسعة وعشرين في المائة على التوالي[81](*).

وحدهم اليهود الذين أيدوا اقتراحات بريطانية ونمساوية بأن تكون سالونيك والمنطقة المحيطة بها مدينة أو محافظة ذات حكم ذاتي على غرار طنجة أو جبل لبنان، تحميها ضمانات دولية وقوة درك دولية (كما كانت الحال في مقدونيا منذ العام 1903). كان من بين هؤلاء جوزيف نيخاميا Joseph Nehamia، مؤلف كتاب «سالونيك المدينة المتنافَس عليها» Salonique la ville convoitee، الذي كان من رأيه أن سالونيك يجب أن تكون بندقية جديدة، أي تلك «العتبة لأوروبا الوسطى» وذلك الميناء العظيم بين ألمانيا والسويس. لكن قليلين جدا هم من خرجوا من جلدهم القومي لمراعاة حقوق الآخرين أو لوضع مدينتهم قبل أي شيء آخر[82].

كان زمن الدولة - المدينة قد ولى وانقضى مع قضاء نابليون على استقلال البندقية في العام 1797 وجنوى وراغوزا في العام 1806(**). ولم تكن هناك أيديولوجيا قائمة على الولاء الحضري أو الكوزموبوليتانية تعكس الطابع الاقتصادي والثقافي لمدينة مختلطة. ولم يكن في مقدور الدين نفسه أن ينافس إغواء القومية الشديد. كانت جاذبية القومية تنبع من مشاعر الفخر والتضحية بالذات والتفوق الأخلاقي التي تمنحها لأتباعها، فضلا عن الحماية المادية التي يمكن أن توفرها القوات المسلحة للدولة القومية. وفي تريسته، فضل الإيطاليون الاتحاد مع إيطاليا على البقاء في الإمبراطورية النمساوية مع أن ازدهارهم كان يعتمد على الأخيرة. وفي سالونيك وسميرنا، كانت الحماسة القومية بين اليونانيين قد غدت أقوى من الإغراءات المادية للعيش ضمن الإمبراطورية العثمانية، أو لعلهم اعتقدوا أن تلك الإغراءات ستزيد

(*) ترجع الزيادة في عدد المسلمين- كما سيتضح بعد بضع فقرات - إلى توافد اللاجئين المسلمين على سالونيك من الريف ومن مقدونيا والجزر. [المترجم].

(**) راغوزا Ragusa أو جمهورية دوبروفنيك جمهورية بحرية مستقلة في دالماسيا شهدت أوجها تحت الحماية العثمانية إلى أن احتلها نابليون في العام 1808. [المترجم].

في إمبراطورية يونانية جديدة. وبحلول العام 1914، غدا المشرقيون لا يضعون الصفقات قبل الأيديولوجيا. إذ انتصرت الحماسة على غريزة حفظ الذات.

تراجعت سالونيك التي كانت في السابق دماغ تركيا وقلبها ومولّدها التجاري في أوروبا، إلى مرتبة المدينة الثانية ضمن اليونان، وقُطِعت عن منطقتها الداخلية السابقة في حدود ألبانيا وصربيا وبلغاريا. فرّ آلاف اللاجئين المسلمين المضطهدين من الإرهاب البلغاري في ريف سالونيك، وكذلك توافد على المدينة أحفاد المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام والأتراك. وانتقل الكثيرون منهم إلى القسطنطينية، من بينهم والدة مصطفى كمال. وتعد بعض أفضل المدارس في إسطنبول اليوم امتدادا لمدارس أُنشئت في سالونيك وانتقلت بأساتذتها وطلابها ومؤسساتها الخيرية في العام 1912 إلى إسطنبول. وكذلك خلفت صحيفة الجمهورية Cumhuriyet الإسطنبولية الشهيرة صحيفة روملي Rumeli السيلانيكية[83](*).

بمساعدة الحكومة اليونانية ولجنة سالونيك الإسلامية وخديو مصر الذي كانت لاتزال له - بصفته وريث محمد علي- ممتلكات قريبة في قوّلة، جرى نقل الكثير من المسلمين بحرا من سالونيك إلى سميرنا. وصل زهاء مائة وخمسين ألف لاجئ مسلم إلى ولاية أيدين وحدها في الأعوام من 1912 إلى 1914[84]. كان من بينهم ناشرو الصحيفة السيلانيكية يني آشير Yeni Asir («القرن الجديد») التي تصدر في إزمير إلى اليوم[85]. جرى إيواء الكثير من اللاجئين في مدارس سميرنا ومساجدها، ثم أُرسِلوا بعد ذلك للإقامة في مزارع قريبة[86]. وفي شتاء 1912-1913 القارس، كان ديديس بيه Deedes Bey الضابط الإنجليزي في الدرك العثماني ورئيس لجنة اللاجئين بسميرنا يتنقل في أنحاء المدينة وفي إثره نساء يستجدين بطاطين تقي أسرهم البرد. ولم يكن مع البيه ما يعطيه لهن، فكان يرد معظمهن خائبات[87]. بداية من مصطفى كمال نفسه، قدم اللاجئون البلقانيون- الذين يشكلون دليلا حيا على الجذور الأوروبية لتركيا - معظم الزخم لتحديث تركيا إبان القرن العشرين.

سممت الحروب البلقانية العلاقات بين الجماعات داخل الإمبراطورية العثمانية، ووقعت حرب ثانية في يونيو 1913 عندما اتحد جيران بلغاريا ضدها. اغتاظ الأتراك

(*) روملي أو روميليا كلمة تركية تعني أرض الروم (روم لي) كانت تشير إلى الولايات الأوروبية بالإمبراطورية العثمانية. [المترجم].

من هزيمتهم أمام الدول البلقانية التي كانوا يسمونها «قطعان الخنازير وقطاع الطرق». وكتبت صحيفة إسلامية: «الدم التركي حلال في نظر أوروبا». وكشفت موافقة القوى العظمى على توسع الدول البلقانية على حساب الإمبراطورية أن الدبلوماسية مجرد «قناع يخفي كل القذارة والنفاق والغش». وبتعبير الصحيفة اليهودية السميرنية الوطنية لابوث ديل بيبلو، كانت «العدالة الأوروبية كذبة ... ويتخفى خلف كل الكلام المنمق عن حقوق الإنسان نمور وذئاب»[88].

رأى البعض أن غزو الأمم التي لها أغلبية سكانية في أي مكان في «تركيا الأوروبية» لمناطق هذه الأغلبيات - ما عدا سالونيك - أو أن خسارة ولايات احتفظت فيها الإمبراطورية بمائة وثلاثين ألف جندي بتكلفة باهظة - بتعبير الكاتبة التركية العظيمة الأولى خالدة أديب - كان نعمة لا تراها العيون[89]. فعلى مدار عقود ظلت مقدونيا تستنزف الرجال والمال من الإمبراطورية العثمانية.

وغدا بعض العثمانيين على اقتناع بأن المسلمين وحدهم هم الذين يمكن أن يكونوا مخلصين للإمبراطورية. وفي يناير 1914، كتبت صحيفة جمعية الاتحاد والترقي في سميرنا أن اليونانيين خونة يمكن أن يموتوا جوعا لولا تجارة تركيا. ويجب على الأتراك من أجل إنقاذ «شرف زوجاتنا وبناتنا» ألا نتاجر مع اليونانيين الذين أثبتوا أنهم «أعداء ديننا وتاريخنا وشرفنا ووطننا، أي باختصار أعداء وجودنا المادي والروحي». وكان من رأي جلال بيار أن «إزمير الكافرة يجب أن تتحول إلى إزمير تركية»[90]. وكان مصطفى كمال، الرجل الذي سيغير سميرنا إلى الأبد، أكثر تشاؤما من ذلك. فلما نظر كمال إلى الكردون «الذي يغص بأبناء عرق يكن لنا عداوة شديدة» خشي أن سميرنا «يمكن أن تضيع من أيدي سكانها الأتراك المخلصين والشرفاء»[91].

وبالفعل، كان يونانيو سميرنا تحت الواجهة العثمانية الزائفة قوميين حتى النخاع. كانت جمعية من الأساتذة تدعى «الأناضول»، تأسست في أثينا في العام 1891، قد أنشأت كلية ومجلة ومدارس مكرسة «للصحوة القومية»[92]. وبحلول العام 1907، كان القوميون المموّلون من الحكومة الهيلينية في أثينا والتابعون لها تنظيميا، يسيطرون على منظمات الجالية اليونانية في سميرنا، على رغم وجود معارضة داخلية. وغدا القنصل العام الهيليني شخصية مهمة في الحياة اليونانية بالمدينة مثله مثل رئيس أساقفتها ووجهائها[93]. وعلى نحو ما فعلت عائلة بيناكي

السكندرية، انتقل بعض السميرنيين للإقامة في اليونان بأجسادهم، بعد أن كانوا يعيشون فيها بقلوبهم وعقولهم فقط. كان من هؤلاء جورج بالتازي ابن بيريكليس بالتازي Pericles Baltazzi الذي تلقى تعليمه في المدرسة الإنجيلية بسميرنا وأصبح لاحقا نائبا في البرلمان في أثينا وفيما بعد خدم في السفارة الهيلينية في القسطنطينية ووزيرا للخارجية(94).

عُيِّن القومي المتطرف خريسوستوموس Chrysostomos، الذي ساعد عصابات قطاع الطرق اليونانية بقوة حين كان أسقف ذراما في تراقيا(*)، رئيس أساقفة سميرنا. وصل خريسوستوموس في العاشر من مايو 1910 وكانت في استقباله أقواس النصر على الكردون وحشود تنثر عليه الورود ومقال صحافي يستدعي شهيد المدينة المسيحي الأشهر: «المجد! بوليكاربوس قادم إلينا! بولس الجديد قادم! سيرفع مجد جديد عرش بوليكاربوس ويخلّده إلى الأبد!»(95)(**). وفي السابع عشر من نوفمبر 1910، كتبت صحيفة أمالثيا أنها تتمنى أن تتطور الإمبراطورية العثمانية ليس إلى دولة تركيا، وإنما إلى «الإمبراطورية الرومانية الشرقية»، ذلك أن الجالية اليونانية كانت دائما «تعيش- ولاتزال- في هذه الإمبراطورية»، وتريدها «لها وحدها كاملة بلا نقصان ولا امتزاج». ولم يذكر أحدهم الحماية التي وفرتها الإمبراطورية العثمانية للبطريركية أو «الامتزاج» الاقتصادي والموسيقي في سميرنا(96).

كان الدكتور أبوستولوس بسالتوف Apostolos Psaltoff طبيبا بارزا في المدينة يعمل في المستشفيات اليونانية والأرمنية واليهودية والبريطانية مثل كثيرين غيره. لكنه على خلاف الآخرين تطوع للقتال في صفوف الجيش اليوناني ضد العثمانيين في العام 1897 وفي العام 1912، وبذلك كشف بأفعاله أنه عدو للإمبراطورية والمدينة

(*) ذراما Drama مدينة وعاصمة وحدة إقليمية بالاسم نفسه، تقع في شمال شرق اليونان وتشكل جزءا من منطقة شرق مقدونيا وتراقيا؛ تراقيا Thrace منطقة تاريخية وجغرافية في جنوب شرق أوروبا يحيطها من الشمال جبال البلقان وجبال رودوب وبحر إيجة من الجنوب والبحر الأسود وبحر مرمرة من الشرق، تتقاسمها حاليا دول بلغاريا واليونان وتركيا. [المترجم].

(**) بوليكاربوس Polycarp هو شهيد سميرنا المسيحي إبان القرن الثاني الميلادي، يذكر كتاب استشهاد بوليكاربوس Martyrdom of Polycarp أنه مات شهيدا، إذ كُبِّل إلى خازوق وأُحرِق، ثم طُعِن حين لم تمسه النار، يعد قديسا في الكنائس الكاثوليكية الرومانية والأرثوذكسية الشرقية والأرثوذكسية المشرقية والإنجيلية واللوثرية؛ ويعد بولس Paul أو بولس الطرطوسي أو بولس الرسول أو القديس بولس أحد أهم الشخصيات في عصر الرسل، أسس الكثير من الكنائس في آسيا الصغرى وأوروبا خلال رحلاته التي مر فيها بالأناضول. [المترجم].

الكوزموبوليتانيتين اللتين كان يعيش ويعمل فيهما. وكان أيضا عضوا في الفرع السميرني لمنظمة هيلينية قومية سرية أنشئت «لرفع الشعور القومي» بين السكان والدفاع عنه ضد حكومة تركيا الفتاة[97].

ساءت العلاقات بين القوميات لدرجة أن الحكومتين العثمانية واليونانية بدأتا في مايو ويونيو 1914، وهو ما أثار رعب النواب اليونانيين في البرلمان العثماني، في مناقشة «نقل السكان» بمعنى التبادل القسري للسكان بغرض تحقيق التجانس السكاني في البلدين. لم تراعَ رغبات السكان المعنيين. وبدأ بعض اللاجئين المسلمين من جزيرة كريت أو البلقان وأعضاء «التنظيم الخاص» في حركة تركيا الفتاة في إرهاب المسيحيين وقتلهم، ليس في سميرنا نفسها، وإنما في بلدات صغيرة مثل شكي Soke وسوديكوي Sevdiyekoy وجشمه وفوكا، وحتى على الجزيرة الطويلة في خليج سميرنا[98]. وفي يونيو 1914، تنبأ رئيس الأساقفة خريسوستوموس بوقوع مذبحة عامة بحق الترجمانات القادمين في زيارة من سفارات القسطنطينية. قامت الحكومة العثمانية المتهمة بتشجيع اليونانيين على الهجرة، على رغم أنها كانت لاتزال ملتزمة نظريا بالتعايش بين القوميات، بطرد رئيس الأساقفة في العشرين من أغسطس 1914. ومنعت - للمرة الأولى- الاحتفالات بعيد ملك الهيلينيين، وكذلك الألعاب البانيونية. وأغلق البطريرك المدارس والكنائس اليونانية احتجاجا على السياسة الحكومية[99].

كان الازدهار ينمو بالتزامن مع النزعة القومية التي قُدِّر لها أن تدمره. لاتزال قصور التجار المشرقيين في بوكا وبورنوفا، التي يُتخَذ الكثير منها حاليا مدارس أو بنايات للجامعات، ماثلة كدليل على ثراء سميرنا في آخر سنواتها المشرقية، وكدليل أيضا على تمتع بُناتها بامتيازات مالية وقانونية بموجب الامتيازات الأجنبية. يشمل القصر الذي بناه في بوكا مالك السفن ومؤسس شركة مصر والمشرق للنقل البحري Egypt & Levant Steamship Company تومي ريز Tommy Rees، خمس عشرة غرفة نوم وقاعة رقص وغرفة بلياردو وغرفة تدخين. أما قصر فوربس الأكبر من قصر ريز، والكائن فوق قمة تل قريب، والذي يعاني حاليا الإهمال في وسط بنايات مستشفى الضمان الاجتماعي ببوكا، فيحظى بإطلالة آسرة على المدينة والبحر. وفوق أحد الأبواب في الواجهة المُعَمَّدة الرائعة

لايزال يوجد نقش نصه: «شُيّد في العام 1908، واحترق في العام 1909، وأعيد بناؤه في العام 1910».

جاء في مذكرات واحدة من أفراد عائلة ويتال أن عائلتها كانت أشبه «بأمة منها بعائلة ... إذ كانوا في تركيا أمراء بحكم شخوصهم وثرائهم وسلطتهم، وكانت غطرستهم لا حدود لها». كان مائة فرد من العائلة يجلسون على عشاء عيد الميلاد في «البيت الكبير» في بورنوفا الذي استضاف فيه شارلتون ويتال السلطان عبدالعزيز ذات مرة[100]. كان المشرقيون يجيدون الأكل. وفي وجبات العشاء في سميرنا، كانت «الموائد المزخرفة بسخاء تُزيّن بالورد والليلج، ولا بد أن الأطباق التي لا تحصى كانت ترهق البطون القنوعة والمرهفة»[101].

تطلع كتيب نُشِر في العام 1912، إحياء للذكرى المئوية لشركة ويتال وشركاه C. Whittall & Co. التي استخدمت الموقع نفسه على رصيف ميناء سميرنا لمدة مائة عام، إلى مستقبل زاهر. أشاد الكتيب بـ«النمو الرائع في الواردات والصادرات. ولاتنفك الحكومة الدستورية تشجع التجارة والصناعة، ويقدم عدد المصانع الجديدة التي تُبنى دليلا قاطعا على الثقة في المستقبل ... فسميرنا هي العاصمة التجارية للإمبراطورية العثمانية». كانت الشركة فخورة جدا بالمكائن الجديدة التي تنتج خمسين طنا من الزبيب المعقم في اليوم وبمخطط تقاسم الأرباح مع الموظفين[102].

كان نجاح رجال الأعمال في جعل سميرنا عاصمة السجاد في العالم أمارة أخرى على ثقتهم في مستقبل المدينة، مع العلم أن منتَجا لم يوحّد بين الشرق والغرب كما وحّدهما السجاد، كما تدلل على ذلك الأهمية الكبيرة للسجاد في اللوحات الأوروبية بعد العام 1400. وبعد العام 1880، أصبح السجاد موضة رائجة في الغرب[103]. وفي العام 1907، أسس مجموعة من رجال أعمال سميرنا - من العائلات عينها التي كانت القوة الدافعة وراء بناء الكردون - شركة النساجون الشرقيون Oriental Carpet Manufacturers التي عُرِفت سريعا بالاسم المختصر أو سي إم OCM. كان من بين الشركاء في هذه الشركة ألبيرتو أليوتي Alberto Aliotti وهيرمان ونيلسون داندريا Herman and Nelson d'Andria الذين جاءت عائلاتهم من خيوس بعد مذبحة العام 1822، وبعض المشرقيين البريطانيين مثل جيمس بيكر James Baker وسيدني لافونتين Sydney La Fontaine وهارولد جيرو Harold Giraud، وكذلك الأرمني

تاكفور إسبارتالي Takvor Spartali صاحب أكبر شركة لصنع السجاد في تركيا، التي كانت تمتلك أكثر من ألف نول في الأناضول - شركة إسبارتالي- والذي تزوجت ابنته من ألبيرتو أليوتي.

أنشئت شركة النساجون الشرقيون لتحسين جودة السجاد وتصاميمه والحد من المنافسة المحلية وتوصيل السجاد الشرقي إلى المشترين الغربيين بكميات كبيرة. غير أن الشركاء كانوا في حقيقة الأمر يسعون إلى إقصاء تجار السجاد الأتراك الذين كانوا في السابق يسيطرون على تلك الصناعة مثل عائلة أوشاكليغيل Usakligil التي كانت في السابق تستخدم آلاف الأنوال في الأناضول. غضبت عائلة أوشاكليغيل من إقصائها وغيّرت نشاطها إلى النقل، وسرعان ما امتلكت عددا كبيرا من العير مكّنها من خفض أسعار النقل عن أسعار الخط الحديدي سميرنا - أيدين. وحين كان آخر جِمال قافلتهم يغادر أيدين، كان يقال إن أول الجِمال يدخل سميرنا في اللحظة نفسها[104].

وبحلول العام 1914، كانت شركة النساجون الشرقيون أكبر شركة في الإمبراطورية العثمانية بعد شركات السكك الحديد، وكانت توظف صناع السجاد في أنحاء البلاد كافة (كانوا عادة من المسيحيين وليس المسلمين، لأن المسيحيين كانوا أكثر استعدادا من المسلمين للسماح للمشترين وعمال ضبط الجودة بدخول بيوتهم(*). وفتحت الشركة منافذ توزيع في القسطنطينية والإسكندرية وموسكو وفيينا وباريس ولندن وبوينس آيرس وسيدني. وسيطرت الشركة على تسعين في المائة من صادرات السجاد التركية، وكذلك ثلث ناتج السجاد في بلاد فارس. وكان في مقدورها أن توفر كلا من «الأصباغ البسيطة الجريئة» لبلاد فارس و«الألوان الهادئة لسميرنا»[105]. كما أسس رجال أعمال بسميرنا كارتلات مماثلة للشحن البحري والتين(**)، مثل شركة سميرنا لملاك الصنادل والسفن Smyrna Lightermen's and Barge Owners' Company في أوائل العقد الأول من القرن العشرين، وشركة سميرنا لمعبئي التين Smyrna Fig Packers Ltd في العام 1910[106].

(*) كانت الأنوال في ذلك الوقت، وحتى الآن وإن كان على نطاق ضيق، جزءا من الحياة المنزلية، تقوم به الأسرة كلها، خصوصا النساء، كما هي الحال مع أشغال النسج والتطريز الأخرى. [المترجم].

(**) الكارتل Cartel اتحاد بين المنتجين للحد من المنافسة فيما بينهم. [المترجم].

غير أن الهيمنة الاقتصادية للأجانب على المدينة لم تمر بلا تحديات. إذ كان ممثل جمعية الاتحاد والترقي في سميرنا جلال بيار يساعد رجال الأعمال الأتراك في تأسيس شركاتهم وبنوكهم المحلية[107]. وعلى أي حال، فقد غدا المشرقيون الذين كانوا في السابق قانعين بهوية مائعة، وحتى أشدهم كوزموبوليتانية، مصممين على استخدام جذورهم البريطانية أو الإيطالية أو الفرنسية أو النمساوية أو اختراعها حتى، للحصول على جواز سفر أوروبي. كان كل ما يبغونه من وراء ذلك هو ألا يكونوا من حاملي الجنسية العثمانية حتى لا يقعوا تحت رحمة الحكومة العثمانية[108](*).

كان التوليف المشرقي الذي قامت عليه سميرنا يتصدع. وبدأ بعض رجال الأعمال المشرقيين في التطلع إلى ما أسماه أوسكار فان لينيب Oscar van Lennep، أحد أفراد عائلة هولندية أقامت في المدينة منذ العام 1731، «التصفية الطبيعية للمسألة الشرقية»، بمعنى السيطرة الأوروبية على المنطقة[109].

***

كانت بيروت بعد العام 1908 مدينة على حافة الهاوية هي الأخرى. ومثلما كانت دمشق وبيروت دوما على طرفي النقيض، ظلت دمشق موالية للسلطان عبدالحميد، بينما رحبت بيروت بثورة تركيا الفتاة. لجأ حاكم بيروت إلى القنصلية البريطانية ثم هرب. رأت بيروت، مثل سميرنا وسالونيك، أنها على أبواب عصر جديد. ومع ذلك فقد ظلت المدينة تضم موالين للعثمانيين. من أمارات ذلك أنه بعد أن ضمت النمسا ولاية البوسنة العثمانية السابقة في أكتوبر 1908، حاولت حشود غاضبة أن تمنع سفينة نمساوية كانت تفرغ حمولتها، وتوجهوا إلى السراي للتطوع في حال اندلعت الحرب[110].

غير أن علامات الكراهية بين العزب والأتراك، وكذلك بين المسلمين والمسيحيين، كانت قد بدأت في الظهور على السطح. لم تولد القومية العربية الحديثة في دمشق أو بغداد، وإنما في بيروت[111]. وفي العام 1880، وهو وقت مبكر، تحدثت مصادر بريطانية عن «الكراهية العميقة» بين الأتراك والعرب، ورغبة العرب في استعادة الخلافة من القسطنطينية إلى أشراف مكة. وعُلّقت بضعة ملصقات في شوارع بيروت

(*) لأن حصولهم على الجنسية العثمانية يعني عدم تمتعهم بالامتيازات الأجنبية. [المترجم].

تشجب «استعباد» العرب «على أيدي الأتراك المنحطين» وتعلن رفضها للكراهية بين المسيحيين والمسلمين وتدعو إلى الثورة[112]. فكما كانت الحال في سميرنا بين اليونانيين والأتراك، كان التوليف المشرقي يتصدع في بيروت.

كانت اللغة أساسية للصراع. ومنذ إعلان الدستور العثماني في العام 1876، أصبحت اللغة التركية اللغة الرسمية للحكومة والبرلمان، ونظريا للمدارس الحكومية كذلك، مع أن قليلين جدا من غير الأتراك كانوا يجيدون تحدثها. أرادت حكومات تركيا الفتاة أن تعيد فرض استخدام اللغة التركية في المحاكم والمدارس التي كان مسموحا فيها منذ وقت طويل باستخدام اللغة العربية في الولايات العربية[113]. وكما هي الحال في بلجيكا الحديثة، أصبحت اللغة طليعة النزاع بين شعبين تعايشا طويلا ضمن الدولة نفسها. وفي العام 1910، وقعت احتجاجات بسبب فرض اللغة التركية وتعيين مسؤولين لا يعرفون اللغة العربية. وبلغ الذعر بالمسؤولين العثمانيين مبلغا كبيرا حتى أنهم طلبوا أن يأتي أسطول عثماني إلى بيروت.

***

تبيّن مذكرات الوجيه المسلم سليم سلام كيف كان أحد البيروتيين ممزقا بين القسطنطينية وباريس. ولد سليم في العام 1860، وتعلم اللغة الفرنسية، وارتاد كلا من المدارس المسيحية والإسلامية، وتزوج سيدة من عائلة بربير المسلمة. وكذلك تلقت أخواته تعليمهن في المدرسة السورية - البريطانية للفتيات، وأرسل سليم أبناءه إلى الكلية البروتستانتية السورية وأرسل أحدهم إلى إنجلترا لدراسة الزراعة، وكان ابن أخته عمر الأنسي واحدا من أوائل الرسامين الحديثين ببيروت. وكان المدرسون المسيحيون يأتون إلى بيته لتعليم اللغة الفرنسية والعربية لأبنائه وابنته عنبرة Anbara. كان سليم رجلا مرموقا في المدينة وتاجرا له مكتب في الميناء، وكان حريصا على ألا يفقد التواصل المباشر مع الناس. فكان رئيس المجلس البلدي ورئيس مجلس إدارة جمعية المقاصد Maqassid، وهي الجمعية الخيرية الإسلامية الكبرى التي أُنشئت في العام 1878 في المقام الأول لدعم التعليم. وكما فعل جيرانه المسيحيون، ابتهج سليم بخلع عبدالحميد.

كتب سليم لاحقا: «كان الأتراك أعداء لكل مشروع نهضوي، حتى إن لم يكلف الخزانة شيئا ... وإذا ظلوا متخلفين، فإننا أيضا سنظل متخلفين». وبعد هزائم

العثمانيين في الحرب البلقانية في العام 1912، ذكر القنصل العام البريطاني أنه «في الأنحاء كافة» كان الناس يقولون إن الإمبراطورية بائدة لا محالة. وكتب سليم: «فاتحني بعض الأصدقاء في اقتراح طلب الانضمام إلى مصر الواقعة تحت الحماية الإنجليزية، وعبّر آخرون عن رغبتهم في احتلال فرنسي»(114). كان من الأمارات الأخرى على الضعف العثماني قصف بارجتين إيطاليتين لميناء بيروت في الرابع والعشرين من فبراير 1912 في أثناء الهجوم الإيطالي على الإمبراطورية العثمانية لغزو ما أصبح يعرف لاحقا باسم ليبيا. وأغرقتا سفنا وقتلتا نحو أربعين شخصا في الميناء(115).

وفي يناير 1913، طالبت جمعية بيروت الإصلاحية المكونة من اثنين وعشرين مسلما واثنين وعشرين من غير المسلمين، بقيادة يوسف سرسق وسليم سلام وأحمد مختار بيهم، بتطبيق اللامركزية واعتماد اللغة العربية لغة رسمية للولاية إلى جانب اللغة التركية. وطلب خمسة أعضاء مسيحيين التدخل الفرنسي سرا. وفي التاسع من أبريل، أُغلِقت جمعية بيروت الإصلاحية وناديها، واعْتُقل صحافيون، ووقع إضراب قصير. ونُشِرت مطبوعات تحث البيروتيين على الفرار إلى جبل لبنان والامتناع عن دفع الضرائب. وذكر القنصل العام الفرنسي أن هذه الحركة نالت تأييد الناس. وفي النهاية، سمحت الحكومة باستخدام اللغة العربية في المكاتب الحكومية والمحاكم والمدارس، وإن لم تفرضه، وأقرت حصصا نظرية للموظفين الناطقين باللغة العربية. ومع ذلك، فقد ظلت اللغة التركية اللغة الرسمية الوحيدة للإمبراطورية العثمانية(116). وأصبح سرسق وبيهم نائبين في مجلس الشيوخ، وأعطيا لاحقا الحق في شراء مزيد من الأراضي الحكومية في الجليل، بينما لم تُلبَّ المطالب العربية»(117).

بين الثامن عشر والثالث والعشرين من يونيو 1913، وبمشاركة مسلمين ومسيحيين من أمثال أحمد مختار بيهم وألبرت سرسق، حضر سليم سلام مؤتمرا عربيا سوريا في باريس(*)، وحمل مكان المؤتمر في ذاته ازدراء للإمبراطورية العثمانية. أصدر المؤتمر قرارات تؤيد الحكم الذاتي الأرمني واستخدام اللغة العربية لغة رسمية، وأرسلوها إلى كل من الحكومة العثمانية والقوى العظمى(118). وقال سلام وسرسق للمسؤول بالخارجية الفرنسية بيير دي مارجري Pierre de

---

(*) يعرف باسم المؤتمر العربي الأول، عقده عدد من السياسيين والمفكرين القوميين العرب من لبنان وسورية والعراق وفلسطين لتوحيد المواقف لنيل مزيد من الاستقلال والحقوق السيادية من الدولة العثمانية. [المترجم].

Margerie: «إننا لا نرغب في استبدال دولة بأخرى»، فأجابهم مارجري: «ونحن بالتأكيد ليست لنا أي تطلعات في سورية، وكل ما نريده هو أن تعيشوا مع دولتكم في سلام». كان الجانبان كلاهما يلعبان لعبة التزاوج المشرقية القائمة على الإغواء والاستغلال المتبادلين، وذلك من خلال استخدام كلمات تخفي المقاصد الحقيقية. ووفقا لرواية أخرى، فإن سليم سلام فقد أعصابه مع مندوبين مسيحيين وضربهما بعصاه. عارض سلام وسرسق قانون التجنيد الإلزامي، وبما يكشف عن أولوياتهما، أرادا منح بيروت الحق في إصدار الرخص للشركات الجديدة[119]. وفي تلك السنة، نقلت «جمعية العربية الفتاة» السرية الصغيرة مقرها من باريس إلى بيروت[120](*).

***

يعكس ألفريد سرسق - ابن عم يوسف سرسق - هو الآخر التحول في مواقف البيروتيين. فألفريد الذي كان ديبلوماسيا عثمانيا ورجل أعمال يسافر بانتظام بين باريس والقسطنطينية وبيروت، كان مسرفا في تأكيداته للسلطان على «الولاء الثابت له من جانب رعاياه العرب المخلصين». وفي إحدى مقابلاته مع السلطان، تعهد الأخير بتحقيق العدالة للعرب. لكن حتى ذلك المليونير صاحب الامتيازات الذي استفادت أعماله وثروته بشدة من الإمبراطورية العثمانية، كان بوصفه عربيا يضمر في سره العداء للإمبراطورية. كتب في ذلك «كل شيء يسير من سيئ إلى أسوأ بالنسبة إلينا. ومازلنا عرضة للظلم والعنف. والمساواة بيننا وبين الأتراك كلمة فارغة من المعنى». وكان من رأيه أن بعض الوزراء كان يحركهم «إجحاف ظالم» نحو المسؤولين العرب القلائل[121]. وقد تنبأت له صديقة تدعى الكونتيسة فون ستودنيتز Comtesse von Studenitz، وهي تطلب منه ألا يضحك، بأن الإمبراطورية ستقسم وأن سورية ستظهر كمملكة عربية في العام 1919، وأنه سيكون ملك سورية، كما كان بالفعل ملك «قلبي وروحي»[122].

(*) تأسست جمعية العربية الفتاة في باريس في العام 1909 كرد فعل على جمعية الاتحاد والترقي العثمانية وحركة تركيا الفتاة، حتى إن اسم الجمعية العربية على ما يبدو صيغ على غرار تركيا الفتاة، طالبت في البداية بتوسيع الحكم الذاتي في الولايات العربية، لكن بعد تنكيل والي سورية جمال باشا بأعضائها، رفعت الجمعية سقف مطالبها إلى الاستقلال التام للولايات العربية عن الحكم العثماني. تبنى الشريف حسين راية كانت الجمعية قد أعدتها للدولة العربية المستقلة، واتخذها علما للثورة العربية في العام 1915، بعد إدخال تعديلات عليها. [المترجم].

وعلى نحو ما حدث في سميرنا والإسكندرية، أصبحت بيروت مدينة بين العوالم. فبدت بعض أحيائها لزائر أسترالي «مثل ميناء فرنسي»، حيث النساء «فرنسيات في هيئتهن ومسلكهن» وحيث تنتشر الصيدليات والمكتبات الحديثة[123]. وتذمر بعض العثمانيين من أن المدينة نسيت صلاتها بالإمبراطورية. وقيل إن الوالي كان يشعر بأنه ليس حاكم بيروت، بل قنصل عثماني في مدينة غربية[124]. كان تنوع المدينة هو جوهرها، فكانت في الوقت عينه بوابة إلى سورية وحاضنة ومهدا للقومية العربية؛ عربية وأوروبية، وسورية ولبنانية، وغربية وشرقية، ومسالمة ومقاتلة، تتطلع إلى روما وبوسطن وباريس ومكة والقسطنطينية والقاهرة. كانت بيروت أيضا مدينة على شفا الثورة، لكنها ككل سابقاتها ثورة من أجل مزيد من الحكم الذاتي، وليس من أجل الاستقلال، ومن أجل زيادة عدد النواب العرب في البرلمان العثماني، وتوسيع جبل لبنان ليشمل بيروت باعتبارها عاصمة سياسية له فضلا على كونها عاصمته الاقتصادية[125].

12

الهاوية والتحرر

أيها الجنود إن هدفكم الأول هو البحر الأبيض المتوسط! تقدموا!

مصطفى كمال للجيش الخامس، في 25 أغسطس 1922

في بادئ الأمر، ظلت الإمبراطورية العثمانية في مأمن، بينما مزقت الحرب العالمية الأولى أوروبا. لكن اجتماعا في بيت الصدر الأعظم سعيد حليم في ينيكوي Yenikoy على البسفور بين 18 و23 يوليو 1914(*)، جمع وزير الحربية أنور ودائرته الداخلية في الحكومة، قرر سرا ومن دون الرجوع إلى السلطان والوزراء الآخرين أن

«في غضون أسبوعين، غيرت المدينة هويتها من مدينة يونانية كوزموبوليتانية إلى مدينة تركية، تماما كما غيرت اسمها من سميرنا إلى إزمير»

(*) هو سعيد حليم باشا، حفيد محمد علي مؤسس العائلة الحاكمة المصرية. يقدم اتخاذ فرع حليم من عائلة محمد علي من إسطنبول وطنا، إضافة إلى كونها منفى أو معتزلا للعائلة كلها في آخر حياتهم، كما حدث مع إسماعيل وحفيد عباس حلمي، دليلا على أن الأسرة العلوية اتبعت خط محمد علي الذي ظل وفيا لـ«عثمانيته» أو «تركيته» على رغم الحروب التي شنها ضد الدولة العثمانية. وحتى إعلان زوال الخلافة والسلطنة العثمانية، ظلت الأسرة الحاكمة في مصر تشعر وتتصرف على أنها أسرة تركية تحكم شعبا غير تركي. [المترجم].

يدخلوا الحرب في جانب ألمانيا. كانت دوافعهم إلى ذلك الرغبة في الانضمام إلى الجانب الذي اعتقدوا أن النصر سيكون من نصيبه، والخوف من التقسيم، على غرار ما حدث لممتلكات تركيا في أوروبا بعد الحروب البلقانية، والرغبة في التوسع التركي في بحر إيجة والقرم وآسيا الوسطى. علاوة على أن أنور باشا كان يحب العمل، ومن ذلك أنه في العام 1913 قاد هجوما على الباب العالي نفسه وقاد الاسترداد العثماني لإدرنة(*). وفي 2 أغسطس، وُقِّع تحالفٍ سري مع ألمانيا[1].

في 8 سبتمبر، استغلت الحكومة العثمانية الحرب لإلغاء الامتيازات الممقوتة، وكذلك مكاتب البريد الأجنبية، وفي 3 أكتوبر أُبْطِلت الوضعية الخاصة لجبل لبنان[2]. ابتهج الرأي العام في القسطنطينية. وأعلنت صحيفة طنين Tanin، المؤيدة لتركيا الفتاة، رأيا شاركها فيه معظم الأتراك: «إننا لسنا أصحاب البلاد، بل الأجانب هم أصحابها». هلل للوزراء حشدٌ يقرع الطبول ويحمل المصابيح. وفي هذا الجو المعادي للأوروبيين، كان من المفارقات أن يقيم سعيد حليم مأدبة احتفالية في فندق توكاتليان Tokatliyan «الضخم جدا والأوروبي جدا» الواقع في شارع بيرا الكبير والمملوك لأرمني يحمل جواز سفر روسيا[3].

رفض سفيرا فرنسا وبريطانيا - اللذان كانت لبلادهما رعايا كثر تحميهم الامتيازات - مجرد مناقشة إلغائها. وبالنظر إلى عدم دفاع القوى الغربية عن الوحدة الإقليمية لأراضي الإمبراطورية العثمانية في العام 1912، فقد بدا تعهدهم في العام 1914 بضمان وحدة ما بقي من الإمبراطورية في مقابل الحياد العثماني، تعهدا غير موثوق وفارغا من المعنى. علاوة على أن فرنسا وبريطانيا كانتا في حلف مع العدو التقليدي للإمبراطورية العثمانية: روسيا. وبدت ألمانيا أفضل ضمانة للعثمانيين ضد روسيا[4].

بحلول منتصف شهر أكتوبر، وتنفيذا لطلب أنور، وصل مليونا جنيه ذهبي من ألمانيا. وفي 29 أكتوبر، أبحرت سفن عثمانية - من بينها الفرقاطة ياوز سلطان

(*) كانت إدرنة ثاني أكبر مدينة عثمانية بعد العاصمة - قبل أن يتخذ مصطفى كمال من أنقرة الريفية الصغيرة عاصمة للدولة - قررت الحكومة العثمانية بناء على نصيحة القوى العظمى الأوروبية في مؤتمر لندن أن تتنازل عنها للبلغاريين الذين استولوا على تراقيا كلها، بينما أسرع الجيش اليوناني إلى احتلالها ودخلها الملك ألكسندر عاهل اليونان في 26 يوليو 1913 دخول الفاتحين، ما دفع انقلابا عثمانيا بقيادة أنور باشا الذي نجح في استرداد المدينة، وسُمي بعدها «فاتح إدرنة الثاني». سبق للمدينة أن احتلها الروس في العام 1829 في أثناء حرب استقلال اليونان، وفي العامين 1877 و1878 في أثناء الحرب الروسية - التركية، وأحرقت في العام 1905، ولاحقا احتلتها اليونان بداية من معاهدة سيفر في العام 1920 حتى هزيمة اليونان في الحرب التركية - اليونانية. [المترجم].

سليم، التي كانت في حقيقتها سفينة ألمانية تتظاهر بالتبعية للقيادة العثمانية - من البسفور لقصف أوديسا وسيباستوبول. وفي 2 نوفمبر، أعلنت روسيا الحرب على الإمبراطورية العثمانية، تلتها فرنسا وبريطانيا. استقال أربعة وزراء عثمانيين، وقيل إن السلطان قال: «نشن حربا على روسيا! مع أن جثتها وحدها تكفي لسحقنا». وهكذا فإن الإمبراطورية العثمانية التي كانت أبعد من أن تُجَر إلى الحرب، وكانت ضحية مكائد القوى العظمى، شقت طريقها إلى الحرب بعدوان غير مبرر بأوامر الرجل الأكثر شعبية في الإمبراطورية أنور باشا[5].

شكلت الحرب ضربة أخرى لمدن المشرق. بعد إلغاء الامتيازات مباشرة، كان كونت إدموند دي هوشبيد Count Edmond de Hochepied الترجمان الأول للقنصلية الهولندية في سميرنا، وابن واحدة من أقدم العائلات القنصلية بالمدينة، يسافر بالقطار إلى بيته الريفي في سوديكوي. ربما من باب اتباع العادة المشرقية، اشترى الترجمان تذكرة درجة ثالثة، لكنه جلس في عربة درجة أولى. وعندما تذمر موظف السكة الحديد، لكمه هوشبيد في أذنيه. حُكم على هوشبيد بالسجن ستة أشهر، ولاحقا خفف السلطان الحكم. ها قد أصبح المسؤولون العثمانيون قادرين على عقاب من يعتبرون أنفسهم فوق القانون[6]. لكن في حين بدأت الإمبراطورية العثمانية تعاني أهوال الحرب، بقيت سميرنا جزيرة آمنة. غادر المدينة الكثير من المشرقيين الفرنسيين والبريطانيين، من أمثال عائلات ويتال وجيرو وباغي وكابورال Caporal، للقتال في جيوش فرنسا أو بريطانيا. ولاتزال كنيسة سانت جون St John القوطية المُحْدَثة والإنجليزية حتى النخاع، الكائنة في حي ألسانجاك، تحتوي على لوحة مهداة من «الجالية البريطانية في سميرنا تخليدا للذكرى المجيدة والمشرفة لأولئك الأعضاء الذين تطوعوا للخدمة الفعلية دفاعا عن بلادهم وفقدوا حياتهم في الأعوام 1914 – 1918».

سُمِح لسميرنيين فرنسيين وبريطانيين آخرين بالبقاء، على رغم كونهم من جنسيات معادية وكون بعض أقاربهم يحاربون الإمبراطورية العثمانية. ربما رأت الحكومة العثمانية أن سميرنا لا تستطيع أن تصمد اقتصاديا من دونهم. ينتمي رحمي بيه والي سميرنا إبان السنوات 1913 - 1918 إلى عائلة إفرينوس العثمانية الأرستقراطية التي غادرت سالونيك، كما فعل مسلمون آخرون، إلى ما بقي من

الإمبراطورية العثمانية في العام 1912. كان من رأي القنصل العام البريطاني في سالونيك إبان الأعوام من 1903 إلى 1908، سير روبرت غريفز، أن هذا «الجنتلمان ابن العائلة العريقة وصاحب الأملاك الكثيرة» الذي كان يُعرَف باسم «خديو سميرنا»، موالٍ لبريطانيا[7]. وفي بيوت تجار سميرنا التي كان الوالي يتردد عليها ضيفا، كان يقال إنه يشرب أي كمية من الكحول من دون أن «يفقد وعيه أو قدرته على الحركة»[8]. وفي أثناء الحرب، وبتعبير غريس وليامسن Grace Williamson، الممرضة التي كانت تعمل في دار التمريض الإنجليزية في سميرنا، كان الوالي رحمي بيه رجلا «عذبا تماما معنا جميعا... وكانت أغلبية الإنجليز يثقون به ثقة مطلقة»[9].

في رمزية للمرونة المشرقية، توسعت شركة النساجون الشرقيون إلى الإمدادات العسكرية. وفي انتصار للرغبة في الربح على الوطنية، اشترت الشركة شركة القماش العثمانية التي كانت توفر قماش الكاكي للبزات الرسمية التي يرتديها الجنود العثمانيون الذين كانوا في حالة حرب مع الدول التي ينتمي إليها مديرو شركة النساجون الشرقيون. ويفصح خطاب من إدموند جيرو عن التكافؤ بين الصفقات والأيديولوجيا في نظر المشرقيين:

> يعبر الأتراك دوما عن فيض من النية الحسنة نحونا، ولم يستثنوا عمالنا جميعا من الخدمة العسكرية فقط، بل إن الأغرب من ذلك أنهم منذ أن اندلعت الحرب بين تركيا والحلفاء، دفعوا لنا ثمانية آلاف ليرة تركية ذهبية...
>
> كما أن السيد جوفراي المدير الفرنسي لشركة المشرق الصناعية Compagnie Industrielle du Levant هو الآخر يزود الحكومة العثمانية بالأقمشة القطنية، ومن رأيه أنه يخدم مصالح بلاده من خلال مواصلة العمل. فإغلاق الأعمال يضر بالسيطرة الأجنبية على الشركات بعد الحرب في مقتل[10].

وفي نهاية ديسمبر، أرسل هارولد جيرو خطابا إلى لندن عرض فيه المعضلة المشرقية: «إننا من ناحية يجب أن نأخذ جنسيتنا بنظر الاعتبار، والخوف من التصرف بطريقة تلحق الضرر بدولنا، لكننا من الناحية الأخرى لنا مصالح مادية واستثمارات في هذا البلد لا بد من أن نحميها... وأنا شخصيا أميل إلى الاعتقاد بأن من واجبنا أن نبذل ما بوسعنا من أجل حماية أصولنا المالية». بل إن شركة

النساجون الشرقيون شاركت في العام 1918 في قرض لتمويل الحرب العثمانية[11].

وإلى جانب جمع المال، حاول رجال أعمال سميرنا أن يحققوا السلام. من ذلك أن المخابرات البريطانية وجدت في إدوين ويتال Edwin Whittall وسيطا مفيدا. ومجددا تظهر سطوة المال، إذ كتب ضابط بريطاني: «إذا كان ثمة شخص يستطيع أن يسوي الأمور مع الأتراك باستخدام المال، فإنه ذلك الرجل [إدوين ويتال]. فالأتراك يحبونه ويثقون به». وبالفعل حاول ويتال أن يرشو رحمي بيه وطلعت باشا نفسه لإخراج الإمبراطورية العثمانية من الحرب. وشملت المفاوضات أيضا ديديس بيه الذي عمل في السابق رئيس الدرك العثماني في سميرنا. لكن لم يُتفق على الشروط التي نوقشت، إذ ربما وجدت الحكومة البريطانية أن المقابل الذي قيل إن رحمي بيه قد طلبه، وهو مليونا جنيه، كان كبيرا جدا[12].

غير أن سميرنا لم تفلت من الأذى كليا. ففي مارس 1915، بدأت السفن البريطانية تقصف الحصون التي تدافع عن خليج سميرنا، التي قُوِّيت أخيرا بتركيب بطاريات شاطئ نمساوية، وكان بمقدور رحمي بيه أن يراقب المنظر من الكردون وهو جالس في شرفة مقهى كوست، وهو نفس ما فعله «كل رجال سميرنا والقليل من نسائها» وفقا لما ذكرته غريس وليامسن. وبدأ الأتراك يفرون من المدينة[13]. وأرسل الأدميرال البريطاني بيرس Peirse رسالة إلى رحمي بيه عبر القنصل الأمريكي في سميرنا جورج هورتن George Horton يطلب فيها الاستسلام غير المشروط وتدمير كل الحصون والبطاريات الساحلية «لإنقاذ مدينتك وولاية سميرنا من أهوال الحرب»[14]. كما شُنَّت أيضا غارات جوية على سميرنا. لكن الهجمات البحرية والجوية كلتيهما توقفتا نتيجة لمجموعة من العوامل: الدفاعات التركية الفعالة (التي أغرقت سفينتين بريطانيتين)، والاحتجاجات من جانب رجال الأعمال اليونانيين والهولنديين المحايدين، وإدراك الحلفاء للثروة المهددة بالفناء في المدينة، ومعرفة الحلفاء أن قنابلهم كانت تضرب مدارس ومناطق مسيحية نقل إليها رحمي بيه المواطنين البريطانيين والفرنسيين. وحتى إذا أصابت قنابل الحلفاء أحياء إسلامية، فإن انتقام المسلمين سيكون أشد على المسيحيين المحليين من القصف. وعلى نحو ما حدث في العامين 1695 و1770 عندما تعرضت سميرنا للتهديد من البندقية وروسيا، أنقذت الكوزموبوليتانية المدينة في العام 1915[15].

على أن سميرنا تجنبت أهوالا أشد كثيرا بفضل عدم امتثال رحمي بيه لأوامر طلعت بإبعاد الأرمن في ولايته ناحية الشرق ليتعرضوا للمذابح والمجاعة على نحو ما حدث لتسعمائة ألف أرمني كانوا يعيشون في أماكن أخرى في الأناضول. كان رحمي بيه عدوا شخصيا لأنور وكان يجد متعة في إحباط سياساته[16]. ذكر صديق لألفريد سرسق في بيروت أن سميرنا لاتزال ممتعة: «الحياة الاجتماعية لاتزال في عنفوانها السابق. ويعرض لنا المسرح أفلاما سينمائية جذابة جدا وكذلك أوبرتات باللغة اليونانية. وتكتظ المسارح ودور السينما والمقاهي والمتنزهات بالناس. وحتى العمال الذين يعملون في المصانع والحقول يعيشون عيشة هنية»[17]. فبفضل الحكومة، وعلى وجه التحديد بفضل الحاكم رحمي بيه، صمد التوليف المشرقي.

ومع ذلك، فقد شهدت المدينة القليل من عمليات نزع الملكية والطرد، كانت مخططة منذ العام 1912. ففي العام 1915، ومرة أخرى بعد دخول اليونان الحرب إلى جانب الحلفاء في العام 1917، أُبْعِد بعض اليونانيين عن الشريط الساحلي، وأحيانا قُتِلوا أو أُجْبِروا على العمل في كتائب السخرة. ووُزِّعت بيوتهم التي أخليت منهم بين الأكراد واللاز القادمين من الشرق[18](*).

***

على النقيض من سميرنا، تعرضت بيروت لحرب قذرة. سممت الحرب العالمية الأولى العلاقات بين الأتراك والعرب في لبنان إلى حد غير مسبوق. أعلنت حكومة تركيا الفتاة الأحكام العرفية في العام 1914. ووصفت مسؤوليها بالخونة وخدم القناصل الأوروبيين، وعلقت الحكم الذاتي لجبل لبنان. غصت فنادق الجبل بالضباط العثمانيين والمحاكم العسكرية، بدلا من المتنزهين البيروتيين. كان قائد الجيش العثماني في سورية جمال باشا يتمتع بسلطات مطلقة تقريبا. تصرف جمال، الذي لايزال يُذْكَر باسم «السفاح»، كأنه قائد جيش احتلال، وليس قائدا يدافع عن بلاده. وفي شكل من «التخطيط الحضري» بغرض إحكام السيطرة، أمهل جمال سكان بيروت ثلاثة أيام لإخلاء أسواقهم وبيوتهم قبل أن تُهدَم وتحل محلها طرق

(*) اللاز Laz شعب يسكن مناطق ساحل البحر الأسود التركية والجورجية، كانوا من أوائل من اعتنق المسيحية، ثم تحول أغلبهم إلى الإسلام في عهد الحكم العثماني للقوقاز إبان القرن السادس عشر. [المترجم].

مستقيمة من الميناء إلى ساحة الحرية، وهو الاسم الذي أُطلق على ساحة المدافع تخليدا لذكرى ثورة تركيا الفتاة 1908[19].

اكتشفت السلطات العثمانية في هذه الأثناء وثائق إجرامية في القنصلية الفرنسية، كان القنصل الفرنسي المغادر فرانسوا جورج بيكو قد تركها في عهدة القنصل الأمريكي(*)، لكن كشف أحد الترجمانات أمرها. دانت الوثائق الكثير من الوجهاء اللبنانيين والسوريين بالإعدام، إذ كشفت أنهم قبل العام 1914 طلبوا من الفرنسيين (أو البريطانيين أو الروس أو اليونانيين) العون والسلاح لنيل الاستقلال، ربما من خلال الثورة المسلحة[20]. جرت محاكمتهم بالخيانة في دمشق، في حين شُنِق الكثيرون منهم في بيروت لإرهاب المدينة. ففي صبيحة الحادي والعشرين من أغسطس 1915 والسادس من مايو والسادس من يونيو 1916، ظهرت المشانق تتدلى منها الجثث بين أشجار ساحة الحرية وأسبلتها. إجمالا، شُنِق في ذلك المكان خمسة وعشرون من القوميين العرب من كل من المسلمين والمسيحيين، منهم فريد وفيليب الخازن الترجمانان الفخريان السابقان بالقنصلية الفرنسية[21].

أعطت عمليات الإعدام دفعة للقومية العربية، تماما كما فعلت أحكام الإعدام التي نفذتها السلطات البريطانية في دبلن بحق الثوار الأيرلنديين/ المناضلين من أجل الحرية بعد العام 1916، حين سكبت «ثورة عيد الفصح» الزيت على نيران القومية الأيرلندية(**). أدت الدماء المراقة إلى إراقة مزيد من الدماء. كانت الكلمات الأخيرة للبيروتي عمر حمد وهو على منصة المشنقة نبوئية: «قل لحكومتك المستبدة إن هذا العمل سيتسبب يوما ما في دمارها». وقال عبدالغني العريسي: «سيأتي مجد العرب لا محالة... ستكون جماجمنا أساسا لاستقلال لبنان»[22]. اشتد عزم العائلة الهاشمية حكام مكة وبعض الضباط العرب بالجيش العثماني، الذين قُتِل أصدقاء شخصيون للكثيرين منهم، على

(*) فرانسوا جورج بيكو Francois - Georges Picot هو السياسي الفرنسي الذي وقع عن بلاده معاهدة سايكس - بيكو التي قسمت المنطقة العربية بين بريطانيا وفرنسا مع البريطاني سير مارك سايكس Mark Sykes. [المترجم].

(**) نظم الجمهوريون الأيرلنديون ثورة عيد الفصح Easter Rising التي انطلقت في 24 أبريل 1916 للانفصال عن المملكة المتحدة، قمعها الجيش البريطاني بقسوة وأعدم قادة الثورة بعد محاكمات عسكرية، فعادت الثورة وعمت أيرلندا وانتهت بإعلان استقلالها في 21 يناير 1919. [المترجم].

الانقلاب على الإمبراطورية العثمانية[23]. لم يصدق سليم سلام، الذي سُجِن هو نفسه لفترة قصيرة، أن أفعال جمال باشا كانت ردا على الخيانة، بل «كان قصده الحقيقي هو أن يقطع الرؤوس الذكية حتى لا يستطيع العرب - كما في ظنه - أن ينبعثوا كقوة مجددا»[24]. وأطلق الهاشميون الثورة العربية من مكة بالانضمام إلى صف الحلفاء في الخامس من يونيو 1916.

وبينما كان جمال باشا يشنق الناس في بيروت، كان يجوّعهم في جبل لبنان. كان من بين أسباب المجاعة الحصاد السيئ، وموجات الجراد، والاستيلاء على المحاصيل للجيش العثماني، والتجنيد والمضاربون. وقبل كل شيء، نتج قطع إمدادات الطعام عن حصار الحلفاء لسواحل الإمبراطورية العثمانية، وهو عامل آخر دفع الهاشميين إلى الثورة. فلم تكن السلطات البريطانية في الإسكندرية تسمح حتى للسفن المحايدة المحملة بمواد غذائية اشتراها مهاجرون لبنانيون ويهود في أمريكا بالإبحار إلى لبنان، خوفا من أن تذهب المؤن لإطعام الجيش العثماني. فقد استخدم الجانبان كلاهما الطعام سلاحا سياسيا من دون مراعاة للحياة الإنسانية.

في شتاء 1918/1917 كانت شوارع بيروت تغص بشحاذين يتضورون جوعا. و«بدت الحكومة عاجزة عن اتخاذ أي إجراء للسيطرة على المضاربين أو للحصول على الحبوب التي بحوزتهم»، كما كتبت مؤرخة الكارثة ليندا شيلشر Linda Schilcher، ربما كما قال بعض المعاصرين لأن مسؤولين حكوميين، من جمال باشا فما دونه، كانوا شركاء في الأرباح من الأثمان الباهظة للخبز.

كان ميشال سرسق - باعتراف عائلته - من أبرز المضاربين في أثناء المجاعة. كتبت إيزابيل بسترس لأخيها ألفريد سرسق «صحيح أن ميشال تي Michel T جمع الملايين. وأخوك ميشال أيضا، يقولون لي إنه جمع الكثير هو الآخر». رفض ميشال سرسق أن يبيع الحبوب المشتراة بأربعين قرشا للوحدة بأقل من مائتين وخمسين قرشا، حتى حين طلبت منه لجنة الإغاثة الأمريكية في بيروت ذلك. نوّحت أغنية بيروتية شهيرة في ذلك الوقت على أن الجائع ليس حصانا في إسطبلات سرسق حتى يُطعَم[25]. لكن ثمة أفرادا آخرين من عائلة سرسق كانوا أكثر كرما من ميشال. كان ألفريد أخو ميشال يسمى «أبا الفقراء»، من ذلك أن ثمانية وخمسين عيرا محملا بالقمح كانت في أغسطس 1918 في طريقها من «ضِياعه» إلى مدينة بيروت. ونُوشد ألفريد كثيرا

أن يستخدم حظوته لدى جمال باشا الذي كان يقيم في بيته غالبا للعفو عن بعض من البيروتيين الكثيرين الذين أُبعِدوا إلى المنافي[26].

أسهمت الأطراف جميعها - العثمانيون والحلفاء واللبنانيون - في الكارثة. وإجمالا، مات نحو خمسمائة ألف شخص في سورية كلها، منهم ثلث سكان جبل لبنان. من مقر إقامته في فندق باسول Bassoul Hotel المطل على الميناء، سمع صحافي تركي شاب كان يعمل لحساب جمال باشا، يدعى فالح رفقي أطاي Falih Rifki Atay (شهد هذا الصحافي نفسه إحراق سميرنا بعد ثلاث سنوات) «موجات من الأنين تبدو كأنها تخرج من قاع بئر، تقبض النفس كأنها تخرج من أعماق الروح». كان هذا الأنين صادرا عن الهياكل العظمية الحية بالشوارع المحيطة: «كانوا يجرّون أنفسهم إلى الأرصفة لكي يموتوا، ولا يجدون حتى لحاء شجرة ولا حتى قطعة جافة من قشر البرتقال لكي يقضموها»، وتكاتف التيفوس والملاريا والكوليرا مع المجاعة. ويقول أطاي أيضا إنه بينما كان الفقراء يموتون جوعا، دُعي إلى حفلة في أحد البيوت كان «الشراب والملذات تتدفق فيها كنهر فياض»[27].

***

شهدت سالونيك حربا قذرة هي الأخرى تسبب إلفثيريوس فينيزيلوس في إطلاقها. أصبح فينيزيلوس النصف قاطع طريق والنصف برجوازي، محرك السياسة اليونانية. وقد أقاله الملك قسطنطين في العام 1915 عن رئاسة الوزراء لأن الملك أراد إبقاء اليونان على الحياد. فرد فينيزيلوس الذي أطلق ما أصبح يعرف باسم «الانشقاق القومي»، على ذلك بإعلان حكومة منفصلة في سالونيك. كانت المدينة لاتزال مستقلة بما يكفي لتمكينها من العمل بوصفها منافسا لأثينا. حيا فينيزيلوس القنصل البريطاني في سالونيك راتيسلو Wratislaw بهذه الكلمات: «حسنا مستر راتيسلو، ها أنا ذا هنا مجددا وفي ثورة كالمعتاد»[28].

وصلت قوات فرنسية لدعمه. كان حماس فينيزيلوس لجر اليونان إلى الحرب في صف الحلفاء لا يقل عن حماس أنور لجر الإمبراطورية العثمانية إلى الحرب في صف ألمانيا. وفي الحالتين، كان الحاكم الأعلى للدولة وأغلبية السياسيين يفضلون البقاء على الحياد. وفي العام 1917، تنازل الملك قسطنطين عن السلطة وذهب إلى المنفى. وعاد فينيزيلوس رئيسا للوزراء، ودخلت اليونان الحرب.

في نوبة كوزموبوليتانية أخيرة، أصبحت سالونيك مقرا عسكريا للحلفاء، وغصت شوارعها بقوات آنامية(*) وهندية وسنغالية، فضلا عن القوات الفرنسية والبريطانية والروسية. كان أغلبية سكانها اليهود يؤيدون ألمانيا والنمسا اللتين اعتبروهما أفضل لليهود من روسيا وحلفائها[29]. بتعبير ضابط بريطاني، أصبحت ساحة الحرية التي كانت يوما بؤرة لثورة تركيا الفتاة، «أكثر الأماكن ازدحاما وكوزموبوليتانية في الكون». كان أزيز المحادثات «بنصف عدد اللغات الأوروبية يرتفع مثل هدير الأمواج على الشاطئ»[30]. كما «ازدهرت تجارة» مقاهي سالونيك وملاهيها الليلية، مثل أوديون Odeon ووايت تاور واسكيتنغ رينك Skating Rink بفضل جنود الحلفاء[31]. وغدا مقهى فلوكا على وجه التحديد «منتدى جيوش الحلفاء». وكما كانت الحال دائما في زمن العثمانيين، كانت تُسمَع في كل مكان ست لغات على الأقل من القوات اليونانية والكهنة الأرثوذكس والمدنيين الأتراك والمومسات وضباط المخابرات البريطانيين والروس والصرب وماسحي الأحذية وباعة الصحف[32].

وفي الخامس من أغسطس 1917، شب حريق في وسط المدينة. كان الصيف حارا بدرجة غير اعتيادية، فانتشرت النيران سريعا، كأن «عقلا شيطانيا» كان يوجهها. تهدمت ثلاثة أرباع الأحياء العثمانية واليهودية القديمة، من بينها مبنى الولاية وحلقة سالونيك ومقهى فلوكا وفندق أوليمبوس وبنوك ودكاكين ومخازن ومساجد ومعابد. غطت سحب الدخان سماء المدينة. وبدت الواجهة المائية مثل جبل من اللهب. أسرعت شاحنات الجيش البريطاني خلال المدينة لإجلاء السكان إلى مناطق آمنة. ترك الحريق زهاء سبعين ألفا مشردين بلا منازل، و«كان الهواء يغص بالصراخ والبكاء والعويل الصادر عن حشود ضخمة من الناس شُعث المظهر ومنهكي الملامح ومذهولين كليا». ولم تخمد النيران إلا بعد يوم من تغير اتجاه الرياح، ولم يتبدد شبح المجاعة إلا بالعمل السريع من جانب قوات الحلفاء. وعلى رغم ذلك كله، فقد وصف فينيزيلوس ذلك الدمار الذي لحق بالمدينة العثمانية القديمة بأنه «هبة من العناية الإلهية»، وهي كلمات

(*) نسبة إلى المحمية الفرنسية في آنام Annam وهو الاسم السابق لفيتنام. [المترجم].

رأى البعض فيها اعترافا بأنه كان وراء الأحداث. وبالفعل سهّل الحريق عملية هَلينة المدينة[33](*).

أما قوات المحور التي تقهقرت في الغرب في أغسطس 1918، فقد انهارت على جبهة سالونيك في الرابع والعشرين من سبتمبر. وفي الثلاثين من أكتوبر، أي قبل اثني عشر يوما من توقيع الهدنة الألمانية في كومبين Compiegne، وقّعت الإمبراطورية العثمانية هدنة في مودروس Mudros. وعلى مدار السنوات الخمس التالية، احتلت قوات بريطانية وفرنسية وإيطالية القسطنطينية. ومنذ ذلك الحين، وعلى نحو ما قدّر فينيزيلوس، أصبحت الإمبراطورية العثمانية العدو المهزوم الذي يستحق تقطيع أوصاله، واليونان الحليف الموالي الذي يجب أن يكافأ. كان فينيزيلوس يبتغي «يونانا على قارتين تغسلها خمسة أبحر»: الأيوني والأبيض المتوسط وإيجة ومرمرة والأسود، وتضم كلا من القسطنطينية وسميرنا[34]. أفرط فينيزيلوس في تقدير قوة اليونان وفي اتكاله عليها. وقيل في ذلك إن اليونان كانت تمتلك شهية روسيا وإمكانات سويسرا.

***

كانت البحرية الملكية أساس القوة البريطانية، إذ ساعد حصارها لألمانيا في الانتصار في الحرب. وفي سميرنا، تمثلت الإشارة الأولى لنهاية الحرب في وصول بارجة بريطانية في السادس من نوفمبر. رست البارجة أمام فندق كريمر على الكردون وسط حشود مهللة كانت تنتظرها وجلجلة أجراس الكنائس وصفير صفارات المصانع. واضطر مدير الفندق على غير رغبة منه إلى رفع العلم اليوناني. «دخلت المدينة في حالة الهذيان، أو قل جنون الفرحة»، كما كتب أسير حرب إنجليزي يدعى الكولونيل باركر Barker. حُمل قائد البارجة في مواكب نصر خلال الشوارع مع هتافات «تحيا إنجلترا، يحيا الحلفاء»! وعزفت المقاهي السلام الوطني الإنجليزي «حفظ الله الملكة» والسلام الوطني الفرنسي[35].

سقط قناع الولاء للعثمانيين الذي ظل ملبوسا طوال الحرب. فعلق يونانيو سميرنا العلم اليوناني وصور فينيزيلوس في كل مكان، حتى على خيولهم. تقدم قراءة صحف هذه السنوات بما تضمنته من قوائم لجرائم القتل والإهانات العرقية، رسالة

(*) الهَلْيَنة hellenization بمعنى إضفاء الطابع الهيليني اليوناني على الشيء أو اعتباره هيلينيا. [المترجم].

تذكير للتأثيرات المدمرة للنزعة القومية أو - من منظور آخر - للتعايش. وبعد غياب أربع سنوات، عاد رئيس الأساقفة القومي المتطرف خريسوستوموس إلى سميرنا في الثامن عشر من ديسمبر عودة المنتصر. حتى ذلك الوقت، كان اليونانيون والأرمن غير مكترثين نسبيا بمصير بعضهم البعض. فقد أبدى اليونانيون لامبالاة قاتلة إزاء مذابح الأرمن في الأعوام 1895 و1896 و1915 - 1917، وحاولوا حتى الاستفادة منها، تماما كما كان الأرمن غير مبالين بالمذابح التي تعرض لها اليونانيون في العام 1821. لكن في التاسع عشر من يناير 1919، وفي الكاتدرائية الأرمنية سانت ستيفن St Stephen في سميرنا، أُقيم قداس تلته مباراة كرة قدم في الاستاد البانيوني تكريما «للأخوة اليونانية - الأرمنية في سميرنا». وقال خريسوستوموس إن «القرون السوداء قد ولّت»، وإن الحرية جاءت. وعلت الهتافات «يعيش فينيزيلوس! يعيش بوغوص نوبار [ابن أخي نوبار باشا]! تحيا اليونان! يحيا استقلال أرمنيا!»(*) وعزفت الفرقة الموسيقية الأرمنية للمدينة الأناشيد القومية اليونانية والأرمنية. وتعانق الرياضيون اليونانيون والأرمن[36].

وفي الحادي عشر من مارس 1919، أقالت الحكومة العثمانية نور الدين قائد أيدين القومي العنيد وبطل هزيمة الجيش البريطاني في الكوت ببلاد ما بين النهرين في العام 1916[37](**). وفي السادس عشر من مارس، خلع البطريركان الأرثوذكسي والأرمني في القسطنطينية رسميا ولاء أتباعهم للإمبراطورية العثمانية. ومزق بعض اليونانيين بطاقات هويتهم العثمانية وداسوا على طرابيشهم العثمانية علنا. كانت الهوة تتسع. كتب أحد الصحافيين الأتراك عن «الجراح التي ستظل تنزف إلى الأبد

(*) كانت عائلة نوباريان من زعماء الشعب الأرمني. فبعد بوغوص يوسف بك ناظر خارجية مصر وابن أخته نوبار باشا ناظر نظار مصر، تولى زعامة العائلة والشعب الأرمني بوغوص نوبار (من 2 أغسطس 1851 إلى 25 يونيو 1930) ابن نوبار باشا الذي شغل منصب رئيس الجمعية الوطنية الأرمنية (الكيان الإداري والتشريعي الممثل للملة الأرمنية الذي استحدثه دستور 1863 العثماني). وعلى ذلك فإن بوغوص نوبار الوارد في هذه الفقرة هو ابن نوبار باشا، وليس ابن أخيه. يمثل الفرق بين الأب الذي قنع بالحياة في مصر مع السلطة والثراء والابن الذي نذر نفسه لقضية استقلال أرمنيا، التحول من العقلية المشرقية الكوزموبوليتانية إلى العقلية القومية. [المترجم].

(**) نور الدين إبراهيم باشا أو نور الدين إبراهيم كونيار أو نور الدين الملتحي (من 1873 إلى 18 فبراير 1932) قائد عسكري عثماني خدم في الحرب العالمية الأولى وفي الجبهة الشرقية في حرب الاستقلال التركية، قاد الجيش العثماني الذي هزم الإنجليز في معركة الكوت في العام 1916 والتي استسلم فيها جيش إنجليزي بقيادة الجنرال تاونشند Townshend بعد حصار طويل وفشل في دخول مدينة الكوت. لا تذكر المصادر العربية نور الدين، وتذكر بدلا منه في قيادة الجيش العثماني الجنرال الألماني المسن كولمار فون دير غولتز Colmar vo der Goltz والقائد العثماني خليل بيه الذي عينه أنور باشا خلفا لنور الدين. سيأتي لنور الدين لاحقا دور قاس في حريق سميرنا. [المترجم].

في قلب كل تركي ومسلم»[38]. أُرسِلت لجنة للمصالحة من القسطنطينية برئاسة عبدالرحيم أفندي، كما زار ابن لعبد الحميد يتميّز بسجل عسكري سميرنا بين السادس والعشرين والتاسع والعشرين من أبريل 1919. وأقيمت مأدبة جمعت خريسوستوموس والقناصل والأتراك واليونانيين والأرمن. لكن شيئا ذا بال لم يُنْجَز. إذ كانت الكراهية العرقية قد تعمقت كثيرا. ولم يعد بمقدور العائلة العثمانية أن تعمل كواجهة توحيدية[39].

شاع في هذه الأثناء اعتقاد بأن احتلالا يونانيا وشيكا لسميرنا من شأنه أن يهدد وجود الأتراك في الأناضول. فعُقِدت في الجبّانات الإسلامية في الليل اجتماعات للمقاومة، أسمتها المنشورات «حشودا ساحقة تستنكر السيطرة اليونانية». وقالت الصحف إن «الحكم في إزمير إسلامي وتركي إلى الأبد». ونظم عمدة المدينة حاجي حسن باشا وزعماء دينيون مؤتمرا لرفض ضم سميرنا إلى اليونان، اجتمع في مسرح المكتبة الوطنية من السابع عشر إلى التاسع عشر من مارس، تحضيرا للمقاومة من جانب كل من الأتراك واليهود. وعلى صيحات «إنهم يعطون إزمير لليونانيين!»، استولى المقاومون على الأسلحة من مستودع أسلحة الشرطة. ومن مآذن سميرنا، نادى المؤذنون إلى المقاومة في وسط أذان الصلاة[40]. وبغرض إحباط خطط اليونانيين، كان بعض الأتراك يفضلون احتلالا إيطاليا، وكانت فرنسا وبريطانيا قد وعدتا إيطاليا بالمنطقة لإقناعها بدخول الحرب[41].

كان اليونانيون - في المقابل - غارقين في هوس القومية، أو ما أسمته خالدة أديب على الطرف التركي «الجنون القومي العظيم». كان اليونانيون على اقتناع بأن بلادهم أُتيحت لها فرصة استثنائية للتوسع. وفي الأول من مايو 1919، ألقى خريسوستوموس خطابا تحريضيا آخر أمام الكاتدرائية اليونانية اختتمه بالدعوة «تعيش سميرنا اليونانية! يحيا اتحادنا مع أمنا اليونان!»[42]. وحين وصلت البارجة اليونانية المعشوقة أفيروف إلى سميرنا في مايو، تمسح اليونانيون في جنباتها وقبّلوا أقدام بحارتها ولوحوا بالكثير من الأعلام[43].

***

وأخيرا، في الخامس عشر من مايو، وصل ثلاثة عشر ألف جندي يوناني على بوارج، من بينها أفيروف أيضا، ترافقها بارجة صاحبة الجلالة أيرن ديوك HMS Iron Duke

التي أرسلتها بريطانيا لحماية الإنزال اليوناني من هجوم إيطالي محتمل. قُرِعت أجراس الكنائس إعلانا للنصر. وخرج خريسوستوموس متألقا بعباءات مطرزة وتاج مُذَهّب مزيّن بالنسر البيزنطي ذي الرأسين، ليبارك القوات. ثم سارت القوات على طول الكردون المزيّن بالأعلام تحت أقواس كُتِبت عليها شعارات من نوع «يعيش فينيزيلوس!» وعزفت الفرق السلام الوطني اليوناني. ولوّحت الحشود بصور فينيزيلوس وأمطرت الجنود بالزهور والقبلات، وسط الهتافات «يحيا فينيزيلوس! تحيا اليونان! يحيا خريسوستوموس!» وتعرض الرجال الذين يرتدون الطربوش العثماني للضرب، أو تعرضوا لما أسماه الأتراك «إهانات قذرة»، منها إزالة الطرابيش عن رؤوسهم. وأُجْبِر الوالي العثماني على أن يصيح «يحيا فينيزيلوس».

دوّت طلقة بالقرب من سراي الكوناك، ربما أطلقها تركي سيلانيكي يدعى حسن تحسين، باتت تعرف في التاريخ التركي باسم «الطلقة الأولى»، كانت من الإشارات الأولى على المقاومة التركية النشطة لاحتلال الحلفاء. فتحت القوات اليونانية ما أسماه شاهد العيان دونالد ويتال Donald Whittall «وابلا رهيبا من النيران على الثكنات والمقاهي والمقر الحكومي [سراي الكوناك]». وفي النهاية، قُتِل زهاء مائة يوناني وما بين ثلاثمائة وأربعمائة تركي، بعضهم على الكردون نفسه. كان من الأمور الكاشفة أن يُقْتَل بعض اليونانيين لأنهم كانوا لايزالون يلبسون الطربوش، إذ «اعتقد الجنود اليونانيون غير الملمين بعادات سميرنا أنهم أتراك». استسلم الجنود الأتراك في الثكنات «ونالهم قدر من الضرب المبرح». وقتل الجنود اليونانيون بعض الأسرى أمام فندق كريمر. و«تحت قيادة أراذل المدينة [منهم القبضايات]»، وفقا للقنصل السويدي ألفريد فان دير زي Alfred van der Zee، نهبت القوات اليونانية الدكاكين في الحي التركي ودخلت في حالة هوس من عمليات الاغتصاب والقتل. وفي الساعة الرابعة عصرا، أرسلت العناية الإلهية عاصفة ممطرة لتضع حدا لأهوال ذلك اليوم.

حلت الأحقاد العرقية محل التعايش المشرقي. وفي اليوم التالي، وفقا لجورج بيري George Perry من جمعية الشبان المسيحيين الأمريكية، أخذ «الشعب اليوناني المريض بالفضول يجوب الحي التركي شامتا ومفتخرا بكفاءته في السلب والنهب». أسهمت معمودية الاحتلال بالدم في ضمان فشله[44]. إذ كان من المقزز، كما كتب

الممثل العسكري البريطاني، «أن يحدث ذلك في مدينة عظيمة كانت تتمتع بسلام تام»[45]، وأن يترافق ذلك مع تعهد من فينيزيلوس قُرِأ في كنيسة سانت فوتيني بأن «الحرية اليونانية ستضمن المساواة والعدالة للجميع أيا كان عرقهم أو دينهم»[46].

خلصت لجنة تحقيق من الحلفاء لاحقا إلى تحميل المسؤولية عن أحداث الخامس عشر من مايو «للقائد العسكري الأعلى اليوناني وبعض الضباط الذين فشلوا في واجبهم»[47]. وعلى رغم أن اليونانيين كانوا يشكلون الأغلبية في مدينة سميرنا وحدها، وليس في المنطقة المحيطة، فقد شرعت القوات اليونانية على الفور في الانتشار، ووصلت بحلول الثاني عشر من يونيو حتى بيرغاما Bergama الواقعة على بعد سبعين ميلا إلى الشمال الشرقي. انتقلت أيدين بين الأيدي سبع مرات، وأوصلتها عمليات الفتح وإعادة الفتح إلى حالة من الخراب. كانت الأعمال الوحشية تنتج مزيدا من الأعمال الوحشية. عاد اليونانيون الذين فروا أو أُبْعِدوا قبل العام 1918 واستوطنوا في أراضٍ فرّ منها مسلمون أو أُبْعِدوا عنها. وأُحْرِقت بعض القرى التركية، ذلك أن الكثير من اليونانيين المحليين الذين كانوا عادة أشد عدوانية من الجنود القادمين من اليونان، اعتبروا الاحتلال «مجرد فرصة للانتقام»، بتعبير القنصل الأمريكي جورج هورتن[48]. نظر كُتاب يونانيون لاحقا إلى هذا الماضي واعترفوا بأنه كان «تيارا قوميا غير واقعي بالمرة، لكن كان من الصعب كبح جماحه». تنبأ جنرال معادٍ لفينيزيلوس يدعى يوانيس ميتاكساس Joannis Metaxas بكارثة عسكرية لليونان في الأناضول، من نوع الكارثة التي واجهتها الإمبراطورية الفرنسية في روسيا في العام 1812[49]. لكن فينيزيلوس رأى - على خلاف ذلك - أن الأتراك في حالة من الفقر الشديد ستجعلهم يرحبون باليونانيين بوصفهم مخلصين، وأن اليونانيين سيتفوقون عددا على الأتراك في الأناضول قريبا بفضل التناسل. إذ اعتقد الرجل أن البيولوجيا كانت في صف اليونان[50].

دخل يونانيو سميرنا في جنة من السعادة، فكانوا يمطرون الجنود بالزهور، ويطبخون لهم أطعمة خاصة، «كأنهم كانوا في عيد الفصح»[51]. وأصبح نادي الصيادين على الكردون مقر الجيش، وانتشر الجنود اليونانيون في كل مكان، من الدوريات، إلى احتلال الثكنات العثمانية، إلى تقديم اللقاحات للأتراك، إلى إطعام اللاجئين اليونانيين القادمين من المناطق الداخلية. وفي أثناء الاحتفال بعيد الفصح في

حشد في ساحة مفتوحة خارج كورديليو، على الجانب البعيد من خليج سميرنا، حلم اليونانيون باستعادة الكنيسة الأم للمسيحية الأرثوذكسية في القسطنطينية نفسها:

ها هي الفستانيلا تعود إلى سميرنا(*)،
وسوف يختفي الطربوش وتنهمر دماء الأتراك.
وبعد أن أخذنا سميرنا، هيا نطير إلى سانت صوفيا[52].

في خضم هذا الهذيان، كتب القنصل الفرنسي رسالة تكشف عن البصيرة وبعد النظر. قال القنصل إن الحكومة اليونانية «أهانت الكرامة القومية والدينية للمسلمين في الصميم، وهؤلاء لن يغفروا لرعاياهم السابقين أن يسيطروا عليهم بهذه القسوة... فعاجلا أم آجلا سيأتي رد الفعل - الذي يتشكل حاليا - قويا وسينظم نفسه في شكل خطر حقيقي على كل السكان المسيحيين بلا تمييز»[53].

في السادس عشر من مايو، وهو اليوم التالي لإنزال القوات اليونانية في سميرنا، أبحر مصطفى كمال باشا من القسطنطينية إلى سامسون Samsun، مبعوثا من لدن السلطان بوصفه مفتشا عاما للقوات العثمانية في شمال الأناضول. وبحلول شهر يوليو، تولى كمال قيادة القوات المحلية ومعها حركة مقاومة مستقلة عن الحكومة العثمانية. وعلى رغم أنه لم يتحدث عن ذلك، فلا شك في أن نزعته القومية اشتدت بدافع الرغبة في الانتقام من الاحتلال اليوناني الذي وقع قبل سبع سنوات لمسقط رأسه سالونيك والحريق الذي وقع فيها في العام 1917. وفي السادس من يونيو، عُقِد اجتماع جماهيري من الرجال و- على نحو استثنائي - النساء في ساحة جامع السلطان أحمد في القسطنطينية احتجاجا على الاحتلال اليوناني الدموي لسميرنا. وأقسم الجميع على استعادة المدينة التي وصفتها صحيفة إسطنبولية بـ«إزميرنا الحبيبة، قرة عين الأناضول، مدينتنا الكبرى التركية والإسلامية من شعرها إلى أخمص قدمها». وعلى نحو ما رأى الكثير من المسلمين، ألقت خالدة أديب باللائمة على أوروبا عن هزيمة تركيا: «ستجد القوى الأوروبية طريقة لإرسال جيوش غازية إلى النجوم والقمر لو عرفت أن مسلمين وأتراكا يسكنون تلك الأجرام السماوية. إن الحكومات الغربية أعداؤنا، لكن شعوبها أصدقاؤنا، والثورة

(*) الفستانيلا fustanella هي التنورة اليونانية الرجالية المميزة. [المترجم].

العادلة في قلوبنا هي مصدر قوتنا. ولن تخبو العاطفة السامية التي تستعر في قلوبنا حتى إعلان حقوق الشعوب». لكنهم في الوقت عينه تجاهلوا اليونانيين وأمما أخرى كانت تشعر بالقدر نفسه بأنها محقة في «عاطفتها السامية» وتتطلع إلى «حقوق» الشعوب.

ومثلما كانت الحال في الإسكندرية في العام 1882، غدت سميرنا التي ظلت حتى وقت قريب أحد ممثلي الكوزموبوليتانية، على الخط الأمامي للقومية. وحتى قبل وصول مصطفى كمال إلى الأناضول، كان الاحتلال اليوناني لسميرنا قد دفع المقاومة التركية إلى العمل. ولاحقا، قال كمال نفسه إنه لولا هذه المقاومة لدخل الشعب التركي في حالة من السبات[54]. وكتب ممثلو الحلفاء في سميرنا في العام 1919 أن الاحتلال كان أسوأ تحرك اتخذه فينيزيلوس أضر بقضيته. ومنذ وقوع الاحتلال، توقفت السلطات العثمانية التي كانت متعاونة حتى وقوعه عن التعاون مع لجان الهدنة التابعة للحلفاء، وشرعوا في تقديم العون لحركات المقاومة المحلية التي كانت مستقلة عن الحكومة في القسطنطينية والتي بدأت في أنحاء الأناضول الغربي كافة[55]. كشف الرد التركي على الأرض عن الفجوة بين القرارات التي تتخذ في العواصم الكبرى في الغرب والحقائق المحلية في الشرق. إذ لم يتذكر رجال الدولة في عواصم الحلفاء، تحت تأثير زهو القوة وعمى الجهل، قول فينيزيلوس «إنك لا تستطيع أن تتجاهل الجغرافيا»، وكان قائله نفسه أكثر الجميع تجاهلا له.

وعلى رغم ذلك كله، فقد تعاون بعض الأتراك مع الاحتلال اليوناني، مدفوعين إلى ذلك بالنظرة الواقعية - أو المنفعة التجارية - أو كراهيتهم لمصطفى كمال. كان من بين هؤلاء رئيس البلدية حاجي حسن باشا والإدارة البلدية والمحاكم العدلية التي واصلت عملها، وصحيفتا قويلو Koylu وإصلاحات Islahat ومحرروهما. ووجد اليونانيون تأييدا كذلك بين بعض الشراكسة المسلمين، على رغم أن الكثيرين منهم كانوا يؤيدون كمال. وعُقِد مؤتمر قوقازي موالٍ لليونان في سميرنا في أكتوبر 1921. حتى إن بعض المسلمين نظروا - لبعض الوقت - إلى المقاومة الوطنية في الأناضول بوصفها نوعا من قطع الطرق[56].

كان يهود سميرنا أكثر عداء من بعض الأتراك للاحتلال اليوناني. فلم يحضر الحبر الأكبر أي مراسم يونانية في أثناء الاحتلال. وندب الكثير من اليهود مقاطعة سميرنا

التي أصبحت مقدونيا جديدة(*)، بينما رحب آخرون سرا بما اعتبروه عودة «الزمن الإغريقي»[57]. وتعزز ارتيابهم في اليونانيين عندما استخدم اليونانيون شواهد قبور يهودية في تحويل بناية مدرسية إسلامية، كان رحمي بيه قد بدأها في موقع جبّانة يهودية، إلى الجامعة الأيونية الجديدة التي أرادت الحكومة اليونانية أن تعلن من خلالها عن «رسالتها الحضارية في الشرق». فاليونان لم تأتِ إلى آسيا الصغرى غازية، وإنما جاءت- كما قيل- بـ«روح الأخوة» للأخذ بيد سكانها إلى «حضارتها الأسمى»[58](**).

كان المندوب السامي اليوناني في سميرنا أريستيديس استريغياديس Aristides Sterghiades كريتيا، مثل سيده فينيزيلوس. كان هذا الرجل «السلطوي جدا وسريع الغضب وغير المرن على الإطلاق» مصمما على ضمان علاقات طيبة مع المسلمين. وجاء تعيينه في سميرنا نتيجة لنجاحه في العام 1913 كأول حاكم يوناني لمدينة يانينه نصف المسلمة في إبيروس(***). عاقب استريغياديس بعضا ممن قتلوا أتراكا (أعدم ثلاثة من رؤساء العصابات)، وأنشأ مصلحة خاصة للشؤون الإسلامية- ورفض دعوات من يونانيين محليين لزيارة بيوتهم، وكان يقطع الخطب الدينية المسيحية التي تخوض في السياسة أكثر مما ينبغي. وظلت اللغة التركية إحدى اللغتين الرسميتين لسميرنا، حتى بعد أن وقّعت الإمبراطورية العثمانية معاهدة سيفر مع الحلفاء في أغسطس 1920. وبعد ذلك سيطرت اليونان رسميا على الإدارة، ووصل الكثير من الموظفين الحكوميين من أثينا، وغادر آخر والٍ عثماني المدينة[59]. لكن على رغم جهود استريغياديس، وقع كثير من أعمال القمع، وأُجْبِر بعض الأتراك على العمل القسري أو السخرة كما كان يحدث في الأزمان العثمانية، ولكي يهربوا منها، كانوا يفرون أحيانا للانضمام إلى المقاومة الوطنية. وكانت أراضي من يهربون تُعطى للاجئين يونانيين[60].

لاحقا، عُرِفت الأعوام 1919-1922 بأنها الغروب الذهبي «لسميرنا زكية الرائحة». كانت المدينة تضم خمسمائة مقهى وثلاثة عشر دار سينما والكثير من

(*) بعد انتزاع مقدونيا من الدولة العثمانية، تعرض اليهود فيها للاضطهاد والقتل والتهجير القسري، كما حدث في سالونيك وكل المناطق الأوروبية التي انتزعت من العثمانيين. [المترجم].

(**) يبدو أن هوس اليونانيين بماضيهم وعيشهم في «اليونان الكلاسيكية» القديمة أعماهم عن واقعهم، فجعلهم يتحدثون ويتصرفون كأنهم قوة عظمى وأصحاب رسالة حضارية. [المترجم].

(***) راجع حاشية سابقة عن يانينه Janina مركز ولاية علي باشا أصلان. [المترجم].

«حانات الراغتايم»(*). وكانت الفتيات يلبسن فساتين تحت الركبة ببوصتين، وفي ذلك كتب ضابط بريطاني إلى زوجته: «ما هذا المكان بحق السماء! ... وما هذه الفتيات يا إلهي!» كانت تصدر في المدينة أربع وثلاثون صحيفة: إحدى عشرة يونانية وسبع تركية (زاد عددها في أثناء الاحتلال اليوناني) وخمس أرمنية وخمس عبرية وأربع فرنسية[61]. وظل الناس يتحدثون لسنوات عن الحفلة التنكرية التي أقامتها عائلة جيرو احتفالا برأس السنة في العام 1921. توافد ضباط الحلفاء واليونانيون على بيت العائلة في بورنوفا، وعندما دقت الساعة الثانية عشرة، شرب الجميع نخب جويس جيرو Joyce Giraud التي أتمت واحدا وعشرين عاما من عمرها مثل السنة التي يحتفلون ببدئها[62].

على أن بعض المشرقيين لم يكونوا متحمسين لسيطرة اليونان على المدينة، ولم يكن التحالف الفرنسي - العثماني القديم قد مات كليا. من ذلك أن هربرت أوكتافيوس ويتال Herbert Octavius Whittall كتب إلى الحلفاء في مؤتمر السلام مدافعا عن الحلم المشرقي القديم: «حكومة محلية» تضمنها بريطانيا وفرنسا وأمريكا، ورافضا أن تُعطَى السلطة لليونانيين أو الأتراك. وكتب ممثل بريطاني أن «المشرقيين في سميرنا غير ساخطين على أفعال استريغياديس قدر سخطهم من وجود اليونانيين أنفسهم الذين يكرهونهم، لأنهم اعتادوا النظر إلى اليونانيين في كل مكان بوصفهم طبقة دونية». كما أنهم خافوا من الانتقاص من أرباحهم وامتيازاتهم[63]. ودفع الخوف من المنافسة اليونانية بعض العائلات والشركات إلى الانتقال إلى فرنسا أو إيطاليا[64].

كانت السياسة الدولية هي التي دفعت الاحتلال اليوناني في المقام الأول، وكانت السياسة الدولية أيضا هي التي ساعدت في إنهائه. فقد وصلت القوات اليونانية إلى سميرنا في مايو 1919، جزئيا بسبب رغبة بريطانيا وفرنسا واليونان في الحؤول دون احتلال إيطالي، إذ كانت إيطاليا قد وُعِدت في العام 1915 بولاية أيدين لإغرائها بدخول الحرب، وكانت قوات إيطالية توجد في مكان قريب، وأراد بعض الوزراء الإيطاليين أن تكون الأناضول وجهة للمهاجرين الإيطاليين[65]. وفي المقابل، أدت النجاحات العسكرية الأولى لمصطفى كمال في

(*) الراغتايم ragtime ضرب من الموسيقى الزنجية الأمريكية. [المترجم].

الأناضول إلى إكسابه تأييد القوى المعارضة للهيمنة البريطانية على المنطقة. من ذلك أن الاتحاد السوفييتي وقّع في العام 1920 معاهدة مع حكومة أنقرة(*) وبدأ في تزويدها بالأسلحة التي كانت في أمس الحاجة إليها لقتال الجيوش اليونانية. ومن ذلك أيضا أن ممثلي إيطاليا المتمركزين في فندق كريمر قدموا الدعم والتشجيع للأتراك[66].

أدى موت الملك ألكسندر عاهل الهيلينيين من عضة قرد في الخامس والعشرين من أكتوبر 1920، وهزيمة فينيزيلوس في الانتخابات العامة، وإعادة الملك قسطنطين بعد ثلاث سنوات قضاها في المنفى، إلى إضعاف الحماس البريطاني للقضية اليونانية. وفي التاسع عشر من ديسمبر، أبحر قسطنطين إلى بيروس- ميناء أثينا- على متن البارجة أفيروف، في وسط مشاهد من الحماس الهستيري. لكن القوى الأوروبية كانت قد بدأت في مناقشة إعادة سميرنا إلى تركيا[67]. وكان وزير الحرب البريطاني تشرشل الذي كان من أشد المؤيدين لليونانيين، قد تنبأ في أوائل العام 1920 بكارثة لهم[68].

غادر القائد اليوناني الجنرال ليونيداس باراساكيفوبولوس Leonidas Paraskevopoulos سميرنا في نوفمبر 1920، بعد أن توّجه رئيس الأساقفة خريسوستوموس في كنيسة سانت فوتيني بإكليل ذهبي نُقشت على كل ورقة فيه اسم واحدة من الجاليات اليونانية الستين التي حررها في «أيونية». لايزال هذا الإكليل ينال الإعجاب اليوم في المتحف التاريخي الوطني في أثينا، جنبا إلى جنب مع التاج الأسقفي المُذَهّب لخريسوستوموس[69].

وفي الحادي عشر من يونيو 1921، نزل الملك قسطنطين في سميرناِ لبث الحماس في حملة يونانية أخيرة لتدمير الجيش التركي. أقام الملك في فيلا في كورديليو، وأصدر لقواته إعلانا لا يقل في تطرفه القومي عن إعلانات فينيزيلوس: «إنكم تحاربون هنا من أجل الفكرة الهيلينية التي أنتجت في هذا المكان نفسه تلك الحضارة التي لا نظير لها والتي لن تتوقف عن نيل إعجاب العالم بأكمله»[70].

وأنشد الجنود اليونانيون:

(*) أي حكومة مصطفى كمال المنفصلة عن إسطنبول والرافضة للهزيمة والمقاومة للاحتلال اليوناني والغربي. [المترجم].

بوجود قسطنطين، بوجود هذا الملك،

سنأخذ القسطنطينية وسانت صوفيا.

......

سنرسل الأتراك إلى شجرة التفاح الأحمر(*).

ووضع البعض اسم «فينيزيلوس» مكان اسم «قسطنطين» في الأغنية[71]. تأثرا بالروح المعنوية العالية بين الجنود، وأيضا بسبب وجود بعض الأتراك المتعاطفين، صار الملك على يقين من أن الغلبة ستكون من نصيب اليونان، أو هكذا كتب. ورفض وزير الخارجية جورج بالتازي ابن العائلة السميرنية الكبيرة، عروضا للوساطة من جانب القوى العظمى[72].

كانت الجيوش اليونانية أكثر عددا وأفضل تسليحا من الأتراك. وسرعان ما أصبحوا على مسافة ستين ميلا من أنقرة، وبدا النصر قريبا. وفي السابع من يوليو، أعلن رئيس وزراء اليونان أن العدو «أوشك على الانهيار التام»[73]. لكن أوقِف تقدم اليونانيين خارج أنقرة. وكما حدث مع الغزاة الروس، وجدوا أن النصر في الميدان لا يؤثر كثيرا في التضاريس الغريبة عليهم مع طول خطوط الإمداد أكثر مما ينبغي. كما أن اليونان لم تكن تمتلك جنرالا يضاهي مصطفى كمال. وبسبب العداء للملك قسطنطين(**)، أو الرغبة في مغازلة الجانب المنتصر، أعلنت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا حيادها في شهر أغسطس 1921. وفي سبتمبر، تراجع الجيش اليوناني إلى أسكي شهر Eskisehir في الأناضول الغربي. وفي أكتوبر 1921، وقّعت فرنسا معاهدة مع حكومة مصطفى كمال وبدأت في تزويدها بالسلاح، وكانت إيطاليا قد سبقتها إلى ذلك. ومن جانبها، أوقفت بريطانيا بيع الأسلحة لليونان[74]. وبدأت القوى الغربية تتخلى عن اليونان باعتبارها قضية خاسرة. واعترف الملك قسطنطين بأن «الصراع كان السبب وراء قوتنا»[75].

قالت نشرات الجيش اليوناني إن «الجيش لن ينسحب من المناطق المحتلة» وإنه «لا يوجد مبرر للقلق». لكن في ذلك الشتاء، كان الجنود اليونانيون في الجبهة

(*) التفاحة الحمراء هي المجاز التركي للسيادة العالمية، تمثلت قبل العام 1453 في الكرة الأرضية التي حملها في يده اليمنى تمثالٌ عملاق للإمبراطور جوستينيان كان منتصبا أمام آيا صوفيا. وبعد تحطيم التمثال في العام 1453، انتقلت التفاحة غربا، إلى روما تارة وإلى فيينا عاصمة الأباطرة الرومان المقدسين تارة أخرى. وعلى ذلك فإن العبارة تنطوي على سخرية من أحلام السيادة والفتوح العثمانية. [المترجم].

(**) خُلِع قسطنطين من السلطة بسبب شكوك في تعاطفه مع الألمان في أثناء الحرب العالمية الأولى. [المترجم]

الذين بدأ انضباطهم يتآكل في أواخر العام 1920، يصيحون طلبا للتسريح من الخدمة، إذ أحبطهم الإرهاق والهزائم وسوء الطعام وانخفاض الرواتب والفرار من الخدمة والانشقاق السياسي بين مؤيدي فينيزيلوس ومعارضيه[76]. كما فُصلت أعداد كبيرة من الضباط الأكفاء المؤيدين لفينيزيلوس. وكان الكثير من الجنود يريدون أن يعودوا إلى بيوتهم في وقت الحصاد للعام 1922[77]. تتجلى مرارة الانشقاق في رسالة مذهلة من الأمير أندرو إلى الجنرال المؤيد للملك ميتاكساس في يناير 1922: «لا بد أن نفعل شيئا بأسرع ما يمكن لإخراجنا من كابوس آسيا الصغرى ... يجب أن نتوقف عن الخداع ... فالناس هنا [في آسيا الصغرى] مقرفون عموما. والغلبة هنا لمؤيدي فينيزيلوس ... قد يكون من الأفضل أن نسلم سميرنا لكمال حتى نتخلص من كل هؤلاء التافهين الذين يتصرفون على هذا النحو بعد أن أهرقنا هذا الدم الغزير هنا، دم اليونان القديمة ... يا إلهي متى أخرج من هذا الجحيم؟»[78]. لكن أحدا لم يفكر في الانسحاب من الأناضول الأوسط لجعل سميرنا ومحيطها معقلا حضريا.

وفي أوائل العام 1922، أصبح استريغياديس بسبب روايات اللاجئين لأعمال الطرد والمذابح على اقتناع بأن الحكومة اليونانية يجب أن تتخلى عن سميرنا، لكن أحدا لم يسمع له. وفي سميرنا، استمرت الحياة كالمعتاد. تصف صحف هذه الأشهر محاضرة في المقر الفرنسي للحلفاء بمناسبة مرور ثلاثة قرون على مولد موليير، ألقاها الدكتور فارين Varenne من المستشفى الفرنسي، وتصف كذلك حفلات الأطفال في بورنوفا، ومباريات كرة القدم، ووصول فرقة أوبرالية إيطالية، وحركة السفن في الميناء. وكتب أعضاء مجموعة تعرف باسم المجموعة الهيلينية للدفاع عن آسيا الصغرى التماسا إلى رئيس أساقفة كامبردج (هكذا لقبوه) ورئيس الولايات المتحدة الأمريكية يطلبون منهما فيه «ألا يسمحوا بعودة آلاف اليونانيين تحت النير التركي»[79].

تراجع استريغياديس، وإن كان متأخرا جدا، إلى خطة لإعلان دولة أيونية غير القومية ذات الحكم الذاتي تحت سيادة السلطان. قيل إن بعض الناس في سميرنا حلموا بهذه الدولة إبان العقد السادس من القرن التاسع عشر، لكن خططا من ذلك النوع الذي اقترح لسالونيك في العام 1912 كانت تتطلب حسا جمعيا- وقبل كل شيء جيشا للمدينة- لم يكن موجودا. وفي الحادي والثلاثين من يوليو 1922، لم يهتم غير بضع مئات من موظفي البلدية بحضور مراسم الإعلان عن مولد هذه الدولة،

كان من بينهم رئيس البلدية حاجي حسن باشا وجاويد بيه أستاذ اللغة الفرنسية. وألقيت خطابات باللغات اليونانية والتركية والكردية والأرمنية واللادنيووية. وقال استريغياديس «لنتخذ من آلام الماضي دروسا للمستقبل»[80].

وفي الخامس والعشرين من أغسطس، وعلى مسافة أربعمائة ميل إلى الشرق في الأناضول، انهارت الجبهة اليونانية فجأة. وفي فعل أخير من تلك الأفعال التي تكشف عن غياب العقل، أرسِل ثلاث من أفضل الكتائب اليونانية إلى شرق تراقيا لمحاولة الاستيلاء على القسطنطينية (حيث كانت جيوش القوى العظمى التي تحتلها تحمي السيادة التركية على المدينة). تكفل الإرهاق ببقية القصة، وكذلك معرفة الجنود بأن العودة إلى اليونان ستكون صعبة بعد سبتمبر عندما تبدأ الأمطار في جعل الطرق غير قابلة للاجتياز[81]. وبدأ اللاجئون يتقاطرون على سميرنا، من بينهم مسلمون. ووصلت القطارات مملوءة بالموتى والأحياء. وعُلّقت أخبار التقهقر اليوناني في الحلقة الأوروبية.

تواصلت الحياة في المدينة. فكانت فرقة إيطالية تعرض أوبرا عايدة في النادي الرياضي. وكان مسرح سميرنا يعرض فيلما يسمى «رقصة الموت»[82]. لاحقا، تذكر راي توريل Ray Turrell، أحد أقارب عائلة ويتال، أن «موسم التصدير كان قد بدأ من فوره، وأن المخازن كانت مملوءة، وأن التين والزبيب كانا يعبآن للأسواق الأوروبية»، مع العلم أن الكثيرين من فقراء سميرنا كانوا يعتمدون على العمل الذي يجدونه في هذا الموسم لإعالة أسرهم على مدار بقية السنة[83].

***

كانت البريطانية المتيّمة بمصطفى كمال، هورتينس وودز Hortense Woods من بورنوفا، تعيش حتى ذلك الحين حياة هادئة، يدللها الخدم والأقارب، وتمارس الرسم في حديقتها، غاضة الطرف عن الحرب الدائرة في الأناضول. اقتحمت السياسة صفحات يومياتها لأول مرة في التاسع والعشرين من أغسطس 1922، حين كتبت: «صادر الجيش كل العربات. أخذ الأتراك أفيون قرة حصار [على بعد مائتي ميل إلى الشرق]. المعارك تشتد».

4 سبتمبر: «استولت على سميرنا حالة من الرعب، وكذلك بلدة بورنابات Bournabat وكل القرى المحيطة. فالناس من كل الجنسيات يهربون، حتى الإنجليز،

إذ يخافون من أن يقدم الجيش اليوناني المنسحب على نهب البلدات والبيوت وإحراقها وتدمير كل شيء في طريقهم. وقد سبق لهم أكثر من مرة أن هددوا بفعل ذلك إن أُجبِروا على الجلاء عن سميرنا ... وكل من يأتون من مدينة سميرنا يروون حكايات، وتستطيع أن ترى الخوف في عيونهم».

وفي السادس من سبتمبر، رأت وودز أتراكا ويونانيين يتدفقون خلال قريتها بعربات محملة بمتعلقاتهم ومئات الخراف والجِمال، و«فرّ أهالي قرية بورنابات جميعا»[84].

ارتكب جنود الجيش اليوناني المنسحب الذين لم يعودوا يطيعون أوامر ضباطهم، الكثير من الأعمال الوحشية. وحتى في العام 1921، شهد الأمير أندرو ولي عهد اليونان بعينيه ما أسماه «أعمالا انتقامية وحشية ضد سكان مسالمين وغير مسلحين في قرى كان أهلها يستقبلوننا عادة بكل مظاهر الاحترام والخضوع»[85]. وفي العام 1922، أحرق الجيش اليوناني أجزاء من بلدات أسكي شهر وأفيون وأوشاك Ushak وقصبة Cassaba وآلاشهر Alasehir ومانيسا التي احتلها في الأناضول الغربي. كتب المدرسون اليهود في سميرنا بناء على روايات شهود عيان: «كان اليونانيون عندما يتراجعون، ينهبون ويحرقون كل شيء في طريقهم»، حتى المدارس والمساجد المملوءة بالمسلمين. واغتصبوا النساء، وأعملوا الذبح في الرجال والنساء بلا رحمة[86]. كتبت خالدة أديب أن الطرفين كليهما لم يُظهِرا أي رحمة. وبدت البلدات مثل جحيم على الأرض. وأصدر المجلس الوطني الكبير في أنقرة احتجاجا «على أمل الحؤول دون تعرض مدينتي بورصة وسميرنا لأعمال تخريب مماثلة»[87](*).

لم يعلم الجنرال نيكولاس تريكوبيس Nicholas Trikoupis بقرار تعيينه قائدا جديدا للجيش اليوناني إلا بعد أن أسره الجيش التركي، ووصله الخبر من مصطفى كمال نفسه. وحين رأتهما - أي مصطفى كمال وتريكوبيس- يتحدثان معا باللغة الفرنسية، تذكرت خالدة أديب لاحقا أنهما كانا أشبه بـ«هاوٍ يتحدث مع محترف». بدا تريكوبيس «واهنا ومثقلا بملابسه الكثيرة ومسرحيا جدا في تصرفاته». بينما حاول كمال مواساته بالقول: «الحرب لعبة حظ، وأحيانا يُهزَم الأفضل»[88].

(*) المجلس الوطني الكبير هيئة تشريعية أسسها مصطفى كمال في أنقرة في 23 أبريل 1920 ندًّا للبرلمان العثماني، أصبح بعد إعلان الجمهورية التركية الهيئة التشريعية لها وظل بالاسم نفسه. [المترجم].

أبدى استريغياديس اهتماما بأوراقه أكثر من اهتمامه بشعبه. فأخليت الأرشيفات وموظفو المندوبية السامية اليونانية في الخامس من سبتمبر، وفقا لخطة سرية وضعت قبل أيام قليلة. وطلب سفنا لإجلاء اللاجئين، لكن طلبه لم يُلبَّ. وفي الخامس من سبتمبر، تمردت فرقة عسكرية كانت قد أُرسِلت لحماية سميرنا، فأعيدت إلى اليونان[89]. وفي السابع من سبتمبر وبعد أن سلم استريغياديس مفاتيح المندوبية السامية إلى القنصل الفرنسي وسط هتافات ساخرة من متفرجين يونانيين، استقل زورقا بخاريا أخذه إلى البارجة البريطانية أيرن ديوك. وأقام في فرنسا التي مات فيها في العام 1950، ذلك أنه لو عاد إلى اليونان لربما أُعدِم بلا محاكمة.

وفي اليوم نفسه، أخلى الأستاذ قسطنطين كاراثيودوري Constantine Karatheodory الموظفين والأجهزة من الجامعة الأيونية التي كان مخططا أن تفتح أبوابها في الشهر التالي، وفي ذلك دليل على أن السلطات اليونانية كانت على علم بأنها يجب أن تُخلي المدينة، على رغم أنها لم تخبر عامة الناس بذلك. نُقِلت معظم الأجهزة التي أريد لها أن تخدم «حضارة اليونان الأسمى» في سميرنا إلى سالونيك، حيث استخدمت في الجامعة التي فتحت في فيلا ألاطيني في العام 1926[90]. أما البناية التي كانت مخصصة للجامعة الأيونية، فتشغلها حاليا المدرسة الثانوية الأناضولية.

لم يعد الكردون يضج بطالبي المتعة الذين يتمشون، بل باللاجئين ومتعلقاتهم والجنود اليونانيين الجائعين ومعداتهم، ينامون على الأرض في كل مكان، حتى في مداخل البيوت. وصف ضابط بحري بريطاني يدعى تشارلز هاوز Charles Howes الجنود اليونانيين بأنهم «أكثر أناس يرتدون بزات عسكرية رأيتهم على الإطلاق في التخريب والقذارة والإهمال والترهل»[91].

اكتظت مكاتب شركات الشحن البحري بأناس يستميتون على حجز تذاكر على أولى السفن المغادرة[92]. ورأى بعض السميرنيين أن الوضع لا يستلزم مغادرة المدينة، وبتعبير طبيب في المستشفى القومي الأرمني يدعى غارابيد هاتشيريان Garabed Hatcherian: «من غير الوارد أن تقع أعمال وحشية في سميرنا نفسها التي يعيش فيها الكثير من الأوروبيين». علاوة على وجود «أسراب سفن من كل الدول في الميناء يملأ الناس بالثقة والطمأنينة»، كما كانوا دائما في الماضي. فقد كانت هناك

إحدى عشرة سفينة من الأسطول البريطاني، وخمس من الأسطول الفرنسي، وثلاث من الأسطول الأمريكي، واثنتان من الأسطول الإيطالي، كان من بينها البارجة أيرن ديوك نفسها التي رافقت القوات اليونانية الأولى إلى سميرنا قبل ثلاث سنوات. وفي السادس من سبتمبر، أُنزِلت قوات صغيرة من جنود البحرية البريطانيين والفرنسيين والأمريكيين والإيطاليين إلى المدينة للحفاظ على النظام وحماية مواطنيهم وحراسة قنصليات بلادهم ومحطة الإطفاء والممتلكات الأخرى[93]. وشرع التوليف المشرقي في العمل، فكما رتب القناصل الأجانب، مدعومين بقواتهم البحرية، انتقالا غير دموي من الحكم التركي إلى الحكم اليوناني في سالونيك في العام 1912، خططوا لتنفيذ الإجراء نفسه مرة أخرى في سميرنا لنقل السلطة من اليونانيين إلى الأتراك.

وفي التاسع من سبتمبر، دخلت القوات التركية المدينة بقيادة الجنرال فخر الدين ألطاي Fahrettin Altay، الذي امتطى حصانا أبيض كان يخص الجنرال تريكوبيس، تتبعهم أرتال طويلة من العير المحملة بأمتعة. كتب ألطاي في مذكراته أن سميرنا بدت جميلة بين الجبال والبحر في شمس الصباح، وتمثلت البقعة السوداء الوحيدة في البوارج الأجنبية في الميناء. اختلطت أصوات حوافر الخيل بأمواج البحر فيما يشبه نشيدا للمجد[94].

وعلى الرغم من بضع طلقات أطلقها يونانيون، لم يختل النظام في أثناء تقدم الجنود على ظهر الخيول عبر الكردون نحو سراي الكوناك، مارين في طريقهم باللاجئين اليونانيين ومعدات الجيش اليوناني التي تخلى عنها أصحابها. بدا الجنود الأتراك أنفسهم في عيني هورتينس وودز من بورنوفا «رجالا رائعين يلبسون بزات عسكرية نظيفة جديدة وقبعات شركسية، يسيرون في منتهى الانضباط وبمنتهى الهدوء». ولأنها تعرف أن رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج رهن اسمه على النصر اليوناني في الأناضول- وهو ما كان لويد نفسه يعرفه يقينا- فإن وودز لم تستطع أن تمنع نفسها من إضافة ما يلي: «ماذا سيقول لويد جورج؟ ها هو مصطفى كمال أصبح أعظم منه»[95]. وكتبت غريس ويليامسن الممرضة بدار التمريض الإنجليزية: «لم تقع أي مشكلات! ... وبفضل الله لم يحدث إطلاق نار في الشوارع. إلى هذا الحد بلغ ارتياح الناس، إذ ابتهج الجميع من داخلهم بعودة الأتراك»[96]. مر الدخول التركي إلى المدينة على طول الكردون أفضل من مرور اليونانيين قبل ثلاث

سنوات. وبدأت الشرطة التركية تعاود الظهور ببزاتها الرسمية العثمانية القديمة، وعاد الموظفون البريطانيون واليونانيون بشركة السكك الحديد الشرقية إلى ارتداء الطربوش العثماني ثانية[97].

لكن بسبب عدم وجود قيادة مستعدة لفرض النظام بإصدار أحكام إعدام عاجلة، اندلعت أعمال نهب وقتل من جانب كل من اليونانيين والأتراك في أماكن مختلفة بعد الظهر، كان من بينها شارع الفرنجة نفسه. أُخليت معدات الجيش اليوناني التي تركت على الكردون «على أي عربة خيول أو عربة أطفال أو عربة يد صغيرة ممكنة»[98].

وفي نحو الرابعة من عصر العاشر من سبتمبر، وصل مصطفى كمال، ترافقه الخيالة، في سيارة مفتوحة قدمها له أتراك سميرنا، وقد غُطّيت بأغصان الزيتون. توجه إلى سراي الكوناك، حيث كانت في استقباله حشود تركية تهتف له، وقضى بضع ساعات في التباحث مع نور الدين، القائد الوطني لسميرنا في العامين 1918-1919، والذي أعاد كمال تعيينه حاكما للمدينة. صدر إعلان يتوعد بقتل الجنود الأتراك الذين يتعرضون بالأذى لغير المقاتلين. ثم ذهب كمال إلى فندق كريمر. وهناك دار الحوار التالي مع نادل بالفندق: «هل أتى الملك قسطنطين إلى هنا لأخذ كأس من شراب الراكي؟»، «لا»، «إن كانت الحال كذلك، فلماذا إذن يهتم بأخذ إزمير؟»[99].

فر المندوب السامي والجنرالات اليونانيون من المدينة، وكان رئيس الأساقفة القائد الوحيد الذي امتلك الشجاعة للبقاء فيها، على رغم أنه هو الآخر امتلك البصيرة التي جعلته يرسل أرشيفاته إلى أثينا. وفي مساء العاشر من سبتمبر، جاء استدعاء لخريسوستوموس من عدوه القديم نور الدين إلى سراي الكوناك. وبعد مقابلة قصيرة، أُخِذ رئيس الأساقفة إلى السجن. ولدى مغادرته، لم يعد إليه الصليب الذي تركه على مدخل الكوناك لدى وصوله، في إشارة إلى أن قتله كان مخططا، وفقا للجنرال ألطاي الذي قال في مذكراته إنه وكمال أسفا لمقتله[100]. كان حشد من الناس ينتظر خارج الكوناك. في البداية انهالوا بالسب على رئيس الأساقفة، ونتفوا لحيته، ثم أخرجوا عينيه، قبل أن يمزقوه إربا ومعه وجيهان يونانيان كانا يرافقانه. ومُنِعت دورية بحرية فرنسية قريبة من التدخل. ويقال إن جنديا كريتيا أطلق عليه النار

أخيرا وقتله ليضع حدا لمعاناته[101](*). وكذلك قُتِل بعض الأتراك الذين تعاونوا مع النظام اليوناني والمدير الأرمني لصحيفة لاريفورم[102]. كانت المدينة تتحول من ملاذ أو محمية إلى أرض للصيد.

وعلى الرغم من الهدوء النسبي في المدينة، طلب القنصل العام البريطاني بالإدارة القنصلية للمشرق الذي خدم سابقا في سالونيك، سير هاري لام Harry Lamb، من كل المواطنين البريطانيين في العاشر من سبتمبر الاستعداد لمغادرة المدينة. وبدأ جنود أتراك غير نظاميين يعرفون باسم الشيتي في تهديد الناس في الشوارع وطلب إتاوات منهم(**). وانتشرت أعمال السلب والنهب من جانب كل من اليونانيين والأتراك. كتب القبطان هيبرن Hepburn من البارجة الأمريكية ليتشفيلد Litchfield في يومياته أن «الإرهاب بدا وشيكا»[103]. وبالفعل بدأت الكارثة.

ففي الحي الأرمني بشمال المدينة، بدأ جنود أتراك غير نظاميين في حرق البنايات بالنفط. وتلت ذلك أعمال نهب واغتصاب وقتل. أحرق جنود مكاتب رئيس الأساقفة الأرمني بقنابل يدوية، وقتلوا الكثير من الأرمن ممن كانوا قد لاذوا بداخلها. وأغلقت مطاعم المدينة ومخابزها أبوابها في الحادي عشر من سبتمبر، مع أن بعض خطوط الترام واصلت العمل. وفي ذلك المساء، قال نور الدين للميجور ديفيس Davis من الصليب الأحمر الأمريكي: «خذهم (اليونانيين) من هنا. هات سفنا وأخرجهم من البلد، فذلك هو الحل الوحيد»[104].

لم يحضر القنصلان الفرنسي والإيطالي اجتماعا كان مخططا مع كمال في العاشر من سبتمبر. إذ كان زمن القناصل قد ولى، وكانت تركيا واليونان قد دخلتا عصر الجنرالات والكولونيلات. وفي اليوم التالي، ذكر سير هاري لام في برقية أرسلها إلى بلاده أن الحاكم المدني التركي «الذي أحالني إليه مصطفى كمال طمأنني على أنه لا يوجد ما يوجب القلق بخصوص سلامة (المواطنين البريطانيين) حتى ليلة الغد الأربعاء»، والبرقية مؤرخة في الثاني عشر من سبتمبر. كانت دقة التوقيت توحي ببرود قاسٍ[105].

(*) كان من بين شهود العيان على مقتل رئيس الأساقفة أبناء إخوته ومنهم يانيس إلفترياديس Yannis Elefteriades الذي وجد مخبأ من الأتراك وفرّ لاحقا إلى لبنان التي يبرز فيها حاليا حفيده ميشال إلفترياديس (ولد في 22 يونيو 1970) بوصفه سياسيا وفنانا ومنتجا ورجل أعمال. [المترجم].

(**) كما ورد في موضع سابق، كانت الشيتي Cetes إحدى عصابات قطع الطرق التي انتشرت في الجبال غير المأهولة المحيطة بسالونيك إبان العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر. [المترجم].

وفي الثاني عشر من سبتمبر، كتبت غريس وليامسن بعد أن نظرت من فوق سطح دار التمريض الإنجليزية أن سميرنا بدت «مرعبة، فلا نهاية للموتى والقمامة كليهما»[106]. وفي الثالث عشر من سبتمبر غيّرت الريح اتجاهها شمالا بعيدا عن الأحياء التركية واليهودية. وبعد ذلك قام جنود أتراك بزي رسمي، وفقا لشهود عيان غير أتراك، هم الآنسة ميني ميللز Minnie Mills من المعهد الجامعي الأمريكي للفتيات ورجال فرقة الإطفاء بسميرنا، برش النفط على البيوت وأشعلوا فيها النيران. ومع حلول العصر، كانت النيران تلتهم الحي الأرمني[107].

كانت سميرنا تمتلك فرق إطفاء حديثة ممتازة، لكن الجنود الأتراك منعوها من الوصول إلى الحرائق. واستؤنف نهب مزيد من الدكاكين والبيوت. كان الأتراك قد أُخبِروا مسبقا بضرورة مغادرة الأحياء المسيحية، ونجح بعض اليهود في الإفلات بحياتهم من خلال إثبات أنهم مختتنون[108](*). في أثناء الحرب، حظي أرمن سميرنا بحماية الوالي رحمي بيه. لكن على خلاف ذلك، شهد العام 1922 مقتل نسبة كبيرة جدا منهم، زهاء خمسة عشر ألف شخص. باختصار، أتم مصطفى كمال في العام 1922 ما بدأه أنور وطلعت في العام 1915، وهو التخلص من الأرمن من الأناضول[109].

وسرعان ما التقت الحرائق المتعددة التي أُشعلت في أجزاء مختلفة من الأحياء المسيحية، ومع دخول الليل أصبحت تشكل حائطا هائلا من اللهب بطول ميلين وارتفاع مائة قدم. في بادئ الأمر ظهرت الكنائس والمسارح ومحلات شارع الفرنجة وفندق كريمر سوداء على خلفية الحريق، ثم انهارت. من مأمنه على متن السفينة الحربية الهولندية الراسية في الميناء، شهد لاجئ هولندي حيا بعد آخر يتهدم. و«بين منتصف الليل والساعة الواحدة، وصلت النيران إلى أرصفة الميناء. وها هي النيران تلتهم أجمل جزء بالمدينة، أولا دور السينما والمقاهي والأندية، ثم القنصليتين الروسية والفرنسية ... غير أن هذه الأعمال التدميرية لم تنتج عن العنصر الطبيعي فقط. فبواسطة المناظير استطعنا أن نرى رجالا يؤدون دورهم المشؤوم»[110]. قيل إن النيران ارتفعت عاليا في السماء حتى إن الرهبان على جبل أثوس الواقع على

(*) كان ختان الذكور في هذه الأزمان ممارسة شائعة بين المسلمين واليهود، ولذلك كان يستخدم للتحقق من انتساب المرء إلى أحد هذين الدينين. [المترجم].

الجانب الآخر من بحر إيجة استطاعوا رؤيتها»[111](*). كتبت هورتينس وودز من بيتها في بورنوفا: «إننا نرى الوهج الأحمر والدخان المتوهج يتصاعدان أكثر وأكثر. ونسمع أصوات قنابل تنفجر على مر الوقت. كانت الأصوات تصلنا بوضوح كبير. لقد أتت النيران على كل البيوت الجميلة ورصيف الميناء»[112].

دمرت الحرائق الكثير من المصانع وأغلب المخازن التي كانت مملوءة - في شهر سبتمبر- بحصاد الأناضول. واحترق مخزون شركة النساجون الشرقيون كاملا. واحترق الكثير من البنوك والأوراق النقدية لدرجة أن الأوراق النقدية الجديدة على رغم استخدامها في سميرنا منذ وقت طويل بدأت تُطْبَع بأحجام صغيرة جدا كأن ورق البنوك لم يعد يكفي. نجا من الحرائق جزء من الحي الفرنجي في ألسانجاك وبعض البنايات الحديثة الكبيرة، مثل كنيسة سانت بوليكارب وشركة كريدي ليونيه الفرنسية والبنك الأهلي اليوناني ومدرسة الفتيات اليونانية الإنجيلية الجديدة (حاليا مدرسة أتاتورك الثانوية) التي جرت توسعتها أخيرا للمرة الثانية، ومدرسة البنين اليونانية (حاليا مدرسة نامق كمال الثانوية)، ومكاتب جمعية خيرية أمريكية تسمى الإغاثة للشرق الأدنى[113].

وبحلول السادس عشر من سبتمبر، وبينما كانت النيران تخمد، كانت الأحياء اليونانية والأرمنية ومعظم حي الفرنجة قد دمرت في معظمها: خمس قنصليات وخمسة مستشفيات وإحدى وعشرين كنيسة واثنتين وثلاثين مدرسة أرثوذكسية وأرمنية وكذلك كاثوليكية وبروتستانتية. وفي العام 1923، قَدَّر تقرير تركي رسمي أن أربعة عشر ألف بيت وأربعة من إجمالي اثنين وأربعين ألفا وتسعمائة وخمسة وأربعين بيتا أصابها الدمار. كان مصير سميرنا في ذلك الوقت غير مسبوق، إذ كان أسوأ كثيرا مما شهدته الإسكندرية في العام 1882 أو سالونيك في العام 1917، ولم يكن العالم قد شهد المدن المفحمة للحرب العالمية الثانية بعد. كتب القنصل الفرنسي: «لم يعد شيء موجودا»[114]. وتحسرت صحيفة تايمز بالقول: «تحولت واحدة من أغنى مدن المشرق إلى شبح». اتخذ الناس في سميرنا من تلك الأحداث

(*) جبل أثوس Mount Athos جبل في شبه جزيرة اليونان يعرف باسم الجبل المقدس، يضم عشرين ديرا أرثوذكسيا شرقيا تتبع البطريركية في القسطنطينية مباشرة. [المترجم].

معلما للتأريخ، إذ ظلوا حتى وقت قريب يشيرون إلى ما قبل وما بعد «الحريق»، تماما كما كان الأوروبيون يتحدثون عما قبل وما بعد «الحرب»[115].

وفي المقابل، ظلت الأحياء التركية واليهودية سليمة لم يمسسها سوء، ويقال إن الناس حفروا حولها خنادق لمنع النيران من الانتشار إليها. كما ساعد الجنود الإيطاليون في حماية الحي اليهودي. فبغرض توسيع نفوذها هناك، كانت إيطاليا قد أعطت أخيرا جنسيتها للكثير من يهود سميرنا. وقد أبدى مسلمو سميرنا ويهودها اللامبالاة القاتلة نفسها إزاء مصير الأقوام الأخرى التي أظهرها اليونانيون والأرمن بعضهم نحو بعض في أثناء مذابح سابقة[116].

وبينما كانت سميرنا تحترق، أسرع المسيحيون الذين لم يموتوا إلى الاختباء في الجبّانات أو غيرها من الأماكن، أو الفرار إلى الكردون بالممتلكات التي استطاعوا أخذها معهم. حل الرعب محل البهجة على الواجهة المائية للمدينة. وفي الليل، كان اللصوص يأتون بغرض السرقة والقتل، ولذلك كانت سفن الحلفاء الحربية في الميناء تضيء أنوارها على الحشود في محاولة لحمايتهم. وكانت قوات تركية تغلق نهايتي الكردون كلتيهما.

كان تصميم المشرقيين على الحصول على جوازات سفر أجنبية دليلا على بصيرتهم. فقد تُرِكت المدينة الكوزموبوليتانية بلا حماية، فيما وفرت الدول القومية الحماية لمواطنيها. فبداية من الثالث عشر من سبتمبر، أخذ جنود البحرية البريطانيون والفرنسيون والإيطاليون والأمريكيون يرافقون قوافل من مواطني دولهم من أنحاء المدينة المحترقة كافة إلى سفنهم الحربية. ولذلك اضطرت أليثيا ويتال Alethea Whittall إلى استخدام ما تتمتع به من قوة الشخصية لاصطحاب كل المرضى والموظفين بدار التمريض الإنجليزية من كل القوميات معها إلى باخرة بريطانية، وليس من يحملون جوازات سفر بريطانية فقط[117].

وفي المقابل، تخلت اليونان عن مواطنيها. إذ بينما كان يجري إجلاء آخر القوات اليونانية على بعد خمسين ميلا في جشمة وأورلا على متن سفن يونانية لإعادتهم إلى اليونان، تجاهلت اليونان مصير المدنيين اليونانيين[118].

وبمجرد أن تم إركاب الأجانب على سفنهم الحربية، تُرِك الكردون مكتظا بالمسيحيين المحليين الذين وصفهم جورج وارد برايس George Ward Price

من على متن البارجة أيرن ديوك بأنهم كانوا يلفظون «صراخا مسعورا من الرعب التام كان يُسْمَع على بعد أميال». وكانت أصوات طلقات البنادق والمسدسات وقعقعة الرشاشات تغطي من حين إلى آخر على زفير النيران وارتطام البنايات التي تسقط. وكان الدخان ساخنا جدا لدرجة جعلت الناس يشعرون بأن النار شبت فيهم(119). وإلى جانب الموت بالنار الذي كان يترصدهم من الخلف، والموت بالماء الذي كان يترصدهم من الأمام، والموت بالحديد الذي كان يترصدهم من الجنود النظاميين وغير النظاميين، كان الحشد البائس أيضا عرضة للحيوانات: الجرذان الهاربة من البنايات المحترقة والخيول والجِمال الصارخة(120). كتب غارابيد هاتشيريان في يومياته أن «الحرائق وإطلاق النار وهراوات الأتراك حاصرت الحشود المسيحية من ثلاثة جوانب. وإن كان ثمة بصيص أمل، فإنه البحر».

وعلى الكردون، على نحو ما رأى البحارة الأجانب من خلال مناظيرهم، كان الجنود النظاميون وغير النظاميين يسرقون السميرنيين ويشعلون فيهم النار أو يضربونهم حتى الموت أو يرمونهم في البحر. غطى سطح البحر كثير من الجثث حتى إنك لو وقعت في البحر، لما غصت بسبب كثافة الجثث. وقد حاول بعض البحارة أن يطلقوا النار على الجثث حتى تغوص. وكان الصبية يسبحون بين الجثث، عاصبين أنوفهم بأوشحة حتى لا يغمى عليهم من الرائحة، لينزعوا عنها الأشياء الثمينة أو يقطعوا أصابعها من أجل الخواتم. ولدت بعض النساء على الرصيف واضطررن إلى إلقاء سقطهن في الماء(121). وصلت الرائحة النتنة من الجثث والدماء والغائط على أرض الكردون وفوق صفحة البحر إلى السفن الراسية بعيدا(122).

وإذا كانت السفن لم تستطع أن تمنع الرائحة، فقد حاول بعضها أن يغطي على الصوت. ففي شكل مصفى من قسوة القلب، أخذت فرق موسيقية على متن السفن تعزف موسيقى خفيفة أو تشغل أسطوانات مثل أغنية كاروسو في أوبرا «بالياتشي»(*)، سواء كان ذلك اتباعا للروتين البحري أو للتغطية على

(*) باليانشي Pagliacci، أوبرا إيطالية تتكون من قصيدة وفصلين، وإنريكو كاروسو Enrico Caruso (1873 - 1921)، مغنٍ أوبرالي إيطالي شهير غنى في كبرى دور الأوبرا الإيطالية وفي كثير من الأعمال الأوبرالية، منها أوبرا باليانشي. [المترجم].

الصراخ القادم من الكردون[123]. وكانوا أيضا يصورون أفلاما ويلتقطون صورا للمدينة المحترقة. بيد أن هذه السجلات البصرية كانت ضرورية. إذ اتفق شهود العيان جميعا على أن الكلمات وحدها لا تستطيع أن تعبّر عن أهوال سميرنا في تلك الأيام. إذ «لا توجد كلمات تستطيع أن تصف الحالة المرعبة للمدينة»، و«مهما يقولون، لن يستطيعوا أن يعبّروا عن نصف أهوال تلك الليلة»، فقد كانت «أضخم وأبشع كثيرا من أن تُرْسَم»[124]. جاءت شكلانية أحد الخطابات في غاية البلاغة(*)، إذ كتب شاهد العيان الإنجليزي بيرسي هادكينسون Percy Hadkinson إلى المندوب السامي البريطاني في القسطنطينية سير هوريس رمبولد Horace Rumbold: «لو سمعت سعادتكم صرخات الاستغاثة، ورأيت النساء والأطفال العزل يُضرَبون بالنار أو يُرمَون في البحر بلا رحمة ليموتوا غرقا مثل الجرذان، أو يُلقوا في النيران لتحرقهم حتى الموت، لأدركت أهوال الموقف وبشاعته التامة»[125](**).

***

انتظر أمراء البحر والقناصل أن تأتيهم الأوامر من لندن وباريس وروما. ومن جانبهم، حثوا أثينا على تحمل مسؤوليتها عن إخلاء المدينة. وأخيرا ظهرت الإنسانية في منتصف ليلة الثالث عشر والرابع عشر من سبتمبر. إذ أمر الأدميرال سير أوزموند بروك Osmond Brock قائد أيرن ديوك بإنزال المراكب الصغيرة، بعد أن واجه ما يشبه التمرد من طاقم سفينته الذي بلغ به الاشمئزاز مداه. كتب جورج وارد برايس من صحيفة «ديلي ميل»، الذي كان على متن أيرن ديوك: «لا يكاد مقدّم المركب يلمس الرصيف حتى يتدفق عليه سيل من البشر المذعورين من زعقات

(*) بمعنى شكلانية اللغة المكتوبة في مقابل واقعية الصورة الفوتوغرافية والمتلفزة. [المترجم].

(**) مؤكد أن هذه الأهوال وتلك الجرائم والأعمال البشعة ما كانت لتحدث بهذه القسوة لو أن احتلال اليونانيين لسميرنا طال بعض الشيء، إذ بدأ في 15 مايو 1919 وانتهى في 9 سبتمبر 1922، حتى ينسى الأتراك ما فعله اليونانيون بعد احتلالها أو في أثناء انسحابهم من المدن الأخرى التي احتلوها، أو حتى تتغير الأجيال. ومؤكد أيضا أن ذلك كان ردا على حرق الأحياء التركية في سالونيك - ربما بأوامر من فينيزيلوس - التي نشأ فيها مصطفى كمال وكثير من اللاجئين الأتراك إلى سميرنا. ومؤكد - قبل كل شيء - أن الأتراك الجدد، بعد كل ما تكشّف لهم من «خيانة» أصحاب الأديان والقوميات الأخرى، كانوا قد كفروا بالتعددية والكوزموبوليتانية التي رعاها سلاطينهم على مدى القرون، فأرادوا بهذه الأفعال البشعة أن يتخلصوا من كل ما هو غير تركي في المدينة، في وقت كان وجودهم المادي بوصفهم أمة وأفرادا مهددا من كل الاتجاهات ومن كل القوميات الأخرى. [المترجم].

القتال». كان من غير الممكن السماح بصعود النساء والأطفال فقط، إذ في «اللحظة التي تمتلئ فيها المراكب، كانت تترك خلفها طوفانا من البشر بكل معنى الكلمة». وانقلب كثير من المراكب من ثقل وزن البشر فيها. وسبح كثير من الأفراد إلى السفن الحربية، وسُمِح لبعضهم بالصعود. أفادت بعضهم عبارات مثل Je suis francais (أنا فرنسي) أو j'ai perdu mes papiers (فقدت أوراقي الثبوتية) في التعامل مع السفن الفرنسية. وانتُشل نحو ألفي شخص في الرابع عشر من سبتمبر. وكانت المراكب الإيطالية الأكثر ترحيبا[126].

وبحلول الخامس عشر من سبتمبر كانت النيران قد أكلت نفسها، وتهدم وسط المدينة. تذكر مدير شركة كريدي ليونيه جان موران Jean Morin، الذي عُيِّر ببقائه بجانب قواسه التركي، أن رائحة ضارة استمرت تخنق المدينة. وكان الذباب في كل مكان. وظلت بالات من التبغ الموجود في المخازن تحترق ببطء تحت الأنقاض على مدى أسابيع، ما أنتج وهجا أحمر غريبا في الليل. وكان الناس يتحركون في أقبية في المدينة. واضطر الناس إلى أكل اللحم النيئ أو بسكويت السفن الذي وفرته الأطقم الأمريكية[127].

بعد مذابح العام 1821 ظل اليونانيون لا غنى عنهم للمدينة. وطلبت سميرنا منهم العودة إلى المدينة من السفن التي استقلوها في الميناء. لكن بعد مائة عام كانت الدول والمدن قد تغيرت، إذ كانت حروب كثيرة قد وقعت. انتصرت النزعة القومية على الرغبة التجارية. وبغرض إتمام ما بدأته الحرائق، أمر مصطفى كمال الذي تولى القيادة العليا في المدينة بطرد بقية اليونانيين والأرمن. وفي السادس عشر من سبتمبر وافق تحت ضغط من أمراء البحر والقناصل الأجانب على السماح للقوى الأجنبية بإجلاء كل النساء والأطفال الباقين على قيد الحياة والرجال الأكبر من عمر الخامسة والأربعين والأصغر من عمر الثامنة عشرة. كان مبرر التحديد العمري للرجال هو حالة الحرب المتواصلة مع اليونان. إذ تقرر أن يجري إبعاد الرجال بين الثامنة عشرة والخامسة والأربعين برا لكي يصلحوا الدمار الذي خلفته الجيوش اليونانية المنسحبة. وفي الحادي والعشرين من سبتمبر جرى تمديد الموعد النهائي للإخلاء إلى الأول من أكتوبر[128].

لم تظهر اليونان شيئا من «روح دنكيرك»(*). فقد كانت هناك خمس وعشرون سفينة ركاب فارغة قبالة جزيرة ميتيليني اليونانية القريبة والمئات من المراكب على الجزر الأخرى، لكن نظرا إلى أن كمال لم يضمن سلامة هذه السفن، فإنها لم تجرؤ على الإبحار إلى سميرنا. علاوة على أن العقول اليونانية كانت تركز على السياسة وليس على حياة البشر. واندلعت ثورة بين الجنود على جزيرة ميتيليني في الحادي والعشرين من سبتمبر[129]. وفي النهاية، بدأ أفراد ومنظمات خيرية أمريكية خاصة بقيادة الدكتورة إيستر لافجوي والقس إيسا جيننغز في تنظيم سفن إغاثة صغيرة أبحرت إلى سميرنا تحت حماية العلم الأمريكي(**). وعندما لاحت السفن الأولى على مسافة من الكردون، تحولت «صرخات الألم اليائسة الطالبة للعون» إلى صيحات فرح.

بينما كانت الحشود تتحرك نحو الرصيف الرئيس لركوب البواخر خلال ممرات ضيقة نُصِبت للسيطرة عليهم، كان الجنود الأتراك يفتشونهم أربع مرات ويأخذون منهم «كل الأشياء الثمينة قبل صعودهم إلى السفن». وبين الصرخات والدموع، كان الجنود الأتراك ينزعون الرجال والشبان من عائلاتهم، «مع السماح بمرور الذكور دون عمر الثامنة عشرة وفوق عمر الخامسة والأربعين»، وبعد ذلك وعلى صيحات «هايدي هايدي» Haydi, haydi (هيا أسرع)، كانوا يسوقون الرجال بأعقاب بنادقهم في صفوف من الأسرى المذعورين[130].

(*) تشير عبارة «روح دنكيرك» Dunkirk spirit، إلى الروح التي جرت بها عملية الإخلاء المسماة معجزة دنكيرك Miracle of Dunkirk، التي أجلى فيها الحلفاء قوات كبيرة لهم من على شواطئ ميناء دنكيرك الفرنسي بين 27 مايو و4 يونيو 1940 بعد أن حاصرها الجيش الألماني في أثناء معركة فرنسا، إذ جرى نقلهم بزوارق وسفن صغيرة وسفن تجارية ومراكب مدنية. [المترجم].

(**) إيستر بول لافجوي Esther Pohl Lovejoy (اسمها بالمولد إيستر كلايسون Esther Clayson) (من 16 نوفمبر 1869 إلى 31 أغسطس 1967) طبيبة أمريكية من رواد الصحة العامة وناشطة سياسية وأحد رواد الجهود المبكرة لتنظيم عمل الإغاثة الطبية الدولية، كانت من مؤسسي الجمعية النسائية الطبية الدولية Medical Women's International Association في العام 1919، وأول رئيس لها. ولدت بالقرب من واشنطن، وعلى رغم أنها لم تحصل على تعليم رسمي مبكر، كانت ثانية امرأة تتخرج في المدرسة الطبية بجامعة أوريغون. نالت وسام إليزابيث بلاكويل Elizabbeth Blackwell Medal في العامين 1951 و1957.

أما إيسا كينت جيننغز (1933 - 1877) Asa Kent Jennings، فكان عضوا بجمعية الشبان المسيحيين الأمريكية التي سبقت الإشارة إليها، يقال إنه شارك في إجلاء ثلاثمائة وخمسين ألف لاجئ من شواطئ سميرنا، ولذلك منحته الحكومة اليونانية أعلى وسام مدني (الصليب الذهبي للقديس كسفاريوس)، وأعلى وسام حربي (وسام الاستحقاق العسكري). [المترجم].

رأى قائد الباخرة الأمريكية إدسال Edsall أن الطرق التركية للسيطرة على الحشود كانت ضرورية، إذ كتب في الرابع والعشرين والخامس والعشرين من سبتمبر: «بمجرد أن فُتِحت الأبواب تحولت الحشود إلى غوغاء. فدِيست النساء في الأرض وعبر الرجال فوقهن، ومُزّقت أذرع الأطفال في الزحام ودُفِعوا في وسط حالة من الصراخ والبكاء». استخدم الجنود الأتراك أعقاب البنادق والحراب للسيطرة على الحشود. جرى إركاب خمسة عشر ألف شخص في أربع ساعات، وثلاثة وأربعين ألفا في يوم واحد. أُخِذ النساء والأطفال إلى الجزر اليونانية أو إلى بيروس، بينما أُخِذ الرجال من المدينة للعمل في كتائب السخرة على الطرق وإعادة البناء. مات أغلبيتهم من الجوع أو سوء المعاملة، وهو ما كان قد بدأ فعلا في سميرنا، بينما كانوا يساقون بما أسماه القنصل الفرنسي الذي كان أحد شهود العيان، «الوحشية الأشد على الإطلاق»، خلال الضواحي الإسلامية الفقيرة. نُزِعت منهم حتى الحشوات الذهبية لأسنانهم[131]. كشفت عمليات الترحيل عن الرغبة في الانتقام فقط، وكذلك الرغبة - كما هي الحال في عمليات التطهير العرقي الأخرى - في القضاء على مركز القوة البيولوجية للعدو. من ذلك أن جنديا تركيا قال لأحد المُبعدين: «ستباد شأفتكم على الإطلاق!» وبالفعل لم يرجع غير نحو خمسة عشر ألف مبعد من بين مائة وخمسة وعشرين ألفا[132].

إجمالا، أخلت سفن أجنبية وسفن يونانية ترفع العلم الأمريكي بين السادس عشر من سبتمبر والأول من أكتوبر نحو مائتي ألف يوناني وأرمني (وفقا للتقديرات الأمريكية، وثلاثمائة ألف وفقا لتقديرات أخرى). نقل الأسطول البريطاني الأكبر بين الجميع ستين ألفا، والإيطالي عشرة آلاف، والفرنسي سبعة آلاف. وأُجليت الأغلبية العظمى بسفن أجرتها منظمات خيرية. وبحلول الأول من أكتوبر كان الكردون «خاويا تماما»، على رغم أن المدينة كانت لاتزال مملوءة بالبراميل والصرر التي تخلى عنها اللاجئون(*). وسرعان ما أحيطت أثينا وسالونيك بمدن من الخيام يسكنها اللاجئون من سميرنا[133].

في غضون أسبوعين، غيّرت المدينة هويتها من مدينة يونانية كوزموبوليتانية إلى مدينة تركية، تماما كما غيّرت اسمها من سميرنا إلى إزمير. ثمة صعوبة تكتنف

(*) الصُّرر جمع صُرة وهي الأمتعة المصرورة أو المحزومة. [المترجم].

تقدير أعداد الموتى، وذلك بسبب عدم توافر أعداد اللاجئين الذين وصلوا إلى المدينة وأولئك الذين كانوا قد غادروها قبل الثاني عشر من سبتمبر. وعموما، تتراوح تقديرات الموتى بين ثمانين ألفا ومائة وثمانين ألفا. أما اليونانيون الذين غادروا قبل الثاني عشر من سبتمبر فكان من بينهم أشخاص موسرون نسبيا، مثل الروائيين كوسماس بوليتيس وديدو سوتيريو Dido Sotiriou وعائلتيهما والدكتور بسالتوف الذي قاتل في صفوف الجيش اليوناني في العامين 1897 و1912[134]. حتى الأجانب أصحاب الامتيازات فروا إلى مالطا أو قبرص أو اليونان. وجدت هورتينس وودز بيتها وقد احتله نور الدين، وأخذ كمال ورئيس هيئة أركانه عصمت إينونو يترددان عليه في النهار كمقر لهم، وإن كان ذلك قد وفر حماية لها. لكنها لاحظت في بورنوفا، على الرغم من وجود بطلها مصطفى كمال، أن «أبواب البيوت كانت مفتوحة، وكثير من البيوت منهوبة ومهجورة، والشوارع خاوية، وقد هجر القرية كل سكانها السابقين وأصدقاؤنا. هل سيعودون يوما ما؟» [135].

***

أنتجت النزعة القومية كارثة. بيد أن بعض اليونانيين والأرمن وجدوا عونا من جيرانهم الأتراك أو اليهود أو من الأجانب أو من جنسياتهم الأجنبية. ففي حين فرّ بعض أفراد عائلة بالتازي إلى أثينا، أخذ آخرون من العائلة الجنسية الإيطالية وظلوا في فيلاتهم في بوكا يحميهم جنود إيطاليون[136]. وبفضل تجنسهم بالجنسية البريطانية، رافق جنود البحرية البريطانية رجال الأعمال الأثرياء من أفراد عائلة إيسيغونيس إلى بارجة بريطانية. مات أبوهم على متن السفينة، ووصلت العائلة إلى لندن في حالة من الإفلاس. أما أليك إيسيغونيس الذي وُلِد في سميرنا في العام 1906، مخترع السيارة ميني وصاحب العبارة الشهيرة «القليل يكفي ويزيد» less is more (الملائمة للاجئ ناجح)(*)، فلم يذكر المدينة ثانية، وهو ما فعله كثير من لاجئي سميرنا. كانت الطريقة التي ضاعت بها المدينة مؤلمة جدا: «مات ذلك الجزء من العالم بالنسبة إلينا»[137].

ثمة عائلة يونانية أخرى هي أوناسوغلو Onassoglou لم تتمتع بمثل هذه الحماية الأجنبية. لذلك شُنِق أحد أعمام أرسطو أوناسوغلو (أوناسيس)، وأُبْعِد اثنان

(*) ربما تكون لهذه العبارة علاقة بالسيارة ميني الصغيرة التي صممها للشركة البريطانية للسيارات، فضلا على ارتباطها بحياة اللاجئ الذي لا يثقل نفسه بالأشياء. [المترجم].

منهم شرقا، لكنهما عادا حيّين. وأُحرِق بعض أقاربه أحياء في إحدى الكنائس. وانتهت الحال بسبع عشرة قريبة له في مخيمات اللاجئين في أثينا. أما جده حاجي نيني Haci Nene الذي لم يكن يتحدث غير اللغة التركية، فقد قتله لص يوناني على مركب متجه من سميرنا إلى جزيرة ليسبوس اليونانية. وتزوجت ابنة عمه أنتيوب Antiope من رجل تركي، أو ربما خطفها، وانقطعت كل صلاتها بعائلتها اليونانية. أما والد أرسطو المدعو سقراط أوناسوغلو Socrates Onassoglou، فقد سُجِن في إزمير، وأُطْلِق سراحه أخيرا، رجلا مكسورا، بعد أن جمع ابنه توقيعات من أتراك ويهود على التماس بالرحمة. استخدم أرسطو الذي كان حينئذ في عمر الثامنة عشرة لغته التركية للعمل «قهرمانا»(*) لدى بعض الضباط الأتراك الذين أقاموا في فيلا العائلة في كاباتاش Kabatas. ومكّنته صداقته بنائب القنصل الأمريكي من المغادرة على متن سفينة أمريكية في الخامس من أكتوبر، وبعد أن قضى بضعة أشهر في إسطنبول وأثينا، أبحر إلى بوينس آيرس التي كوّن فيها ثروته، على نحو ما يتميّز المشرقيون من العمل في الشحن البحري. لكن سميرنا ظلت في قلبه. فعاد إليها على يخته ثلاث مرات، في الأعوام 1955 و1959 و1963. وفي الزيارة الأولى، وجد البيانو نفسه والأثاث لايزال موجودا في فيلا العائلة التي احتلها كريتيون[138](**).

***

على من تقع اللائمة؟ لعله من الموحي والكاشف أن يكون مصطفى كمال أول من تشير إليه أصابع الاتهام. فمنذ الخامس عشر من سبتمبر، وهو وقت مبكر فعلا، وبينما كانت الحرائق لاتزال تستعر، قال كمال للقنصل الفرنسي ميشيل غرييليه Michel Graillet إن مسلحين أرمن ويونانيين كانوا وراء الأحداث[139]. وكرر الادعاء نفسه في برقية بتاريخ السابع عشر من سبتمبر إلى وزير الخارجية يوسف كمال بيه في أنقرة كُتِب عليها «مهم وعاجل»:

> «أجدني مضطرا إلى التعليق على حريق إزمير كشهادة للمستقبل.
>
> لقد اتخذ جيشنا كل الإجراءات اللازمة لحماية إزمير من الحوادث قبل أن يدخل المدينة. غير أن اليونانيين والأرمن كانوا قد قرروا بخطط وضعت

(*) القهرمان هو كبير الخدم. [المترجم].

(**) أتراك أو مسلمون لاجئون من جزيرة كريت. [المترجم].

مسبقا أن يدمروا إزمير. وقد سمع المسلمون خطبا لخريسوستوموس في الكنائس تؤكد أنهم اعتبروا حرق إزمير واجبا دينيا. فقد حدث الدمار على أيدي تنظيم خريسوستوموس. يؤكد ذلك كثير من الوثائق وروايات شهود العيان. وقد فعل جنودنا كل ما في وسعهم لإطفاء الحرائق. ومن ينسبون ذلك إلى جنودنا يستطيعون أن يأتوا إلى إزمير ليروا الحال بأعينهم. غير أن التحقيق الرسمي في أمثال هذه الحوادث أمر غير وارد. وبالفعل يُجري مراسلو صحف من جنسيات مختلفة في إزمير حاليا هذا التحقيق. وحاليا يلقى السكان المسيحيون عناية جيدة ويعاد اللاجئون إلى أماكنهم»[140].

من اللافت للانتباه أن مصطفى كمال يفترض أن البرلمان التركي يعتبر أنه من الواجب معاملة مسيحيي المدينة بـ «عناية جيدة»، وليس طردهم أو إبعادهم. وبالمثل، حاول فالح رفقي أطاي أن يطمئن قراءه بأن المسيحيين كانوا لايزالون يعملون في سميرنا وأن الحصاد لم يُدمَّر، وهي رواية منافية للواقع. ففي الواقع صدِّرت سميرنا في تلك السنة البشر، وليس التين[141]. ثمة أصابع أخرى في ذلك الوقت - تركية وغير تركية - ألقت باللائمة عن إشعال الحرائق أيضا على يونانيين أو أرمن كانوا يرتدون البزات الرسمية التركية. كان من بين هؤلاء الأدميرال الفرنسي دومينيل Dumesnil والأدميرال الأمريكي مارك بريستول Mark Bristol وبعض الصحافيين وألكسندر ماكلاغلان Alexander MacLachlan رئيس الكلية الدولية بإزمير. ففي عدد صحيفة «تايمز» بتاريخ 25 سبتمبر 1922 - على سبيل المثال - نُسب إلى ماكلاغلان أنه قال إن الجنود الأتراك الذين أشعلوا الحرائق كانوا في حقيقتهم أرمن متنكرين[142]. غير أن هؤلاء المدافعين كانوا عادة أناسا لهم أعمال تجارية أو مطالبات تأمينية أو مؤسسات أو مصالح قومية يحمونها. فبسبب رغبتهم في مواصلة التعامل مع تركيا الجديدة، ربما خاف هؤلاء من إغضاب قادتها، أو ربما كانوا معجبين بهم[143]. وتتمثل الحجة الرئيسة الداعمة للمسؤولية التركية عن الحرائق في سلامة الأحياء التركية واليهودية بينما دُمِّرت الأحياء الفرنجية واليونانية والأرمنية، ومن غير المرجح أن يقدم اليونانيون والأرمن على إحراق أحيائهم فقط.

علاوة على ما تقدم، فإن الجيش التركي كان يتولى قيادة المدينة في أثناء الحرائق، وكان بالتالي مسؤولا عن الأحداث التي تقع فيها. ومن منظور عالِم النفس، تتمثل

حجة أخرى في السرعة التي سدد بها كمال إصبع الاتهام إلى الآخرين، علاوة على أنه وظّف الحرائق أو استفاد منها. إذ توحي السرعة التي قُتِل بها الناجون اليونانيون والأرمن أو طُرِدوا أو أُبْعِدوا بعد ذلك، على خلاف التطمينات الواردة في برقية كمال بتاريخ السابع عشر من سبتمبر، بوجود خطة. كما تتمثل حجة أخرى في أن جنودا أتراكا كانوا يحمون بعض البنايات المميزة، مثل جمعية الإغاثة للشرق الأدنى، وكأنه كان هناك توقع بوقوع كارثة[144].

من الصعب تحديد المسؤول عن الأحداث على وجه الدقة. تولّد الأحداث زخمها، وتولّد الحرب جنونا، حتى لدى عبقرية سياسية مثل مصطفى كمال، وكذلك لدى الجنود العاديين. كما أن كمال لم يكن يسيطر سيطرة كاملة على كل قطاعات الجيش التركي طوال الوقت. وكان كثيرا ما يغير رأيه، تماما كما كانت الرياح في سميرنا تغير اتجاهها. من ذلك أنه أعلن في الثالث عشر من سبتمبر أن تركيا في حالة حرب مع بريطانيا، ثم أنكر ذلك في اليوم التالي، مدعيا أنه أسيء فهمه[145]. وفي التاسع والعشرين من أكتوبر، قيل للأجانب إن خدمهم اليونانيين جميعا يجب أن يغادروا، وفي الثاني من نوفمبر كتبت هورتينس وودز أن «كمال طلب ألا يتعرض أحد للخدم في البيوت الأوروبية»[146].

نظر معظم الأتراك إلى الكارثة في حينها بوصفها تحررا. وبينما كان نصف المدينة يحترق، كان نصفها الآخر يعلق الأعلام التركية. كتب أطاي أن «الحرائق دمرت قدرا كبيرا من ثروة مسلمي المدينة، لكن الأجزاء الواقعة فوق الجبال وأحياء فردية مختلفة في المدينة أفلتت من الدمار. وعلى رغم أن احتراق المدينة شكّل خسارة فادحة، فإن إزمير الإسلامية لم تفقد شيئا من فرحة الانتصار. فعُلّقت الأعلام في كل مكان في الشوارع». لكن على الرغم من فقد الذاكرة الوطني المتعمد، طفت الانتقادات للحريق إلى السطح لاحقا بين بعض الأتراك بتعبيرات مكتومة تحمّل المسؤولية للأتراك[147]. كتب عصمت إينونو في مذكراته أن الصغار قالوا إنهم كانوا ينفذون الأوامر، وأن الكبار اشتكوا من قلة الانضباط. كان كل شخص يلقي باللائمة على شخص آخر. وكان نور الدين كبش فداء ملائما. قال فوزي جقمق Fevzi Cakmak رئيس هيئة الأركان في العام 1922 إن كمال لم يغفر لنور الدين. لكن كمال هو الذي عيّنه. تُرى، ما الذي نوقش في سراي الكوناك في العاشر من سبتمبر؟ لاحقا أصبح نور الدين نائبا برلمانيا، وطلب في وصيته أن يدفن في إزمير

على الكردون[148]. وعموما، فإن مصطفى كمال كان القائد الأعلى للمدينة في أثناء الحريق، وكانت سميرنا مسؤولة منه. وربما كانت نيته أن يستخدم الحريق لطرد اليونانيين وضمان ألا تبقى لهم مدينة يريدون العودة إليها لاحقا.

وبما يتناقض مع ما كتبه في أثناء الأحداث في صحيفة أكشم Aksam حول «آلاف الجنود... الذين ناضلوا ببسالة لإطفاء الحرائق»، كتب فالح رفقي أطاي في مذكراته في نسختها الأولى التي لم تخضع للرقابة:

«احترقت إزمير الكافرة وأتت عليها نيرانها في الظلام ودخانها في وضح النهار. هل المسؤولون عن الحرائق هم فعلا الحارقون الأرمن كما قيل لنا في تلك الأيام؟... وحيث إنني قررت أن أكتب الحقيقة على حد علمي، فإنني أريد أن أقتبس صفحة من الملاحظات التي دوّنتها في تلك الأيام. ساعد النهّابون في نشر الحرائق... لماذا أحرقنا إزمير؟ لقد خشينا من أن السرايات (المكاتب) والفنادق والحانات الكائنة على الواجهة المائية للمدينة لو بقيت في مكانها، فإننا لن نتمكن من التخلص من الأقليات؟ وعندما كان الأرمن يُبْعَدون في أثناء الحرب العالمية الأولى، كنا نحرق كل المناطق والأحياء المأهولة في البلدات والمدن الأناضولية بدافع من هذا الخوف نفسه. لا ينشأ ذلك عن دافع للتدمير فقط، بل ينطوي أيضا على شيء من الشعور بالدونية. إذ بدا أن كل مكان يشبه أوروبا كان محتما أن يظل مسيحيا وأجنبيا وأن الآخرين سينكرونه علينا».

وإذا وقعت حرب أخرى وهُزِمنا فيها، فهل سيكون ضمانا كافيا للحفاظ على تركية المدينة إن نحن تركنا إزمير خرابا خاويا على عروشه؟[149] لولا نور الدين باشا الذي أعرف أنه متعصب عنيد وزعيم دهماوي، لا أعتقد أن هذه المأساة كانت ستمضي إلى نهايتها المريرة. ولا شك في أنه استمد قوة إضافية من مشاعر الحقد والانتقام التي سيطرت على الجنود والضباط الذين شهدوا الدمار والسكان الباكين والمعذبين بالبلدات التركية التي أحرقها اليونانيون وحولوها إلى رماد على طول الطريق من أفيون[150].

لم يبدِ كمال أسفا على الحريق. وبعد أن أقام ثلاث ليال في فيلا إبيكشي زاده Ipikcizade على الكردون، قاد سيارته في الرابع عشر من سبتمبر خلال آلاف

اليونانيين والأرمن الذين يتأوهون ويصرخون، وإن لم يكن مساره المحدد معلوما، ليقيم مع عائلة أوشاكليغيل في سرايتهم في حي غوزتبي Goztepe جنوب وسط المدينة. وكان وجهه في أثناء مروره وضاء بوهج الحرائق[151].

كان سراي عائلة أوشاكليغيل الكلاسيكي المنيف في غوزتبي، الذي تحول حاليا إلى متحف، يقع على تل على بعد ثلاثة أميال من وسط المدينة ولا يُرى من المدينة، غير أن الدخان المتصاعد من وسط المدينة كان من دون ريب مرئيا للسراي وساكنيه. كان السراي بسبب لون صبغته يعرف باسم الكشك الأبيض Beyaz Kosk. استقبلت كمال هناك صاحبة البيت الفتاة الجميلة لطيفة Latife، بجرأة غير معهودة في ذلك الزمان، عادت لطيفة وحدها إلى سميرنا للعناية بجدتها المريضة، بعد أن أمضت ثلاث سنوات مع أبويها في فرنسا. وبجرأة أشد، وفي غياب أبويها، وعلى رغم أنها امرأة عزباء، أعدت لطيفة البيت واستقبلت مصطفى كمال الذي كانت متيّمة به بهذه الكلمات: «شرفت إزمير وحققت حلم الأمة التركية وشرفتني وشرفت بيتي. مرحبا بالباشا ومرحبا بكل الباشوات». أقام كمال وضباطه في البيت الأساسي، وأقامت لطيفة في أجنحة الخدم، ونزل بقية ضباط كمال في البيوت الأخرى الواقعة في الحديقة.

أعجب كمال وحاشيته كثيرا بالبيت وبالطعام. فبعد أن أُفْقِرت الأناضول، كان العشاء في شرفة مع الكالاماري والمَزة وفيض من النبيذ والراكي لا يقل عن جنة(*). قال كمال: «بيتك جميل، جميل جدا يا لطيفة هانم».

لم يقلل الكابوس الماثل على الكردون والحرائق في المدينة من استمتاعهم. روى شهود عيان الحوار التالي بين المضيفة والضيف:

- «هل لكم أي أملاك في المنطقة المحترقة؟»

- «أهم جزء من أملاكنا يوجد هناك. لكنني لا أهتم، فلتحترق أملاكنا كلها، كل ما يهمني هو سلامتك. لا تهمني كل أملاكنا في مقابل هذه الأيام السعيدة التي نعيشها. إن الحالة آمنة والبلاد آمنة. ونستطيع أن نعيد بناءها على نحو أفضل».

- «نعم فلتحترق! ولتتهدم! نستطيع أن نعوّض عن كل شيء».

(*) الكالاماري calamari، اسم آخر للحبّار الذي يعد من الأطباق المفضلة في حوض البحر الأبيض المتوسط. والمَزة meze هي المقبلات التي تؤخذ مع المشروبات الكحولية. [المترجم].

التصقت عبارة كمال الأخيرة في ذاكرة لطيفة، وكررتها بعد شهر في رسالة إلى مساعد لكمال يدعى بوزوك بيه Bozok Bey. من الواضح أن كمال أراد أن يُحدِث «تغييرا جذريا» في إزمير. ولاحقا أثنى كمال على «الجهود الوطنية من كل أفراد الجيش لطرد غير المسلمين من الأناضول الغربي»[152].

أعجب كمال كثيرا بتنظيم لطيفة لبيتها. فكان يقضي يومه في مقر عمله في بيت هورتينس وودز في بورنوفا الذي سحر فيه السيدة العجوز وعائلتها، ويقضي أمسياته في غوزتبي. وقال إنه يتمنى أن تدير لطيفة قواعد الجيش أيضا، وحينئذ لا بد أنها ستكون الضابط المرافق له. وبدأت المغازلة. إذ بدأت الصحف تصل إلى غرفة كمال وقد رسمت لطيفة زهورا حول صور كمال[153]. من جانبه، أهداها كمال مسدسين كانا يخصان الجنرال تريكوبيس، لايزالان إلى اليوم محل إعجاب الزوار في صالة أتاتورك بالمتحف الحربي في إسطنبول. وفيما بعد، ظلت لطيفة دائما تحمل أحد المسدسين في حقيبة يدها، تذكارا لتحرير إزمير وكذلك تذكارا لكمال[154].

لم تفت المغازلة بين كمال ولطيفة على خالدة أديب حادة الملاحظة، حين جاءت في الثامن عشر من سبتمبر للعشاء في الكشك الأبيض مع صحافيين من القسطنطينية وكمال وضباطه المرافقين. واحتفالا بتحرير إزمير شربت خالدة ولطيفة الشمبانيا وشرب كمال الراكي. وإذ هم جلوس فوق ما بقي من المدينة، تحدث كمال عن طفولته في سالونيك وغنى أغاني من الروملي. وقال رئيس هيئة أركانه عصمت وهو ينظر إلى الخليج: «ستعمّ الحياة والازدهار في غضون فترة قصيرة بعد أن تخلصنا من ذلك الكابوس من أرضنا»[155]. فمثل كمال، وبما يعكس روح العصر، كان عصمت يبالغ في تقدير قوة الدولة ويقلل من تقدير قوة المدن كفاعل تحديث. وفي الثاني من أكتوبر غادر كمال مدينة إزمير المدمرة إلى أنقرة التي أصبحت بعد ذلك بقليل عاصمة الجمهورية التركية.

***

كان المشرق صنيعة البحر. إذ كانت السفن تجلب التجار والمدرسين والمهاجرين إلى سميرنا والإسكندرية وبيروت، ما يحيلها إلى مدن كوزموبوليتانية غنية ترتبط بأوروبا إضافة إلى ارتباطها بمناطقها الداخلية. وكانت السفن أيضا هي التي جلبت القوات البريطانية إلى الإسكندرية في العام 1807 والعام 1882،

والقوات الفرنسية إلى بيروت في العام 1860 والعام 1918، والقوات اليونانية إلى سميرنا في العام 1919.

لكن بحلول العام 1922 كان اتجاه المد قد تغير. كانت السفن تفقد سطوتها، كما تكشف للبحرية الملكية البريطانية التي ظلت مقتدرة حتى ذلك الحين، عندما فشلت في مارس 1915 في شق طريقها خلال الدردنيل أمام حقول الألغام وإطلاق النيران من البطاريات الشاطئية التركية. بدأت الجغرافيا تتغلب على التقنية، والجيوش على الأساطيل. كان «الديبلوماسيون الرماديون»(*) بالبحرية الملكية متلهفين لقصف الإسكندرية في العام 1882، لكن على رغم أنهم كانوا قبالة سميرنا في العام 1922 فإن مدافعهم ظلت صامتة.

رأى فالح رفقي أطاي أن الانتصار التركي في حقيقته انتصار لليابسة على البحر. كتب أطاي عندما رأى مصطفى كمال في سيارته، ربما في ليلة الثالث عشر من سبتمبر، ذاهبا من حي كارشياكا الواقع شمال خليج سميرنا إلى حي غوزتبي الواقع جنوب المدينة: «على خلاف السفن، كانت هذه السيارة السائرة في زاوية البحر الأبيض المتوسط في إزمير مثل تجلٍ أنار كل أركان الكفاح القومي فجأة». وبالنسبة إلى الجنود اليونانيين المدحورين والذخيرة والركاب اليونانيين الذين تقطعت بهم السبل على الكردون، أثبت «البحر الذي رأوه في السابق حليفا لهم، أنه مانع هائل يغلق الطريق أمامهم إلى اليونان»[156].

في أوج النزعة القومية، وجدت الموانئ الكوزموبوليتانية نفسها مهددة. فبعد العام 1918 طُلْينت تريسته، وسُوفْيتت أوديسا. وانتقلت عاصمة روسيا من سانت بطرسبورغ إلى موسكو، تماما كما انتقلت عاصمة تركيا بعد خمس سنوات إلى المنطقة الداخلية: من القسطنطينية إلى أنقرة. وفي الحالتين، تمثل الدافع في نقل الحكومة من ميناء دولي إلى «قلب الأمة». وفقدت أوديسا وسانت بطرسبورغ كلتاهما جالياتهما الأجنبية وجزءا من نخبتهما المتعلمة التي فرت إلى الغرب. كما تكبدت سانت بطرسبورغ أيضا شكلا من أشكال موت المدن، بالمجاعة ونمو الحشائش في شوارعها وفقدان نصف سكانها[157].

(*) «الديبلوماسيون الرماديون» The Grey Diplomatists، اسم كتاب لكينيث إدواردز Kenneth Edwards صادر في العام 1938 يصف كيف نفذ الأسطول البريطاني سياسة ديبلوماسية فعالة، والرمادي بالتأكيد هو لون بزاتهم العسكرية. [المترجم].

كان حريق سميرنا بمنزلة انتقام الفقراء من الأغنياء، وفي الوقت عينه انتقام المنطقة الداخلية من مينائها. فقد انخرط في صفوف الجيش التركي من أسماهم أندرو مانغو Andrew Mango «جنودا مسلمين غير نظاميين احترفوا الإجرام فترة طويلة، يفسر وجودهم في صفوف قوات كمال سبب تدفق اللاجئين المسلمين مع اليونانيين إلى سميرنا قبل التاسع من سبتمبر»[158](*).

تقدم كارثة سميرنا درسا حول أخطار تجاهل الجغرافيا والاعتماد على القوى الأجنبية. كتب مدرس إلى الاتحاد الإسرائيلي العالمي كلمات يمكن أن تنطبق على أي أمة في ساعة انتصارها. أرجع هذا المدرس الهزيمة اليونانية إلى «عمى الشعب اليوناني وحماقته وغطرسته... فعندما يكون المرء متكبرا، ويحتقر الآخرين، ومستغرقا أكثر مما ينبغي في ذاته وعرقه وقيمته العظيمة، فإن ذلك يخلق عقلية متغطرسة تجعله يرى في نفسه أكثر كثيرا مما فيها ويحتقر من حوله»[159].

بيد أن القوى العظمى حمت القسطنطينية من مصير سميرنا[160]. فقد أرادت الحكومة التركية أن يغادر اليونانيون جميعا القسطنطينية، حتى البطريركية المسكونية نفسها[161]. وفي نوفمبر 1922 قال رفعت باشا ممثل كمال لدبلوماسي بريطاني إن «اليونانيين إن لم يُطرَدوا فعلا، فسوف يرون أن من الأفضل لهم أن يغادروا، لأنهم في المستقبل لن يتمكنوا من كسب قوتهم في تركيا الجديدة. إذ سيمسك الأتراك زمام التجارة بأيديهم، وكان رفعت قد بدأ فعلا في العمل من أجل هذه النتيجة»[162]. لكن قوات الحلفاء كانت لاتزال تحتل القسطنطينية. وكحجة أخرى أريد أن تستخدم في مفاوضات السلام الدائرة مع تركيا في لوزان، وفي تجاهل للاحتجاجات التركية، أبحر أسطول بريطاني في فبراير 1923 إلى ميناء إزمير على مرأى من حشد تجمع على الكردون[163].

تمكنت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا، مدعومة بالتهديد باستخدام القوة والمعاهدة التي وقّعت مع تركيا في لوزان في العام 1923، من ضمان حقوق الأقليات في العيش في إسطنبول واستمرار البطريركية المسكونية فيها. لقيت هذه الحقوق حماية إضافية من السماح للأتراك بمواصلة العيش تحت الحكم اليوناني في تراقيا الغربية.

(*) بمعنى أنهم لم يستثنوا من إجرامهم حتى المسلمين إخوتهم في الدين. [المترجم].

ولايزال أكثر من مائة ألف تركي يعيشون في تراقيا، بينما غادر كل اليونانيين إسطنبول أو طُرِدوا منها، منهم مائة وخمسون ألفا غادروا في الفترة بين العامين 1922 و 1924 وحدها، ولم يبق في المدينة غير نحو ألفين أو ثلاثة آلاف. وعلى نحو ما تنبأ رفعت، فقد نجحت الحكومة التركية في عملية تتريك إسطنبول التي تسارعت بسبب ضريبة رأسمالية فُرِضت على الأقليات في العام 1942، وأعمال شغب معادية لليونانيين في العام 1955، كما طُرِد اليونانيون في أثناء تدهور أزمة قبرص في العام 1964. لكن في المقابل لم تشهد سميرنا إراقة للدماء[164].

***

بعد أن انتقل كمال إلى أنقرة في أكتوبر 1922 تواصلت عملية التشتيت الكبرى لسميرنا. في بادئ الأمر، هلل بعض اليهود للانتصار التركي على أمل أن تستفيد المدارس اليهودية من دمار منافساتها اليونانية والأرمنية. لكن سرعان ما غيّروا رأيهم. انهارت الخدمات البلدية، ومن بينها إمداد الكهرباء والصرف الصحي. وفي 8 يناير 1923 كتب مدرس يدعى إي بن أرويا E. Benaroya للاتحاد الإسرائيلي العالمي في مقره بباريس:

> أصبحت الحياة في سميرنا أسوأ من تلك التي عايشناها في المغرب قبل الاحتلال الفرنسي، إذ صارت الحياة كئيبة مملة خالية من أي لهو مادي أو روحي. فقد اختفت المسارح ودور السينما والمقاهي والأندية التي كانت تتوافر فيها صحف من العالم كله والتي كنا نجد فيها تسلية تعليمية ومستساغة، إذ أكلتها الحرائق... إننا نعيش هنا كالنُساك، تحيطنا المحرمات من كل الأنواع الممكنة والمتخيلة، وتعرفات جمركية لا تطاق. إننا باختصار محملون بكفارة لا نعرف عن أي ذنب اقترفته أيدينا.

تذمرت الصحيفة التركية «الخدمة»، التي تُعرَف حاليا باسم «يانيك يورت» Yanik Yurt (الأرض المحروقة)، هي الأخرى من كآبة الحياة في إزمير[165]. وتراجع عدد اليهود في إزمير من نحو عشرة آلاف في العام 1932 إلى خمسة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وثمانين في العام 1955، إلى أربعة آلاف وسبعة وستين في العام 1965[166].

لم يكن يهود إزمير في هذه المرحلة يعتبرون فلسطين أرضهم الموعودة. وفضّلوا عليها إسطنبول ومصر وفرنسا أو - لأن الإسبانية كانت لغتهم الأم - أمريكا الجنوبية.

وإلى اليوم توجد «محلة الإزميرليين» Izmirliler Mahallesi (حي الإزميريين) في بوينس آيرس. كان من بينهم المغني الشهير الغازي إسحاق Algazi Izak المعروف باسم «بلبل سالومون» Bulbul Salomon (سليمان العندليب) المولود في سميرنا في العام 1889، والذي كانت أغانيه التركية الكلاسيكية تسكّن آلام أتاتورك وهو يحتضر في العام 1938؛ وتوفي البلبل في مونتيفيديو في العام 1950[167].

فشلت الكوزموبوليتانية في سميرنا. إذ من خلال نجاحها نفسه ومن خلال استخدام المسيحيين اتصالاتهم وقواتهم الأجنبية لتقوية مؤسساتهم وزيادة أرباحهم، جعلت رد الفعل التركي أمرا حتميا. بيد أن القومية هي الأخرى أثبتت فشلها في بادئ الأمر.

في مارس 1923 وصفت هورتينس وودز إزمير بأنها «أشد المناظر القابضة للنفس، فهي حزينة كما يمكن أن يكون الحزن»[168]. ظلت الأطلال المُسودة بفعل الحرائق وأكوام الحجارة والأنقاض التي يتخللها العشب وقطعان الماعز المتجولة، تشوه قلب المدينة حتى الخمسينيات. وعلى رغم طرد اليونانيين من سميرنا، فإن أحدا لم يستطع أن يطرد اللغة اليونانية، إذ ظل الصبية من حي ألسانجاك، الذي كثرت فيه العائلات الكاثوليكية التي كانت لاتزال تتحدث اللغة اليونانية، يطلقون على المنطقة التي يلعبون فيها اسم «تا كامينا» ta kamena بمعنى «الأماكن المحروقة»[169].

لم يجنِ تحديث تركيا شيئا من تدمير أكثر مدنها حداثة وبعض أحدث مدارسها ومستشفياتها وأعمالها التجارية. وحتى إذا قبلنا الحاجة إلى طرد اليونانيين والأرمن لخلق اقتصاد قومي، فقد كان من شأن الطرق الألطف أن تنقذ الأرواح، وأن تسهم كذلك في تسريع عملية خلق اقتصاد تركي قوي.

في 26 يناير 1923 اسْتُقبِل كمال بفرحة ورهبة عندما عاد إلى إزمير لعقد مؤتمر اقتصادي. أثيرت في المؤتمر انتقادات لكل من تحرير المرأة والتأثير الاقتصادي لرحيل اليونانيين والأرمن[170]. فقد طارد التريييف والفقر تركيا. وفي العام 1913 كان نحو 27 في المائة من سكان تركيا حضريين، بينما انخفضت هذه النسبة في العام 1927 إلى 17 في المائة[171]. وانخفض عدد سكان إزمير نفسها من مائتين وخمسة وعشرين ألفا في العام 1914 إلى مائة وأربعة وخمسين ألفا في العام 1927. وعلى غرار ما شهدته

سانت بطرسبورغ، لم تستعد سميرنا أهميتها السابقة، فما «قتله العام 1922 كان المدينة نفسها» على حد قول الصحافي إنغين أرديش Engin Ardic[172].

في أثناء المؤتمر في إزمير، تزوج كمال من لطيفة. كانت والدته زبيدة هانم قد سبقته من أنقرة لكي تطلب يد لطيفة التي كان أبواها قد وصلا من فرنسا للسبب عينه. وحدث الزفاف - تبادل العقود - في إزمير في التاسع والعشرين من يناير، إذ حوَّل كمال عشاء نصر أقامه معمر أوشاكليغيل والد لطيفة في الكشك الأبيض إلى مأدبة زفاف. تباهت لطيفة لاحقا بأنه ربما كان أول عشاء زفاف في تركيا تجلس فيه العروس والعريس على طاولة واحدة. أعطى كمال لطيفة نسخة مصغرة من القرآن في علبة ذهبية كان يلبسها حول رقبته طوال حرب الاستقلال. وقَبّل حاكم إزمير يد العروس ووصفها بأنها فاتحة قلب فاتح المدينة. أما معمر بيه الذي لم يكن يتدخل عادة، فقد توسل إلى ابنته على ركبتيه أن تعيد النظر في أمر الزواج بالقول: «فكري ثانية، فالقاعدة العسكرية ليست بيتا». لكنها أصرت. وانفصل الزوجان بعد سنتين، ولم يتزوج أي منهما ثانية[173].

***

ساد العام 1923 في إزمير وسالونيك، التبادل القسري للسكان بين اليونان وتركيا الذي وافقت عليه الحكومتان اليونانية والتركية في لوزان. كان ذلك في نظر البعض كارثة، وفي نظر آخرين تحررا من الجيران المخيفين والمكروهين. استوطن اثنان وثلاثون ألف مسلم من اليونان في إزمير وحولها، أحضر كثيرون منهم اللغة اليونانية معهم، وكذلك حنينا لا يموت إلى سماء مقدونيا وجبالها[174]. كان المسلمون البلقانيون يُشاهَدون وهم يستخدمون الشمسيات ذات الحواف المخرمة التي تركتها السيدات اليونانيات، لحماية أنفسهم من الشمس الأناضولية وهم يعملون في الحقول[175].

أُحْرِق حصاد العام 1922، ولم يجمع حصاد العام 1923 لأن المهاجرين الجدد المعتادين على الحبوب والتبغ لم يكونوا يعرفون كيف يتعهدون التين والكرم والزيتون. فانخفضت الصادرات بمقدار النصف[176]. وفقد المستوردون الأجانب شركاءهم القدامى واشتكوا من أنهم أصبحوا لا يعرفون أحدا في إزمير يشترون منه التين أو الكشمش[177]. وفي العام 1924 كتب القنصل الفرنسي أن «الفوضى وانعدام الكفاءة

يسودان الإدارة. يبدو أن حكومة أنغورة قد أنجزت التدمير الاقتصادي لتركيا(*). وتُمارَس من أنغورة درجة من الديكتاتورية العسكرية لم يجرؤ معها أحد على أن يرفع صوته». ولم يعد للبنوك الأجنبية مشروعات أو أعمال تنفذها. بيد أن القنصل يعكس وجهة نظر الأجانب. ففي تلك السنة تأسس في أنقرة بنك إيش Is Bankasi بدعم من معمر أوشاكليغيل للمساعدة في خلق اقتصاد قومي. يعد هذا البنك اليوم واحدا من أكبر البنوك في تركيا[178]. غير أنه لم يُجر إلى الآن تقييم موضوعي لعملية تتريك الاقتصاد، وإن كان رجال الأعمال الأتراك، ربما لإرضاء حكومتهم، قالوا إن مستويات الإنتاج قبل الحرب كانت قد استُعيدت بحلول العام 1925. بينما أبدى الديبلوماسيون الأجانب ازدراء شديدا للشركات التركية الجديدة[179].

لم تعد سميرنا ميناء مشرقيا كبيرا «يتمتع بعلاقات تجارية مع العالم أجمع» على نحو ما وصفها «المؤشر المشرقي» في العام 1922[180]. وانتقل كثير من شركات سميرنا إلى أثينا أو الإسكندرية أو تريسته أو مارسيليا[181]. حتى المسلمون غادروا المدينة. شغل معمر أوشاكليغيل منصب رئيس بلدية المدينة في العام 1923 واستقال في العام التالي بسبب خلاف حول ما إذا كانت شوارع المدينة يجب أن تنار بالغاز أم بالكهرباء. كان معمر قد فقد كثيرا من أملاكه القريبة من الحي الأرمني، لكنه حصل على بعض التعويض في شكل أسهم. وأشارت خالدة أديب تورية إلى أن عائلة أوشاكليغيل اغتنت من خلال زواج لطيفة أكثر مما اغتنى كمال نفسه(**). ويعتقد آخرون أن مهر لطيفة الذي ربما كان ستمائة وستين ألف دولار ساعد في تغطية تكاليف إعمار أنقرة(***). واستقرت عائلة أوشاكليغيل، ومنهم لطيفة بعد طلاقها، في إسطنبول في العام 1925، وكانت مغادرة هذه العائلة الثرية أمارة على كسوف إزمير[182].

كان من بين العائلات الإزميرية الأخرى التي غادرت، عائلتا كوين وفوربس اللتان انتقلتا إلى أثينا. وإلى الولايات المتحدة الأمريكية، انتقلت عائلة فان لينيب التي

(*) أنغورة Angora، هو الاسم التاريخي لأنقرة. كانت أنقرة «قبلة الحركة الوطنية» إبان حرب الاستقلال التركية، مجرد بلدة أناضولية فقيرة تضم عشرين ألف نسمة فقط، قالت خالدة أديب عن أيامها فيها في زمن النضال: «عشنا مثل أعضاء طائفة دينية حديثة التأسيس في النقاء الكامل لانطلاقتها». [المترجم].

(**) يبدو أن هذا الرأي لخالدة أديب ناتج من الغيرة من لطيفة، لأن ثراء عائلة أوشاكليغيل تراجع ما اضطرهم إلى الانتقال إلى إسطنبول. [المترجم].

(***) على خلاف العرف، كانت لطيفة هي التي قدمت مهرا لمصطفى كمال قدره مليون ليرة تركية، وهو المهر الذي أنفقه كمال على إعمار أنقرة. [المترجم].

تعد صورتها الجماعية باللباس التركي التي رسمها أنطوان دي فافاري Antoine de Favary أيقونة لماضي سميرنا الكوزموبوليتاني. أما أفراد عائلة دي يونغ de Jongh الأربعون الذين وصلوا إلى سميرنا في العام 1812 وأسسوا صحيفة «لامبارسيال»، فقد انتقل بعضهم إلى أثينا، وبقي آخرون في سميرنا. وقُتِل أوسكار Oscar وكليوفي Cleophe دي يونغ بالرصاص في الثاني عشر من سبتمبر في فيلتهم في بوكا عندما حاولا الدفاع عن خادمة يونانية[183]. وعندما انتشرت الحرائق قفز فريد دي يونغ Fred de Jongh الشاب من نافذة في بناية شركة ريز Rees على الكردون إلى يخت كان ينتظره، متأبطا دفاتر حسابات الشركة تحت ذراعه، وهي قفزة لا تقل شهرة بين مشرقيي سميرنا عن قفزة نجينسكي Nijinsky في باليه «روح الوردة» La spectre de la rose بين محبي الباليه الحديث. أخذ اليخت فريد إلى جزيرة ميتيليني، وعمل لاحقا في الإسكندرية التي توفي فيها في نحو العام 1965. وحاليا تشغل مدرسة للموظفين الصحيين الحكوميين بيت عائلة دي يونغ في بوكا[184].

دفن إدموند دي هوشبيد صور عائلته وفضتها وأوسمة نبالتها في حدائق بيت العائلة القديم في سوديكوي ثم انتقل إلى القنصلية الهولندية في سميرنا. وفي أكتوبر 1922 عاد مع قواس، لكنه لم يجد شيئا، حتى خلايا النحل لم يجدها. وكان لاجئون من جزيرة كريت ومقدونيا قد نُقِلوا إلى بيته. وظل في سميرنا نائبا للقنصل حتى موته في العام 1929. وبموته انتهى وجود عائلة هوشبيد في سميرنا بعد أن أقاموا فيها مائتين وخمسة وأربعين عاما، وهي فترة أطول من أي عائلة سميرنية أخرى. وفي العام 1933 أُغْلِقت القنصلية الهولندية التي عمل بها كثير من أفراد عائلة هوشبيد[185].

أما عائلة بالادير Balladur «المتحمسة للقومية الفرنسية»، كما جاء في تقرير إيطالي في العام 1920، والتي تمتعت بالحماية الفرنسية منذ العام 1793، فقد غادرت جسديا أخيرا إلى فرنسا في العام 1935، بعد أن ارتحلت إليها ثقافيا منذ زمن بعيد. ولد إدوار بالادير Edouard Balladur في سميرنا في العام 1929، لكنه قضى حياته كلها بعد عمر السادسة في فرنسا التي شغل فيها منصب رئيس الوزراء بين العامين 1993 و1995. عوّض إدوار عن خلفيته المختلطة بأن أصبح فرنسيا متشددا، تماما كما غدا مواطنون آخرون من المشرق بريطانيين متشددين أو إيطاليين متشددين، وكما أصبح مسلمون بلقانيون، منهم كمال نفسه، أتراكا متشددين[186].

جرى تأميم الميناء في العام 1934، وهو العام نفسه الذي أدى فيه قانون جديد، قصَرَ كثيرا من المهن مثل الطب على المواطنين الأتراك، إلى مزيد من النزوح الجماعي المشرقي. ففي العام 1936 على سبيل المثال، انتقلت الكلية الدولية في باراديسو، التي هوجمت كثيرا في الصحافة المتطرفة المعادية للأجانب، إلى بيروت التي لاتزال تعمل فيها إلى اليوم[187]. وفي السنة نفسها، حُظِرت في إسطنبول المواكب الكاثوليكية في الشارع للمرة الأولى منذ القرن السادس عشر، وأُجبِر أصحابها على إقامتها داخل أفنية الكنائس[188].

***

ومع ذلك، فبينما غادر كثيرون، عاد سميرنيون آخرون عندما تحولت النيران إلى رماد. كان هؤلاء العائدون «سميرنيين من صميمهم»، كما قالت صحيفة لامبارسيال في العام 1910، وظلوا يتمنون أن يعيشوا فيها. ساعدهم في ذلك الاعتقاد الشائع حينذاك- وحتى الآن- حتى بين كثير من الأتراك، بأن الأرمن هم الذين نشروا الحرائق[189].

وكما يمكن أن يحدث مع أي امرأة غنية من ذلك الزمن، شعرت هورتينس وودز بالضياع على رغم ولائها الشديد لتركيا، عندما علمت أنها يمكن أن تفقد خادماتها اليونانيات. كتبت في التاسع والعشرين من أكتوبر 1922: «إن ما يزعجني إلى درجة تفوق الوصف هو أن كاليوبي Calliope ستغادر... ونبقى نحن بلا خدم! ما الذي يمكن أن نفعله؟»، وكتبت في الأول من نوفمبر: «أشعر بوحشة تفوق الوصف إلى كاليوبي... إن ترتيب غرفتي يتعبني». وفي النهاية، سُمِح للأوروبيين بأن يحتفظوا بخدمهم اليونانيين، وبقيت كاليوبي وصوفيا في إزمير[190].

في أواخر العام 1922 شهد جان موران من شركة كريدي ليونيه أوائل المشرقيين يعودون «ويتأملون ما بقي من بيوتهم». ساعدهم موران في استعادة بعض من أموالهم وجواهرهم، وإن حرص على إبقاء شيء من ممتلكاتهم في خزائن البنك لإرضاء المسؤولين الأتراك الذين طلبت منهم حكومتهم أن يضعوا أيديهم على ممتلكات كل اليونانيين والأرمن. ولدى رحيله في أبريل 1923، كان شكل من الحياة قد عاد إلى ما بقي من الأحياء الأوروبية. كان السير في الشوارع ينطوي على خطورة في الوقت الذي كان المهندسون فيه ينسفون بنايات المدينة الخربة بالديناميت[191].

يتذكر تشارلز ويلكنسون Charles Wilkinson، الذي ولد في إزمير في العام 1933، أن جده كان واحدا من أوائل الذين عادوا في العام 1923، وأنه اشترى فضيات عائلتي ويتال ولافونتين المنهوبة «بأرخص ثمن» في البازار. ويتذكر «أنهم تجاوزوا المحنة. فجدي كان يمتلك مصانع في تركيا ويتحدث اللغة التركية واليونانية وكان يحب الناس. كانت حياتنا جيدة»[192].

وفي العام 1923 سُجّلت شركة «النساجون الشرقيون» شركة تركية وليست بريطانية، وفي العام 1924 كافأت الشركة رحمي بيه على خدماته بتعيينه مديرا. وعلى المدى البعيد، وعلى رغم التعافي المؤقت بين العامين 1925 و1929، كان قتل الناسجين اليونانيين والأرمن أو طردهم يعني انتقال معظم إنتاج السجاد إلى إيران والهند واليونان. وفي العام 1986 آلت الشركة أخيرا إلى شركة الإخوة رالي بلندن Ralli Brothers of London، وهي شركة لها جذور في المنطقة، إذ وصل أول أفراد عائلة رالي إلى لندن من خيوس بعد العام 1822[193].

واجهت إزمير التأثيرات السياسية للكمالية Kemalism، فضلا على تأثيراتها السكانية والاقتصادية. أحب كمال المدينة وزارها عشر مرات، أكثر من عدد زياراته إلى إسطنبول. كان من بين أسباب زياراته الحاجة إلى تحصين المنطقة ضد العدوان الإيطالي، إذ لم يتخلَ موسوليني أخيرا عن الطموحات الإيطالية في جنوب غرب الأناضول إلا بعد أن أثبتت له هزيمة تركيا لثورة الشيخ سعيد في الأناضول الشرقي، في العام 1925، قوة الجمهورية وقدرتها على البقاء[194](*). وعلى رغم أن أنقرة حلت محل إزمير بصفتها القوة الدافعة للتحديث في تركيا، فقد احتفظت إزمير بدور ثانوي. من ذلك أن مصطفى كمال افتتح في إزمير في العام 1925 أول حفلة راقصة عامة للرجال والنساء المسلمين في تركيا برقصة الفوكستروت foxtrot.

(*) ثورة الشيخ سعيد Sheikh Said Rebellion، ثورة قامت بها مجموعة من الأكراد تدعى شعب الزازا Zaza بقيادة الشيخ سعيد ومجموعة من الضباط العثمانيين السابقين يعرفون باسم الجنود الحميدية Hamifiye soldiers، بالدرجة الأولى في منطقة الزازا والمنطقة الناطقة باللهجة الكرمنجية من اللغة الكردية، بهدف استعادة نظام الخلافة الإسلامية، على رغم أنها استخدمت عناصر من القومية الكردية لتجنيد الأتباع. استولى الثوار على مدينة خنس Hinis بإقليم أرض روم في الأناضول الشرقي، لكنهم فشلوا في الاستيلاء على ديار بكر بعد حصارها، وتمكن الجيش التركي من خلال الطائرات والقصف الجوي من سحق الثوار، وقُبِض على الشيخ سعيد وأُعدِم شنقا. تسرد المصادر الأجنبية هذه الثورة كفعل استهدف استعادة الخلافة، بينما تسردها المصادر الكردية كأحد تجليات القومية الانفصالية الكردية. [المترجم].

لم تكن إزمير أول مدينة تتكبد الدمار إبان القرن العشرين فقط، بل كانت أيضا من أولى المدن التي شهدت محاكمات صورية(*). ففي يونيو 1926 وقعت مؤامرة من جانب حراس شخصيين ساخطين لقتل كمال في إزمير، استخدمها كمال وسيلة للتخلص من بعض زملائه الأكثر ولاء له ممن عارضوا السرعة الكبيرة التي نفذ كمال إصلاحاته بها. اعْتُقِل في هذه المؤامرة خمسة وعشرون نائبا. وجرت المحاكمات في سينما قصر الحمراء قبل أن تُنْقَل إلى «محكمة الاستقلال»، ولم يتح للمتهمين فيها محامون ولم يعطوا الحق في نقض الأحكام. وبغرض إظهار الثقة بالنفس، أقام كمال حفلة راقصة في جشمه. أُعْدِم أربعة عشر رجلا شنقا أمام سراي الكوناك، وكما كانوا يفعلون في الأزمنة العثمانية، كُتِب الحكم على قصاصات ورقية لصقت بالجثث. كان من بين المعدومين الدكتور ناظم الذي سبق أن نظم مؤتمرات تركيا الفتاة في سالونيك، وجاويد بيه وزير المالية السابق. أما من أفلتوا من الموت، فكان من بينهم أعوان كمال الذين كان يجلهم، مثل رفعت ورؤوف ورحمي بيه وكاظم قرة بكير. ظل كمال محل تبجيل الجميع، لكن أساليبه الديكتاتورية كانت مكروهة. وتجاسر حشد في إزمير على الترحيب بالرجال الذين أفلتوا من الشنق صائحين «الحمد لله الذي أعادكم إلينا يا باشواتنا». وفي العام 1930 أيدت إزمير الحزب المعارض بقيادة فتحي بيه أوكيار Fethi Bey Okyar[195].

وكما حدث في بقية تركيا، شهدت إزمير أيضا عملية تتريك ردا على تعدديتها اللغوية السابقة. إذ أصبح لزاما أن تكون كل الوثائق الرسمية باللغة التركية، كما جرى تتريك أسماء الشوارع. وبموجب سياسة «أيها المواطن تحدث اللغة التركية!» التي بدأت في العام 1928، كان الطلاب أحيانا يهاجمون الناس على أبواب بيوتهم وفي الشوارع إذا تحدثوا اللغة الفرنسية أو الإسبانية بدلا من التركية. وفُصِل غير المسلمين من البلدية[196]. وفي العام 1940 أُغْلِقت آخر صحيفة باللغة الفرنسية «لا إكو دي إزمير» L'Echo d'Izmir [صدى إزمير] التي كانت في السابق تسمى «لولوفون» Le Levant [المشرق][197].

(*) المحاكمة الصورية show trial، محاكمة عامة تكون السلطة القضائية فيها قد قررت سلفا من قبل نظر الدعوى إثبات التهمة على المتهم، ولذلك تتمثل أهدافها في التخلص من المتهم بطريقة قانونية، وكذلك تخويف من هم على شاكلة المتهم، والتخلص من الخصوم السياسيين. [المترجم].

شيئا فشيئا، انبثقت إزمير جديدة من بين رماد سميرنا. سافر رئيس بلدية جديد نشط يدعى شكرو قايا Sukru Kaya في جولة دراسية إلى أوروبا في العام 1924. وظل التأثير الثقافي الفرنسي مهيمنا. فقام رينيه دونجي Rene Danger، تلميذ المخطط الحضري هنري بروست Henri Prost، الذي رسم مخططات للدار البيضاء والرباط وفاس لمصلحة الحكومة الفرنسية، أيضا برسم مخططات لإزمير، اعْتُمِدت في العام 1925[198]. كما أسهم بهجت صالح أوز Behcet Salih Uz، الذي شغل منصب رئيس البلدية من العام 1931 إلى العام 1940 أيضا في إحياء المدينة التي أحبها كأنها ابنته[199]. وبداية من العام 1934، حُوّل مائة هكتار من الحي الأرمني السابق إلى متنزه كولتوبارك Kulturpark الذي خُطّط على غرار متنزه غوركي Gorky في موسكو. وفوق الأنقاض والعظام، شُيّد أكبر معرض مكشوف في تركيا، الذي استضاف معرض إزمير الدولي بداية من العام 1938. هيمن على ساحة الجمهورية الشاسعة في منتصف الكردونِ في مكان فندق كريمر تمثالٌ لمصطفى كمال على ظهر حصان يواجه البحر الأبيض المتوسط، نحته نحاته المفضل بييترو كانونيكا Pietro Canonica. زُيّن التمثال بنقوش ضعيفة البروز من حرب الاستقلال وبالنقش الرئيس: «أيها الجنود! إن هدفكم الأول هو البحر الأبيض المتوسط». وحين كُشِف النقاب عن التمثال في العام 1932، كان محاطا بالأطلال[200].

وبفضل حياد تركيا، أفلتت إزمير إبان الحرب العالمية الثانية من القصف الذي تعرضت له شريكتاها التجاريتان القديمتان ليفورنو ومارسيليا، وكذلك برلين وهامبورغ ودريسدن، ما جعل حريق سميرنا الكبير يبدو عند النظر إليه بعيون المستقبل تجربة أولية لـ«موت المدن» المستقبلي. كان حياد تركيا في الواقع العملي انحيازا لجانب الحلفاء، إذ عملت عائلات جيرو وويتال ودي يونغ لمصلحة المخابرات البريطانية في ألسانجاك، وأدارت قوة صغيرة عرفت باسم أسطول المشرق الصغير Levant Schooner Flotilla، اعتنت بالجنود البريطانيين الهاربين من الخدمة وإنزال المخربين وتزويد المخابرات بالمعلومات حول تحركات سفن المحور في بحر إيجة[201].

نشأ الشاعر اليوناني العظيم جورجيوس سفريس George Seferis بالقرب من المدينة، وله فيها ذكريات طفولة، مع أنه غادرها مع أبيه في العام 1914. وعاد إلى «المدينة التي كان يعرفها جيدا من الذاكرة، لكن بعد أن صارت غريبة عليه»

كديبلوماسي في العام 1950، عندما كانت اليونان وتركيا حليفتين وحّدهما العداء للاتحاد السوفييتي. وجد سفريس بقايا بنايات وأعشابا نامية في مكان كنيسة سانت فوتيني. وشعر بأن سميرنا التي تركها كانت أقرب إلى إفسوس القديمة منها إلى إزمير المعاصرة. كانت إزمير مدينة فقدت ظلها. لذلك رجعت خطابات إلى الأقارب، مثل الخطاب الموجه إلى «مدام ديسب سفرديس كويس 134 سميرنا آسيا الصغرى»، وعليها الختم «يعاد إلى المُرسِل، رحل المُرسَل إليه»[202]. على رغم أنه وجد عمة له متزوجة من رجل تركي في بوكا، كتب سفريس «أنا لا أشعر بالكراهية. بل إن ما أشعر به داخلي هو نقيض الكراهية، وهي محاولة لأن أستوعب في عقلي آلية الكارثة». وكتب ثانية: «لقد وقع فعل الشر فعلا. المهم هو أن نزيل الشر من كل شيء»[203].

***

في الوقت الذي كانت تجري فيه عملية تتريك تركيا، كانت اليونان هي الأخرى تُهَلين. زاد عدد سكان البلاد بنسبة 25 في المائة بسبب وصول اللاجئين الأرثوذكس من تركيا. من بين اللاجئين المليون ومائتين وواحد وعشرين ألفا وثمانمائة وتسعة وأربعين الذين جرى إحصاؤهم في العام 1928، كان 66 في المائة منهم نساء أو أطفالا دون عمر العاشرة، وهو إحصاء مشؤوم يكشف عن كثرة عدد الرجال اليونانيين الذين قتلوا أو اقتيدوا إلى حتفهم. في بادئ الأمر، عاش اللاجئون في أكواخ حول أثينا، وكانت جدران القصر الملكي لوحات إعلانية تحوي رسائل للعائلات التي تحاول العثور على أقاربها المفقودين. ولايزال يمكن مشاهدة الوجوه المتجهمة للأشخاص الذين شهدوا الجحيم، في الصور المعلقة في مركز دراسات آسيا الصغرى الذي أنشئ في أثينا في العام 1933، والذي يعمل إلى اليوم بصفته القيّم الرئيس على ذكراهم الثقافية[204].

وفي النهاية، بنى اللاجئون قرى على أراض رخيصة خارج أثينا، وفرتها لهم الحكومة. أطلقوا على بعض المستوطنات اسم «سميرنا الجديدة» أو «أيونية الجديدة». وافتتحت أولى المدارس وملاجئ الأيتام في العام 1929. وظل بعض اللاجئين يلبسون الطربوش، ويتحدثون اللغة التركية، ويشربون الراكي بدلا من الريتسينا(*)، وينظرون بازدراء إلى يونانيي الداخل بصفتهم فلاحين يفتقرون إلى

(*) كما تميّز الأتراك بشراب الراكي، تميّز اليونانيون بشراب الريتسينا Retsina وهو نبيذ أبيض بنكهة الورد. [المترجم].

الذوق واللياقة(*)، ويشعرون بغربة في اليونان أكثر مما كانوا يشعرون به في سميرنا تحت حكم الإمبراطورية العثمانية. ففي اليونان كان هؤلاء المهجرون تابعين، بينما كانوا في سميرنا أسياد أنفسهم[205]. وفي المقابل، كان اليونانيون يهزأون منهم بنعتهم بأنهم «بذرة الأتراك». من ذلك أن إحدى الصحف خصصت عمودا حول «حماقات إفتاليا» Eftalia وهي لاجئة متخيلة من سميرنا، وفيها تقوم إفتاليا العابثة وغير المستقرة عقليا بالانهماك في القيل والقال والتهرب من دفع الضرائب، وتمارس سلوكا منحلا يجلب الخزي. ومادامت ذكرى سميرنا حية، كانت الأمهات يسكتن فتياتهن حين تتحدث الواحدة منهن بحرية زائدة بالقول لهن «يا سميرنية»[206].

بعد أن شهدوا رأسمالهم يباد بين عشية وضحاها، انضم كثير من اللاجئين من الأناضول إلى الحزب الشيوعي الذي كانت له الغلبة في اليونان في الفترة من 1944 إلى 1949. وكان معظمهم معادين للمَلكية[207]. كان من بين هؤلاء على سبيل المثال والد ديدو سوتيريو الذي كان يمتلك مصنعا للصابون في أيدين وتحول إلى عامل في ميناء بيروس. وأصبحت ابنته، التي ولدت في أيدين في العام 1909، ناشطة شيوعية وصحافية ومؤلفة الرواية الأكثر رواجا حول سميرنا «وداعـــا أناضــول» Farewell Anatolia (1969). وكما فعـل مؤلف الرواية «رقم 31328» (1931)، حول تجربته كمبعد في الأناضول)، ورواية «أيوليا» Aeolia (1943)، إلياس فينيزيس Elias Venezis من آيفاليك، تبنت ابنة سوتيريو أسطورة نتجت من الحنين وليس عن التقييم الدقيق، تبرز التناغم اليوناني - التركي في أرض الأناضول المباركة، تلك الجنة التي دمرها الآخرون: الألمان والبريطانيون والمشرقيون، وليس اليونانيين أو الأتراك[208]. كتبت في ذلك: «كانت الأرض نفسها تحتضن شعبينا اللذين كانا في أعماقهما لا يكره أحدهما الآخر»، على رغم أنها اعترفت أيضا بأن «حب وطننا اليونان اشتعل مثل لهب أبدي في قلوبنا». ووصفت الحريق والمذبحة في العام 1922 على هذا النحو: «كان الإرهاب يترصد مثل سفاح في الأزقة المظلمة، ينتظر العتمة التي لم يعرفها الشعب اليوناني قط»[209]. وكذلك وصف كوسماس بوليتيس الحريق في روايته «في حي حاجي فرانكو» (1962) بأن مرارته الأشد تتعلق بتخلي

(*) الداخل أو البر الرئيس في مقابل المناطق الساحلية والجزر. [المترجم].

الحكومة عن اليونانيين. وكتب أن كثيرا من الباقين على قيد الحياة تجنبوا الحديث حول الماضي «كأن ميثاقا سريا على الصمت كان بينهم »[210].

كرّس كتاب آخرون كتاباتهم لتسجيل عادات مدينتهم المفقودة وتقاليدها في كتب ومقالات. وكما في حالة الكوبيين الذين أدخلوا رقصة السامبا والرومبا من هافانا إلى ملاهي نيويورك بعد العام 1959[211]، جلب اللاجئون من سميرنا معهم موسيقى آسيا إلى شوارع أثينا. فكانت أغاني الريبيتيكو تُغنى - أحيانا باللغة التركيـــة - في الحانات في بيروس وسالونيك، وفي أغلب الأحيان من جانب فرق سميرنية أعيد تشكيلها في اليونان. كما فتح اللاجئون مطاعم بأسماء منها «سميرنا زكية الرائحة» و«سميرنا المغدورة» و«آسيا الصغرى المفقودة»[212]. وغدا موسيقيون من أمثال بانايوتيس تونداس Panagiotis Toundas وإسبيروس بيريستيرس Spyros Peristeris اللذين ولدا في سميرنا، أساطير حية تسجل لهم الشركات الأجنبية أسطوانات.

وعلى غرار نواح اليهود على أورشليم أو إسبانيا، كانت الأغاني اليونانية تتألم شوقا إلى الجنة المفقودة:

قد يظن من يسمعني أغني أني ليس بي وجع.
لكنني أسكّن وجعي بالغناء.
فالأم سميرنا تحترق وأهلي يحترقون،
لا يستطيع الكلام المنطوق ولا المكتوب أن يصف كربنا.
يونان يا يونان، أبدا لن تنعمي بالسلام ثانية.
ستعيشين سنة واحدة في سلام، وثلاثين في حرائق.
سميرنا، ها أنا أغادركِ
قلبي المسكين ينفصل عنكِ.
يجرني مصير وحشي إلى أراض غريبة.
لا شيء في العالم يشبه محرقة سميرنا.
لقد احترقت وتحولت إلى رماد. وشق كمال طريقه.
واحترقت مدرسة أيضا، كانت مدرسة فتيات،
وكذلك احترقت فتاة، كانت - يا إلهي - في بياض الحليب![213]

وعلى نحو ما كتب كفافيس، فإن المدينة تطاردك حيثما ذهبت. غير أن يونانيي سميرنا لم يُتح لهم حتى حلم العودة. في أواخر العام 1922 رفض كمال الإصغاء إلى أصوات شؤم حرضته على أن يتقدم بجيشه المنتصر إلى مسقط رأسه سالونيك[214]. وفي فعل مماثل من أفعال الفطنة السياسية، وعلى خلاف السياسيين الفرنسيين والألمان بعد العام 1918(*)، وضع فينيزيلوس الماضي وراء ظهره، وزار أنقرة في العام 1930 ووقّع معاهدة للصداقة والتجارة مع كمال، سُوّيت بموجبها المنازعات الإقليمية بين البلدين[215].

زيارة رئيس الوزراء اليوناني فينيزيلوس إلى الرئيس التركي مصطفى كمال أتاتورك، أنقرة في أكتوبر 1932. أسهم فينيزيلوس ومصطفى كمال كلاهما في القضاء على الطابع المشرقي لسميرنا. وبعد ذلك بدأ الرجلان حقبة من السلام بين بلديهما.

كانت الكارثة في نظر البعض تحررا. استفاد الاقتصاد اليوناني من الحيوية المشرقية. وكما ازدهرت جزيرة سيروس بفضل اللاجئين من مذبحة خيوس بعد 1822، كذلك ازدهرت أثينا بفضل اللاجئين من مذبحة سميرنا بعد مائة عام. نقلت شركة النساجون الشرقيون جزءا من عملياتها إلى اليونان. وفي مارس 1923 كتب إتش سايكس H. Sykes من أثينا إلى ريتشارد هفنر Richard Huffner في لندن أن اليونانيين السميرنيين ازدهروا في أثينا وأخذوا يسيطرون على الأعمال التجارية. لذلك اعتبر البعض الكارثة نعمة متنكرة على اليونان. وأصبحت بيروس ميناء من الصف الأول[216].

ارتفع عدد سكان سميرنا الجديدة Nea Symerna من ستة آلاف وخمسمائة ساكن في العام 1934 إلى خمسة عشر ألفا في العام 1940، وحاليا إلى أكثر من ثمانين ألفا. وثمة أجزاء من سميرنا الجديدة، كانت في السابق أحياء فقيرة، غدت تضم عمارات حديثة متلألئة، وتبدو أكثر ازدهارا حاليا من كثير من أحياء إزمير. لكنها مع ذلك، لاتزال إلى اليوم تحتفظ بسمات مدينة في المنفى. فمنذ العام 1965 ينتصب تمثال بالحجم الطبيعي لرئيس الأساقفة خريسوستوموس خارج نسخة جديدة من كنيسة سانت فوتيني تحتوي تاجا ومذبحا وحاجزا أيقونيا أُنقِذت من حريق

(*) بمعنى أن الفرنسيين والألمان بدلا من أن يجعلوا الحرب العالمية الأولى آخر الحروب كما أريد لها، قادتهم الأحقاد الناتجة منها إلى الحرب العالمية الثانية. [المترجم].

سميرنا. وخارج الكنيسة توجد نسخة من برج الأجراس ذي الخمسة طوابق بكنيسة سانت فوتيني القديمة تحمّل أرسطو أوناسيس تكاليف بنائه.

تتمثل أكبر بناية في سميرنا الجديدة في «دار سميرنا الجديدة» Estia Nea Smyrna التي بُدِئ العمل فيها في الثلاثينيات واكتملت في العام 1975، بجوار ساحات الألعاب التابعة للنادي الرياضي البانيوني الذي أعيد تكوينه في أثينا. يزيّن الدار من الخارج إفريز يحتوي على مشاهد من تاريخ سميرنا اليوناني والروماني والطرد الذي حدث في العام 1922، وتضم الدار مكتبة ضخمة ومتحفا به آثار من المدينة المفقودة: أيقونات وصور وأزياء، وصليب خريسوستوموس وقلمه. وفي الطابق الأول من البناية توجد قاعة محاضرات، تغطي أحد جدرانها لوحة زيتية عملاقة لسميرنا وهي تحترق تحت سماء مملوءة بالدخان. ترى أمينة المكتبة السيدة ثيميس بابادوبولوس Themis Papadopoulos أن تدمير سميرنا لم يكن كارثة لليونانيين وحدهم، بل أيضا «شكلا من الانتحار» بالنسبة إلى الأتراك[217].

***

على خلاف سميرنا، شهدت سالونيك انتقالا سلميا نسبيا من كونها حاضرة كوزموبوليتانية إلى مدينة إقليمية. فلمرة وحيدة، تصرفت الحكومة القومية اليونانية على نحو مقبول. فلم تقع أعمال انتقامية بحق المسلمين في اليونان ردا على تدمير سميرنا، إما لأن السلطات اليونانية عارضت أي أفعال من هذا النوع، كما كتب الروائي التركي نجاتي جومالي Necati Cumali، وإما لأن السلطات اليونانية خافت من الجيش التركي[218]. وانْتُخِب المسلم عثمان سعيد رئيسا لبلدية سالونيك في العام 1923.

وشهد العام 1923 مبادلة هؤلاء المسلمين والدونمة الذين لم يغادروا حتى حينه في مقابل يونانيين من الأناضول وُزِّعت عليهم أملاك المبعدين، وهو النقل الذي حدث رغما عن المبعدين الذين أظهروا تمسكا بمدينتهم وارتباطا بها. غير أن احتجاج السيلانيكيين لم يؤثر في «المقايضة المشينة للأجساد بما يضر بالحضارة الحديثة»، وذلك لأن الحكومتين اليونانية والتركية كلتيهما كانتا عازمتين على تنفيذ التبادل[219]. حدثت مغادرة المبعدين بطريقة منظمة، إذ أقام المسلمون في مخيمات على رصيف ميناء سالونيك قبل الإبحار بعيدا عن وطنهم على سفن مملوكة للحكومة التركية

التي رفضت سفنا أجنبية أرخص وأحدث[220]. اشترت العائلات اليونانية في سالونيك الأثاث الفييني المستعمل الخاص بالمسلمين المغادرين. وهدمت السلطات اليونانية في العام 1925 ستا وعشرين مئذنة كانت في السابق مفخرة أفق السماء في سالونيك بدعوى أنها رموز لـ«عبودية بغيضة». إذ «لن يخيفنا تطاولها المنذّر في السماء بعد اليوم، ولن يذكّرنا بالتعاسات الماضية لأمتنا»، وكتب أحد الصحافيين: «لتفارقنا الطرابيش الحمراء ولتختفِ اليشامك». كان اليونانيون يشكلون 24 في المائة من سكان المدينة في العام 1914، ثم صاروا 75 في المائة في العام 1928[221].

يقال إن المسلمين المغادرين كانوا يقولون ليهود سالونيك إن دورهم قادم. وبعد عودة فينيزيلوس إلى السلطة في العام 1928 تحولت الحكومة اليونانية إلى اليهود. وبعد مذبحة مدبرة في العام 1932 وهجمات على الأشخاص الذين يلتزمون بالسبت كعطلة أسبوعية في العام 1934، انتقل كثير من يهود سالونيك إلى فلسطين، وقد أسهم صيادون وعمال شحن من سالونيك في تحديث ميناء حيفا[222]. وتراجعت أعداد السكان اليهود من خمسة وستين ألفا في العام 1920 إلى اثنين وخمسين ألفا في العام 1935. حلت حالة من التفاهة السياسية على المدينة. ولم يجد غير قليل من الرجال من سالونيك وظائف في الخدمة المدنية اليونانية[223].

تجسدت الهمجية في أبشع صورها في إبعاد أربعة وثلاثين ألف يهودي إلى حتفهم في أوشفيتز على أيدي المحتلين الألمان لسالونيك في العام 1943(*). وفي شوارع سالونيك رأى شهود عيان الناس يهاجم بعضهم بعضا بغرض السرقة «كضباع تجمعت على جيفة حصان». وعلى النقيض من الاحتجاجات الشجاعة التي شهدتها أثينا، كانت النخبة اليونانية في سالونيك، بتعبير مارك مازوار Mark Mazower، «غير مبالية وفي حالة من البرود الشديد». «كنا نشعر بالشفقة تجاههم، لكننا لم

(*) معتقل أوشفيتز Auschwitz concentration camp، شبكة من معسكرات العمل القسري والإبادة النازية بنيت وافتتحت في عهد الرايخ الثالث في مناطق بولندية ضمتها ألمانيا النازية إبان الحرب العالمية الثانية، بدأت عملها في مايو 1940 كمعسكرات للعمل القسري لكل من تقع أيدي الألمان عليهم من الأمم المغلوبة، وقبل ذلك كحل نهائي للمسألة اليهودية، حيث نقلت القطارات إليها بين العامين 1942 و1944 اليهود من كل المناطق الواقعة تحت سيطرة النازيين. شهدت معسكرات أوشفيتز موت مليون ومائة ألف شخص على الأقل، 90 في المائة منهم من اليهود في غرف الغاز. ضمت المعسكرات كذلك مائة وخمسين ألف بولندي وثلاثة وعشرين ألف روماني وخمسة عشر ألف أسير حرب روسي وعشرات الآلاف من جنسيات مختلفة. من لم يمت من هؤلاء في أفران الغاز مات بسبب الجوع أو العمل القسري أو الأمراض المعدية أو عمليات الإعدام الفردية أو التجارب الطبية. [المترجم].

نتوقع الشر الذي أُنْزِل بهم»، هكذا كتب يورغيس أيونو Yorgis Ioannou، الذي قال أيضا إن اليهود في سالونيك المنقطعين كليا لعائلاتهم كانوا دائما يعزلون أنفسهم عن الآخرين[224]. استولت البلدية على جبّانة اليهود الأقدم والأكبر من نوعها في أوروبا، التي اشتهاها اليونانيون طويلا، ودمرتها، وتشكل الجبّانة حاليا جزءا من جامعة ثيسالونيكي[*]. ونُهِبت دكاكين اليهود ومكاتبهم. واليوم، بعد أن قُطِعت ثيسالونيكي الحديثة عن ماضيها، وإن لم تعد مقطوعة عن منطقتها الداخلية، صارت الأشباح والمهاجرون يهيمنون عليها. فأفضل العقول- هكذا يقال - تذهب دائما إلى أثينا التي «يتنفسون بسهولة» فيها[225].

(*) ثيسالونيكي Thessaloniki ، هو الاسم الرسمي للمدينة حاليا. [المترجم].

13

الإسكندرية
ملكة البحر الأبيض المتوسط

هل ستظل الإسكندرية بروتيوس الغرب أم تتجه نحو القاهرة؟ هل يمكن أن تدير ظهرها للبحر؟(*)

فرناند لوبرت، «مصر، أرض النيل»، 1939

كانت الإسكندرية واحدة من المدن القليلة في المشرق التي لم تشهد كوارث إبان القرن العشرين. ولهذا السبب كانت ملهمة لذكريات ذهبية. فلم تشهد المدينة مذابح ولا حرائق ولا إبعادا. ولذلك أيضا انتقلت عدة آلاف من

«لم تطور الإسكندرية - على نحو ما فعلت باريس أو نيويورك - هوية جامعة واحدة من شأنها بعد جيلين أو ثلاثة أن تلغي الولاءات السابقة»

(*) بروتيوس Proteus، في الميثولوجيا اليونانية، أحد آلهة البحر المبكرين أو إله الأنهار والمحيطات، وأحد الآلهة الكثيرة التي أسماها هوميروس «رجل البحر القديم»، كما تحدث هوميروس عن «بروتيوس مصر» بصفته الإله الأقدم وملك مصر الذي تزوج من الحورية البحرية بساماثي Psamathe، واستقبل ديونيسيوس في أثناء رحلات الإله الصغير. [المترجم].

اليونانيين وغيرهم (مثل عائلة بسترودس Pastroudis التي أنشأت مطعما شهيرا، وعائلة ريز Rees ومعها شركتها للنقل البحري) من سميرنا إلى الإسكندرية بعد العام 1922. كان من بين هؤلاء ديسبو لاسكاريس Despo Lascaris، التي أحرقت حذاءها عندما وصلت الإسكندرية، لأنها داست به على الكثير من الجثث. غير أن أكثر السكندريين لم يظهروا تأثرا بـ«الكارثة»[1]. حتى إن رد الفعل الوحيد المسجل لكفافيس كان الحزن على خسارته سوقا للكتب اليونانية[2].

في بادئ الأمر، بدا أن الإسكندرية ستنفجر حتما. كان إعلان الحماية البريطانية على مصر وخلع الخديو عباس حلمي في نوفمبر 1914 واحتياج الجيش البريطاني إلى العمالة المصرية إبان الحرب العالمية الأولى، قد أثارت حفيظة الوطنيين المصريين. وفي الوقت عينه، كانت وعود الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون بالديموقراطية والحقوق القومية قد رفعت توقعات الشعوب. وفي حفلة شاي في سراي رأس التين في التاسع من أكتوبر 1918، اقترح الأمير عمر طوسون على السياسي المصري الواعد سعد زغلول أن يشكل وفدا (صار حزبا سياسيا بالاسم نفسه) لحضور مؤتمر السلام الوشيك في باريس[3].

أصبح الوفد أول حزب جماهيري في الشرق الأوسط. طالب الوفد باستقلال مصر، مع أنه كان مستعدا لمنح بريطانيا حقوقا خاصة في منطقة قناة السويس. وكانت اتحادات العمال قد نالت أخيرا مزيدا من القوة. من ذلك أن العام 1919 شهد إضرابات من عمال الترام في الإسكندرية، وأعمال شغب وانتفاضات في أماكن أخرى. لكن السلطات البريطانية تصلبت في مواقفها. وفي مارس 1919، أخذت سعد زغلول ووطنيين آخرين إلى السجن في مالطا، مثلما فعلت مع نظرائهم الأتراك(*). فأغلقت كل المدارس أبوابها، ما عدا فيكتوريا كوليدج، إذ رفض الطلاب متابعة الدراسة. حتى النساء انضممن إلى المظاهرات[4]. وفي الثالث والعشرين من مايو 1920، المعروف باسم «الاثنين الدامي»، قُتِل ثلاثون مصريا وخمسة عشر أوروبيا

(*) بعد احتلال إسطنبول، تركت قوات الحلفاء الإدارة للحكومة التركية والسلطان، لكن بعد اشتداد المقاومة العسكرية بقيادة مصطفى كمال في الأناضول وبعد تحول البرلمان التركي إلى تأييد كمال، أقدمت القوات البريطانية في السادس عشر من مارس 1920 على احتلال الوزارات ومكتب البريد واقتحام مجلس النواب واعتقال النواب الوطنيين وإرسالهم إلى السجن في مالطا. [المترجم].

في اضطرابات في الإسكندرية[5]. ولدى عودته إلى الإسكندرية من مالطا في أبريل 1921، وجد سعد زغلول في استقباله حشودا هاذية، وأبحرت السفن خارج الميناء لتحيته، وزُيِّنت الشوارع بأقواس النصر. ونُظِّمت احتفالات انتصارية شعبية مماثلة في الإسكندرية في السابع عشر من سبتمبر 1923 عندما عاد سعد من فترة أخرى في سجن بريطاني، وفي يوليو 1924 عندما غادر سعد لإجراء مباحثات مع رئيس الوزراء البريطاني رامزي ماكدونالد Ramsay MacDonald في فرنسا[6].

على رغم تفكك الإمبراطورية العثمانية، ظلت مصر تشعر بالارتباط بتركيا. من ذلك أن الأيام بين الثاني والعشرين والرابع والعشرين من مايو 1921 شهدت اضطرابات بين اليونانيين والمصريين في الإسكندرية، جزئيا بسبب الحرب بين اليونانيين والأتراك في الأناضول، إذ كان بعض اليونانيين السكندريين يقاتلون في صفوف الجيش اليوناني[7]. ومع أن صحيفة يونانية ألقت باللائمة على «الأهواء الوحشية والغرائز الدموية للغوغاء المحليين»، فإن ما حدث كان مماثلا لنظيره في العام 1882، إذ كان شخص يوناني أو إيطالي هو أول من فتح النار، علاوة على أن من قُتِلوا من المصريين كانوا أكثر ممن قُتِلوا من الأجانب: إجمالا ثلاثة وأربعون مصريا واثنا عشر يونانيا وإيطاليان اثنان. نهبت الحشود الدكاكين اليونانية على أصوات الهتاف «يحيا سعد زغلول!» وفي بعض الأحيان، انضمت الشرطة المصرية إلى المتظاهرين. وتعرض الأوروبيون الذين كانوا مميزين بملابسهم وقبعاتهم، إلى الهجوم في ميدان محمد علي. كما عمّ العنف بقية أنحاء مصر[8].

كان إي إم فوريستر مصابا بعمى البصيرة عندما سجل في كتابه «الإسكندرية - تاريخ ودليل سياحي»، الذي نُشِر في الإسكندرية في العام 1922، أن الإسكندرية «غير متطرفة في مشاعرها الوطنية» أو أن السكندريين لم يكونوا «مصريين في صميمهم» على أي حال من الأحوال[9]. كان الرجل يحكم على المدينة من خلال أصدقائه المشرقيين. إذ كشفت الهتافات الاحتفائية بسعد زغلول من جانب الخمسة والسبعين في المائة من سكان المدينة المسلمين والأقباط، تماما كما كشفت أفعالهم في العام 1882، أنهم مصريون حتى النخاع، وهو ما تكشف أيضا لدى بعض السكندريين ذوي الأصول السورية أو اليهودية الذين تجلت مصريتهم. كان الاستقلال مطلبهم، والثورة

ديدنهم. أو كانت «الفكرة تستحوذ عليهم كليا مثل كل السكندريين»، بتعبير إحدى شخصيات فيلم يوسف شاهين «إسكندرية كمان وكمان» (1990)(*).

تجد آراء كثير من السكندريين تجسيدا لها في قصائد بيرم التونسي، السكندري من أصل تونسي (ومن هنا جاء اسمه «التونسي») المولود في العام 1893. نشر بيرم المظلل بحماية القنصلية الفرنسية لكونه تونسيا، آراءه في صحيفة الأهالي الوطنية. ولايزال الناس في الإسكندرية إلى اليوم يتذكرون قصيدة بيرم التي هاجم فيها المجلس البلدي رمز السيطرة الأوروبية والحكومية:

قد أوقع القلبَ في الأشجان والكمد
هوى حبيب يسمى المجلس البلدي
إذا الرغيف أتى، فالنصف آكله
والنصف أتركه للمجلس البلدي
يا بائع الفجل بالمليم واحدة
كم للعيال وكم للمجلس البلدي(**)

وفي قصيدة أخرى، نسمع سخط الفقراء:

ساكنين علالي العتب، ونا اللي بانيها
فارشين مفارش قصب، ناسج حواشيها
..
تتعروا من مشيتي
واخجل أخاطبكم[10](***)

لا ريب أن أحدا من أثرياء الإسكندرية لم يقرأ هذه القصائد. لكنها تكشف أن الإسكندرية على رغم مظهرها الكوزموبوليتاني، كانت - مثل سميرنا - مدينة على الخط الأمامي للصراعات القومية والطبقية.

(*) نص كلمات شخصية «يحيى» في الفيلم هي: «حب بجنون، بوله، زي كل الإسكندرانية» والكلام عن شخص يوناني يدعى أورتيليو أو استليو- بحسب حوار الفيلم- ضيّع ماله في البحث عن مقبرة الإسكندر الأكبر. [المترجم].

(**) عنوان القصيدة بالعامية المصرية هو «سي المجلس البلدي»، كتبها بيرم عندما فوجئ بالمجلس البلدي في الإسكندرية يحجز على بيته الجديد ويطالبه بمبلغ كبير كعوائد عن سنوات لا يعلم عنها شيئا. كانت هذه الأزمة هي التي فجرت ينابيع الشعر في بيرم، وكانت هذه القصيدة أول قصائده، ولما ذاعت القصيدة بين أهالي الإسكندرية، طلب منه المجلس البلدي ترجمتها لكي يفهموها، إذ كانوا من الأجانب. بعدها أصدر بيرم مجلة «المسلة» وحررها كاملة بنفسه، وكتب على غلافها «بقلم محمود بيرم التونسي صاحب قصيدة المجلس البلدي» ونزل في يوم 4 مايو ليوزعها بنفسه.

(***) من قصيدة «العامل المصري».

وأخيرا، في مارس 1922 منحت بريطانيا مصر شكلا من الاستقلال، مع احتفاظها بالسيادة على قناة السويس، وعلاقات مصر مع الأقليات، والامتيازات والسودان، والدفاع عن مصر. كما احتفظت بريطانيا بنفوذها أيضا من خلال استمرار وجود قوات لها في القاهرة والإسكندرية ووجود مسؤولين بريطانيين في الإدارة المصرية. فحتى الأربعينيات- على سبيل المثال- كان المدير العام لموانئ مصر وقائد شرطة مدينة الإسكندرية ومدير ميناء الإسكندرية بريطانيين.

***

اختفت العروش في روسيا والنمسا وألمانيا وتركيا، بينما شهدت مصر بعثا للحكم الملكي. وقع اختيار بريطانيا على فؤاد الأول، ابن الخديو إسماعيل وعم الخديو السابق عباس حلمي، ليكون سلطانا لمصر في العام 1917، جزئيا بفضل صديقه رونالد ستورس Ronald Storrs، السكرتير الشرقي في المندوبية السامية البريطانية. رفض أمراء آخرون بدافع الولاء للخديو المخلوع أو للإمبراطورية العثمانية الاعتراف بالسلطان الجديد. كان فؤاد الذي ظل ماجنا ومستهترا حتى ذلك الحين، يتحدث بطريقة تشبه «النباح التشنجي المهتاج»، بسبب رصاصة بقيت في حنجرته، بعد أن أطلق نسيبه النار عليه في أثناء شجار على أموال زوجته الأولى. وفي بعض الأحيان، كان النباح أشبه ببندقية تطلق النار(11).

كان فؤاد الذي تنقل في شبابه بين تورينو (التي تلقى تعليمه فيها) وفيينا (التي عمل فيها ملحقا عسكريا عثمانيا) وباريس والقسطنطينية، فضلا عن القاهرة والإسكندرية، كوزموبوليتانيا بطبيعته، بدرجة أكبر كثيرا من معظم أفراد عائلته. وإلى جانب ذلك، تمتع الملك فؤاد، كما صار لقبه بعد إعلان الدستور في العام 1922، بتذوق للعظمة والرعاية الثقافية. إذ ساعد في تأسيس جامعة القاهرة باستقدام أساتذة إيطاليين وفرنسيين، وكلف بإعداد طبعات فخمة من الوثائق الأجنبية التي أنتجت حول مصر إبان القرن التاسع عشر، سيظل المؤرخون دوما ممتنين له عليها. كما أسس أكاديمية اللغة العربية على غرار الأكاديمية الفرنسية لتعهد نقاء اللغة العربية، وأكاديمية الموسيقى العربية التي وضعت نظاما للتدوين الموسيقي.

وفي الإسكندرية، كلّف فؤاد بإجراء تغييرات جذرية في سراي رأس التين وإنشاء غرفة عرش بأسلوب «الباروك الإسلامي» على يدي مهندس القصور الملكية صديقه

إرنستو فيروتشي بك Ernesto Verrucci Bey. كان فيروتشي بك أيضا مصمم الرواق الباروكي المُحْدَث الذي بُني على الكورنيش حول تمثال الخديو إسماعيل الذي نحته بييترو كانونيكا (النحات الذي صمم تمثال مصطفى كمال على كردون سميرنا)، الذي نُقشت عليه باللغة الإيطالية والعربية «إلى إسماعيل العظيم .. إهداء من الجالية الإيطالية»، وكُشف عنه النقاب في العام 1938(12)(*). وجرى تحويل أسماء الشوارع إلى أسماء مَلكية، فتحول شارع باب رشيد Rue de la Porte de Rosette(**) إلى شارع فؤاد، وسُمي متنزه الملكة نازلي Promenade Reine Nazli الواقع على طول الميناء الشرقي على اسم زوجته الثانية المتمردة نازلي صبري، التي تلقت تعليمها في أفضل مدارس الفتيات بالإسكندرية - نوتردام دي سيون - وسليلة سليمان باشا الفرنساوي، التي أقسم فؤاد على أن يتزوجها بعد أن رآها سافرة الوجه في أمسية في أوبرا القاهرة. وضمت الإسكندرية كذلك شارع الأمير عبدالمنعم وشارع السلطان حسين، وغيرها الكثير(13).

نُفي بيرم التونسي إلى فرنسا لعشرين عاما بعد أن عرّض بزواج فؤاد من نازلي في مايو 1919، في وقت كانت البلاد فيه على شفا الثورة، واصفا الحدث بأنه «يلوث شرف الأمة وشهداءها»(***). وكان فؤاد في نظره «خائن يعصر دماء قلوبكم حتى يشربها مع عروسه وسط وزرائه وعالته، ثم يرقص على أصوات المدافع البريطانية(14)».

لكن من هذا الحضيض، فيما يتعلق بالاحترام الوطني للملك، تحسنت مكانة فؤاد تدريجيا. وأصبح قوة سياسية كبرى قادرة على إبعاد سعد زغلول عن رئاسة الحكومة طوال أغلب عهده. وفي الإسكندرية، كان الملك يقيم حفل استقبال شهريا، كان ضباط البحرية البريطانيون مطالبين بحضوره، وفيه كان الملك «الأكثر دماثة وتمدنا» يتحدث إليهم باللغة الفرنسية(15). أما الديبلوماسيون والممولون

(*) صُنع التمثال هدية من الجالية الإيطالية بالإسكندرية تقديرا لاستضافة مصر لملك إيطاليا فيكتور إيمانويل الثالث، بعد أن أجبر في العام 1946 على التنازل عن العرش لابنه أومبرتو الثاني. مات فيكتور في الإسكندرية ودُفن فيها في العام التالي لوصوله. [المترجم].

(**) شارع روزيت فيما سبق في هذا الكتاب. [المترجم].

(***) كتب بيرم التونسي زجلا عاميا هجا فيه ما أشيع عن علاقة غير شرعية بين ابنة الملك فؤاد من زوجته الأولى شيوه كار الأميرة فايقة ومحافظ القاهرة حسين فخري، ولم يتمكن فؤاد من النيل منه بسبب حماية القنصلية الفرنسية له. ثم كتب زجلا في الابن فاروق الذي ولدته نازلي للملك «بعد سبعة أشهر من الزواج»، بعدها صمم فؤاد على نفيه، وبالفعل نُفي إلى تونس، ومنها إلى فرنسا. [المترجم].

والسياسيون، فقد خصص لهم الملك ما أسماه الديبلوماسي البريطاني ديفيد كيلي David Kelly مقابلات «مدهشة»، يحلل فيها شخصيات الناس والأحداث بصراحة محرجة، ويشتكي فيها من القيود التي يفرضها على سلطته الدستور الجديد للعام 1922، الذي صيغ على غرار دستور بلجيكا، والذي كان في رأيه ديموقراطيا أكثر مما ينبغي. فالمصريون «كانوا غير مهيئين بالكلية للحكومة البرلمانية على هذا النمط ... فلماذا لا ندعه يدير البلاد، وكان بالفعل يعرف جيدا كيف يديرها، إذا توقفنا عن التدخل في الأمر وحسب؟»[16].

وصف سير ريتشارد فوكس Richard Vaux، رئيس المحاكم المختلطة في الإسكندرية، الملك فؤاد بأنه «الرجل الأكثر اقتدارا في مملكته ... [يتمتع] بمعرفة موسوعية بالناس وشؤون بلاده ... ودؤوب في عمله، أتقن تفاصيل الإدارة بسهولة، ومن الموثوق أن نقول إن وزراءه وزراء له فعلا وليسوا سادة له»[17]. وأثنى مسؤول آخر على «فهم الملك للشؤون العالمية، وأحكامه السليمة واهتمامه الإنساني بكل جوانب الحياة المصرية المعاصرة»[18]. كان من بين أصدقاء فؤاد سيدتان مصريتان ثريتان من عائلتين يهوديتين بارزتين هما مدام رولو Madame Rolo ومدام قطاوي باشا Madame Cattaui Pasha (اسمها بالمولد أليس سوارس Alice Suares)، الوصيفة الأولى للملكة. مثل معظم اليهود المصريين في ذلك الوقت، كانت هاتان السيدتان تشعران أنهما مصريتان، واعتبرتا الحركة الصهيونية «غير مقبولة بالمرة». وبعد سنوات قليلة، قال مسؤول صهيوني عن الخمسة والعشرين ألف يهودي الذين كانوا يعيشون في الإسكندرية: «نشأت بينهم عداوة وكراهية قاطعة للأهداف الصهيونية. إذ يعتبرونها شيئا يهدد طمأنينتهم ويجب أن يُجهَض»[19].

واصلت الحكومة المصرية والسفارات الأجنبية عادة الانتقال إلى الإسكندرية كل صيف. وكانت المندوبية السامية البريطانية تحتاج وحدها إلى قطار خاص[20]. كان المصريون متيمين بسعد زغلول ابن الفلاحين، بينما كان الملك يفضل ابن الإسكندرية إسماعيل صدقي. تلقى صدقي المولود في الإسكندرية في العام 1875، الماهر ذو الشخصية الساحرة، تعليمه في مدرسة كوليج دي فرير College des Freres ومدرسة الحقوق الخديوية، وعمل سكرتيرا عاما للبلدية بين العامين 1899

و1914. ومن تعليمه المسيحي، ظل هذا المسلم يقدّر القديسة تريزا من ليزيو. تولى صدقي رئاسة الوزراء في الأعوام 1930-1933 ومرة أخرى في العام 1946. وكان مما تسبب في انتقادات شعبية واسعة أنه وافق على بناء طريق كورنيش جديد يمتد من الميناء الشرقي في أقصى الشرق إلى سراي الملك فؤاد الآخر في المتنزه الذي اشترته الحكومة المصرية لفؤاد من الخديو المنفي عباس حلمي في العام 1924، والذي أعاد فيروتشي بك تصميمه له[21]. وسرعان ما اصطفت على الكورنيش شواطئ ومطاعم ونوادٍ ليلية.

تتمثل إحدى بقايا سنوات الإسكندرية بوصفها مدينة للبلاط الحاكم في متحف المجوهرات الملكية الواقع في ضاحية رشدي، في فيلا بُنيت في العام 1919 لابنة عمة الملك فؤاد الأميرة زينب فاضل. بُنيت هذه الفيلا على الطراز الأوروبي بنوافذ زجاجية ملونة تصوّر مشاهد من التاريخ الأوروبي. ومع أن مقتنيات العائلة المالكة تعرضت منذ العام 1952 لعمليات بيع وسرقة ضخمة، فلاتزال مجموعة المجوهرات الملكية في المتحف هائلة، من بينها صولجان بلاتيني مطَعّم بالألماس والياقوت واللؤلؤ، ومجموعات شطرنج ذهبية وفضية، وتيجان وقلائد وأوسمة.

***

في بادئ الأمر، لم يلحق انبعاث الوطنية المصرية أذى بالكوزموبوليتانية. وفي عهد الملك فؤاد، سمح قانون جديد للجنسية، أكثر ليبرالية منه في الحكومات المصرية اللاحقة، لكل الرعايا السابقين للإمبراطورية العثمانية، من المسيحيين أو المسلمين الأتراك أو العرب، المقيمين في مصر في العام 1914، بأن يكونوا مصريين. جذب حزب الوفد صاحب شعار «الدين لله والوطن للجميع»، الكثير من الأقباط. وكان من الأقوال المفضلة: «أسياد في وطننا، كرام لضيوفنا». وكما قال النحاس باشا خليفة سعد زغلول في زعامة الوفد، في خطبة أمام قادة الجاليات الأجنبية في الإسكندرية في العام 1937: «لا شيء يمكن أن يفرق بيننا ثانية. فأنتم تحبون مصر ومصر تحبكم»[22].

أضيف لاجئون من الإمبراطوريتين الروسية والعثمانية، وكذلك مهاجرون من أوروبا والمشرق، إلى القدر السكندري. فكان مصمم استاد الإسكندرية الكلاسيكي المُحْدَث البديع، الذي شُيّد بالاكتتاب العام من أجل أول دورة ألعاب بحر متوسطية وأفريقية في العام 1927، روسيًّا يدعى ألكسنـــدر نيكوخوشـــف بك

Alexander Nicohossov Bey[23]. وانتقلت البطريركية الأرثوذكسية من القاهرة إلى الإسكندرية ومعها مكتبتها القديمة في العام 1927[24]. وواصلت المدينة دورها بوصفها ملاذا للراديكاليين، إذ فتحت ذراعيها للاجئين من الفاشية الإيطالية مثل السيد إدريس السنوسي زعيم المقاومة الليبية، والكاتب والرسام والملحن إنريكو تيرني Enrico Terni وزوجته الروائية فاستا جالينتي Fausta Cialente. وجد الزوجان في مصر «حرية مطلقة» كانت إيطاليا لم تعد تتمتع بها[25].

عكست الحياة الثقافية بالإسكندرية كذلك مزيج الأقوام الساكنين فيها. ففي العام 1919، أطلق الأمير يوسف كمال والرسام ماكس دبانة Max Debbane جمعية أصدقاء الفنون التي نظمت المعرض الثالث للفن الإسلامي (بعد أن أقيم في باريس في العام 1903 وميونخ في العام 1910) بعنوان «معرض الفن الإسلامي»، الذي عرض بالدرجة الأولى معروضات من مقتنيات عائلتي بيناكي ولاغونيكو Lagonico. وتأسس أتيليه الإسكندرية (جمعية الفنانين والكتاب) في العام 1934 على أيدي غاستون زنانيري ومحمد ناجي وإنريكو تيرني، وانتهى المقام به إلى فيلا تمفاكو Palais Tamvaco الفخمة في الحي اليوناني التي لايزال الأتيليه يوجد بها(*). قدم الأتيليه للفنانين ورشا للرسم، ونظم محاضرات ومعارض عرضت أعمال رسامين محليين مثل كليا بدارو Clea Badaro والرسام السريالي إنريكو براندانى Enrico Brandani وثاليا فلورا كرافيا Thalia Flora Caravia من سميرنا، وسيف وانلي Seif Wanly وعزت إبراهيم[26]. وفي العام 1929، افتتحت المدرسة البريطانية للبنين British Boys School لمن لا يتحملون مصروفات مدرسة فيكتوريا كوليدج، ثم المدرسة الإنجليزية للفتيات English Girls College في العام 1935. وعلى رغم الطابع الإنجليزي المفرط للمدرسة الأخيرة، أو ربما بسببه (كانت الصفوف الدراسية تسمى شكسبير وبيرون ولام وماسفيلد(**)، كانت الفتيات من «كل عرق ودين» من أنحاء الشرق الأوسط

(*) الفيلا اسمها فيلا مخلع Villa Mikhallaa وتمفاكو هو اسم التاجر اليوناني الذي بناها في العام 1893 أو 1883. [المترجم].

(**) تشارلز لام Charles Lamb (1775 - 1834) شاعر وكاتب إنجليزي مشهور بمجموعته «مقالات إيليا» وكتاب الأطفال «حكايات من شكسبير» الذي ألفه مع أخته ماري لام Mary Lamb؛ جون ماسفيلد John Masefield (1878 - 1967) شاعر وكاتب إنجليزي وأمير شعراء إنجلترا من العام 1930 حتى وفاته. [المترجم].

كافة - بما في ذلك المملكة العربية السعودية - يهفون إلى المدرسة «كما تهفو الفراشات إلى شمعة»، إذ أعجبهن فيها الحرية والألعاب الرياضية التي لم تكن معروفة في المدارس الفرنسية، وكانت الفتيات تتحدثن «لغة إنجليزية سليمة» بسرعة فائقة[27].

تمثل العصر الذهبي للكوزموبوليتانية في الإسكندرية في فترة العشرين سنة بين العامين 1936 و1956. إذ تراجعت التوترات بعد أن تفاوض النحاس على معاهدة صداقة جديدة مع بريطانيا في العام 1936 أعطت مصر مزيدا من الاستقلال وجدولا زمنيا لجلاء القوات البريطانية عن القاهرة والإسكندرية إلى منطقة القناة والتخلص من المستشارين البريطانيين في الوزارات المصرية[28]. وفي العام 1937، وبعد أربعمائة سنة، أُلغيت أخيرا الامتيازات الممقوتة التي شُجبت طويلا بوصفها «شكلا من العبودية والرجعية، من تلك الشرور التي تكبدها المصريون من الباشا إلى الفلاح»[*]. وبدأت المحاكم المختلطة تنزوي حتى أغلقت في العام 1949. وتحول مقرها في ميدان محمد علي إلى محكمة مصرية، ولايزال كذلك إلى اليوم. كما أغلقت المحاكم القنصلية هي الأخرى في العام 1948. ومنذ ذلك الحين، صارت السيادة المطلقة في مصر للقانون المصري[29].

لاحظ التغير الروائي القاهري العظيم نجيب محفوظ، الذي كان يقضي الصيف في الإسكندرية مثل الكثير من القاهريين، إذ تذكر أن المصريين قبل العام 1936 كانوا يعتبرون الإسكندرية

> مدينة أوروبية، تُسمَع فيها اللغة الإيطالية أو الفرنسية أو اليونانية أو الإنجليزية أكثر كثيرا مما تُسمَع فيها اللغة العربية. كانت المدينة جميلة ونظيفة جدا حتى إن الواحد كان يمكن أن يأكل من الشوارع ... لكن ذلك كله كان للأجانب. ولم يكن باستطاعتنا إلا أن نراقب من بعيد ... إلى أن جاءت معاهدة 1936 التي أخضعت الأجانب للقانون نفسه الذي يخضع المصريون له ... وعندما ألغيت الامتيازات، اضطر الأجانب في الإسكندرية

(*) على رغم أن حكومة تركيا الفتاة في تركيا ألغت الامتيازات في سبتمبر 1914، التي كانت الأساس لتطبيقها في مصر باعتبار مصر ولاية عثمانية، فقد استمرت الامتيازات في مصر حتى بعد إلغائها في إسطنبول وزوال الدولة العثمانية نفسها. [المترجم].

> إلى تغيير موقفهم. فلم يعودوا يملكون البلد، ولم نعد نحن المصريين مواطنين من الدرجة الثانية. فأدركوا أنهم وإيانا سنقف أمام القضاة أنفسهم، وهو ما أعطانا شعورا بالثقة. وظلت مظاهر الحياة الأوروبية حاضرة بقوة، لكن عندما أُلغيت الامتيازات، أصبحت متاحة لنا نحن أيضا.

لم يعد المصريون يشعرون بأنهم غرباء. وأخذ محفوظ يرتاد المطاعم اليونانية مثل مطعم أثينيوس Athineos المشهور بفرقته الأوركسترالية الكلاسيكية والحفلات الراقصة المسائية: «بإيجاز كانت الإسكندرية مدينة أوروبية تابعة لمصر»[30]. تذكر محفوظ الإسكندرية باعتبارها مدينة «تشع فيها البهجة العامة في كل مكان»[31].

وبدأ الكثير من اليونانيين وغيرهم من الأجانب يتحدثون اللغة العربية بطلاقة، بدرجة أفضل كثيرا من قراءتهم أو كتابتهم لها(*). وفي المناطق المختلطة، يتذكر السكندريون الزيارات إلى جيرانهم أيا كان دينهم، والذهاب معهم إلى المدرسة نفسها، والأكل معهم، والنزول ضيوفا على بيوتهم. فكما يتحدث البيروتيون عن السنوات السابقة على حربهم الأهلية، تذكر الروائي إدوار الخراط: «لم يكن ذلك مهما، فلم نكن نسأل عن دين بعضنا البعض، أو حتى نفكر فيه». ويتذكر محمد إبراهيم عبدالصمد «أنهم كانوا يأكلون طعامنا ونأكل طعامهم». وفي رأي الحاج مصطفى الملا(**)، «كان الجميع يعيشون معا كعائلة واحدة، من دون أي فرق بين مسلم أو مسيحي أو يهودي»[32].

كان الكثير من المصريين يحبون الإسكندرية لأنها في الوقت عينه مصرية ومختلفة، ومكان مستساغ لقضاء الصيف. «حتى الطريقة التي يتحدث بها السكندريون اللغة العربية كانت مختلفة» كما تتذكر السيدة سميرة إن .Samira N، سليلة عائلة سكندرية لها جذور في المغرب وبحر إيجة. ولاتزال سميرة تشعر بأنها سكندرية أكثر من كونها مصرية[33].

(*) هو عين ما حدث في القسطنطينية وسميرنا، إذ بعد قرون طويلة من العيش فيهما، بدأ اليونانيون والأجانب عموما يتحدثون اللغة التركية في آخر سنوات المشرق فقط، وهو ما يرجع بالدرجة الأولى إلى تنامي قوة الدولة المضيفة أو تراجع قوة الحماة الأجانب. [المترجم].

(**) من أهالي الإسكندرية الذين أجريت معهم مقابلات في الدراسة التي يوجد المرجع الخاص بها في آخر الفقرة. [المترجم].

بدأت مصر بعد العام 1936 تشهد شكلا من أشكال الحكم البرلماني. وكانت الحكومات تتغير أحيانا نتيجة للانتخابات العامة. وكان الوزراء يتعرضون للنقد في البرلمان، وأحيانا كانوا يستقيلون بعدها. من ذلك أن مدير عام بلدية الإسكندرية شكور باشا الذي كانت الحكومة قد عينته، استقال بعد انتقادات في صحيفة لاريفورم[34]. في هذه الأثناء، ازدهر الاقتصاد. إذ بُنيت مصانع للسجائر والبيرة والصابون والورق والأسمنت على أطراف المدينة. وكان ميناء الإسكندرية مفتوحا أمام الطائرات المائية التابعة لسلاح الجو الإمبراطوري وكذلك السفن الحربية والسفن التجارية واليخوت وسفن الصيد[35].

في ذلك الوقت، كان بعض أغنى الرأسماليين في الإسكندرية قد أصبحوا من المصريين. كان من هؤلاء على سبيل المثال أمين يحيى باشا الذي كان يمتلك جزءا من وسط الإسكندرية، منه مقهى تريانون(*)، وأسس شركة الإسكندرية للمحاصيل والتجارة وشركة الإسكندرية للملاحة وغرفة التجارة بالإسكندرية الكائنة في بناية كلاسيكية مُحْدَثة تواجه ميدان سعد زغلول، وأسس في العام 1934 الاتحاد السكندري Union Alexandrine للربط بين أصحاب المصالح التجارية الأجانب والمصريين. فمثل فرغلي باشا الذي «كان أبعد ما يمكن عن الارتياب في التأثيرات الاقتصادية الأجنبية، احتفظ يحيى بعلاقات عمل وثيقة مع الأجانب» بتعبير روبرت تينور Robert Tignor[36].

فبعد أن أُحْرِقت سميرنا، وهُجِرت القسطنطينية، وهُلينت سالونيك، لم يعد للإسكندرية التي ظلت رسميا ثنائية اللغة بالفرنسية والعربية، نظير كحاضرة مشرقية. وفي العام 1930، منحت المدينة نفسها لقب «ملكة البحر الأبيض المتوسط»[37].

***

«تربعت» اللغة الفرنسية- لغة المشرق- أكثر من أي وقت سابق باعتبارها لغة الإسكندرية: «إننا نجد هنا من يحبنا ويقرأ لنا ويستمع لنا أكثر من أي مكان آخر» كما كتب زائر فرنسي يدعى كلود أفيلان Claude Avelin في العام 1934.

(*) لايزال مقهى تريانون يعمل إلى اليوم. [المترجم].

ولدى وصولها إلى الإسكندرية عروسا شابة في العام 1937، وجدت الأمريكية جوسي برينتون Josie Brinton التي تزوجت من ابن قاضٍ في المحاكم المختلطة «أنه يتحتم عليها هنا أن تعرف كيف تتحدث اللغة الفرنسية». إذ كانت اللغة الفرنسية تؤدي دورا في مصر أكبر من دور التجارة الفرنسية[38].

في العام 1927، بُنيت مدرسة فرنسية ضخمة على الطراز الرومانسي المُحْدَث، هي كوليج سان مارك College Saint-Marc، بالقرب من الشاطبي. قدمت المدارس الفرنسية في الإسكندرية في العام 1929، التعليم لأكثر من عشرة آلاف طالب، وكانت اللغة الفرنسية تُستخدَم كذلك وسيطا للتدريس في بعض المدارس المصرية واليهودية. وكانت تُنشَر في مصر كتب فرنسية خاصة لاستخدامها في مدارس اللغة الفرنسية مثل كتاب «مختارات عن مصر» Morceaux choisis sur l'Egypte (1925) من تأليف راؤول كانيفيه Raoul Canivet. ووضعت خطط لإنشاء جامعة فرنسية في الإسكندرية. وبعد العام 1922، بدأت المدارس الفرنسية والأجنبية الأخرى أيضا في تدريس اللغة العربية لبضع ساعات في الأسبوع «احتراما للوطنية المصرية»[39].

لم تكن اللغة الفرنسية اللغة الوحيدة للإسكندرية. فخلال هذه السنوات، على نحو ما تذكر سكندري سويسري: «كان من المعتاد أن تعطي الأوامر للمستخدمين المنزليين باللغة العربية في الصباح، وأن تخاطب الحلاق باللغة اليونانية، وأن تتحدث الإيطالية في دكاكين الأحذية، وبعد ذلك تتحدث الإنجليزية في العصر على لعبة البريدج أو خلال استراحة الشاي في الخامسة أو لعبة البولة، وأخيرا في الأمسيات تستقبل أصدقاءك وتسامرهم باللغة الفرنسية»[40]. ومن ذلك أيضا أن إيفيت (إيف) كوهين Yvette (Eve) Cohen التي صارت لاحقا الزوجة الثانية للورنس داريل كانت تتحدث اللغة الإسبانية والفرنسية والإيطالية واليونانية والعربية، وتعلمت الإنجليزية في المدرسة الإسكتلندية للفتيات. أما زوجة داريل الثالثة كلود فينسيندون Claude Vincendon، فكانت تتحدث الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية واليونانية والعربية والعبرية[41]. وكان الكثير من السكندريين ينتقلون من الفرنسية إلى اليونانية إلى الإيطالية إلى الإنجليزية في الجملة نفسها، مع استخدام بضع كلمات عربية[42]. وكانت عائلة سموحة Smouha اليهودية الغنية التي جاءت من بغداد واستقرت في الإسكندرية، تطلق على «المزيج متعدد اللغات»

المكون من العربية والإيطالية والإنجليزية والفرنسية الذي يتحدثونه في البيت اسم «الفرابيش» farabish[43](*). وكتب أحمد راسم Ahmed Rassim السكندري الذي عمل بوزارة الخارجية، قصصا وقصائد باللغتين العربية والفرنسية كلتيهما، وكذلك كتب سيد درويش الشاعر الوطني ومؤلف السلام الوطني، اسكتشات غنائية عن ندل الإسكندرية بلغة يونانية معربة(**). وحتى الأفلام كانت متعددة اللغات، إذ زُوّدت بحواشٍ سينمائية باللغة الفرنسية والإنجليزية واليونانية و/أو العربية بناء على المدرج الصوتي الأصلي للفيلم[44](***).

ظهر نذير التمصير بداية من العام 1930 في صناعة السينما المصرية المتنامية، مع إعطاء الممثلين والممثلات في أغلب الأحيان أسماء عربية ذات رنين إسلامي، على الرغم من أنهم- وكذلك المنتجون والمخرجون السينمائيون الذين ابتكروا تلك الأسماء لهم- ربما كانوا مسيحيين أو يهودا، وكانت الفرنسية لغتهم الأولى. وخارج صناعة السينما أيضا، بدأ الكثير من المسيحيين الذين كانوا حتى ذلك الحين يحملون أسماء مثل بيير أو روبرت يعمّدون أبناءهم بأسماء مثل سمير أو فؤاد، إذ رأوا أن الأسماء المسيحية ذات رنين أوروبي وقد تشكل عائقا في المستقبل. ولذلك كتب ميشيل شلهوب Michel Chalhoub المولود في الإسكندرية، في مذكراته «إنني ابن الإسكندرية ... كما أنني فرنسي الثقافة»، وكان يمقت التمييز العنصري والتعصب، لكنه مع ذلك غيّر اسمه إلى عمر الشريف. وكان إلى جانب اللغة الفرنسية، يتحدث العربية والإنجليزية واليونانية، ويمتلك معرفة عملية باللغتين الإيطالية والتركية[45].

***

(*) يبدو أنها كلمة مكونة من أسماء اللغات الأربع، مع أنها ليست اختصارا بالأحرف الأولى، أولها من الفرنسية ووسطها كاملا من العربية ونهايتها من الإنجليزية. [المترجم].

(**) من أمثلة هذه الأغاني أغنية مخسوبكو انداس التي تقول كلماتها: مخسوبكو انداس صبح محتاس، مسختوا بابوتسي ياناس، مفيس فلوس بقيتو منخوس فلستو خلاص، نستغلوا في ايه يا افندي يا بيه مادام البخت موريه ... [المترجم].

(***) الحاشية السينمائية soundtrack كلام مطبوع أو جزء من الحوار يبدو على الشاشة بين مشاهد الفيلم الصامت أو يظهر كترجمة في أسفل الشاشة في أثناء العرض. [المترجم].

المدرج الصوتي soundtrack هو ذلك الجزء من الفيلم السينمائي الحامل للتسجيل الصوتي. [المترجم].

قد يظن المشاهد المعاصر لأفلام الأبيض والأسود العربية القديمة المزودة بترجمة فرنسية مثلا أن هذه الترجمة أعدت لعرض الفيلم في فرنسا، مع أن الأمر لو كان كذلك لأضيفت الترجمة إلى النسخة المعروضة في فرنسا فقط، كما هي الحال مع ترجمة الأفلام الأجنبية التي تعرض في البلاد العربية، لكنها كانت تضاف إلى النسخة الأصلية للفيلم في أثناء إعداده من أجل المشاهدين مختلفي اللغات في مصر نفسها، وليس خارجها. [المترجم].

لم تطور الإسكندرية - على نحو ما فعلت باريس أو نيويورك - هوية جامعة واحدة من شأنها بعد جيلين أو ثلاثة أن تلغي الولاءات السابقة. إذ ظل السكندريون مرتبطين بجالياتهم القومية والدينية الأصلية، إلى جانب تنمية الولاء إلى مدينتهم، وفي بعض الحالات إلى مصر. وفي كل عام، كانت أحياء الإسكندرية تزيّن بالأعلام اليونانية أو البريطانية أو الفرنسية أو الإيطالية في أثناء المواكب والمهرجانات التي تحيي عيد الفصح أو عيد الإمبراطورية أو سقوط الباستيل أو «زحف موسوليني على روما»(*). وكانت الجاليات الأجنبية تقاتل في الحروب التي يخوضها بلد كل منها. وأسماء اليونانيين السكندريين المنقوشة على جدران فناء البطريركية الأرثوذكسية تحيي ذكرى قتلاهم بوصفهم يونانيين في حروب اليونان في الأعوام 1912-1913 أو 1916-1922 أو 1940-1945[46].

كانت عائلة سلفاغو - على سبيل المثال - من بين سكان الإسكندرية الأكثر ثراء، إذ أسهموا بخمسة وعشرين في المائة من الرأسمال الأصلي للبنك الأهلي المصري، لكنهم مع ذلك ظلوا يونانيين، وليسوا مصريين. وكان نيكولاس سلفاغو Nicholas Salvago المولود في جزيرة سيروس يتحمل تكاليف تعليم يونانيي الإسكندرية خارج مصر، في أوروبا أو الولايات المتحدة الأمريكية. وكان ابنه ميشيل سلفاغو Michel Salvago في آن معا رئيس الجالية اليونانية ورئيس حلقة محمد علي، مع أنه أُجبِر على الاستقالة من عضوية المجلس البلدي في العام 1923 بسبب اتهامات بأنه، باعتباره حامل أسهم رئيسا في شركات الترام والغاز والمياه التي تخدم المدينة، اغتنى على حساب المدينة[47].

كانت زوجته أرجيني Argine المولودة باسم بيناكي Benaki وشقيقة الروائية بينيلوب دلتا، واحدة من «ملكات الإسكندرية غير المتوجات»، اشتهرت بذوقها ومحبيها من الجنسين الذين أغوتهم عيناها الـ رقاوان الأرجوانيتان. عاش الزوجان في فيلا فخمة كلاسيكية الطراز (يشغلها حاليا المركز الثقافي الروسي) تكتظ بالخزف والأنتيكات على زاوية شارع الفراعنة Rue des Pharaons وشارع بطليموس Rue des Ptolemees في الحي اليوناني. عندما جاء ملك اليونان للإقامة عنده إبان الحرب العالمية الثانية قال إنه

(*) الأعياد والمناسبات الأربع للدول الأربع على التوالي. [المترجم].

سيجد حرجا في رد ضيافته في أثينا، ذلك لأن قصر الملك كان أقل روعة من بيت ميشيل. وكان أحد ضباط الملك اليوناني غير معتاد على أشكال الترف التي رآها في الإسكندرية حتى إنه ظن أن همس كبير الخدم في أذنه باسم النبيذ الذي يقدمه له، إيماءة غير لائقة. وكانت الجمعيات الخيرية التي دعمتها عائلة سلفاغو يونانية بالدرجة الأولى[48].

يتجلى إحساس الانفصال عن المصريين كذلك في صحف ذلك الزمان. فقبل فترة طويلة من شروع المصريين في النظر إلى أنفسهم على أنهم عرب، كان غير المصريين يشيرون إليهم غالبا باسم «الأهالي» أو «العرب»، وليس المصريين، على نحو ما ذكرت فاستا جالينتي في روايتها «أغنية مشرقية» (Ballata Levantina (1961. حتى المصريون الأثرياء أنفسهم كانوا يطلقون على فقراء المصريين اسم «الفلاحين»[49]. وفي العام 1929، قال ميشيل سلفاغو إن «اليونانيين هناك لايزالون يعملون في تناغم مثالي مع العناصر المحلية». وفي تلك السنة، كتبت صحيفة أن «واحدا من الأهالي صدمته سيارة في منطقة مينا البصل»[50].

***

كان المال - في رأي البعض - هو الحاكم لهذه السنوات الذهبية. تذمر كل من لورنس داريل وفاستا جالينتي من أن السكندريين ليس لهم موضوع للمحادثات غير المال. فالمال يجري في عروق السكندريين مجرى الدم، مع أن جالينتي اعترفت أيضا بأنهم «مهذبون جدا»[51]. وتذكر قاضٍ في المحاكم المختلطة، هو بارون فيرمين فان دين بوش Baron Firmin van den Bosch، أن المحادثات في شرفة حلقة محمد علي كانت تتغير في الحال من السيارات والنساء المارّات وآخر الفضائح عندما يحضر الصبي نشرة مطبوعة من البورصة بأسعار القطن اليوم. وعندما كانت الأسعار ترتفع، كان السكندريون يقيمون عددا أكبر من الحفلات. وكما كانت الحال في بيت عائلة سلفاغو، كان الكثير من فيلات الإسكندرية تحوي مقتنيات فخمة، تجمع بين الأنتيكات البطلمية ولوحات لرسامين مثل فان دونغين Van Dongen وفلامنك Vlaminck أو بروسلين عثماني أو خزف صيني وأحدث كتاب لبروست Proust أو بول موران Paul Morand[52]. ومع نهاية الثلاثينيات، كان السكندريون يمكن أن يستمتعوا أيضا بـ «دورة ليلية من حفلات الكوكتيل». حتى إن بعض السكندريين كانوا يتباهون بأنهم لم يتعشوا في بيوتهم قط[53].

فتح مكتب الديكور الداخلي العصري الباريسي ميزون جانسين Maison Jansen محلا في شارع فؤاد. وفي 3 شارع رولو Rolo Street، حوّل فيكتور ليمان Victor Lehmann من محل جانسين بيت أغنى بريطاني في الإسكندرية، وهو تاجر قطن وعضو بالمجلس البلدي يدعى أوزوالد فيني Oswald Finney (وكذلك رئيس شركة الإسكندرية التجارية وشركة الإسكندرية للتأمين وشركة مصر الوطنية للغزل وبورصة مينا البصل(*)) إلى قصر على الطراز البندقي يحوي أنسجة من غوبلين(**) وخزف من دريسدن ولوحات لرومني(***). وكان سلم من المرمر يصعد خلال أربعة طوابق إلى قاعة رقص أرضيتها مبطنة بالباركيه. وكانت شرفة سطح القصر تعطي منظرا للمدينة كلها. وفي كل عام في أثناء موسم الكرنفالات، كان فيني وزوجته النمساوية جوسا Josa يقيمان حفلة راقصة بالملابس التنكرية لألف ضيف[54].

وإلى جانب المال، هيمنت العلاقات الغرامية على محادثات الإسكندرية. وفي رأي فيرناند ليبريتي Fernand Leprette، فإن «السكندريات المتشربات بالحداثة حتى أخمص أقدامهن الصغيرة الرقيقة ذات الأظفار المصبوغة، تدفعهن رغبة جارفة للقطيعة مع الأحكام المسبقة وتذوق كل صنوف المتعة. وتتمسك السكندريات بالأخلاق البرجوازية إلى حد الرعب، إذ تخشين جميعهن من أن تبدو الواحدة منهن ساذجة حتى في قلبها. فقلوبهن عملية إلى أقصى حد.. وهن كائنات حرة.. تمثلن الزينة الحية للمدينة». كان بعض الأوروبيين يشتّون في المدينة من أجل النساء تحديدا[55]. وقد أقر فان دين بوش هذه الملحوظة، إذ وصف النساء بأنهن «وحوش ضارية صغيرة جميلة تبحث عن الفرائس»، وقال إن «جمالهن وسحرهن وهوسهن بالاستمتاع بمباهج الحياة جعلهن يستبحن كل شيء». دفع ذلك إدوار الخراط إلى أن يكتب رواية بعنوان «يا بنات إسكندرية». وعلق أحد الفرنسيين على

(*) بورصة مينا البصل هي بورصة القطن. [المترجم].

(**) غوبلين Gobelins عائلة من الصباغين، أصبحت من منتصف القرن الخامس عشر من أشهر المنتجين الفرنسيين للمنسوجات المزينة بالصور والرسوم. [المترجم].

(***) جورج رومني George Romney (من 26 ديسمبر 1734 إلى 15 نوفمبر 1802) رسام صور شخصية إنجليزي، كان الأشهر في زمانه، رسم أهم الشخصيات في عصره، ومن أهمهم ملهمته ليدي إيما هاملتون Emma Hamilton. [المترجم].

الإسكندرية بالسؤال «ماذا تتوقعون يا أصدقائي؟ إننا في الشرق!»، وهو الرأي الذي نقل باللغة الإنجليزية في القول «لا يمكن أن يحدث ذلك في إنجلترا!»[56]. فقد كانت السكندريات في موقفهن من الجنس والعرق والاختلافات الدينية واستعدادهن لاختيار ما ومَنْ يردنه من الثقافات المختلفة، أكثر حداثة من الكثير من الباريسيات أو اللندنيات.

على أن موقف السكندريين من الفقر كان عتيقا وبدائيا. من ذلك أن الكاتب الإنجليزي روبن فيدين Robin Fedden الذي تزوج من يونانية - إيطالية - سكندرية تدعى ريني كاتسافليكيس Renee Catsaflikis كان من رأيه أن «أرضيات الباركيه تطفو فوق هاوية من الفقر، وإلى جانب الحرير الأسود واللآلئ توجد الأسمال والخرق. ولا شيء يربط الفلاح بملوك القطن غير كدح الفلاحين الذي لا ينقطع. حتى إن أمراض الفلاحين كانت مختلفة»[57]. وقد صُدِم الأجانب بتعايش الكثير من السكندريين مع الفقر. وفي ذلك لاحظ روبرت ليفيسك Robert Levesque الفرنسي الذي أقام في الإسكندرية، أنه في هذه المدينة ذات الثروات الضخمة يخطف النشالون والشحاذون أموالك في الشارع[58].

***

في العام 1936 الذي وقّعت فيه بريطانيا ومصر معاهدة الصداقة بينهما، توفي الملك فؤاد. كان وصول ابنه الملك فاروق الأول إلى ميناء الإسكندرية في مايو 1936 عائدا من تعليمه في إنجلترا، ثم في يوليو 1937 بعد عطلة في أوروبا، احتفالين شعبيين نظمتهما الحكومة. في المناسبة الأولى، استقل فاروق سيارة رولز رويس مكشوفة تحت وابل من الورود في طريقه من الميناء إلى محطة القطار. وفي المناسبة الثانية، كانت حشود من فتيات المرشدات وفتيان الكشافة وطلاب المدارس الحديثة والعمال وطلاب المدارس الدينية يهتفون «يحيا فاروق!»، «يحيا ملك النيل!» فقد كان الملك الوسيم وحسن النية الذي يذهب إلى المسجد بانتظام في مواكب رسمية، محبوبا من شعبه الذي أسماه «فاروق التقي»[59].

وفي العام 1938، جعله زواجه أكثر شعبية. كان الملك وعروسه فريدة كلاهما في عمر السابعة عشرة فقط عند الزواج. تنتمي فريدة إلى نخبة الإسكندرية التحديثية، تلقت تعليمها في مدرسة نوتردام دي سيون. كان أبوها يوسف ذو

الفقار باشا، أول نائب مصري لرئيس المحاكم المختلطة، وكان خالها محمود سعيد، الذي عمل هو الآخر في المحاكم المختلطة، رساما شهوانيا رائعا تلقى تعليمه في فيكتوريا كوليدج والأتيليه في القاهرة وباريس. انعكس شغف محمود سعيد بالنساء في لوحات له مثل «بنات بحري» (1937) التي تبيّن سيدات ترتدين خلاخيل وبراقع شفافة تحدقن في رجال على الكورنيش، ولوحة «المرقص» (1936) التي تبيّن أزواجا من الرجال والنساء يرقصون متعانقين بشدة. كانت موديلات محمود سعيد العاريات بالدرجة الأولى من الخادمات اللاتي كان يدفع لهن ويغويهن[60]. وثمة رسام سكندري آخر، هو محمد ناجي، اختارته البلدية لرسم لوحة «مدرسة الإسكندرية» التي تضم مشاهير رجال المدينة ونسائها من كل القوميات والأديان، من بينهم أرخميدس وابن رشد والقديسة كاترين الشهيدة وكفافيس والإسكندر الأكبر والكاتب طه حسين، التي تمثل تأكيدا بصريا على دور الإسكندرية كحاضرة[61].

كان الملك فاروق سكندريا بطبيعته. ولاحقا كان صاحب فكرة إحياء الأسطول المصري ومقره بالإسكندرية وشراء سفن من بريطانيا. وفي العام 1940، في أثناء الاحتفال بالذكرى الخمسين للبلدية، عبّر مديرها العام أحمد كامل باشا عن وجهة النظر الرسمية، حين ذهب إلى أن مستقبل الإسكندرية مضمون بفضل «هذه الروح الخيرية والتضامن بين العناصر المصرية والأجنبية» و«الأعمال الخيرية التي تنفذها البلدية من أجل الطبقة العاملة والفقراء تحديدا»، وقبل ذلك بفضل «العناية السامية من جلالة الملك... الذي جعل من مدينتنا الجميلة العاصمة الثانية للمملكة ومقر إقامته المفضل». وقد وُلدت ابنة فاروق الأولى في المدينة[62]. وكذلك تنبأت صحيفة «لاريفورم» التي تأسست في العام 1895 بـ «مستقبل زاهر» للإسكندرية بوصفها نقطة تقاطع الطرق بين الشرق والغرب و«بوتقة الأقوام والأديان والعادات المختلفة... في ظل رعاية جلالة الملك فاروق»[63].

***

غير أن الإسكندرية في ذلك الوقت كانت تتعرض لتهديد من الخارج. فبعد العام 1935، شرعت إيطاليا الفاشية في توسيع أسطولها. وألقى موسوليني خطبا يفوح

منها التهديد حول «بحرنا» الذي يشير به إلى البحر الأبيض المتوسط(*). وفي العام 1936، احتلت إيطاليا إثيوبيا، وفي مارس 1937 سلّم الليبيون المحتلون لموسوليني ما أسماه «سيف الإسلام» الذي أشهره في وجه مصر. وقال موسوليني لهتلر إن بريطانيا «تكبل» يد إيطاليا في البحر الأبيض المتوسط وإن «مصر يجب أن تكون معنا، فلن نكون عظماء إلا إذا كانت مصر لنا». وفي شوارع الإسكندرية، أخذت مجموعات من الإيطاليين في الهتاف «مصر ستكون لنا!».

في المقابل كانت مصر بالنسبة إلى بريطانيا قد أصبحت «المفتاح إلى آسيا» و«حلقة الوصل التي تربط العالم الشرقي والغربي معا»، وتحديدا الأجزاء المختلفة للإمبراطورية البريطانية[64]. وبسبب وقوعها قرب الحدود بين مصر وليبيا الخاضعة للاحتلال الإيطالي، وعلى طريق أي احتلال إيطالي محتمل، أصبحت الإسكندرية قاعدة عسكرية وبحرية حيوية لسيطرة بريطانيا على البحر الأبيض المتوسط.

وُجهت الأوامر لأسطول البحر الأبيض المتوسط البريطاني في أربع مناسبات بدت الحرب فيها وشيكة، بالانتقال من قاعدته في مالطا إلى الأمان النسبي للإسكندرية: أغسطس 1935، وسبتمبر 1938، وأبريل وأغسطس 1939[65]. وأصبح أول ما تقع عليه أعين المسافرين الواصلين إلى ميناء الإسكندرية هو «الديبلوماسيون الرماديون» - أي السفن الحربية التابعة لأسطول البحر الأبيض المتوسط البريطاني- وهم يتدربون باستمرار حتى يكونوا «على أهبة الاستعداد لضرب الإيطاليين في عقر دارهم» بتعبير قائدهم الأدميرال العظيم أندرو كننغهام Andrew Cunningham. حتى إن السفن التجارية كانت تبدو دخيلة بين السفن الحربية البريطانية. كان الضباط البريطانيون في الإسكندرية الأشد عزيمة من السياسيين في لندن متلهفين للعمل ضد «غازوليني» كما كانوا يطلقون على «الزعيم»[66](**). واستُحدِث نظام من الخنادق والأسلاك الشائكة الدفاعية بين الإسكندرية ومرسى

(*) بحرنا Mare Nostrum هو الاسم الذي أطلقه الرومان على البحر الأبيض المتوسط، حين كان بالفعل بحيرة رومانية، تغطي المستوطنات الرومانية سواحله شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، وموسوليني بذلك كان يستنهض شعبه للإمبريالية ويسند أطماعه التوسعية بالتاريخ الروماني القديم. [المترجم].

(**) «غازوليني» Gassolini تحريف لاسم موسوليني الذي كان يُطلَق عليه أيضا في إيطاليا اسم «الزعيم» Il Duce. [المترجم].

مطروح القريبة من الحدود الليبية. وبدأ الأسطول يحصل على أحواض سفن أكبر ومستودعات أكثر. وكذلك وصل سلاح الجو الملكي أيضا إلى الإسكندرية وأنشأ قواعد له في أبي قير والعامرية. وعلى شواطئ الإسكندرية، صار الصبية المصريون خبراء في التمييز بين قاذفة القنابل بلينهايم Blenheim وقاذفة القنابل هامبدن Hampden والطائرة غلوستر ذات السطحين Gloster Gauntlets وهي تتمرن على الصعود والتحليق في السماء(67).

أمر ضابط من الحامية البريطانية المتنامية يدعى «الولد» براوننغ «Boy» Browning في يوم عيد ميلاد الملك في الثالث والعشرين من يونيو 1936، بإجراء عرض احتشاد الأعلام في نادي الإسكندرية الرياضي مع موسيقى من الفرق المجمعة لأسطول البحر الأبيض المتوسط وطبول حرس المشاة. أما دافني دو مورييه Daphne du Maurier زوجة براوننغ، فقد بدأت في أثناء مقامها بالإسكندرية الرواية الأشد في طابعها الإنجليزي «ريبيكا» (1938)(*) التي كان شوقها إلى مدينتها كورنوول Cornwall القوة الدافعة وراءها، وهو الشوق الذي أجج كراهيتها لمصر. عبّرت دافني عن وجهات نظر كانت شائعة بين الكثير من الأجانب: «لا أستطيع أن أنكر أن الأهالي قذرون وغير نظيفين بالمرة»، و«تفتقر (البلد) إلى أي ملمح للسحر»، و«لم أكن أعرف أنه يمكن كراهية بلد بهذه الشدة»(68).

ظل البريطانيون في الإسكندرية منعزلين عن الجنسيات الأخرى. إذ كانت أغلبيتهم تشترك في القناعة التي تذكرتها أوليفياماننغ Olivia Manning في روايتها «ثلاثية المشرق» (1975 - 1980) The Levant Trilogy التي تبلورت في مصر إبان زمن الحرب: «بريطانيا هي الأسمى في العالم، والبريطانيون هم الأسعد حظا بين جميع الناس»(69). كانت الحياة الاجتماعية للضباط البريطانيين - التي تتمحور حول الغولف والتنس والبولو والسباقات في النادي الرياضي وحفلات الكوكتيل - منعزلة وإن كانت مفعمة بالحياة: حتى إن قائد عام أسطول البحر الأبيض المتوسط كُسِرت له سِنة في أثناء حفلة عشاء(70). أما بالنسبة إلى الرتب الأخرى، فقد كتب الأدميرال كننغهام أنهم «كانوا يجدون تسلية كافية على اليابسة». فإضافة إلى نادي الأسطول

(*) تحولت رواية ريبيكا Rebbecca إلى فيلم فاز بجائزة الأوسكار لأفضل فيلم في العام 1946. [المترجم].

بالإسكندرية الذي كان يوفر غرف نوم ومطعما ومكتبة وقاعة حفلات موسيقية وسينما ومحلات، كانت هناك أيضا حانات في شارع دي سير[71]. وكان يتوافر للجنود والبحارة كذلك «مواخير نظيفة» يجري التفتيش عليها بانتظام، ولذلك كانت «نسبة انتشار الأمراض التناسلية منخفضة جدا» بينهم، كما تذكر أحد الضباط[72].

كان ميناء الإسكندرية صغيرا نسبيا ولذلك كان مزدحما دائما. وبداية من العام 1937، أخذ السفير البريطاني سير مايلز لامبسون Miles Lampson، الذي كان يُعرَف في منصبه السابق في الصين باسم «دعهم يأخذوها يا لامبسون» Let 'em have it Lampson لأنه أيد إعادة «الموانئ المفتوحة» مثل شنغهاي إلى السلطة الصينية، يحث الحكومة المصرية تحت ذريعة تحسين الميناء للأغراض التجارية، على تحمل تكاليف تعميقه وتوسعته وشراء شبكة حاجزة ومدافع شاطئ للدفاع عن الميناء في أي حرب مستقبلية. وقد رد رئيس الوزراء ذو الشعبية ووريث سعد زغلول في زعامة حزب الوفد النحاس باشا، الذي كان كمعظم المصريين يكره الإمبراطورية الإيطالية بسبب وحشيتها في إثيوبيا وليبيا، على ذلك بالموافقة والقول «في الحال بكل سرور»[73]. وقد كانت الحاجة في أي حرب مستقبلية إلى استخدام الإسكندرية كقاعدة بحرية، والاعتماد على حكومة مصرية متعاونة، أحد الأسباب وراء توقيع بريطانيا للمعاهدة السخية مع مصر في العام 1936. وبالفعل جرى شراء حوض سفن جديد من بورتسماوث Portsmouth لميناء الإسكندرية الذي جرى تحديثه في أغسطس 1939[74].

***

على رغم إعادة تأكيد بريطانيا لسيطرتها على النقل والرقابة وإمداد المواد الغذائية وإعلان الأحكام العرفية، كانت مصر في العام 1939 تتمتع بدرجة من الاستقلالية تكفي لمقاومة الضغط البريطاني لإعلان الحرب على ألمانيا، وبقيت على الحياد. ومع ذلك، فقد تعاونت الحكومات المصرية مع المجهود الحربي البريطاني، حتى بعد إعلان إيطاليا الحرب على فرنسا وبريطانيا في الخامس عشر من يونيو 1940. وسرعان ما طلب أسرى الحرب البريطانيون في إيطاليا عبوات غذائية من بسترودس، وفي أذهانهم «الأموال الكثيرة التي أخذوها من جيوبنا»[75][*].

(*) من خلال الخطابات، حيث كان مسموحا لهم بمراسلة زملائهم وذويهم. ويبدو أنهم قبل الوقوع في الأسر، كانوا ينفقون أموالهم على ارتياد مطعم بسترودس. [المترجم].

نقل أسطول البحر الأبيض المتوسط مقره العام من مالطا إلى الإسكندرية هربا من الغارات الجوية الإيطالية. وتحت قيادة الأدميرال كننغهام، احتفظت بريطانيا بأربع بوارج وتسعة طرّادات وحاملة طائرات واحدة وخمس وعشرين مدمرة واثنتي عشرة غواصة متمركزة في الإسكندرية، وهو أكبر تركز للقوة البحرية خارج المياه الوطنية البريطانية[76]. أثار مشهد الإمبراطورية البريطانية السائرة إلى الحرب «من دون أن تبدأ هي بها، لكنها واثقة دائما من نفسها، ولا يجد المرء حتى لو بحث جاهدا، زلة لسان واحدة أو إشارة واحدة على العجز»، إعجاب فيرناند ليبريتي، المدرس الفرنسي في مصر، أكثر من كل خطب هتلر وموسوليني التي تتوعد بإسقاط الإمبراطورية البريطانية. وسرعان ما وُجد عشرون ألف جندي للحلفاء في مصر: بولنديون وهنود وأستراليون ونيوزيلنديون، فضلا على البريطانيين[77]. وإلى جانب دوره باعتباره قاعدة في الحرب ضد إيطاليا، غدا ميناء الإسكندرية ضروريا لإمداد المؤن والذخيرة والدبابات والطائرات لقوات الحلفاء في أنحاء الشرق الأوسط كافة، ومنها مالطا التي كانت في السابق المركز البحري لبريطانيا في الشرق الأوسط. واتفق كننغهام وواڤيل Wavell القائد العام للجيش في الشرق الأوسط على أن الأسطول لو انسحب من الإسكندرية، فإن ذلك يعني فقدان مصر[78].

كانت القاهرة كعاصمة لدولة محايدة تتلألأ بالأنوار ليلا. بينما كانت الإسكندرية لكونها قاعدة بريطانية، المدينة الوحيدة خارج بريطانيا وألمانيا التي تعرضت للقصف في العامين 1940 - 1941[79]. وأصبحت الإسكندرية بذلك مدينة غارات القنابل والرعب والنزوح الجماعي كما صوّرها بذكاء إبراهيم عبدالمجيد في روايته «لا أحد ينام في الإسكندرية» (1999) ويوسف شاهين في فيلمه «إسكندرية ليه؟» (1978). وحتى يوليو 1944، ظل إطفاء الأنوار ليلا أمرا معتادا. بينما كانت سماء الليل تضاء بالأضواء الكاشفة والنيران المضادة للطائرات. وكان انفجار القنابل وخرخشة المدافع المضادة للطائرات تصنع ضجة مثل قصف لندن(*).

(*) يشير قصف لندن London Blitz إلى حملة القصف الإستراتيجي المكثف التي نفذتها الطائرات الألمانية على العاصمة البريطانية بين 7 سبتمبر 1940 و21 مايو 1941، التي تسببت في تدمير أكثر من مليون منزل ومقتل أكثر من أربعين ألف مدني، أكثر من نصفهم في لندن، وتدمير الكثير من المصانع والمطارات والموانئ المهمة. توقفت الحملة بعد أن فشلت في إجبار بريطانيا على الاستسلام أو التمهيد لغزوها بعد إيقاف الإنتاج الحربي البريطاني، وبعدها حوّل هتلر انتباهه إلى الشرق إلى عملية بارباروسا التي استهدفت احتلال الاتحاد السوفييتي. [المترجم].

اتُخذت الصهاريج الهيلينية ملاجئ من الغارات الجوية(*). وتولت مراكب الدورية الساحلية المتطوعة بالإسكندرية مسؤولية اكتشاف القنابل الملقاة والألغام في الميناء وإبطالها. وقدمت وحدة سيارات الإسعاف المتطوعة بالإسكندرية العون لسيارات الإسعاف التابعة للصليب الأحمر البريطاني[80].

كان من المتوقع أن يؤدي بحث الجنود البريطانيين عن الجنس والشراب إلى إغضاب المصريين. وبتعبير ألان مورهيد Alan Moorehead، كان «الآلاف من البحارة والجنود يتجولون ليلا في الشوارع المظلمة بحثا عن رفقة في أرض كانت النساء البيض فيها أقل من الأخريات بنسبة واحد إلى مائة، وحتى ذلك الواحد المتبقي كان على وشك الرحيل». كان من بين الوجهات المفضلة لأولئك الجنود، شارع دي سير الذي وقعت فيه اضطرابات في العام 1882(**)، والذي كانت الحانات والمواخير تصطف على جانبيه، حيث كانت نساء شبه عاريات يقفن على الأبواب وينادين «كومباكير» Kombakir («تعال عندنا»)[81](***).

كتب بحار يدعى مايكل كروفت Michael Croft ضمن «أغنية بحار عائد إلى أندرو Andrew (سفينته) (بعد ليلة عاصفة في شارع سيستر بالإسكندرية)»(****):

هناك سبعة طرق إلى الجنة،
وأنا انزلقت فيها جميعا
والآن تغلق الأبواب اللؤلئية
وليست لدي طاقة للجري[82]

(*) الصهاريج الهيلينية عبارة عن خزانات مياه كبيرة تحت الأرض، يمكن أن يتكون الواحد منها من عدة طوابق، مثل صهريج الشلالات الواقع في منطقة الشلالات المطلة على شارع الشهيد صلاح مصطفى (السلطان حسين سابقا) بالإسكندرية. [المترجم].

(**) الاضطرابات التي سبقت الاحتلال البريطاني. [المترجم].

(***) عبارة kombakir قد تكون تحريفا للعبارة الإنجليزية come back here (تعال هنا) كما ذهب المؤلف، لكنها أيضا قد تكون اسم الحي «كوم بكير» الذي كان معروفا بأنه حي البغاء في الإسكندرية، ولذلك انتشرت بين عمال المعمار القادمين من الصعيد حتى أواخر سبعينيات القرن العشرين أغنية تقول «يا رايح إسكندرية حَرّص من كوم بكير». [المترجم].

(****) هو نفسه شارع دي سير الذي يسمى حاليا شارع السبع بنات أو الراهبات. [المترجم].

وعلى رغم انتصارات المحور وشعبية هتلر («الحاج محمد»(*)) بين الكثير من المسلمين وعدم شعبية البريطانيين، فلم تقع أعمال شغب معادية لبريطانيا. وأخذ المصريون عائلاتهم ومقتنياتهم إلى الأمان في الدلتا، ثم عادوا إلى أعمالهم على رغم استمرار الغارات الجوية[83]. بينما يتذكر سكندريون آخرون الحرب بوصفها فترة كان بإمكانهم فيها أن ينهبوا الشاحنات البريطانية ويهاجموا الجنود البريطانيين أو يقتلوهم وينزعوا ملابسهم العسكرية لبيعها[84].

تذمر لامبسون، الديناصور الإمبراطوري بطول ست أقدام وخمس بوصات ووزن ثمانية عشر حجرا(**)، الذي كان الجنرالات البريطانيون يعتبرونه «دائما ناظر المدرسة الذي يستخدم العصا الغليظة»، من أن الملك فاروق كان من سراي رأس التين يعطي إشارات ضوئية للغواصات الإيطالية[85]. ربما كان لامبسون مخطئا. ومع ذلك، فقد تمنى لامبسون سرا أن يجبر الملك على التنازل عن السلطة وأن يرتب «اندماج مصر بشكل أو بآخر في الإمبراطورية البريطانية». كان لامبسون على اقتناع بأن فاروق متعاطف مع المحور، وكانت لدى الطائرات البريطانية أوامر بإجبار طائرة الملك على الهبوط لو اتجهت غربا إلى ليبيا في أثناء طيرانها بين القاهرة والإسكندرية[86].

ولما تقدم الجيش الإيطالي من ليبيا، ظهرت مدينة ثانية خارج الإسكندرية: أسلاك شائكة، ومعسكرات جيش، وخزانات وقود، وناقلات دبابات وعربات مدرعة. كان الازدحام شديدا على اليابسة وعلى صفحة البحر كلتيهما[87]. غير أن الحرب لم توقف التجار اليونانيين الذين كانوا يرسلون مراكب بعيدا حتى الجزائر للإتيان بإمدادات الجبن والواقيات الجنسية والنايلون والإسباغيتي[88]. وبينما كانت أوروبا تعاني الشح والمجاعة، ظلت مصر أرض الوفرة. من ذلك أن إفلين وو Evelyn Waugh كتب حين مر بالإسكندرية وهو في طريقه إلى الحملة على جزيرة كريت: «الطعام في الإسكندرية شهي. ونعيش فيها على السمان والربيان والفراولة البرية»[89].

(*) في أثناء الانتصارات الأولى للمحور على الحلفاء ومع اقتراب جيوش روميل من الإسكندرية، استبشر المصريون الخير فيمن سيخلصهم من الاستعمار، وخرجت مظاهرات في شوارع القاهرة تهتف «إلى الأمام يا روميل»، وأطلق بعضهم على أدولف هتلر اسم «الحاج محمد هتلر»، ومن هنا جاء انتشار اسم هتلر بين المصريين. [المترجم].

(**) الحجر stone وحدة وزن بريطانية تعادل 14 رطلا، والرطل يزن 453 غراما. [المترجم].

كانت الإسكندرية على الخط الأمامي للصراع بين فرنسا الفيشية والحرة(*)، فضلا عن الصراع بين المحور والحلفاء. وفي يونيو 1940، أرسلت فرنسا بارجة وأربعة طرّادات وثلاث مدمرات إلى الأمان في ميناء الإسكندرية[90]. وبعد توقيع الهدنة الفرنسية - الألمانية، وجد نائب الأدميرال غودفروا Godefroy في قيادة الأسطول الفرنسي، نظيره البريطاني القائد العام لأسطول البحر الأبيض المتوسط الأدميرال كننغهام «شخصية فذة جدا تتمتع بوجهة نظر ثاقبة وعميقة»[91]. وقد أقنعته الحجج المشتركة لكننغهام وقادته بألا يغرق سفنه، بل أن ينزع سلاحها فقط، حتى بعد أن أغرقت بريطانيا معظم الأسطول الفرنسي في المرسى الكبير على الساحل الجزائري في أغسطس 1940، وبعد أن كانت معركة بين الأسطولين قد أوشكت على الاندلاع في ميناء الإسكندرية. بقيت السفن الفرنسية محايدة على نحو غير مفهوم في ميناء الإسكندرية حتى أبحرت إلى داكار في العام 1943[92]. لم يكن البريطانيون ولا حتى جيوش المحور هم العدو الحقيقي لهذه السفن المبحرة، وإنما الديغوليون، وقد شهدت شوارع الإسكندرية معارك متكررة بين بحارتهم وجنود فرنسا الحرة[93].

أعطى المجهود الحربي البريطاني الجالية البريطانية في الإسكندرية أحسن أوقاتها. كان من أبرز العائلات ذات الارتباطات على جميع مستويات المدينة، عائلة باركر التي تحدرت من وليام باركر William Barker من ديربيشاير Derbyshire، الذي جاء للتجارة في سميرنا في العام 1760. أنجب وليام عشرين طفلا من زوجتين. وكان ابنه جون القنصل العام البريطاني في الإسكندرية في الأعوام 1827 - 1830 ومستشار محمد علي وابنه إبراهيم. واستقر فريدريك Frederick ابن جون باركر في الإسكندرية. وازدهرت وكالة الشحن البحري التي أسسها في العام 1850 باسم باركر وشركاه Barker & Company، وكان عنوانها البرقي «باركر، الإسكندرية». وأصبح سير هاري باركر Harry Barker،

(*) فرنسا الفيشية Vichy France (نسبة إلى مدينة فيشي في وسط فرنسا) أو البيتانيون (نسبة إلى المارشال فيليب بيتان) هي حكومة فرنسا الخاضعة للاحتلال الألماني إبان الحرب العالمية الثانية والمتعاونة معه بقيادة نظام فيليب بيتان؛ فرنسا الحرة Free France (أو الديغوليون نسبة إلى الجنرال شارل ديغول) هي حكومة المنفى الفرنسية التي قادها شارل ديغول وأعلِنت في لندن في يونيو 1940 وظلت في جانب الحلفاء بعد سقوط فرنسا وقادت المقاومة في الداخل الفرنسي المحتل. [المترجم].

ابن أخي فريدريك، مدير البنك الأهلي المصري ونائب رئيس نادي الإسكندرية الرياضي ورئيس غرفة التجارة البريطانية والجالية البريطانية بالإسكندرية ورئيس مجلس إدارة فيكتوريا كوليدج وعضوا بالمجلس البلدي. وكان أيضا قائدا لما أسماه حفيده «لجنة صغيرة من الجالية البريطانية بالإسكندرية» كانت «السفارة تطلب نصحها» أحيانا[94].

تكشف ألبومات الصور التي تركتها عائلة باركر عن مباهج الحياة بين أثرياء الإسكندرية البريطانيين: الرحلات البحرية، وصيد البط مع السفير في الدلتا، وصيد الوعول والغزلان في الصحراء، ومباريات البولو في نادي الإسكندرية الرياضي، وحفلات صندوق التكافل الخيري البريطاني، والفيلات الفخمة المحاطة بحدائق جيدة الصيانة[95]. وعلى رغم زيجات السكندريين البريطانيين من سيدات يونانيات أو مشرقيات، فقد حالت أربعة موانع وقائية من «تحولهم إلى أهالي»: المربيات وجليسات الأطفال الإنجليزيات، والتعليم في إنجلترا أو في المدارس الإنجليزية في الإسكندرية، وقضاء الصيف في إنجلترا، والخدمة في الجيش البريطاني. وعلى رغم أنهم كانوا يقيمون في الإسكندرية منذ العقد السادس من القرن التاسع عشر وكانوا على اقتناع من «أنهم سيواصلون الإقامة في الإسكندرية»، فإنهم في العام 1940، وفي تأكيد آخر على بريطانيتهم، قدموا التماسا إلى «المحكمة القنصلية البريطانية لصاحب الجلالة في مصر» بأن يكونوا «رعايا طبيعيين لجلالته كأنهم ولدوا في بريطانيا»، وقد نالوا ما طلبوا[96].

خدمت ثلاثة أجيال من عائلة باركر المجهود الحربي البريطاني. فكان مايكل باركر ضابطا في كتيبة الرماة، وكان أبوه هنري ألوين باركر Henry Alwyn Barker قائد قوات منطقة الإسكندرية، وعمل سير هنري باركر أبو هنري ألوين باركر إبان الحرب العالمية الأولى لمصلحة وزارة النقل الحربي، إذ ساعد في شحن السفن المدنية وإفراغها بأسرع ما يمكن في ميناء الإسكندرية[97].

كانت غابرييلا باركر Gabriella Barker زوجة أخي سير هنري باركر، التي عملت بمستشفى التوليد الدولي وائتلاف موظفي الخدمات الاجتماعية بالإسكندرية، تنظم منوعات مسرحية من أداء سيدات الإسكندرية تسمى «ملائكة الصحراء» لتسلية الجنود والمصابين البريطانيين[98]. كانت المؤديات يرتدين أزياء

موحدة زرقاء أنيقة مطرزا على كتفها عبارة «فرقة السيدة باركر الموسيقية»، وكانت محاكاة جاكلين كلات Jacqueline Klat الساخرة لمشهد الشرفة من مسرحية روميو وجولييت بلغة عربية عامية وإنجليزية ركيكة تثير الضحك والتصفيق دائما[99].

***

على رغم التجهيز الطويل للإسكندرية، وجدها الأدميرال كننغهام «أقل القواعد العسكرية كفاية في النواحي كافة». كانت تجهيزات التحويض والإصلاح غير كافية، وكان الميناء ضحلا ومدخله صعبا ويفتقر إلى الدفاعات الشبكية وقوات كسح الألغام والدوريات والمدافع المضادة للطائرات والرادارات. ولم تكن هناك قاعدة للذراع الجوية للأسطول. وفي سبتمبر 1940، كتب «لا أقصد أننا طردنا من الإسكندرية، ولن نفعل ذلك إلا إذا اضطررنا إليه»، لكنه اعترف بأنه اتخذ «احتياطاته للتراجع إلى بورسعيد وحيفا»[100]. مع العلم أن تشرشل ما كان ليفكر في الانسحاب إلى جبل طارق، كما اقترح الأدميرال الأعلى سير دادلي باوند Dudley Pound للتركيز على الدفاع على تجارة الأطلسي والمملكة المتحدة[101].

ومن الإسكندرية، تمكن كننغهام من ترتيب إغراق نصف الأسطول الإيطالي في تارانتو في الحادي عشر من نوفمبر 1940 وخمس سفن أخرى عند رأس ماتابان في مارس 1941[*]. وكان مما أثار غضب الجيش وكبار القادة الجويين، الذين اعتبروا بقاءه في الإسكندرية «ضربا من الجنون المطلق»، أنه رفض الإقامة في القاهرة، وكان يذهب إليها مرة أسبوعيا لحضور الاجتماعات. وكان يبيت لياليه على متن بارجته في الميناء حتى يعيش الأخطار والصعوبات التي يواجهها رجاله، وكان يقضي أيامه في مقره في أحواض السفن بمنطقة القباري أو في السفارة الصيفية البريطانية في شارع رشدي، وكان يخصص «دائما» وقتا للغولف أو التنس بعد الظهيرة[102]. بعد سنوات، ظل مارشال سلاح الجو الملكي لورد تيدر Lord Tedder يشكو في مذكراته عن الحرب أنه بسبب تصميم كننغهام على البقاء في الإسكندرية كان لزاما عليهم «أن يتخذوا قرارات حيوية تؤثر في الأسلحة الثلاثة جميعها عبر هاتف غير موثوق»[103].

(*) توجد رأس ماتابان Cape Matapan في أقصى الجنوب الغربي لشبه جزيرة بيلوبونيز اليونانية، شهدت معركة رأس ماتابان البحرية بين 27 و29 مارس 1941 التي أغرقت فيها قوة بحرية إنجليزية عددا من السفن الإيطالية أو أعطبتها. كانت هذه المعركة آخر المعارك الكبرى للبحرية الملكية البريطانية إبان القرن العشرين. [المترجم].

بعد غزو جيوش المحور لليونان في مايو 1941، وصل إلى الإسكندرية ملك اليونان وحكومته وآلاف الجنود وبحارة الأسطول اليوناني - الذي كانت أفيروف من بين سفنه - وجاء معهم بين اللاجئين خمسة كُتاب بريطانيين وجدوا إلهاما في المدينة إبان زمن الحرب: روبن فيدن Robin Fedden وإليزابيث ديفيد Elizabeth David وروبرت ليدل Robert Liddell وأوليفياماننغ ولورنس داريل[104]. وغدت الإسكندرية لبعض الوقت عاصمة الحكومة اليونانية في المنفى التي أقامت على الكورنيش في فندق وندسور، وأقام الملك في فيلا أرجيني سلفاغو. شعر جورج سيفريس الذي كان في ذلك الوقت يعمل دبلوماسيا، بأن الإسكندرية كانت أحد أركان العالم اليوناني، بينما كانت الشوارع الخلفية أقرب إلى تصوير بليك للجحيم[105](*).

في مؤتمر في السادس والعشرين من مايو 1941 مع القيادات العليا الآخرين ورئيس وزراء نيوزيلندا بعد الهجوم الألماني على جزيرة كريت، نصح وافيل بعدم إخلاء القوات البريطانية المتبقية من الجزيرة، لأن الأسطول لو أُغرِق، فإن تعويضه يحتاج إلى ثلاث سنوات. وجاءه الرد من كننغهام المتمتع مثل تشرشل بحس تاريخي: «تقول يا جنرال إن الأمر يحتاج إلى ثلاث سنوات لبناء أسطول جديد. وأنا أقول لكم يا سادة إن الأمر يحتاج إلى ثلاثمائة سنة لبناء تقاليد جديدة».

وبتغليب العاطفة على العقل، خشي كننغهام من أن «الجنود عندما يكونون في عرض البحر بعد ذلك سيميلون إلى البحث عن خلاصهم وتأمين أنفسهم بدلا من أن يعتمدوا على الأسطول ويثقوا به. لا يمكن أن نتخلى عن الجنود المحاصرين على جزيرة كريت»[106]. ومن خلال إرسال كل السفن الاحتياطية التي بحوزته، على رغم أن كثيرا منها كان في حاجة ماسة إلى إصلاح، تحت قصف متواصل من سلاح الجو الألماني، تمكن الأسطول من إخلاء من بين ثمانية عشر ألف جندي واثنين وثلاثين ألفا، وإن كان قد تكبد في سبيل ذلك فقدان ثلاثة طرّادات وست مدمرات وألفي بحار[107]. كما لحقت أضرار بالغة بحاملة طائرات وسبعة طرّادات وست مدمرات[108].

(*) في ديوانه «زواج الجنة والجحيم» Marriage of Heaven and Hell، لا يبدو الجحيم عند وليام بليك William Blake مكانا للعقاب، بل مصدرا غير مكبوح للطاقة المعربدة، في مقابل تصور سلطوي منظم للجنة. يشير المؤلف بذلك إلى أن هذه الشوارع الخلفية كانت خارجة عن السيطرة. [المترجم].

في العامين 1941 و 1942 حققت إيطاليا وألمانيا تفوقا بحريا وجويا مؤقتا في البحر الأبيض المتوسط. حتى إن الغواصات الإيطالية والألمانية لغّمت مدخل ميناء الإسكندرية. وفي بعض الأحيان، رأى كننغهام أن سفنه تكون أكثر أمانا في عرض البحر منها في الميناء. وفي التاسع عشر من ديسمبر 1941 أُعْطب «طوربيدان مداران بشريا»(*) تابعان لإيطاليا، أي غواصان في «مركبات» غاطسة، أُطلِقا من غواصة خارج الميناء، في إعطاب بارجتين كانتا راسيتين في الإسكندرية: صاحبة الجلالة الملكة إليزابيث HMS Queen Elizabeth التي كان الأدميرال كننغهام يقيم على متنها، وصاحبة الجلالة فاليانت HMS Valiant. كان الاكتشاف تحت الماء في الإسكندرية صعبا بسبب الكمية الكبيرة من مياه النيل التي تصب في البحر وتسبب إحداث كثافات مختلفة لماء البحر[109].

كانت الحرب البرية تسير بشكل سيئ هي الأخرى. ففي الحادي والعشرين من يونيو 1942 سقطت قاعدة الحلفاء في طبرق بليبيا. وسرعان ما أصبحت قوات المحور على مسافة ستين ميلا فقط من الإسكندرية. وقيل إن موكب روميل المكون من راكبي الدراجات البخارية وصلوا إلى الضواحي الغربية للمدينة. وأُخليت المدافع البريطانية المضادة للطائرات من الكورنيش الذي كان الناس قد هجروه[110].

في السادس والعشرين من يونيو كتب الروائي الأسترالي باتريك وايت Patrick White من مكانه في الإسكندرية ضمن القوة الجوية الأسترالية: «إنها أيام كئيبة هنا، إذ يتقدم الألمان، ولا أحد يعرف كثيرا عن حقيقة الموقف. تتراجع ثقتي بالجيوش عندما تتجاوز المكائن حدودها. مازلنا نخرج للحرب كأننا خارجون إلى نزهة، لكننا في كثير من الأوقات نتكدر». وقع وايت في حب يوناني سكندري يدعى مانولي لاسكاريس Manoly Lascaris من عائلة كوزموبوليتانية ثرية تقيم في القسطنطينية وسميرنا، وعاشا معا على مدار الخمسين سنة التالية(**). كان الرفيقان قد تعرفا في بيت

(*) الطوربيد المدار بشريا human torpedo أو manned torpedo، مركبة بحرية صغيرة تعمل تحت الماء يقودها شخصان عادة، وتحملها قطعة بحرية أكبر - غواصة كبيرة عادة - حتى مسرح العمليات، تسير بسرعة بطيئة تحت الماء في اتجاه السفن المعادية، ثم تستخدم الرأس الحربي القابل للانفصال باعتباره لغما ملتصقا، وبعد ذلك تبتعد عن مكان الانفجار، برز استخدامها بوصفه سلاحا سريا في الحرب العالمية الثانية، إذ نجحت إيطاليا في استخدامها، ثم بريطانيا ودول وأخرى. [المترجم].

(**) وايت ومانولي مثليان أكملا حياتهما معا في أستراليا بعد أن غادرا الإسكندرية. [المترجم].

بارون شارل دي مِنَشًا Baron Charles de Menasce، عازف البيانو وجامع الخزف من عائلة سكندرية شهيرة عاشت كما كتب وايت «في جو بروستي محاطة بأقمشة غوبلينية وتحف فنية وصور لأم البارون(*). لقد كانت عائلة كبيرة وكوزموبوليتانية، وقد دعيتُ إلى كثير من الحفلات الكبيرة والكوزموبوليتانية، استخدمتُ فيها ثلاث لغات وخالطتُ يونانيين وفرنسيين ومصريين وأرمن وسوريين. إنها الإسكندرية، بابل الشرق المتوسط»(**). كان وايت سعيدا بأصدقائه السكندريين، إذ كان يرى ما يكفي من الإنجليز في العمل[111].

وفي الثامن والعشرين من يونيو، أعلنت الإذاعة الألمانية أن القوات الألمانية ستكون في الإسكندرية بحلول السادس من يوليو وفي القاهرة بحلول التاسع من يوليو. وقالت رسالة إذاعية أخرى: «يا سيدات الإسكندرية أخرجن فساتين الحفلات. إننا في الطريق». وفي اليوم نفسه توجه أسطول البحر الأبيض المتوسط فجأة إلى بيروت وحيفا. واستعد القائد العام البريطاني الجنرال سير كلود أوكينلك Claude Auchinleck للانسحاب شرقا، على رغم أن تشرشل طلب منه أن يدافع عن مصر «باستماتة كما لو كانت كِنت أو ساسكس(***) بصرف النظر عن أي اعتبار آخر غير تدمير العدو»[112].

تؤكد رسالة خاصة من ضابط بريطاني يدعى مايلز هيلديارد Myles Hildyard يأس جنود الحلفاء وإعجابهم بقائد العدو الجنرال إرفين روميل كعبقرية في ساحة المعارك. كتب هيلديارد في السادس من يوليو 1942 أنه «لا يوجد شعور ببذل جهد شامل ولا ثقة بجنرال من جانبنا بقدر الثقة التي يضعها الألمان في جنرالهم روميل»[113]. وفي مطاعم الإسكندرية قيل إن ضباط الأسطول الفرنسي المحتجز شربوا نخب انتصارات روميل. وبدأ الجنود البريطانيون في البحث عن نجاتهم من خلال التأكد من وجود مكان لهم على شاحنة خارجة من المدينة[114].

(*) بروستي Proustion، نسبة إلى الروائي الفرنسي مارسيل بروست 1922 - 1871) Marcel Proust) صاحب سلسلة «البحث عن الزمن الضائع» التي أثبتت أن التعقيد في الأسلوب أيضا - وليس البساطة فقط - يصنع الجمال، ولعل ذلك هو ما يحيل إليه المؤلف. [المترجم].

(**) الإشارة إلى بابل - كما ورد في حاشية سابقة - كناية عن تعدد اللغات والأقوام. [المترجم].

(***) كِنت، هي مقاطعة تقع في جنوب شرق إنجلترا، أما ساسكس فهي مقاطعة تقع في الجنوب الشرقي لإنجلترا، وهي منقسمة إلى جزأين الأول شرق ساسكس والثاني غرب ساسكس، تاريخيا كانت تعرف بمملكة ساسكس.

يتذكر أحد اليونانيين أن جيرانه الإيطاليين أروه الكعك الذي خبزوه لوصول الجنود الإيطاليين وهم في غاية الفرحة. وقيل إن بعضهم كانوا حريصين جدا على أن يكون الواحد منهم أول من يهتف للجيش الإيطالي المنتصر حتى إنهم حجزوا أماكن في شرفات في شارع شريف باشا. وكان لايزال هناك كثير من الأعلام الإيطالية باقية من الزيارة الرسمية للملك فيكتور إيمانويل الثالث في العام 1933[115]. وغادر كثير من السكندريين إلى فلسطين أو جنوب أفريقيا. وأدى رحيل عائلة فيني في العام 1940 إلى بث الرعب في قلوب أصدقائها[116]. لكن بقيت عائلة باركر. وعندما مات سير هنري باركر المسن في العشرين من يونيو 1942 عن عمر سبعين عاما، ربما بسبب التوتر، حضر الأمير عمر طوسون جنازته. فعلى رغم أن الأمير كان من الوطنيين، فإن كونه من أفراد العائلة المالكة جعله مواليا للحلفاء، ربما لأنه كان يعرف من خلال أصدقائه السنوسيين طبيعة الحكم الإيطالي في ليبيا[117].

كان الجانب من طريق السيارات الإسكندرية - القاهرة المتجه إلى العاصمة مزدحما، بينما كان جانب طريق السيارات الداخل إلى الإسكندرية مكتظا بالمركبات العسكرية. وبلغ الزحام في القطارات المتجهة إلى القاهرة مبلغا كبيرا، حتى إن المسافرين اضطروا إلى حشر أنفسهم من النوافذ[118]. وجد ألان مورهيد في ضواحي الإسكندرية «كل تلك الاستحكامات، وتلك المسطحات الملحية التي كانت تعج في السابق بالجنود وقد غدت خالية من الحياة البشرية. حتى البدو بدا أنهم فروا». وظلت حواجز منطادية فضية تطفو قبالة المدينة، لكن كل السفن تقريبا كانت قد تركت الميناء. وأُغْلِقت الدكاكين. وكانت الشوارع شبه خاوية، حتى بار فندق سيسيل المفضل لدى ضباط الحلفاء وهُجِر[119]. كتب سيسيل بيتون Cecil Beaton أن الإسكندرية كانت «مدينة ميتة، هجرها كل البحارة والنساء العاملات في الأسطول، وخلت الطرق من حركة السيارات، وكانت نوافذ البيوت مفتوحة على غرف خاوية، وأجراس الهواتف تدق ولا مجيب». كما وجد سيسيل الجنود البريطانيين «متعَبين ومحبَطين» ويرون - عن حق - أن معداتهم أقل تقدما من معدات الألمان[120].

بدأ التهافت على سحب الودائع من البنوك في الرابع والعشرين من يونيو. وكان البنك الأهلي المصري على وشك إعادة إصدار أوراق نقدية قديمة كانت قد خُتِمت بالعبارة «ألغيت في انتظار الإحراق»، قبل أن تصل كمية من الأوراق النقدية غير

المستخدمة من إنجلترا، أعادت الثقة بالبنك[121]. وقيل إن بعض المحلات وضعت لافتات ترحيب باللغة الألمانية والإيطالية على فاتريناتها، وإنها أخذت تبيع بطاقات بريدية لُصِق وجه هتلر فيها فوق تمثال محمد علي[122]. أعد لورنس داريل الذي كان يعمل حينئذ ملحقا صحافيا في القاهرة، قائمة بهذه المحلات، وقاطعها الجنود البريطانيون. أما العائلات المصرية التي تركت في السابق غرفا للضباط البريطانيين، فقد بدأت في إحراق البزات الرسمية التي تركها الضباط خلفهم حتى لا يكونوا موضع شبهة عند وصول الألمان. وتغيب مدير عام موانئ وفنارات مصر ويلز باشا Wells Pasha بلا إذن عن عمله في الإسكندرية، وفُصِل لاحقا[123].

لكن على خلاف ما شهدته موسكو عندما اقترب الجيش الألماني في أكتوبر 1941، لم تشهد الإسكندرية انهيارا للقانون والنظام، ولا إغلاقا للمصانع والمخابز، ولا أعمال نهب، ولا فرارا جماعيا من جانب مسؤولين مذعورين. فقد صمدت مدينة الإسكندرية الكوزموبوليتانية في اختبار الحرب أفضل من عاصمة الاتحاد السوفييتي[124].

***

تعد يوميات ماري دي زغيب Mary de Zogheb أحد سجلات سنوات الحرب في الإسكندرية. ولدت ماري باسم ماري دبانة Mary Debbane في العام 1893 لعائلة كاثوليكية يونانية غنية جاءت من صيدا في العام 1820 للعمل في تجارة الأخشاب. وبعد أن عمل أفراد العائلة قناصل للبرازيل، رقّاهم إمبراطور الأخيرة في العام 1857 إلى كونتات. ولاتزال كنيسة دبانة الصغيرة، في شارع فرعي من شارع شريف باشا، تعرض شعار النبالة البرازيلي وشعار عائلة دبانة وتحته الكلمات «الإيمان والشرف قبل كل شيء». تزوجت ماري التي تلقت تعليمها في مدرسة نوتردام دي سيون، من جورج «زيكيت» دي زغيب Georges Ziquet de Zogheb. ظلت عائلة زغيب واحدة من أغنى العائلات في المدينة وأكثرها دولية. ومع أن زيكيت مر بضائقتين ماليتين، فإنه وماري ظلا يحتفظان بخدم في بيتهما الكائن بشارع فؤاد، ويعيشان حياة اجتماعية نشطة تحفل بالعلاقات الغرامية لكل منهما. فكانت «ماري الكبيرة»، كما كانت تسمى، تلعب الغولف والبريدج وتأخذ حمامات شمس، وكان زيكيت ينظم في كازينو سان ستيفانو منوعات مسرحية تحتفي بسكندريي زمنه وتسخر منهم، ولاحقا عمل نادلا في مضمار سباق الخيل. كانت الفرنسية اللغة

الأولى لماري، ولم تكن لها جنسية. وكان السبب الوحيد الذي جعلها تتبنى الجنسية المصرية لاحقا هو أن ترث أختها ماغي Maggy. وبداية من العام 1924 حتى وفاتها في العام 1985، ظلت ماري تكتب تسجيلا موجزا ليومها في مفكرة جيب صغيرة تصف فيها أحيانا أفكارها وأحيانا أحداثا عامة. يتميّز أسلوب ماري بأنها تقول أكثر مما تقوله كثير من يوميات أشخاص آخرين، لكن بإيجاز.

استمرت حفلات الشاي والبريدج على رغم الغارات الجوية، لكنها كانت تقدم وجبات طعام أيضا للجنود البريطانيين في نادي القوات المتحدة ونادي بريطانيا، كان يحضرها أصدقاء مثل ليندا رولو Linda Rolo وغابرييلا باركر وهايدي ريز Haydee Rees. كتبت ماري دي زغيب في يومياتها في السادس والعشرين من يونيو «أحداث إنجليزية كئيبة جدا». ثم كتبت:

[29 يونيو] يعم الذعر المدينة. تُجلى النساء العاملات في الأسطول وإمارة البحر وغيرهن عن المدينة، وأغلقت الأندية والنُّزل العسكرية.

[30 يونيو] حالة من الذعر. كثير من حالات المغادرة... كيكي سلفاغو وزملاؤها... وعائلة فينسيندون وإم رولو M Rolo... معظمهم إلى القاهرة والأقصر. وتكتظ الطرق والقطارات بالناس.

[3 يوليو] أُخليت المستشفيات. مغادرة كثير من اليهود.

لكنها كتبت كذلك عن الجنود الذاهبين إلى الحرب في الصحراء والعائدين منها، إذ كانت «الشاحنات تأخذ الجنود إلى الصحراء وهم يلوحون ويصنعون بأيديهم علامة النصر. وقبل أيام قليلة، كانت عليهم جميعا علامات الإحباط».

[4 يوليو] «لم تُسمَع صفارات الإنذار». وبحلول السادس من يوليو كان الناس يعودون من القاهرة، على رغم أن أصوات طلقات المدافع القادمة من الصحراء ظلت تُسمَع في الإسكندرية لأشهر أخرى كثيرة[125].

في المعركة الأولى في العلمين، الواقعة على مسافة ستة وستين ميلا غرب الإسكندرية، في يونيو 1942، تمكن أوكينلك من إيقاف التقدم الألماني. لكنه رفض الانتقال من الدفاع إلى الهجوم. وكان الجيش لا يثق به كثيرا[126].

وصل تشرشل في أغسطس، وأبعد أوكينلك، وعين بدلا منه الجنرال برنارد مونتغومري Bernard Montgomery، الذي كان يعرف مصر جيدا، إذ خدم في

الإسكندرية في الأعوام 1931 و 1933. وعلى الغداء الذي أقيم في مقر الجيش الثامن في برج العرب الواقعة على مسافة خمسة وعشرين ميلا جنوب غرب الإسكندرية، اضطروا إلى إحضار براندي مصري من الإسكندرية وصبه في قناني فرنسية لرئيس الوزراء، إذ «كنا في تلك الأيام في حالة من عدم الثقة بالنفس» على نحو ما تذكر رئيس هيئة أركان مونتغومري الجنرال فرانسيس دي غوينغاند Francis de Guingand[127]. وفي السابعة والنصف من صباح الثالث عشر من أغسطس وصل مونتغومري قبل يومين من موعده المقرر إلى تقاطع طرق خارج الإسكندرية. سرعان ما غيّر رئيس الوزراء وضعية الجيش الثامن والحلفاء البولنديين واليونانيين والهنود والأستراليين والنيوزيلنديين من قوة دفاعية إلى ماكينة قتال هجومية. كان مونتغومري متصلبا. وكانت أوامره «في حالة هجوم العدو، غير مسموح بأي انسحاب»[128].

بدأت الإسكندرية تهدأ. وأخذت الشواطئ تمتلئ بالجنود الذين في إجازاتهم، فضلا على «المجموعات الكبيرة المعتادة من النساء الأنيقات المتسكعات». لكن ظلت أصوات طلقات المدافع القادمة من الصحراء، كما كتب دي غوينغاند، يُسمَع دويها في الإسكندرية «كأن المرء في دوفيل أو كان»[129](*).

وفي ليلة الثالث والعشرين من أكتوبر، وبينما كان البدر مكتملا، وبالاستفادة من التفوق الساحق في الأسلحة والمخابرات، تحوّل الجيش الثامن إلى الهجوم. وفي أثناء معركة العلمين الثانية، كان بمقدور السكندريين أن يسمعوا ما أسماه لامبسون «القعقعة المتواصلة القوية» لوابل الطلقات من ساحة المعركة. كان البحر مثقلا بزوارق الطوربيد، والجو «مملوءا بالطائرات بكل معنى الكلمة». وكان السكندريون يخرجون في شرفاتهم في الليل لسماع أصوات المعارك ومحاولة تخمين ما يحدث[130]. وبينما كان روميل في إجازة مرضية، هُزِم الألمان والإيطاليون بسبب التفوق العددي والتفوق في الأسلحة لمصلحة البريطانيين. كتب تشرشل لاحقا أنهم قبل العلمين لم يحققوا أي انتصار، وبعدها لم تلحق بهم أي هزيمة[131]. وفي غضون ثلاثة أشهر، كان الجيش الثامن في طرابلس.

***

(*) دوفيل Deauville، كومونة في منطقة باس نورمندي (نورمندي الدنيا) في شمال غرب فرنسا، جرت على أرضها معارك شرسة في الحرب العالمية الثانية قبل أن يحتلها الألمان وفي أثناء طردهم منها. كانت Cannes مدينة في الريفيرا الفرنسية تشتهر بالمهرجان السينمائي العالمي الذي يحمل اسمها، احتلها الألمان في الحرب العالمية الثانية، وجرت على أرضها معارك تحرير شنتها المقاومة الفرنسية وقوات الحلفاء. [المترجم].

في سبتمبر 1942 أظهرت الحكومة المصرية ثقتها بالإسكندرية من خلال إطلاق جامعة فيها. كانت جامعة القاهرة تحمل اسم فؤاد الأول، بينما جاء اسم الجامعة الجديدة فاروق الأول، وافتتحها الملك شخصيا في الثامن من فبراير 1943. كان الملك لايزال وسيما ومحبوبا، حتى إن الناس حزنوا لأنه مر بسيارة مغلقة وليس سيارة مكشوفة خلال شوارع زيّنت بأقواس النصر[132]. خلّد هذا الحدث وسامٌ ذهبي لايزال موجودا إلى اليوم في المتحف الوطني في فيلا باسيلي بشارع فؤاد، التي كانت في السابق مسكن عائلة من تجار القطن والأخشاب. وبما يكشف عن التملق المتذلل والترف الملكي المحيطين بالملك الشاب، نُقشت على الوسام باللغة العربية العبارة: «جامعة الملك فاروق - الإسكندر الأكبر الذي أسس الإسكندرية - والملك فاروق الأول هو الملك 1943/1361». وعلى أحد جانبي الوسام نُقشت صورتان للإسكندر وفاروق كندين[133].

كان أول رئيس للجامعة هو الكاتب الضرير طه حسين. كان حسين، مثل كثير من السكندريين، يؤمن بأن مصر جزء من البحر الأبيض المتوسط، وليس من العالم الإسلامي، وأن اللغة العربية والإسلام عنصران فقط من العناصر الكثيرة التي تشكل ثقافة البلاد. وفي عمل مبكر شهير باسم «في الشعر الجاهلي» (1926)، أثار طه حسين عاصفة من النقد، أجبرته على الاستقالة من جامعة القاهرة، إذ ذهب إلى أن الشعر الجاهلي منتحل، بمعنى أنه كتب بعد ظهور الإسلام، وهاجم الطرق التقليدية في التفسير. كانت الحداثة في رأي طه حسين لا تأتي من خلال الإحياء الإسلامي، ولا من خلال القومية، بل من خلال باريس التي تلقى تعليمه فيها وتزوج منها وترجم منها أعمال أندريه جيد إلى اللغة العربية. كتب طه حسين: «لا سبيل إلى راحة البال الحقيقية والموقف النافع من وقائع الحياة إلا من خلال تبني الحضارة الحديثة»[134](*). وقد جاءت بناية كلية الهندسة الفسيحة التي بُنيت للجامعة في العام 1951 على الطراز الفرعوني المُحْدَث الذي كان حزب الوفد يقدّره، بعيدا عن تراث مصر الإسلامي.

ولم تكد الحرب تنحسر بعيدا عن الإسكندرية، حتى بدأت أخرى. فبالقرب من الإسكندرية وقعت في أبريل 1944 المعركة الأولى في الحرب الباردة بين الشيوعية

(*) ليس هذا نص كلام طه حسين، بل ترجمة للنص الأجنبي، إذ لم يتمكن المترجم من التوصل إلى نص طه حسين نفسه. [المترجم].

وأعدائها، التي هيمنت على السياسة الدولية حتى العام 1989، حين تمرد الجنود والبحارة اليونانيون تأييدا لتخصيص دور أكبر للشيوعيين في الحكومة اليونانية المستقبلية، فقمعتهم القوات البريطانية، وقتلت نحو عشرة منهم، ونزعت سلاح ألفين واحتجزتهم في معسكرات. كتب لورنس داريل، الذي كان يعمل في ذلك الوقت في مكتب الدعاية البريطاني في شارع طوسون، إلى هنري القايم المثقف السكندري أنه «كاد يجن من كثرة الأزمات السياسية»[135](*). وفي الأربعينيات كانت الإسكندرية في نظر السكندري اليوناني اليساري جورج بيريديس George Pierides، مؤلف رواية «تجار القطن» The Cotton Dealers (1945) ومحرر دورية يونانية باسم «إيليني» Ellyny، «الحاضرة العظيمة للهيلينية»، ذلك أن «كل نشاطنا الثقافي كان يتركز حصرا تقريبا على الشؤون والمشكلات اليونانية». وعلى نحو ما فعل السكندريون جميعا في مذكراتهم، أنكر بيريديس، ربما بقوة أقل من الآخرين، أن يكون ذلك «أمارة على موقف سلبي تجاه مصر. بل نتج فقط عن الاكتفاء الذاتي للجالية التي كان وجودنا الاجتماعي والقومي والعائلي والمهني والفكري كاملا يُعرَّف من خلالها»[136].

شهدت الإسكندرية أيضا بداية أخرى، إذ بتشجيع من وزير الخارجية البريطاني أنطوني إيدن، تأسست في الإسكندرية جامعة الدول العربية التي أُريد بها أن توحد بلدان العالم العربي بموجب بروتوكول الإسكندرية الذي وُقّع في فيلا أنطونيادس في السابع من أكتوبر 1944[137].

***

بدت الإسكندرية مستقرة ومرحبة بما يكفي لممارسة دور جديد، هو دور الملجأ للعائلات الملكية المخلوعة[138]. كان أمراء العثمانيين قد استقروا بالفعل في الإسكندرية منذ العام 1924 (منهم علي واصب أفندي Ali Vasib Efendi ابن حفيد مراد الخامس، مدير فيلا أنطونيادس التي استخدمتها البلدية كدار لاستضافة الضيوف وإقامة معارض الزهور)[139]، ليلحق بهم في الأعوام 1944 - 1946 ولي عهد

(*) هنري القايم (1916 - 2000)، كاتب وشاعر سكندري، ولد في المنصورة لأم فرنسية وأب من أصل لبناني، تلقى تعليمه في الإسكندرية وباريس، كتب بالفرنسية دواوين منها «الصحراء على الباب الكوني» و«محمود سعيد»، غادر الإسكندرية في الخمسينيات إلى بيروت، ومنها إلى باريس التي استقر فيها. [المترجم].

اليونان الأمير بول وزوجته فريدريكا وأطفالهما. وفي العام 1946 وصل إلى المدينة الملك السابق فيكتور إيمانويل، عاهل إيطاليا، وحفيده الملك السابق سيميون Simeon، عاهل بلغاريا، والملك السابق زوغو Zog، عاهل ألبانيا، بدعوة من الملك فاروق، ومعهم كثير من أقاربهم وخدمهم[140].

كانت الإسكندرية لبعض الوقت، عاصمة «ألبانيا الحرة» وقاعدة ترسل حملات لمحاولة تحرير البلاد من الشيوعية. أقام الملك العصامي زوغو الأول في فيلا «مَلكية جدا» في الرملة، في حالة أكثر أبهة من كبير عائلة سافوي القديمة فيكتور إيمانويل، الذي أقام مع زوجته في فيلا جيلا Villa Jela الصغيرة في منطقة جديدة تسمى مدينة سموحة، وهي منطقة مستنقعات كان صديق للملك فؤاد يدعى جوزيف سموحة Joseph Smouha قد عمل على تجفيفها وتخطيطها كمدينة حدائق تضم أنديتها الرياضية ومضمار سباق الخيل الخاصة بها[141]. كانت الإسكندرية تتمتع بمصادر جذب تعليمية، فضلا على مصادر الجذب السياسية. ففيها تلقى الأمير ليكا Leka ابن الملك زوغو وسيميون عاهل بلغاريا تعليمهما في مدرسة فيكتوريا كوليدج، وتلقت ملكة إسبانيا الحالية ابنة ملكي اليونان بول وفريدريكا تعليمها في المدرسة الإنجليزية للفتيات.

في قصر المنتزه، أقام الملك فاروق في السادس عشر من يوليو 1947 حفلة شاي ملكية للمصالحة بين ملكي ألبانيا وإيطاليا، حيث كان الأخير قد غزا مملكة الأول في العام 1938. كان من بين الضيوف ملوك إيطاليا وألبانيا وبلغاريا وأفراد عائلاتهم والعائلتان الإمبراطوريتان العثمانية والروسية[142]. ومن باب التأدب، أعطى جامعو العملات المعدنية اليهود بالإسكندرية فيكتور إيمانويل، دارس العملات المعدنية المتحمس، الفرصة لمعاينة مجموعاتهم، لكن من باب الاشمئزاز من القوانين المعادية لليهود التي وقّعها بيده في العام 1938، تغيبوا خلال زياراته. وعندما توفي فيكتور إيمانويل نظم الملك فاروق موكب جنازته، ودفن في كنيسة سانت كاترين بالإسكندرية في العام 1948.

على السطح، احتفظت الإسكندرية بطابع العاصِمة المَلكية. من ذلك أنه في الحادي عشر من فبراير 1945 أقيم - احتفالا بعيد ميلاد الملك - سباق تتابع من سراي رأس التين بالإسكندرية إلى سراي عابدين في القاهرة، تلاه عرض عسكري[143].

وفي سنوات أخرى كانت القصور والمكاتب والفيلات والسفن في الميناء تُنار احتفالا بالذكرى. كانت «المدينة على بكرة أبيها» تأتي إلى الكورنيش لمشاهدة عرض الألعاب النارية في أثناء مرور الملك في موكب من سيارات الرولز رويس الحمراء من قصر المنتزه إلى سراي رأس التين بين حشود مهللة، إذ كان اللون الأحمر محجوزا لسيارات السراي[144]. وبداية من العام 1945 كان المدير العام للبلدية خادما مؤتمنا للملك، وهو كبير مهندسي القصور الملكية مصطفى فهمي باشا.

على أي حال، بدأ فاروق يتحول من البطل الصغير الوسيم إلى المهرج البدين. ثمة سببان يقفان وراء هذا التحول، أولهما حادث سيارة في نوفمبر 1943 تلاه تعافٍ طويل ومؤلم، وثانيهما فشل زواجه من الملكة فريدة. وغدا فاروق مدمن القمار والنساء، مصدر حرج، ثم فضائح، لكثير من المصريين. ففي العام 1943 وجده نويل كاورد Noel Coward، على نحو ما وجده كثير من الأصدقاء البريطانيين، شخصية ساحرة ومهذبة: «شاب ضخم الجثة حسن المظهر». ووصفه القائد العام لسلاح الجو الملكي في الشرق الأوسط شولتو دوغلاس Sholto Douglas بأنه جيد الاطلاع وواسع القراءات و«محبوب جدا من دون شك»[145]. وبعد سنة، صُدِم ضابط إنجليزي بـ«شهية الملك النهمة» و«الفظاظة الواضحة» في كلامه، وكانت حاشيته، ومنها خادمه/ رفيقه المفضل أنطونيو بولي Antonio Pulli الذي سُمي لاحقا بولي بيه، «سوقة بكل معنى الكلمة»[146]. وبدأ فاروق يتردد على النوادي الليلية والحفلات. ولاحظت ماري دي زغيب بعد حفلة في بيت أليس زِرفوداكي Alice Zervudachi في السادس من سبتمبر 1944 أن «الملك فاروق وصل متأخرا، وأنه يكثر من التردد على الحفلات»[147].

انعكس حب الملك للإسكندرية في عشيقاته، إذ كان ثلاث منهن سكندريات: الأميرة فاطمة طوسون أرملة ابن الأمير عمر طوسون وسيدتان يهوديتان، هما إيريني جونيل Irene Guinle، التي التقى بها على طاولة عصير البرتقال بحفلة للصليب الأحمر بالإسكندرية في العام 1941، وممثلة تدعى ليليان كوهين Liliane Cohen، عُرِفت باسم كاميليا، ماتت لاحقا في حادث تحطم طائرة[148]. كانت الأميرة أكثرهن خطورة، إذ ركّبت في بيتها بالإسكندرية مصعدا خاصا وأعدت غرفة قمار للملك، وحملت منه بطفل. وفي النهاية، وقعت في حب الأمير البرازيلي خوان دي

أورليانز براغانزا Juan de Orleans Bragance الذي جاء إلى مصر لافتتاح أول رحلة طيران بين البلدين، وذهبت معه إلى البرازيل(*).

***

ظلت الإسكندرية مدينة كوزموبوليتانية حتى النخاع. فاعترف المسؤولون الصهاينة التي تمنوا أن يجدوا فيها مهاجرين إلى فلسطين، بأنهم لم يجدوا فيها شيئا مما أرادوا بسبب انخفاض مستوى التوترات الدينية. ولم يتبرع للحركة الصهيونية غير بضعة مليونيرات مثل البارونين فيليكس Felix وجـــورج دي منَشـــا Georges de Menasce[149]. وفي حين ظلت الزيجات خارج الطوائف الدينية استثنائية في الأماكن الأخرى - كانت الزيجات بين البروتستانت والكاثوليك أو المسيحيين واليهود تمثل صدمة في إنجلترا إبان الستينيات - فقد كانت هذه الزيجات في بداياتها في الإسكندرية: بين إيف كوهين ولورنس داريل في العام 1947 على سبيل المثال، على رغم اعتراضات أبويها[150]. وأُنتجت أفلام سينمائية عن العلاقات بين الجاليات مثل «حسن ومرقص وكوهين» أو «فاطمة وماريكا وراشيل». وبدأت أيضا الزيجات بين المسلمين وغير المسلمين، منها الممثل المصري رشدي أباظة المولود في العام 1929 لأب شرطي مصري وأم إيطالية[151](**). وفي العام 1950 تزوجت فتاة من عائلة يهودية غنية تدعى مارسيل عدس Marcelle Ades من الأمير إبراهيم فاضل (الذي كان هو نفسه نصف فرنسي من خلال أمه). وتزوج عمر الشريف من فاتن حمامة في العام 1955، وإن اضطر إلى أن يشهر إسلامه لإتمام الزواج. أما البريطانيات اللاتي تزوجن مصريين، فقد عملن لاحقا في المدارس البريطانية بالإسكندرية، ومنهن على سبيل المثال آن خلف الله التي تزوجت من أستاذ جامعي[152].

(*) في حادث سيارة بباريس، توفي الأمير حسن طوسون زوج الأميرة فاطمة شيرين، التي يقال إن علاقة غير مشروعة جمعتها مع الملك فاروق. وإلى باريس أيضا غادرت الأميرة، ربما للحاق بالأمير البرازيلي خوان دي أورليانز براغانزا Juan de Orleans Bragance (اسمه أيضا خواو ماريا دي براغانزا)، الذي قابلته لأول مرة في القاهرة. ولذلك رفضت عرض الزواج من الملك الذي حمله إليها فؤاد شيرين باشا وتزوجت من خوان. يقال إن فاروق هددها بالحجز على ممتلكاتها في مصر، وإنه أرسل إلى حكومة البرازيل طالبا تسليمها، فردت الحكومة البرازيلية عليه بأنها «لم توقع مع مصر اتفاقية تبادل للعشاق». استمر زواج الأميرة من العام 1949 حتى العام 1971، وبعد طلاقها بقيت في البرازيل، وتوفيت ودفنت في ريو دي جانيرو. [المترجم].

(**) كان رشدي أباظة من الممثلين كثيري الزيجات التي كان من بينها زواجه من الأمريكية باربارا التي أنجب منها ابنته الوحيدة قسمت. [المترجم].

ظلت الحياة الثقافية بالإسكندرية كوزموبوليتانية هي الأخرى تحت المظلة التوحيدية للغة الفرنسية. وإلى اليوم، تمثل اللغة الفرنسية في الإسكندرية اللغة الثانية لإشارات الشوارع ولوحات السيارات (يسبقها الاختصار Prive Alx، الذي يعني «ملاكي الإسكندرية»). وفي أبريل 1945 بدأ الكاتب الفرنسي إتيمبل Etiemble، الذي كان حينئذ يدرِّس في الجامعة، في تحرير دورية باسم «فالير» Valeurs [القيم] («سلسلة كتب فصلية في النقد والأدب تُنشَر بالتعاون بين كُتاب من فرنسا والشرق الأدنى»)، كان يُطبَع من كل إصدار منها ألف وخمسمائة نسخة، بمقالات مثل «بنية الصورة عند سارتر» La structure de L'image chez Sartre للكاتب نجيب بلدي. موّل هذه الدورية رجل أعمال محلي يدعى ألفريد كوهين Alfred Cohen[153]. وفي العام 1947 أنشأت مجموعة من المتحمسين الأغنياء (كوّنوا في العام 1949 جمعية ثقافية باسم مصر - أوروبا) معهد الموسيقى بالإسكندرية Alexandria Music Conservatoire، وهو الأول من نوعه في مصر الذي أعطى كثيرا من السكندريين تعليما موسيقيا ممتازا[154]. وكانت تقام معارض للفن المعاصر الفرنسي في معرض ليمان Galerie Lehmann في شارع فؤاد. وفي فصل الشتاء، كانت فرقة المسرح الوطني الفرنسي Comedie Francaise وفرقة باليه مونت كارلو Ballets de Monte Carlo تعرضان أعمالهما على مسرح محمد علي[155].

كانت مدارس البنين البريطانية تعلم طلابا من تسع وثلاثين جنسية مختلفة[156]. وفي الجامعة كان من بين الأساتذة محمد مندور، الذي اعتُقل في العام 1946 بسبب مقالاته التي تهاجم باشوات رأسماليين من أمثال إسماعيل صدقي وأحمد عبود[157]، ومؤرخ الحملات الصليبية لاحقا عزيز سوريال عطية(*)، وهيلدا زالوسر Hilde Zaloscer، اللاجئة من فيينا والخبيرة في الفن القبطي، وعالم الآثار الكلاسيكي العظيم ألان ويس Alan Wace الذي عمل لحساب المخابرات البريطانية، وروبرت ليدل مؤلف الرواية السكندرية «مدينة خيالية» (1952) Unreal City، التي تصف الإثارة التي كانت تنتج عن ظهور الجنود والبحارة البريطانيين في حانات الإسكندرية. ونشر دي جي إنرايت D. J. Enright ديوانه الأول «تذكرة الموسم»

(*) ألف عزيز سوريال عطية باللغة الإنجليزية كتبا من أهمها «الحروب الصليبية في أواخر العصور الوسطى» و«تاريخ المسيحية الشرقية»، تُرجِم بعضها إلى العربية. [المترجم].

Season Ticket، عن طريق الناشر «أو إديسيون دو سكارابي aux editions du Scarabee، الإسكندرية، مصر 1948» عندما كان يدرّس في الجامعة التي كتب عنها لاحقا رواية بعنوان «عام أكاديمي» Academic Year (1955).

لم تكن الإسكندرية بالنسبة إلى إنرايت المدينة المنقوعة في التاريخ كما كانت بالنسبة إلى كفافيس وحسب، بل أيضا «هذه المدينة العربية - الأمريكية Arabi-Amerikani الجديدة المشرقة بأبوابها الدوّارة الثقيلة وابتساماتها المشرقة». كان طلابه - كما كتب - يرتعبون من أي شيء قديم. وتتذكر أرملته مادلين Madeleine، التي كانت تدرّس في البعثة العلمانية الفرنسية(*)، أنه أحب حيوية المدينة وانفتاحها ومزيج اللغات والأقوام فيها: «شعرنا بسهولة أننا في بلدنا»[158]. «كان الطلاب نشطين ومتجاوبين، بل متمكنين جدا بالنظر إلى أن كل المقررات كانت تقدم لهم بغير لغتهم الأولى» على نحو ما تذكر هيث - ستبز Heath - Stubbs، أستاذ الأدب الإنجليزي[159]. جاء جان كوكتو Jean Cocteau إلى المدينة مع فرقة مسرحية في العام 1949، وكتب بعد حفلة استقبال في بيت القنصل الفرنسي: «النساء فائقات الجمال والرشاقة. تدور بين القاهرة والإسكندرية نوع من معارك الزهور»[160].

في الوقت الذي كانت عواصم أوروبا تعاني فيه الإضرابات والنقص والاشتراكية، غدت الإسكندرية مدينة النوادي الليلية. كان كازينو رومانس Romance في فندق ميديتريني Mediterrannee يعلن نفسه بأنه «النادي الليلي الأول في الإسكندرية» و«ملتقى النخبة»، وكانت نباتات الياسمين العطرية تتسلق الأعمدة في غرفة الطعام. «لقد كان مكانا رائعا ودافئا جدا»، كما يتذكر أحد مرتاديه. كان من بين النوادي الليلية الأخرى أوبيرج بلو L'Auberge bleue، ولوسكارابي Le Scarabee، وذا شب The Ship، ومونسينير Monseigneur، الذي كان يضم فرقة برازيلية واستضاف حفل اختيار ملكة جمال مصر[161].

في معظم هذه النوادي الليلية، كانت تُحجَز للملك فاروق دائما طاولة لستة أفراد. بيد أن الملك لم يكن المسلم الوحيد الذي وجد متعته في النوادي الليلية. فالأمير عمر طوسون، على رغم أنه كان مسلما محافظا، كان ابناه سعيد وحسن،

(*) البعثة العلمانية الفرنسية Mission Laique Francaise، مؤسسة علمية ثقافية غير ربحية (ليست دينية أو تبشيرية) تأسست في العام 1902 بهدف نشر اللغة والثقافة الفرنسيتين. [المترجم].

اللذان واصلا الإقامة في الإسكندرية، يقيمان حفلات كوكتيل وينظمان سباقات خيل ويعيشان محاطين بخدم يلبسون بزات مميزة[162]. وكانت زوجة الأمير سعيد طوسون، الأميرة ماهوش طوسون Mahivesh Toussoun، التي سميت أحيانا «سيدة الإسكندرية الأولى»، ممرضة مدربة، وكانت في كل صباح تذهب للمساعدة في جمعية محمد علي الخيرية التي كانت تترأسها بمحافظة الإسكندرية. وقالت: «كان علينا أن نبدأ من الصفر، فهناك الكثير مما يجب فعله»[163].

***

ثمة زلزالان سياسيان أحدثا تغييرا جذريا في مصر والإسكندرية. كانت احتفالات العام 1945 بعيد الإمبراطورية في النادي الرياضي، في حضور لورد كيلين Lord Killearn (وهو اللقب الجديد للسير مايلز لامبسون)، مع طيران منخفض وغناء الأناشيد الوطنية للبلدان المختلفة المندمجة ضمن الإمبراطورية ونشيد «فلتسودي يا بريطانيا»، أغنية الموت بالنسبة إلى الإسكندرية بوصفها قاعدة بريطانية. وفي مارس 1946 قُتِل أربعة وعشرون طالبا (بعض التقديرات تؤكد أن الرقم أكبر) في يوم «الشهداء» في مصادمات على الكورنيش بين الطلاب من جانب والشرطة المصرية والقوات البريطانية من جانب آخر، حيث كان الطلاب يحتجون على الوجود البريطاني. كانت الاحتجاجات في الإسكندرية أكثر عنفا منها في القاهرة: «ليرحل الإنجليز! ليرحل الجنود الأجانب! الجلاء!» ولما رأت كاثرين بيركيتي Catherine Bereketti جنديين بريطانيين وقد مزقهما المصريون بالقرب من محطة الحافلات بالرملة، اقتنعت بأنها ستغادر مصر يوما ما. دفع الافتقار إلى المال والطاقة بعد الحرب، فضلا على احتجاجات المصريين، بريطانيا إلى إخلاء قواتها. علاوة على أن استقلال الهند وزوال الإمبريالية الإيطالية كانا قد قللا من الأهمية الاستراتيجية للإسكندرية. وفي العامين 1946 و1947 أخليت القوات البريطانية من القاهرة والإسكندرية، إذ تراجعت إلى منطقة قناة السويس[164].

وبحلول شهر مايو 1947 لم تكن هناك، وللمرة الأولى منذ العام 1882، سفن حربية بريطانية راسية في ميناء الإسكندرية، ولا جنود بريطانيون يقفون في نوبات حراسة خارج سراي رأس التين أو ثكنات مصطفى باشا، ولا طائرات لسلاح الجو

الملكي تنطلق من أبي قير. وعاد مقر أسطول البحر الأبيض المتوسط إلى مالطا[165]. وبذلك فقد الحكم الملكي والأقليات حاميهم ومستغلهم.

وبعد سنة تسببت الإهانة الناتجة من الهزيمة في أول حرب عربية مع إسرائيل في زلزال آخر في مصر. وفي الإسكندرية كانت أول أعمال شغب محدودة معادية لليهود من جانب المصريين قد وقعت في العام 1936، مع هتافات لم تُسمَع في السابق إلا من المسيحيين: «يسقط اليهود! ليرحل اليهود عن مصر وفلسطين!» وفي أثناء حرب 1948 ألقى سلاح الجو الإسرائيلي قنابل على الإسكندرية[166]. وعلى رغم أن هزيمة مصر في العام 1948 كانت أقل إذلالا من هزيمتي 1956 و1967، فإنها تسببت في تغيير المزاج العام. وكان الملك كبش فداء سهل. وبعد العام 1948 بدأ «الضباط الأحرار» الساخطون بقيادة جمال عبدالناصر في التخطيط للإطاحة به»[167].

14

التمصير

«إنهم في هذه البدلات الميري
مجانين بالترف... ونحن نعيش
تحت رحمة البدلات الميري.
أقـول لك إن كل الحواجز
الطبقية القديمة أُزيلت.
أبــدا، كل ما هنالك أنهم
وضعوا حواجز أخـرى. وسوف
ترى».

نجيب محفوظ، ميرامار، 1967

«بعد العام 1956، كانت المدينة تحوي فيلات تشبه السفن المهجورة: مغلقة بمصاريع، وخاوية على عروشها، وقد تركت الصور العائلية على الطاولات»

يُحدِث الأفراد تغييرات جذرية في طبيعة المدن. فقد تقرر مصير سميرنا جزئيا بأفعال فينيزيلوس ومصطفى كمال، فضلا على الصدام بين القوميتين اليونانية والتركية. والإسكندرية الحديثة من جانبها كانت صنيعة محمد علي

وعائلته، وكذلك حاجة مصر وأوروبا إلى ميناء حديث كبير لربط اقتصاداتهم معا. وبعد العام 1945، تقرر مستقبل الإسكندرية بأفعال سكانها والحكومات.

شهدت الإسكندرية بعد العام 1945 أزهى سنواتها. إذ كان المال والجنس والطعام وفيرا وبكثرة. في روايته «المشرقي» The Levantine التي نُشِرت في أوائل العام 1952، شبَّه الروائي جون سايكس John Sykes الإسكندرية بـ«باخرة تتوافر فيها كل أسباب الترف ... للاستمتاع بالمشرق»، وكان سكانها- أولئك «القردة المملون» الذين تسيطر عليهم «شهية لا تشبع للتأنق والسباحة»- يستمتعون بعد أن يصيفوا في أوروبا ويعودوا كل سنة بـ«شتاء جيد الطقس ولعبة البريدج والقيل والقال»[1]. كانت أوروبا في أضعف لحظاتها، إذ كان الجيش الأحمر متأهبا للهجوم، وكان الشيوعيون قريبين من السلطة في فرنسا وإيطاليا واليونان. ومع ذلك فقد قرر الكثير من شباب السكندريين أن يغادروا مدينتهم إلى القارة الخربة التي تترنح على حافة المجاعة.

تباهت المدينة طويلا بأنها مرتبطة بأوروبا بنفس قوة ارتباطها بمصر. فعلى نحو ما كان السكندريون يقولون كثيرا، فإن الإسكندرية كانت جزءا من أوروبا، «إذ تشبه أوروبا تماما ... أو على أقل تقدير تقف على قدم المساواة مع إسبانيا»[2]. والآن ها هي الكوزموبوليتانية تأخذ ما سبق أن أعطته للمدينة، إذ أرسلت أوروبا البشر إلى الإسكندرية، وها هي تستردهم.

وجد الكثير من شباب السكندريين الإسكندرية مدينة خانقة. فما تفعله في المساء يكون من المعلومات الشائعة في الصباح التالي. فقد كان الخدم أحيانا جواسيس[3]. ونظر بعضهم إلى الإسكندرية أيضا، على نحو ما كتب دي جي إنرايت في روايته «عام أكاديمي»، على أنها «مؤامرة من التظاهر... كذبة كبيرة»[4]. يتوق البطل في فيلم يوسف شاهين «إسكندرية ليه؟» الذي تدور أحداثه في العام 1945 إلى أن يغادر «هذا القبر المسمى الإسكندرية» إلى الولايات المتحدة ليجد عملا جيدا.

شعر باتريك وايت بأنه يمكن أن «يستقر بارتياح» في مصر. إذ كان يحب مانولي لاسكاريس وبيته في شارع صفية زغلول بفنائه المشجر بأشجار الموز والتوت[5]. لكنهما غادرا في العام 1946، إذ لم يتمكنا من العيش معا في الإسكندرية بالسهولة

نفسها التي وجداها في سيدني. فقد كانت الإسكندرية قادرة على التسامح مع عزاب مثل كفافيس، لكنها لم ولن تكون قادرة على تقبل زوجين مثليين[6].

كما شعر البعض بعدم الأمان بسبب صعود الوطنية المصرية وإلغاء المحاكم المختلطة ورحيل الجيش البريطاني. وكذلك أصدرت قوانين جديدة في العام 1947 تفرض حصصا للموظفين المصريين في الشركات، واستخدام اللغة العربية في الوثائق الرسمية. وزعم مايكل باركر أن البعض كان يعتبر الأقباط أجانب لكونهم مسيحيين. وتراجعت نسبة مديري الشركات الأجانب في مصر من تسعين في المائة في العام 1931 إلى 83.6 في المائة في العام 1937، ثم إلى 65 في المائة في العام 1951[7].

أصبحت الإسكندرية مدينة حفلات الوداع. وحتى منذ العام 1937، ربما كرد فعل على إلغاء الامتيازات، غادر رجل الأعمال اليوناني استيفانوس لاغونيكوس Stefanos Lagonikos إلى سويسرا ومعه مقتنياته من الخزف والمنسوجات العثمانية[8]. كان توغو مزراحي اليهودي الإيطالي الذي ولد في الإسكندرية في العام 1901 ومؤسس شركة الأفلام المصرية، مثالا للكوزموبوليتانية، إذ جمع بين تلقي تعليمه في أوروبا وتحدث اللغة العربية. أنتج مزراحي اثنين وثلاثين فيلما في ست عشرة سنة، منها فيلم «الكوكايين» (1930)(*) الذي صُوّر في الإسكندرية، وأفلاما حول التفاعل بين الأقوام مثل فيلم «المندوبان» (1934) وفيلم «الساعة سبعة» (1937)، وأربعة أفلام باللغة اليونانية بين العامين 1937 و1943، والكثير من الأفلام الأخرى حول الحياة المصرية، أو أفلاما مستمدة من الحكايات الشعبية مثل فيلم «سَلّامة» (1945)، الذي قامت ببطولته المطربة المصرية المحبوبة أم كلثوم وشدت فيه بقصائد غنائية لبيرم التونسي (الذي عُفي عنه في العام 1938، وقال إنه يود أن يقبل التراب تحت قدمي الملك، وعمل بعد العفو والعودة في مجال السينما). وامتثالا لموجة التعريب السينمائي، كان مزراحي يمثل عادة في أفلامه باسم أحمد المشرقي(**). وساعد مزراحي أيضا في إطلاق الموهبة التمثيلية لاثنين من اليهود المصريين: الممثلة ليلى

(*) عرض هذا الفيلم في الإسكندرية باسم «الهاوية»، ثم عرض في القاهرة بعد بضعة أشهر باسم «الكوكايين». [المترجم].

(**) اشتغل توغو مزراحي Togo Mizrahi بالإنتاج والإخراج وكتابة السيناريو وإعداد الديكور وحتى التمثيل. وربما اختار لنفسه الاسم «أحمد المشرقي» Ahmed al-Mishriqi عن قصد، ليعكس هويته المشرقية، لكن من الواضح أن هذا المعنى غاب تماما عن النطق المصري للقب «المِشْرقي». [المترجم].

مراد وممثل كوميدي يدعى شالوم. ومع ذلك، فقد اتُّهِم هذا السكندري، على رغم اندماجه الكامل في المجتمع المصري، بالصهيونية بعد الحرب العربية - الإسرائيلية الأولى، ما اضطره في العام 1948 إلى الرحيل إلى إيطاليا، حيث مات في روما في العام 1986، مقطوعا عن مصر، لكنه ظل يستخدم ورق كتابة عليه عنوان مصري(9).

***

كان غاستون زنانيري سكندريا آخر اضطر إلى مغادرة مدينته الأم. ينتمي زنانيري إلى عائلة كاثوليكية يونانية انتقلت من سورية إلى الإسكندرية إبان القرن الثامن عشر. أدى جده أرتورو Arturo دورا مهما في العام 1882 كترجمان في القنصلية البريطانية. أما أبوه جورج زنانيري باشا Georges Zananiri Pasha ذو الأنف الكبير جدا، الذي جعلهم يقولون عنه «أنف له رجل» بدلا من «رجل له أنف»، فقد عمل أمينا عاما للمجلس الدولي للصحة البحرية. ربما كان غاستون، الذي ولد في العام 1904 وتلقى تعليمه في مدرسة فيكتوريا كوليدج، نموذجا لرواية «بالتازار» ضمن «رباعية الإسكندرية»(10). كان زنانيري- مثل طه حسين- يؤمن بهوية مصر البحر متوسطية التي نشر حولها في العام 1939 كتابه «الروح البحر متوسطية للشرق الأدنى» L'Esprit mediterraneen dans le Proche Orient، وعمل بين العامين 1940 و1950 في وزارة الخارجية(11).

في مذكراته المعنونة «بين الصحراء والبحر» Entre mer et desert، تذكر زنانيري الإسكندرية بوصفها «رائعة وغنية وسطحية ومنفتحة على البحر الأبيض المتوسط ومغلقة في وجه مصر» وأنها «تميل بشدة إلى التفاهة». غير أن حياته تعكس الثقافة القوية التي ميّزت المدينة. فقد أسهم في تأسيس أتيليه الإسكندرية وإقامة صالون سنوي لأعمال الرسم والنحت في سراي زغيب(12). تكشف مذكراته عن العلاقة الغامضة- مزيج من الجاذبية والخوف- التي تربط المدينة بمصر والإسلام. زعم غاستون أن المسيحيين في مصر يشعرون بالتفوق والقهر في الوقت عينه. استقال من وزارة الخارجية في العام 1950، عندما اتهم بممارسة دعاية مسيحية، ربما أسهم في ذلك أيضا «النزق وسرعة الاهتياج والعجز الأصيل» التي رآها فيه مدير مدرسة فيكتوريا كوليدج واستاء منه بسببها(13). انتقل زنانيري إلى باريس في العام 1951 وأصبح كاهنا دومينيكانيا. ومثل صديقه لويس ماسينيون Louis Massignon الذي

أصبح كاهنا كاثوليكيا يونانيا منذ أن بدأ الكاثوليك اليونانيون يقيمون الصلوات باللغة العربية، كان زنانيري يقدِّر القرآن، جزئيا بسبب بروز السيد المسيح فيه الذي لا يعلوه في القرآن غير النبي محمد[14]. وتمثل العمل الأهم في حياة غاستون زنانيري في «معجم الفرانكفونية» Dictionnaire de la Francophonie الذي يعدد فيه الكُتاب الأجانب الذين كتبوا باللغة الفرنسية، فضلا عن مذكراته التي أكملها في باريس في العام 1982. جاء تعريفه للمشرقي بأنه ذلك «الفرد عديم الجذور الذي يتجذر أينما يجد نفسه»[15].

كان جورج موستاكي Georges Moustaki شابا آخر أحب الإسكندرية واضطر إلى فراقها. أثنى موستاكي في مذكراته على المدينة «العربية واليونانية والكوزموبوليتانية ومتعددة اللغات، مأوى بدو البحر الأبيض المتوسط والقارات الخمس، الواقعة في قلب التاريخ الإنساني وخارج العصر، إنها الإسكندرية طفولتي وشبابي». كانت المدينة كوزموبوليتانية على نحو مبهج جدا لدرجة جعلته بعد ذلك على ألفة بأي مكان في العالم. كتب موستاكي «أنشودة لعديمي الجذور» الذين يسمون «المقيمين»(*). لكنه مع ذلك غادر إلى باريس في عمر السابعة عشرة. وهناك وجد البوابين بغيضين والمدينة كئيبة، لكنه لم يرجع إلى الإسكندرية حتى عيد ميلاده السبعين، وحين رجع، وجد الإسكندرية عقيمة وخانقة. وفي باريس، وليس في مسقط رأسه الإسكندرية، وجد الشهرة والثروة وتحقيق الذات كمطرب[16].

رحل آخرون كُثر أيضا. «شعرت بأنني أشهد نهاية عصر. أدركت أنني ليس لي مكان. إنها حياة بلا مستقبل»، هكذا قال الأمير نيقولا رومانوف قريب الملك فيكتور إيمانويل الثالث(**). رحل الأمير في العام 1950، أي بعد أربع سنوات من وصوله[17]. أما باولو تيرني Paolo Terni حفيد فاستا جالينتي، فقد أحب سماع البقال اليوناني وبائع السجائر المصري وبائع الزهور اللبناني والخباز الفييني وهم يلقون عليه التحية في شوارع الإسكندرية، إذ «كانت الحياة أشبه بالفيلم». لكنه مع ذلك أراد أن يرى سارتر وباريس. علاوة على أنه شعر بتغير في المناخ وتصاعد في

(*) المقيمون le meteque أو المهاجرون أو الغرباء مصطلح يرجع إلى أثينا القديمة يشير إلى غير المواطنين الذين أمّنوا وسُمِح لهم بالعيش في أثينا. لجورج موستاكي أغنية فرنسية بهذا العنوان. [المترجم].

(**) جدة الأمير نيقولا رومانوف Prince Nicholas Romanov هي أخت الملكة هيلين قرينة ملك إيطاليا فيكتور إيمانويل الثالث، والاثنتان ابنتا الملك نيقولا الأول ملك مونتنيغرو (الجبل الأسود). [المترجم].

عدوانية الشرطة بعد حرب العام 1948[18]. يقول شاب آخر، هو جون ناخمان، إن «مصر أصبحت خانقة، وقد سعدت كثيرا بالرحيل عنها» لدراسة المسرح في دبلن. ويتذكر برعب جو التملق في حفلات العشاء بالإسكندرية: «آه يا إيفون، كأني به هزل، إنه أمر مضحك حقا!» كما كان يتمتم في قصرها المملوء بالمتملقين على كل كلمة تنطقها المضيفة الغنية[19]. تعكس هذه الأمثلة الفردية اتجاهات عامة. وعلى وجه التحديد، بدأ الأرمن في الرحيل إلى الاتحاد السوفييتي، وبدأ اليهود في الرحيل إلى إسرائيل بعد العام 1948[20].

***

كان الرحيل الأكثر إثارة بين الجميع هو رحيل الملك فاروق. بحلول العام 1948، كان الملك قد ضعف بسبب الهزيمة العسكرية، وإحساس بالعجز الشخصي، واتهامات عامة بالفساد. ومثلما فعل معظم السكندريين الأغنياء، استأنف الملك عادة ما قبل الحرب المتمثلة في قضاء الصيف في أوروبا، وكانت مدينتا دوفيل Deauville وكابري Capri تعرفانه جيدا.

اشتد التراجع في شعبية فاروق بسبب إساءات مثل استخدام جنود قوات الحدود لبناء مقر إقامة آخر له على البحر الأبيض المتوسط على أرض حكومية، في رأس الحكمة بين مرسى مطروح والإسكندرية[21]. وعمّت الانتقادات العلنية له عندما جدد اليخت الملكي المحروسة على نفقة الحكومة. حتى إنه عندما كان يعود من أوروبا، كان يُنصح بالوصول إلى الإسكندرية ليلا خوفا من الحشود المعادية. وفي شهر يناير 1952، قالت زوجة رسل باشا Russell Pasha حكمدار القاهرة السابق بشأن الجيش: «يقال إن جزءا كبيرا منه ضد الملك»[22].

استاء المصريون من استمرار وجود القواعد البريطانية الكبيرة في منطقة القناة. وفي الخامس والعشرين من يناير 1952، قتل الجنود البريطانيون خمسين شرطيا مصريا في معركة وقعت في الإسماعيلية. وفي اليوم التالي - السبت الأسود - انفجرت القاهرة، وليس الإسكندرية. بتعبير نجيب محفوظ، «فجأة انفجر الغضب الكامن واليأس المكبوح والتوتر المكبوت وكل الأشياء التي كان الناس يكظمونها داخلهم وكسرت أطواقها، انفجرت مثل إعصار من الشياطين». أُضرِمت النيران في أربعمائة بناية في وسط المدينة على أيدي شباب «يزعقون ويعوون مثل الكلاب»[23]. ومات

الكثير من الناس. كان وهج لهيب الحرائق جليا على وجه الملك فاروق وهو يستضيف الأقارب والضباط في سراي عابدين احتفالا بولادة ابنه ووريثه أحمد فؤاد من زوجته الثانية ناريمان. ربما كان الاشتراكيون وأعضاء تنظيم الإخوان المسلمين المتطرف وراء أعمال الشغب. وربما تركتهم حكومة الوفد يخرجون عن السيطرة عمدا في محاولة لإخافة الحكومة البريطانية. وأقال الملك النحاس باشا من رئاسة الحكومة.

ومن الإسكندرية، في الثالث من أبريل 1952، حاول الكولونيل سير إدوارد بيل صاحب الصليب الذهبي(*) ومدير شركة «بيل وشركاه» Peel & Company التي كانت تعمل في المدينة لأكثر من مائة سنة، أن يرشّد الحكومة البريطانية في تعاملها مع مصر. كتب في ذلك أن «الأمن والمصالح البريطانية في الشرق الأوسط تُهدَد من أجل هدف يستحيل تحقيقه، وهو الوصول إلى قاعدة آمنة على القناة»[24]. في تلك السنة، تعاقب خمسة رؤساء وزارات في بضعة أشهر، وبحلول الصيف قيل إن أحمد عبود باشا، وهو أغنى رجل في مصر، كان يدفع مالا للملك لتعيين رئيس الوزراء الذي يريده. ونقل السفير الأمريكي جيفرسون كافري Jefferson Caffery في تقاريره، شعورا بأن هناك «ثورة وشيكة». كانت عوامل عدم الاستقرار في مصر تجب عوامل الاستقرار بشدة»[25]. وكان فشل مفاوضات سحب جميع القوات البريطانية من منطقة القناة العامل الأهم الذي يرجح عدم الاستقرار. وشعر الملك نفسه بأن الوقت ينفد، وحذّر السفير الأمريكي قائلا «ستندمون جميعا إذا أُطيح بي»[26].

ومع ذلك، فقد ذهب الملك كالعادة بقطار ملكي خاص إلى الإسكندرية لقضاء الصيف. وكالعادة أيضا، كانت الشواطئ مكتظة بالقاهريين المبللين بالعرق، والكورنيش مكتظا بأحدث السيارات من ماركة باكار وكرايسلر. كان الملك واعيا للسخط بين هيئة الضباط، ولذلك لم يخطط على غير العادة للذهاب إلى أوروبا في ذلك الصيف. كان الأمر أشبه بسباق زمني بين الملك و«الضباط الأحرار» بقيادة عبدالناصر. وقد فشل أحد رؤساء الوزراء، هو حسين سري، في دفع الملك إلى إصدار الأمر باعتقال الضباط. إذ اعتقد الملك أنه يستطيع أن يسيطر على الجيش بحل

(*) خدم سير إدوارد بيل Edward Peel في الحرب العالمية الأولى على الجبهة الغربية في فرنسا وفي حملة غاليبولي وفي الشرق الأوسط في مصر وفلسطين وسورية، وكان سجله مميزا، وحصل لذلك على وسام الصليب العسكري (Military Cross; MC) ووسام الخدمة المميزة (Distinguished Service Order: DSO). [المترجم].

مجلس إدارة نادي الضباط وتعيين حكومة جديدة برئاسة الإصلاحي نجيب الهلالي، رتبها في الإسكندرية حافظ عفيفي رئيس الديوان الملكي، مع تعيين زوج أخت الملك إسماعيل شيرين وزيرا للحربية. وفي الرابعة من عصر الثاني والعشرين من يوليو، أدت الوزارة الجديدة اليمين أمام الملك في غرفة العرش برأس التين. وأخيرا أمر الملك في التاسعة مساء باعتقال الضباط الأحرار[27]. في تلك الليلة، رقصت أخت الملك الجميلة الأميرة فايزة في كازينو رومانس مع سكرتير السفير الأمريكي روبرت سيمبسون Robert Simpson، وشاهدها عدد من الصحافيين. ولاحقا، خرجت الأميرة فايزة مع أصدقائها لصيد السمك. وعندما عادوا في الصباح الباكر، لاحظوا أن كل الأنوار في سراي المنتزه كانت مضاءة.

في تلك الليلة، واستباقا لتحرك الملك، احتلت وحدات الضباط الأحرار مواقع رئيسة في القاهرة: القصور والوزارات ومطار فاروق ومقر الجيش. انحسرت الإصابات في جنديين دافعا عن مقر الجيش. ومن القاهرة في السابعة من صباح الثالث والعشرين من يوليو، قرأ البكباشي محمد أنور السادات بيانا إذاعيا جاء فيه: «بني وطني، اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الأخير». ودعا الشعب إلى الهدوء، وألقى باللائمة عن هزيمة 1948 على «عوامل الفساد». ولم يأتِ في البيان ذكر الثورة أو الجمهورية[28].

فوجئ الدبلوماسيون الأجانب والسياسيون المصريون. لكن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ووكالة المخابرات العسكرية البريطانية لم تفاجأ، إذ كان من رأيهما أن عبدالناصر والضباط الأحرار سيكونون أقدر من الملك على التصدي للشيوعية، وكانتا تشجعانهم منذ مايو 1952 أو ربما من قبل ذلك[29].

وفي الثالث والعشرين من يوليو، تبودلت مكالمات هاتفية ورسل بين الإسكندرية والقاهرة. وفي الثانية صباحا، تحدث وزير الداخلية مرتضى المراغي مع الزعيم الصوري للضباط الذكي والنشط اللواء المحبوب محمد نجيب: «أناشدك كجندي ووطني أن تضع حدا لهذا الأمر». فرض الجيش علي ماهر، رئيس الديوان الملكي ورئيس الوزراء السابق المعروف باسم «الثعلب»، رئيسا جديدا للوزراء، وأجرى علي ماهر مقابلة مع فاروق في الرابع والعشرين من يوليو. وفُصِلت حاشية الملك الممقوتة، مثل بولي بيه ومحمد حسن، شماشرجي الملك، واثنين من الباشوات من أصل لبناني وإلياس أندراوس وكريم ثابت وستة آخرين[30].

رفضت السفارة الأمريكية أن تتدخل. أما بريطانيا، فقد قال أنطوني إيدن لاحقا «أوضحت كثيرا لسفارتنا أن القوات البريطانية يجب ألا تتدخل للإبقاء على الملك فاروق على عرشه». ومن السفارة البريطانية، أكد جون هاملتون John Hamilton هذه السياسة للواء نجيب شخصيا[31]. ففي العام 1882، كان الحكم الملكي أداة مفيدة للسيطرة البريطانية في مصر، لكنه لم يكن كذلك في العام 1952.

سرعان ما اتضح أن الضباط الأحرار لم يكونوا يريدون تغيير الوزارة فقط. واستعد الملك للرحيل. كان الملك يجد عادة متعة في أن يقود بنفسه سيارة حمراء بسرعة كبيرة خلال شوارع الإسكندرية. وفي آخر مرة تسير به سيارة خلال مدينته المفضلة من سراي المنتزه إلى سراي رأس التين التي يرسو على شاطئها يخت المحروسة، في وقت مبكر من صبيحة الخامس والعشرين من يوليو، ركب فاروق سيارة سوداء يقودها سائق حتى لا يلحظه أحد. كانت زوجته وابنه ومربية أطفالهم السيدة آن شيرمسايد Anne Chermside يجلسون في الكرسي الخلفي. تبيّن صورة فوتوغرافية أن الملك كان يجلس بجوار السائق في حالة من العصبية محاولا أن يخفي وجهه. وتبعته سيارة أخرى تحمل بناته من زوجته الأولى[32]. وبحلول الساعة السابعة من صباح الخامس والعشرين من يوليو، كانت القصور محاصرة بالدبابات وأزيز طائرة قادمة من القاهرة.

في اليوم نفسه، طار اللواء نجيب والبكباشي السادات إلى الإسكندرية من القاهرة. أعِد مقر مؤقت في ثكنات مصطفى باشا. وأجرى نجيب والسادات مباحثات مع علي ماهر في «الوزارة»، وهي المقر الصيفي للحكومة في شارع أبي قير في حي بولكلي. وأخذت الحشود تهتف. ربما أراد فاروق أن يغادر مصر في مساء الخامس والعشرين من يوليو، لكنه اضطر إلى أن ينتظر حتى يُعاد شحن بطاريات المحروسة[33].

وفي السادس والعشرين من يوليو، قُدِّم لعلي ماهر في الساعة التاسعة والثلث صباحا إنذار من الضباط الأحرار يطلب من الملك التنازل عن العرش والنفي. اعتقد فاروق في البداية أن الضباط- كما أعلنوا في أول الأمر- أرادوا التخلص من حاشيته فقط، وليس منه هو نفسه. عندما سمع علي ماهر الإنذار- وفقا لرواية السادات- «شحب وجهه كالموتى». وجد الثعلب من هو أشد منه مكرا. باسم «الجيش الممثل

لقوة الشعب»، اتهم الإنذار الملك بالمسؤولية عن «الثراء الفاحش»، وانتهاكات الدستور، وامتهان إرادة الشعب، والفوضى الشاملة، «حتى أصبح كل فرد من أفراده لا يطمئن على حياته أو ماله أو كرامته»، وحمّل الملك المسؤولية عن الهزيمة في الحرب مع إسرائيل، واتهمه بـ«التجارة في الأسلحة والذخيرة الفاسدة»[34].

وفي السادس والعشرين من يوليو، استسلم قصر المنتزه. أبدى الحراس السودانيون في سراي رأس التين مقاومة رمزية، جُرِح فيها سبعة أشخاص، ربما بالخطأ. فقد كانت المقاومة من مقر الجيش في القاهرة أشد مما أظهره السراي في الإسكندرية. ومقارنة بحمّامات الدماء التي لطخت المدن الأخرى إبان القرن العشرين، كانت هذه الثورة متحضرة. أشيع أن عبدالناصر قال «دعونا نصفح عن فاروق وليخرج من البلاد. سيحكم عليه التاريخ بالموت»[35]. وتباهى نجيب، بأن «ثورات قليلة للغاية، إن وجدت، أنجزت في اعتقادي الكثير بخسارة القليل من الأرواح، على نحو ما فعلنا».

ربما أريد بعدم إراقة الدماء جزئيا التأثير في الحكومتين الأمريكية والبريطانية. ففي الثالث والعشرين من يوليو، طمأن الضباط «إخواننا الأجانب في مصر إلى أن الجيش يعتبر نفسه مسؤولا كليا عن حماية مصالحهم وأرواحهم وأموالهم». معنى ذلك أن الجيش لم يكن ليسمح بتكرار أعمال العنف التي شهدتها القاهرة قبل ستة أشهر. ولم يرد أن يعطي القوات البريطانية المتمركزة في منطقة القناة ذريعة للتدخل، كما فعل «إخواننا الأجانب في مصر» في العام 1882[36].

ها هو سراي رأس التين، ذلك التعبير المعماري الأسمى عن عشق عائلة محمد علي للإسكندرية، يشهد سقوط هذه العائلة. عندما قدم علي ماهر الإنذار عند العاشرة واثنتين وأربعين دقيقة صباحا للملك الذي كان ماهر يعرفه جيدا، قال «أعتذر لفخامتك». كان الحرس في السراي لايزالون يريدون القتال أو قتل أي من الضباط الأحرار الذين يدخلون السراي. لكن الملك أمرهم بألا يفعلوا ذلك. تمثل رهان الملك الأخير في عرض ترقية نجيب إلى رتبة المشير. لكن عرضه قوبل بالرفض[37]. وفي الظهيرة، في القاعة المرمرية، بدا الملك هادئا، إلا من سعال ومشية متثاقلة، عندما وقّع قرار تنازله لمصلحة ابنه أحمد فؤاد الذي لايزال في عمر سنة واحدة، وكانت يده ترتعش كثيرا حتى إنه وقّع التنازل مرتين[38]. كانت أغلب المقتنيات الملكية، مثل كتبه المفضلة وطوابعه وعملاته المعدنية، في القاهرة، ومع ذلك فقد حُمِّل عدد

كبير من الصناديق على اليخت. كان أشد ما أثار دهشة الملك أن الشخص الوحيد الذي طلب الملك أن يرافقه إلى المنفى، وهو بولي بيه الخادم الذي يعرفه الملك منذ الطفولة، رفض مرافقته، فقد تخلى عن الملك حتى متملقوه[39].

وفي الخامسة والنصف عصرا، جاءت أختاه فوزية وفايزة - على رغم معارضة زوجيهما - لوداعه في الصالون الكبير. وبما يتفق مع طابع الثورة والمدينة، كان الحشد خارج سراي رأس التين وعلى طول الكورنيش صامتا. إذ لم توجه للملك إهانات ولم تُرَقْ دماء، كما حدث في بلدان أخرى[40].

وصل الملك فاروق قبل ستة عشر عاما إلى الإسكندرية شابا وسيما يمطره الورد. وها هو يغادر إلى الأبد بدينا ومحتقرا. كان رد الفعل الأساسي من جانب المصريين هو الدهشة من سرعة الإطاحة به وسهولتها. وفي السادسة إلا الربع مساء، نزل الملك السلم إلى رصيف الإبحار، ثم استقل زورقا إلى السفينة.

كان روبرت سيمبسون والسفير جيفرسون كافري حاضرين، ربما لإظهار الموافقة الأمريكية أو لضمان عدم إراقة الدماء. عندما مر فاروق وناريمان حاملة ملك «مصر والسودان» الرضيع الجديد أحمد فؤاد على ذراعيها أمام الحرس الملكي، عزف الحرس السلام الملكي وأنزل العلم الملكي لآخر مرة. يذكر محمد نجيب أن «خدم السراي، كما في عادات المصريين، أخذوا ينوحون ويولولون بصوت كان يمكن سماعه من مسافة ربع ميل»، ولم يقطع صوت نواحهم غير الدوي الإيقاعي لواحدة وعشرين طلقة مدفع أُطلقت لتحية الملك الرضيع الجديد، وليس الأمير فاروق كما أصبح لقبه.

وفي السادسة مساء، صعد اللواء نجيب إلى المحروسة لتوديع الملك السابق. كان الاثنان - وفقا لرواية نجيب - على وشك البكاء. ذكّر نجيب فاروق بأنه كان الضابط الوحيد الذي استقال في العام 1942 احتجاجا على فرض البريطانيين للنحاس باشا رئيسا للوزراء: «سعادتكم يا أفندم الذي أجبرتنا على فعل ما فعلناه».

«بل فعلتم ما كنت أنوي دائما أن أفعله»، هكذا جاء رد الملك الذي أراد أن يبدو أقل حماقة مما كان يشعر. وفي روايات أخرى، كان رده «كنت سأفعل ذلك إن لم تفعلوه أنتم» (رواية السادات)، ربما قصد بذلك أنه خطط لمغادرة مصر بعد ضمان خلافة ابنه له. وفي رواية أخرى «أنتم فعلتم بي ما كنت أنوي فعله بكم»، بمعنى أنه كان سيطرد الضباط إن لم يطردوه.

وأدى أحدهما التحية العسكرية للآخر وتصافحا. وتواصلت المحادثة:

«أتمنى أن تعتني بالجيش جيدا. لقد أنشأه جدي كما تعرف».

«الجيش المصري في أيد أمينة».

«ستكون مهمتك صعبة. فليس سهلا - كما تعرف - أن تحكم مصر».

كتب نجيب في مذكراته «ولما كانت هذه آخر كلمات فاروق. فقد شعرت بالأسى من أجله ونحن ننزل من اليخت. ففاروق الذي عرفته سيفشل حتى كمنفي كما فشل كملك. لقد كان رجلا حزينا جدا، حتى إنني لم أسعد بتدميره، وإن كان ضروريا»(41).

أبحرت المحروسة إلى نابولي، و«كانت مغادرة جيدة»، كما يتذكر الضابط البحري محمد رشيدي الذي كان على متن سفينة مرافقة، وكان مثل معظم ضباط البحرية المصرية يحبون نصيرها الملك فاروق(42). رفعت كل السفن في الميناء أعلامها وداعا للملك(43). راقب مغادرة الملك حشد كبير على الشاطئ، كان من بينهم من خلال المنظار صديقه الملك الألباني السابق زوغو(44).

بالنسبة إلى الملك فاروق، كما بالنسبة إلى السكندريين الآخرين، لم يكن فراق مصر صعبا. كل ما هنالك أن الملك استبدل مدينة بحر متوسطية بأخرى. أما بالنسبة إلى الإسكندرية، فقد كان رحيل الملك شؤما عليها. فأيا كانت عيوبه، فإنه كان يمثل حكما ملكيا كوزموبوليتانيا متعدد اللغات ومحابيا للأقليات. وأيا كانت أفكار الضباط الأحرار، فقد كانوا أولا وقبل كل شيء وطنيين.

***

في العام 1952، خُلِعت الإسكندرية نفسها مع الملك. كشفت الثورة عن ذلك النوع من التنافس الخفي بين المدن الذي يمكن أن يؤدي إلى أحداث في ضراوة الحروب الطبقية أو الدولية، من نوع التنافس بين إسطنبول وأنقرة أو بين بيروت ودمشق. في العام 1882، في وجود الرعايا الأجانب والخديو توفيق، وفرت الإسكندرية ذريعة للاحتلال البريطاني لمصر وقاعدة له. إذ كانت بمنزلة حصان طروادة في مصر. وفي العام 1952، كانت الثورة انتقام القاهرة من الإسكندرية. وقد يسر نجاح الثورة في القاهرة وجود الملك والوزراء في الإسكندرية. وجاءت الدبابات والأوامر بالثورة من القاهرة.

من ذلك أنه كان من القرارات الأولى التي أصدرتها الحكومة الجديدة في الثامن والعشرين من يوليو أمر الموظفين الحكوميين والوزراء الذين يقضون

الصيف في الإسكندرية بالعودة إلى القاهرة. وسُلمت مكاتب بناية الوزارة الصيفية إلى جامعة الإسكندرية. كان ذلك إعلانا لنهاية دور الإسكندرية كعاصمة صيفية ونهاية لتأكيد مصر على هويتها البحر متوسطية. كتب محمد نجيب «كان وقتا أردنا فيه أن يدرك السياسيون والبيروقراطيون أنهم خدام للشعب المصري وليسوا أسيادا له»[45]. وفي العام 1952، ولأول صيف في زمن السلم، حُكِمت مصر من القاهرة، وظهرت المعارضة في الإسكندرية. فخارج فيلا النحاس باشا، نصير الملكية الدستورية الثابت، اصطفت السيارات نهارا وليلا وانتظر الزوار ساعات لمقابلته. لكن جغرافية القوة كانت قد تغيرت، وكانت أيام الوفد قد ولت[46]. في رواية نجيب محفوظ «السمان والخريف» (1962)، يقع البطل، وهو موظف حكومي كبير، في خطأ قاتل بقضاء صيف العام 1952 في الإسكندرية، بدلا من العودة إلى القاهرة حيث توجد السلطة[47]. وكما حدث في روسيا في العام 1918 عندما عادت العاصمة من سانت بطرسبورغ إلى موسكو، انكفأت مصر إلى الداخل، بالمعنى الحرفي والمجازي للكلمة.

لم تعق الثورة الحياة الاجتماعية للمدينة. فجاء «كابينة على الشاطئ والعشاء في كازينو» عنوان ماري دي زغيب ليومياتها لليوم الرابع والعشرين من يوليو. وكتبت في الخامس والعشرين من يوليو «محمد نجيب وقوات عسكرية في الإسكندرية. حالة من الهدوء». وجاء تعليقها الوحيد في السادس والعشرين من يوليو: «تنازل الملك فاروق عن العرش. ستة عشر عاما في السلطة. السراي محاصر، والميناء مغلق. إنذار من محمد نجيب للملك نيابة عن الجيش بسبب خرقه للدستور... إلخ». رحبت الصحف بعصر جديد من العدالة الاجتماعية والتعاون الاقتصادي. وفي الحادي والثلاثين من يوليو، أُلغيت كل الألقاب نظريا. لم تنخدع ماري دي زغيب التي كتبت في الثامن من أغسطس: «اللواء نجيب يعلن أنه لا يتدخل في السياسة، لكنه يوجه كل شيء. الدكتاتورية العسكرية. زيادة الضرائب المختلفة». وكتبت في الثاني عشر من أغسطس: «الجميع مكتئبون. قوانين جديدة تُعد. زيادة الضرائب المختلفة، وتقييد ملكية الأراضي بحد أقصى مائتي فدان [نحو مائتي هكتار]. لإعطائها للفلاحين. ليس عمليا. سيخرب البلاد؟» وكتبت في التاسع من سبتمبر: «أُصدِر قانون زراعي. لا يحق

لأي شخص أن يملك أكثر من مائتي فدان. سيحدث التقسيم خلال خمس سنوات. تذمر شديد جدا»[48](*).

في ذلك الوقت، كانت هذه الآراء تبدو صادرة من تلك الزمرة الأنانية. لكن في الوقت الراهن الذي تستورد مصر فيه معظم غذائها، مؤكد أن كثيرا من المصريين سيتفقون معها، إذ يقول الكثيرون إن عبدالناصر «خرب البلد».

***

ساد شهر عسل بين الحكومة الجديدة والجاليات غير المسلمة بعض الوقت، ففي الأول من أغسطس، هنأ رئيس الجالية الهيلينية بالإسكندرية اللواء نجيب على عمله الوطني وعبّر عن «أحر أمنياته الطيبة بالرفعة والسعادة والازدهار للأمة المصرية»[49]. كان الضباط الأحرار في هذه المرحلة يريدون جعل مصر آمنة للرأسمالية. وفي أوائل سبتمبر، وبعد هجمات للعمال على بعض مصانع النسيج بالإسكندرية، حُكِم على اثنين بالإعدام شنقا وعلى سبعة بالأشغال الشاقة المؤبدة[50]. وفي الخامس عشر من سبتمبر، في ذروة شعبيته، قام اللواء نجيب محاطا بالضباط بزيارة المستشفى اليوناني في المدينة، وقال «اليونان ومصر في جوهرهما أمة واحدة. لا فرق بين مسلم أو مسيحي أو يهودي. فالجميع أبناء الدولة نفسها مادامو جميعا يعملون من أجل مصلحتها»[51].

تمثل أحد الإصلاحات في إغلاق الحانات والمواخير في منطقة الميناء(**). وشارع دي سير، الذي تصطف على جانبيه الصيدليات والورش في الوقت الراهن، أصبح قذرا من حيث الشكل، لكنه غدا محترما بالتأكيد. لكن كان من العلامات المنذرة على أن النظام العسكري ربما يخفي تحت وجهه الباسم أجندة غير معلنة اعتقال الضباط والسياسيين المنافسين في أغسطس وسبتمبر 1952. وفي خلال ثلاثة أشهر، كانت كل الأحزاب السياسية قد حُلت، والكثير من الصحف قد أُغلِقت. وخلال ستة أشهر، كان الضباط الأحرار قد ألغوا الدستور الذي اتهموا الملك فاروق بخرقه. وكانت مصر لاتزال في انتظار الانتخابات الحرة التي وُعِدت بها في العام 1952.

(*) هذه هي طبيعة كتابة ماري دي زغيب كما لاحظ المؤلف من قبل: كتابة موجزة مكثفة من نوع البرقيات. [المترجم].

(**) حدث إلغاء البغاء قبل يوليو 1952 بطلب من نائب باب الشعرية الذي يقع في دائرته القاهرية شارع كلوت بك الذي كان مشهورا ببيوت البغاء. [المترجم].

وفي نوفمبر، وزعت الحكومة على المدارس الابتدائية قصة أطفال بعنوان «الرؤساء الصغار» من تأليف ثلاثة من المسلمين، تهاجم أصحاب الأصول الأجنبية في مصر بأنهم «سوط» ألهب ظهر «أفضل أمة في العالم». إذ جاء هؤلاء الناس إلى مصر «لامتصاص دمنا وسرقة خيراتنا». وأدى الضغط من الجالية اليونانية إلى سحبها، بينما كان ظهورها قبل العام 1952 أمرا غير وارد[52].

***

وعلى أي حال، فقد بقيت الإسكندرية كما كانت. فـ«في أثناء تلك الفترة»، كما تذكر مايكل باركر لاحقا، «ظلت الإسكندرية مدينة كوزموبوليتانية في جوهرها. وازدهرت الأعمال التجارية عموما، ما جلب إليها الكثير من الزوار». وفي يونيو 1953، أقام الضباط الأحرار حفل استقبال في فيلا أنطونيادس للجاليات الأجنبية، وفيه تحدث مايكل باركر إلى جمال عبدالناصر. كانت مصالح هذه العائلة التجارية في المدينة لاتزال تشمل شركة الإسكندرية للمياه والشركة المصرية للغزل وشركة الإسكندرية للأشغال الهندسية (البحرية)، إلى جانب شركة باركر وشركاه. وكانت العائلة تساعد أيضا في إدارة منظمات خيرية مثل نادي الخدمات البريطاني والمجلس الاجتماعي البريطاني للإسكندرية ودار فيكتوريا ودار الممرضات. وفي السابع والعشرين من يوليو 1954، وقّعت بريطانيا اتفاقية تقضي بسحب قواتها من قناة السويس بحلول العام 1956.

زارت البحرية الملكية البريطانية ميناء الإسكندرية. وغنى إديث بياف Edith Piaf أغنية «الحياة لونها وردي» La Vie en rose في كازينو رومانس، وفي النادي الرياضي أقيمت بطولات دولية في التنس. وظلت الحياة الاجتماعية في الإسكندرية شبيهة بتلك التي صوّرها بروست[53]. وظن رجال الأعمال بالمدينة أنهم يستطيعون أن يستميلوا الضباط الأحرار بتعيينهم في مجالس إدارة الشركات.

كان جمال عبدالناصر نفسه سكندريا، إذ وُلد في باكوس في العام 1918 (يشغل بيت العائلة في 12 شارع قنواتي، متحف لعبدالناصر نادرا ما يزوره أحد) لأم سكندرية وأب من الصعيد كان يعمل مدير مكتب بريد. استأنف عبدالناصر وضباطه عادة النظم السابقة في قضاء العطلات الصيفية في الإسكندرية، إذ بنى بعضهم فيلات في حدائق المنتزه، لكن عبدالناصر واللواء عبد الحكيم عامر فضلا المعمورة[54]. كان عبدالناصر

يزور المدينة كثيرا. وفي الإسكندرية، في السادس والعشرين من أكتوبر 1954، بينما كان عبدالناصر يخطب في عمال «مديرية التحرير»، بعد أن حل محل محمد نجيب رئيسا لمصر، وقعت محاولة لاغتياله من جانب شخص ساخط ينتمي لتنظيم الإخوان المسلمين، حوّلها عبدالناصر في اللحظة عينها إلى حالة حماسية، إذ صاح «حياتي لكم ودمي فداء لمصر... لقد عشت من أجلكم وسأظل كذلك حتى أموت». أدت المحاولة إلى محاكمات جماعية للإخوان المسلمين أمام «محاكم الشعب» الخاصة، ربما نظمتها شرطة عبدالناصر. وأُعدِم الكثير من أتباع الإخوان المسلمين أو سُجِنوا[55].

وفي العام 1955، أقام الأتيليه وجمعية الصداقة الفرنسية Amities Francaises معرضا كبيرا لمائة وسبع وعشرين لوحة من مجموعات خاصة في المدينة، شملت أعمالا لعفت ناجي وكليا بدارو وأميليا أمبرون Amelia Ambron وأدريان دي مِنَشّا Adrien de Menasce. في تقديمه لمجموعة اللوحات، كتب ماكس دبانة أخو ماري دي زغيب الذي كان يعمل بالبلدية، باللغة الفرنسية والعربية آخر أنشودة للإسكندرية كحاضرة كوزموبوليتانية حية، إذ كتب أن الإسكندرية كانت «منذ تأسيسها حتى يومنا المدينة الأولى في العالم التي يقدم الوجه الإنساني فيها التنوع الأشد». فالإسكندرية وحدها كانت قادرة على توفير «هذا الحشد المتنوع» من الأقوام من ثلاث قارات[56].

***

لم تأتِ أسوأ ضربة للإسكندرية من الداخل، بل من الحكومات الأجنبية، وتحديدا من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل. كان مصير المدينة خلال السنوات العشرين التالية أشبه بنهب خزانة على أيدي لصوص لا يعرفون ما يبحثون عنه ويلحقون الأذى بأنفسهم جراء فعلتهم. ففي العام 1954، كشفت الحكومة الإسرائيلية عن موقفها من خلال «العملية سوزانا». إذ وضع عملاء إسرائيليون، من اليهود المحليين بالدرجة الأولى، قنابل حارقة في دور السينما ومكاتب البريد في القاهرة والإسكندرية. كان الهدف من هذه العملية هو إحداث وقيعة بين الحكومة المصرية وحلفائها الغربيين، فضلا بالتأكيد عن تشجيع مزيد من اليهود المصريين على الهجرة إلى إسرائيل، مع العلم أن أغلبية اليهود كانت تفضل البقاء في مصر، بل افتتحوا جناحا جديدا لمستشفى الإسكندرية الإسرائيلي الشهير في مارس 1956[57].

انقلبت الحكومة البريطانية، التي سحبت آخر القوات البريطانية من منطقة القناة في الثالث عشر من يونيو 1956، على مصر بعد أن أعلن عبدالناصر تأميم قناة السويس في السادس والعشرين من يوليو 1956. كانت هذه اللحظة هي الأعلى في تاريخ الإسكندرية الحديثة، من حيث رفض الكوزموبوليتانية وتأكيد التمصير. كان عبدالناصر يرد بتأميم القناة على سحب البنك الدولي عرضه لتمويل بناء السد العالي الذي أريد به إحداث تغيير جذري في الزراعة المصرية، إذ ألقى عبدالناصر باللائمة على الحكومتين الأمريكية والبريطانية. استدعت الحكومة المصريين الذين أخذوا يتدفقون على المدينة طوال النهار بالحافلات والقطار والعربات التي تجرها حمير. وفي ميدان محمد علي، احتشد بحر من الرجال بجلابيب بيضاء وعمائم، كان بينهم حتى بعض ممن يرتدون الطرابيش(*). لكن لم تُر بينهم نساء أو أوروبيون. ومن شرفة البورصة التي تشكل القلب التجاري للمدينة، أخذ عبدالناصر، الذي كان في السابق خجولا وكئيبا، يتحدث بداية من السابعة والنصف مساء بثقة كاملة وذراعين ممدودين. خاطب عبدالناصر الحشد باللهجة العامية، بدلا من العربية الفصحى، ما أعطى المصريين إحساسا بالألفة والمودة نحوه. ومن لم يسمع خطاب عبدالناصر في الميدان، سمعه على الإذاعات.

كان الخطاب بمناسبة الذكرى الرابعة لمغادرة الملك فاروق، وربما يعكس اختيار عبدالناصر للزمان والمكان رغبته في تأكيد سلطته في مسقط رأسه الإسكندرية نصف الأوروبية وكذلك في إحياء دورها كأحد مواقع كفاح مصر ضد الظالمين، كما تجلى في الأعوام 1882 و1921 و1946 و1952(**). ومن خلال إلقاء اللائمة على رئيس البنك الدولي السيد بلاك Black، الذي «لا تقل» روحه «سوادا عن اسمه»، في إنكار فرصة الازدهار على مصر، هاجم عبدالناصر الإمبريالية عموما، وشركة قناة السويس تحديدا بصفتها «دولة داخل الدولة» تعمل لحساب الإمبريالية، وهي

(*) يفترض أن من يرتدون الطرابيش من أنصار النظام الملكي السابق. [المترجم].

(**) شهد العام 1882 أعمال الشغب التي سبقت قصف الإسكندرية واحتلالها. وشهد العام 1921 اضطرابات بين المصريين واليونانيين في الإسكندرية جزئيا بسبب مشاركة اليونانيين في صفوف جيش اليونان الذي كان يحارب تركيا، وفيها قتل ثلاثة وأربعون مصريا واثنا عشر يونانيا وإيطاليان. وفيما عُرف بيوم «الشهداء» في مارس 1946، قتلت الشرطة المصرية والقوات البريطانية أربعة وعشرين طالبا أو أكثر على الكورنيش كانوا يحتجون على الوجود البريطاني. وفي العام 1952، كان خلع فاروق ونفيه من الإسكندرية. [المترجم].

القناة التي مات في أثناء حفرها مائة وعشرون ألف مصري. هاهي القومية العربية يشتعل لهيبها «من المحيط الأطلسي إلى الخليج». ثم صاح عبدالناصر في عاصفة من الضحك الذي يكشف عن التحدي: «إننا نبني مجدنا وعزنا ... أعلن تأميم قناة السويس. القناة ملكنا وعاد إلينا. ومن عائداتها سنبني السد. قبل أربع سنوات، وفي هذه الساعة نفسها، غادر فاروق مصر من هذا المكان. واليوم باسم الشعب نسترد الشركة. في هذا المساء، يدير المصريون قناتنا. المصريون! المصريون!»(*) وأخذ الحشد الهاذي يهتف «جمال! جمال!». شعر الحشد بأنه يعيش لحظة تاريخية - وبالفعل كانت هناك إشارة متفق عليها في الخطاب، قام المصريون بعد سماعها باحتلال مكاتب شركة القناة(**). وبعد أن غادر عبدالناصر المكان، اضطرت عربات الشرطة إلى استخدام خراطيم المياه لتهدئة الحشد[58].

أسهم تأميم القناة، أكثر كثيرا من الثورة 1952 أو الإصلاح الزراعي، في رسم صورة عبدالناصر البطل في مصر والعالم العربي. فأخيرا، أكدت مصر سيادتها على كامل أراضيها. وعلى خلاف التوقعات الفرنسية والبريطانية، أُديرت القناة بكفاءة بمساعدة مرشدين يونانيين ومصريين. وعُوض حملة الأسهم. لكن سرعان ما تدهور الموقف. وسيطر الجنون على لندن وباريس. ومع أن الحكومتين البريطانية والفرنسية طبقتا في بلديهما سياسات التأميم التي دانوا عبدالناصر في مصر بسببها، فقد عقدت الحكومتان العزم على إسقاطه. إذ صاح إيدن: «أريد تدمير هذا الرجل»[59].

وكما حدث مع الكثير من السكندريين، بدأ شعور ماري دي زغيب بأنها مصرية يتنامى. في الثاني عشر من أغسطس، أثنت على «اللهجة الهادئة والمعقولة» التي تميز

(*) نص كلام عبدالناصر من مواضع مختلفة من الخطاب: «سنبني مصر القوية، وسنبني مصر العزيزة»، «واليوم- أيها المواطنون- عادت الحقوق إلى أصحابها، حقوقنا في قناة السويس عادت إلينا بعد مائة سنة، اليوم إنما نحقق الصرح الحقيقي من صروح السيادة، ونحقق البناء الحقيقي من أبنية العزة والكرامة»، «حنبني السد زي ما احنا عايزين، حنصمم على هذا، 35 مليون جنيه كل سنة بتاخدها شركة القنال ناخدها احنا، 100 مليون دولار كل سنة بتحصلها شركة القنال لمنفعة مصر، نحقق احنا هذا الكلام، يبقى الـ100 مليون دولار نحصلهم احنا لمنفعة مصر برضو»، «واحنا بنستقبل العام الخامس للثورة وزي ما طلع فاروق في 26 يوليو سنة 52 ... لن تكون سيادة في مصر إلا لأبناء مصر، لن تكون سيادة في مصر إلا لشعب مصر»، «الآن- وأنا أتكلم معكم- يقوم إخوة لكم من أبناء مصر ليديروا شركة القنال، ويقوموا بعمل شركة القنال، الآن، دلوقت، بيستلموا شركة القنال، شركة القنال المصرية، مش شركة القنال الإنجليزية». ربما يكون الاختلاف بين النص الأجنبي والعربي من قبيل تكرار كلمة «المصريين» ووصف حالة عبدالناصر بـ«نوبة من الضحك الهازئ» قد أريد بها إظهاره في حالة القومي المهووس، كجزء من الحرب الإعلامية عليه في ذلك الوقت. [المترجم].

(**) كانت هذه الإشارة هي تفوه عبدالناصر بكلمة «ديليسبس». [المترجم].

عبدالناصر. وعلى النقيض من ذلك، وجدت «إيدن موليه Eden Mollet [رئيس الوزراء الفرنسي] عنيفا جدا». وكتبت في الحادي والعشرين من أغسطس: «ركود تجاري في المدينة». وكتبت في السادس عشر من سبتمبر: «الأعمال التجارية هنا سيئة جدا. لكن المدينة هادئة جدا. تقول الصحف إن أوروبا تنشر الذعر وكذلك القنصليات. يغادر الكثير من الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين نهائيا». وبالكذب على بقية العالم، شجعت الحكومتان البريطانية والفرنسية سرا هجوما إسرائيليا لإيجاد ذريعة لتدخلهما. لكن ماري لم تنخدع، إذ كتبت في التاسع والعشرين من أكتوبر «توتر خطير جدا. مؤامرة مع إسرائيل لإيجاد ذريعة للتدخل الإنجليزي - الفرنسي؟»[60].

وعلى رغم أن إيدن كان يعرف الإسكندرية، فإن رغبته في تدمير الحكومة المصرية جعلته هو ووزراءه يخططون لشن هجوم بري وبحري وجوي شامل عليها. لكن خوفا من تأثير الضحايا من المدنيين في الرأي العام البريطاني، أثناه رؤساء هيئات الأركان عن ذلك، علاوة على أنهم اعتبروا الإسكندرية «مهمة قاسية» و«مخاطرة حقيقية»[61]. لذلك انتقل البلاء المخطط من الإسكندرية إلى بورسعيد الواقعة على مسافة مائة وخمسين ميلا إلى الشرق على مدخل القناة. ومع ذلك، ففي أثناء الغارات الجوية لدول العدوان الثلاثي من الحادي والثلاثين من أكتوبر حتى وقف إطلاق النار في السابع من نوفمبر، تعرض للقصف مطار الإسكندرية ومحطة الإذاعة ومكتب بريد وكنيسة بروتستانتية ومعبد يهودي والميناء. وعادت الإسكندرية إلى عادة إطفاء الأنوار ليلا[62]. زعم إيدن أن بريطانيا لم تكن في حالة حرب مع مصر، بل «حالة نزاع مسلح» فقط. لكنها في حقيقة الأمر فعلت في مصر ما خاضت حربين عالميتين من أجل إيقاف ألمانيا عن فعله في أوروبا، وهو تحديدا القصف والغزو والاحتلال.

تكشف الأوراق التي جمعها مايكل باركر مدى تأثير أزمة السويس في عائلة بريطانية واحدة في الإسكندرية. كانت الشرطة جيدة جدا، وكان مزاج المدينة لطيفا جدا، لدرجة أن مايكل باركر في أثناء الهجوم الإنجليزي-الفرنسي «تمشى خلال شوارع المدينة من دون أن يعيقه أحد، على رغم مظهره الإنجليزي الواضح». وظلت جوسا فيني Josa Finney تجوب المدينة بسيارتها الرولز رويس[63]. ومع ذلك، فإن «السويس» قضت على الإسكندرية البريطانية والفرنسية واليهودية،

وقضت معها على أنطوني إيدن، إذ دمره هوسه بمصر، تماما كما دمر لويد جورج هوسُه بتركيا(*).

وفي السادس من نوفمبر، طُلِب من خمسة عشر ألف بريطاني- ثلثاهم من قبرص ومالطا- وعشرة آلاف فرنسي وآلاف كثيرة من السكان اليهود أن يغادروا مصر، مع إعطاء كبار السن والمتزوجين/المتزوجات من مصريات/مصريين أو حاملي الجنسية المصرية فقط الحق في البقاء. وصودرت الحسابات البنكية والممتلكات. فجأة تحولت الجنسية التي وفرت الحماية لهؤلاء الناس طوال حياتهم، إلى مصدر بؤسهم، إذ حرمتهم من بيوتهم وأموالهم وشركاتهم، ما حوّل الكثيرين من برجوازيين إلى شحاذين[64]. وفي التاسع من نوفمبر، كتبت ماري دي زغيب: «ركود تجاري في البلد. عمليات المصادرة في كل مكان تقريبا، بحق الإنجليز والفرنسيين واليهود وجنسيات أخرى»[65].

سرعان ما تحولت يوميات ماري دي زغيب إلى شيء أشبه بنهاية الأوبرا. كان الممثلون يغادرون إلى لندن وباريس وروما وأثينا. خاف الكثيرون من ألا يوافقوا على طلب السلطات المصرية بالتوقيع على وثائق تثبت أنهم كانوا يغادرون بملء إرادتهم. ساعد الأصدقاء في إنقاذ ممتلكات بعضهم البعض، واكتشف الكثيرون أن الخدم الذين يرسلونهم إلى الخارج بحقائب منتفخة بممتلكاتهم هربوا بها[66]. كانت ردهة فندق سيسيل أشبه بمحطة سيرك بيكاديللي في مترو لندن في ساعة الازدحام، إذ يتحرك الناس في مكانهم سأما في انتظار المغادرة. غير أن قليلين فقط يريدون المغادرة حقا، حتى إن سيدة منهم عندما أُخبِرت بأنها يجب أن تسافر على السفينة التي ستبحر في الصباح التالي، أجابت «إنني كسيدة لست مستعدة للمغادرة في الصباح. سأكون أجمل في المساء»[67].

[10 ديسمبر] وداع مارغوت أدلر Margot Adler. حشود في فيلا ماكس رولو Max Rolos.

[11 ديسمبر] وداع عائلة ماكس رولو. ماكس مكتئب جدا. إيفون شجاعة جدا. كلنا مدمرون.

(*) بعد احتلال إسطنبول، كان رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج من أنصار تحويلها إلى مدينة دولية وأيد اليونان في توسعها على حساب تركيا، لكن جيش التحرير التركي القادم من الأناضول بقيادة مصطفى كمال بانتصاراته المتوالية على اليونان اضطره من دون حرب إلى توقيع اتفاقية للجلاء عن المدينة وعن الأراضي التركية، بعدها سحبت الثقة من حكومته واستقال ولم يشغل بعدها أي منصب سياسي. وبالمثل دمرت حرب السويس شعبية أنطوني إيدن- وصحته أيضا- ما أدى إلى استقالته في العام التالي. [المترجم].

[13 ديسمبر] وداع جوزيف توبي Joseph Tuby. وداع مدام سيسي أحمد Sisi Ahmed. وداع روز Rose وهي مرهقة للغاية [احتجزت لساعات في مكتب الجوازات]. وداع عابر لراي إرزي Ray Erzi.

[14 ديسمبر] وداع بيني توبي Benj Tuby. رافقت ويني Winnie روز على متن السفينة، كل شيء على مايرام. أخذت لآلئها التي أرادت تركها معي.

وصف مايكل باركر آلية الطرد التي اتبعت على هذا النحو: «جاءني شرطي بجلباب مدني سادة» ومعه أمر مكتوب لعائلته بأن تحضر إلى المحافظة، وهناك أُمِروا بأن يذهبوا إلى مكتب الجوازات ويقدموا طلب الحصول على تأشيرة خروج، وكانت التأشيرة سارية لأسبوعين ومختومة بالعبارة «غير مسموح بعودته». وكان الحارس القضائي للحسابات البنكية للأعداء قد أصدر شيكا لشركة شحن بأجرة الرحلة. احتفظ باركر بإحدى الوثائق (مكتوبة باللغة الإنجليزية تحت النص العربي):

وزارة الداخلية، 25 أ

إلى السيد هنري ألوين باركر

نظرا إلى الوضع القائم، تنصحكم وزارة الداخلية بمغادرة البلاد بأسرع ما يمكن. ستوفر لكم مصلحة الجوازات كل التسهيلات اللازمة. برجاء اتخاذ اللازم لتنفيذ المطلوب.

اللواء مفتش مباحث الإسكندرية[68].

على خلاف سميرنا، جرت المغادرة سلمية عادة، إذ لم تشهد عنفا، وإن حدث القليل من النهب. ولم تشهد الإسكندرية في أي مكان هجمات من الغوغاء، كما حدث في إسطنبول في سبتمبر 1955 عندما هوجم- بتشجيع حكومي لحث الشركات التجارية المملوكة للأقليات على الرحيل- أكثر من خمسة آلاف من ممتلكات المسيحيين وثمانين كنيسة، وغُطي شارع بيرا الكبير بالزجاج المهشم والمفروشات المنهوبة، وأُعلِنت الأحكام العرفية[69]. ففي الإسكندرية نفذ العملية مسؤولون حكوميون كانوا كرماء في كميات المنقولات التي سمحوا بخروجها مع المطرودين. وحتى داخل الحكومة، كان هناك رفض للطرد. من ذلك أن محافظ الإسكندرية أخبر هنري ألوين باركر بأنه يستطيع أن يرجع بعد بضعة أشهر. وثمة مسؤولون آخرون

فضلوا احتجاز الأجانب- كما حدث في الحرب العالمية الثانية - بدلا من طردهم. وكان رجال الشرطة يبكون على رصيف الميناء[70].

وجد هنري ومايكل باركر أن الأموال في حساباتهما البنكية أصبحت ملك الحكومة المصرية. ساعدهم تشارلز دي زغيب ابن ماري في ترتيب بيع خرطوش بنادق وخمور كانت في بيوتهما لتمكينهما من دفع مكافأة نهاية الخدمة لخدمهما. وبعد أن ودعوا موظفيهم في الرابع عشر من ديسمبر، غادرت عائلة باركر مدينتها في اليوم التالي على متن سفينة إس إس إسبيريا SS Esperia التابعة لشركة أدرياتيكا، وهي السفينة عينها التي كانت في السابق تأخذ السكندريين في عطلاتهم، ها هي تأخذهم إلى المنفى. وفي التاسعة من صباح التاسع عشر من ديسمبر 1956، وصلوا إلى البندقية ومعهم عشرة جنيهات مصرية وخمسة وعشرون صندوقا وبقايا من المنقولات. وهناك كان أحد أبناء عمومتهم ينتظرهم على رصيف الميناء المغطى بالثلوج بمال وتذاكر نوم إلى لندن.

«بالنسبة إلى عائلة باركر كانت تلك نهاية الحياة كما عرفوها على نحو مائتي عام في تركيا ومصر، إذ عاشت خمسة أجيال تقريبا في الإسكندرية» كما كتب مايكل باركر. كانت وطنية معظم السكندريين البريطانيين شديدة لدرجة أنهم لم يلوموا بريطانيا- كتابة- على طردهم أبدا، على رغم أن مايكل باركر اشتكى من أن وزارة الخارجية من خلال التلاعب بأسعار الصرف، تربحت من التعويضات التالية (التي صُرفت من الودائع المصرية التي احتجزت في لندن، تماما كما صُرفت تعويضات لبريطانيي سميرنا على خسائرهم في العام 1922 من الودائع التركية التي احتجزت في لندن). ما هذه «البلاد الرطبة الغريبة التي تسمى إنجلترا!»، هكذا كانت صدمة الكاتب المسرحي كرستوفر هامبتون Christopher Hampton الذي عمل أبوه في شركة الاتصالات السلكية واللاسلكية بالإسكندرية، وهي الصدمة التي شاركه فيها الكثير من السكندريين البريطانيين لدى وصولهم إلى أرض بلدهم الأم التي يتحدث الناس فيها همسا في الأماكن العامة، ولا تعوّض سيادة القانون فيها أبدا ما يسودها من كآبة وتزمت وتحفظ[71].

كان من بين الآخرين الذين غادروا الإسكندرية في تلك السنة أيضا تيودور هورويتز Theodore Horowitz، الصائغ السابق للملك، وسيستوفاريس

Sistovaris، تاجر الفراء الذي انتقل إلى جنيف، وفيكتور ليمان من محل جانسين، الذي زخرف الكثير من البيوت السكندرية[72].

بفضل تعدديتهم اللغوية، ازدهر السكندريون في الخارج في مجالات السياحة والشحن البحري والأزياء والديبلوماسية. عمل مايكل باركر في الشحن البحري. وتردد هو وأبوه كثيرا على مصر لتصفية ممتلكاتهم وأعمالهم التجارية. وأخيرا أغلقت شركة باركر وشركاه في العام 1978 «بعد مفاوضات مطولة مع المنظمة البحرية المصرية ودفع كل مستحقات نهاية الخدمة للموظفين». بيعت لحكام مصر الجدد في الشرطة والشرطة السرية والجيش على التوالي، بثمن بخس، أملاك عائلة باركر الثلاثة في الإسكندرية: في شارع العباسي وشارع رشدي في الرملة وشارع فندريل، وهو نفس ما حدث مع أملاك المطرودين الآخرين من الإسكندرية[73]. أما المقتنيات التي استطاع مايكل باركر أن يأخذها أو يقنع ديبلوماسيا سوفييتيا صديقا بتهريبها له من الإسكندرية (ومنها واحدة من علب السعوط الخاصة بالملك فاروق التي اشتراها من مزاد للمقتنيات المَلَكية في العام 1954)، فقد سرقها اللصوص في لندن في العام 1977. وبعد أن مات باركر في العام 1999، أُقيمت الصلاة عليه في لندن، بينما أحرق رماده حيث هجع قلبه في الإسكندرية، في مقابر العائلة في الجبّانة البروتستانتية القديمة في الشاطبي[74].

وفي العام 1956، أُعيدت تسمية فيكتوريا كوليدج إلى فيكتوري كوليدج [مدرسة النصر]. حاول المدرسون المصريون الجدد الذين كانوا في معظمهم طلابا سابقين فيها وكانوا «بريطانيين أكثر من البريطانيين»، أن يحافظوا على المدرسة كما كانت قبل أن يرحل الموظفون البريطانيون، لكنها اليوم مصرية كليا[75]. وتحول البنك العثماني في مصر إلى بنك الجمهورية. وبقيت بعض المجوهرات والأموال النقدية آمنة في خزائن البنك بلندن لعقود بعد أن جمدت الحكومة المصرية حسابات أصحابها في العام 1956[76]. أما المؤسسة الباقية الأخيرة من الإسكندرية البريطانية فهو اتحاد مدارس الإسكندرية Alexandria schools Trust الذي تأسس في العام 1972. ولاتزال أموال التعويضات التي تحملتها الحكومة البريطانية تساعد في دفع رواتب المدرسين الإنجليز في المدارس البريطانية السابقة في مصر والسودان من خلال هذا الاتحاد.

غير أن السكندريين المغادرين لم يختاروا بالضرورة أن يذهبوا إلى بلاد إخوتهم في الدين. فلم يكن العرق أو الدين أساسين في حياتهم كما قيل. إذ فضل الكثيرون منهم كندا أو فرنسا أو بريطانيا على أراضي «جذورهم»: إسرائيل أو اليونان أو لبنان[77]. «كان طبيعيا أن نكون فرنسيين، فنحن نتحدث الفرنسية فقط في البيت»، على نحو ما يتذكر أندريه ليفي Andre Levy من عائلة يهودية من سميرنا والإسكندرية انتقل إلى باريس في العام 1954، الذي غيّر لهجته المشرقية في ثلاثة أيام لتفادي سخرية الطلاب الآخرين في كليته[78]. وإذا كان من اليهود المصريين من ذهبوا إلى إسرائيل، فقد وجدوا- كما يكتب بعضهم حاليا في مذكراتهم- بلدهم الجديد «قذرا» أو «ليس سكندريا بما يكفي»، ووجدوا مواطنيهم الجدد أقل ودا ودفئا من جيرانهم المسلمين والمسيحيين في مصر. بل إن بعضهم رفع راية «المشرقية» Levantinism بديلا من الصهيونية[79]. حتى نيويورك بدت لهم أقل سحرا وجاذبية من القاهرة أو الإسكندرية[80]. وفزع الكثير من اليونانيين السكندريين من اليونان الحديثة، تلك «الكذبة الكبيرة» على حد وصف واحد من بقايا الإسكندرية، كما فزعوا من اليونانيين الذين وصفهم آخر بأنهم «ليسوا لطفاء بالمرة». وأبدى بعض السكندريين انطباعات مماثلة نحو لبنان[81].

كانت الإسكندرية تفقد رأسمالها البشري والاقتصادي والثقافي. بعد العام 1956، كانت المدينة تحوي فيلات تشبه السفن المهجورة: مغلقة بمصاريع، وخاوية على عروشها، وقد تُرِكت الصور العائلية على الطاولات. من ذلك على سبيل المثال أن محمد الفايد الشاب المولود في حي الأنفوشي الفقير بالإسكندرية في العام 1929، عاش في فيلا بريطانية مهجورة، وبدأ عمله التجاري بصفقات مع جار سعودي يدعى عدنان خاشقجي ورجل الأعمال اليهودي ليون كاراسو Leon Carasso الحامل للجنسية البريطانية الذي كان في حاجة إلى مصري كواجهة له. ومع ذلك، فقد آثر الفايد هو الآخر أن يغادر الإسكندرية[82].

بيعت مقتنيات الإسكندرية بأثمان بخسة. ففي يوليو وسبتمبر 1959 على سبيل المثال، وفي قاعة بشارع فؤاد، باع جورج فاسيلوبولوس Georges Vassilopoulos بالمزاد محتويات فيلا سيزار أغيون Cesar Aghion وفيلا مدام لينا غابريال أغيون Madame Lina Gabriel Aghion الواقعتين في شارع الفراعنة. شملت المقتنيات

قطع أثاث فرنسية موقعة من القرن الثامن عشر، و«مجموعة مهمة جدا من خزفيات مينغ الصينية»، وكذلك خزف دريسدن وويدغود، ومفروشات غوبلينية وسجاد سافونير من الصالونات الكبيرة والصغيرة(*). وبيعت مجموعة مائدة برلينية مكونة من مائة وثماني قطع بثمانمائة وخمسين جنيها مصريا[83].

وفي العام 1958، أدمجت البلدية المنتخبة في وزارة الداخلية، بعد أن ظلت تفقد استقلاليتها منذ العشرينيات. وفي العام 1961، جاءت الضربة النهائية مع عمليات نزع الملكية أو مصادرة معظم الأعمال التجارية والممتلكات والحسابات البنكية الخاصة الباقية، مصرية كانت أم أجنبية. إذ أدت المكاسب التي حققتها الدولة في العام 1956 إلى شحذ شهيتها. وربما وجد عبدالناصر تشجيعا على ذلك أيضا من حليفه الجديد الاتحاد السوفييتي، أو بدافع الغضب من انهيار الجمهورية العربية المتحدة التي وحّدت سورية ومصر، إذ يقال إن أحد أفراد عائلة سرسق أقام حفلة عندما انهارت الوحدة(**). وربما نبع الحماس المفاجئ للتأميم من الكتب التي كان عبدالناصر يقرأها. وعموما، كانت سياسة الرجل متقلبة. وأحيانا أُعيدت الأملاك المصادرة، وأُعيد لبعض البريطانيين بيوتهم في العام 1959.

وعلى رغم سجل عبدالناصر وخطاباته التي تلعن الأغنياء، فقد أقنع معظم المصريين والسوريين واليونانيين أنفسهم بأنهم سيفلتون. تقول دافني بيناكي Daphne Benaki «كنا نرى الإسكندرية جنة، ونرى أنها لا يمكن أن تُباد»[84]. لكن في التاسع عشر من يوليو 1961، أُغلقت البورصة. وفي الثالث والعشرين من يوليو، وصلت أخبار عن قائمة بعمليات المصادرة في فترة الاستراحة في أثناء عرض فيلم «الأجراس تدق» Bells are Ringing على مسرح محمد علي. وبدأ الجمهور المذهول في مغادرة المسرح. وفي نادي السيارات Automobile Club في ذلك المساء، ساد صمت غير طبيعي، إذ كان «الناس يتكلمون همسا، ولم تخرج ضحكة من أحدهم، ولا سَكِر أحدهم. فلم نكن نعرف مع من يمكن أن نتكلم، ولذلك لم

(*) ويدغود Wedgood ماركة خزف وبورسلين شهيرة تنتجها شركة تأسست في نيويورك في العام 1759؛ سافونير Savonnerie مصنع سجاد شهير في باريس تأسس في أوائل القرن السابع عشر. [المترجم].

(**) كأن المصادرة كانت عقابا للرأسماليين في مصر على دور نظرائهم في سورية الذين كانوا وراء الانفصال. [المترجم].

نتكلم مع أحد»، كما يقول أحد شهود العيان[85]. هكذا انتهت الإسكندرية، ليس بحركة مفاجئة أو تشنج مما يسبق الموت عادة، وإنما بمرسوم رئاسي.

أصبحت الأحداث في يوميات ماري دي زغيب للعام 1961 أشبه بضربات عصابة تخريبية:

> [1 أبريل] يمكنك أن تعرف أن الإيطاليين وغيرهم يغادرون من قلة الناس في الكنائس. يرحل الكثير من الناس. اليهود متشائمون جدا.
>
> [21 يوليو] تأميم كل المصانع: الشركات والأخشاب والسجائر والمكائن والبنوك والأسهم وشركات التأمين. حالة من الرعب.
>
> [22 يوليو] خطاب الرئيس: تحقيق المساواة بين ثروات الجميع لمصلحة العمال والفلاحين. أقواس نصر، وأنوار زينة!
>
> [23 يوليو] لنش أغامي Lunch Agami، سلفي أليس بول Sylvie Alice Paul، الجميع متشائمون.

وفي السادس والعشرين من يوليو، فُرِض حد أقصى جديد لحيازة الأراضي، هو مائة فدان (نحو مائة وأربعة هكتارات) للشخص الواحد.

> [31 يوليو] فصل السفرجي. يتخلص جميع الناس من الخدم والسائقين.
>
> [29 سبتمبر] تعلن سورية تسمية الحكومة الانفصالية الجديدة. عبدالناصر في الإذاعـة: سأظل مع الوحدة العربية. الشعب معي. إنهم مجموعة صغيرة من الرأسماليين الذين يعادون تشريعاتي.
>
> وفي السابع عشر من أكتوبر وحده، صُودرت ممتلكات أربعمائة واثنين وعشرين شخصا آخرين، وسُجِن سبعة وثلاثون.
>
> [18 أكتوبر] كلام عن إغلاق نادي محمد علي. عدد الأعضاء قليل جدا ولا توجد أموال كافية. زد [زوجها] يكون وحيدا هناك غالبا عندما يذهب بعد الظهر.
>
> [26 أكتوبر] أناس أكثر وأكثر مذعورون. كثيرون يرحلون. جرت مصادرة ممتلكات اليهود أكثر من غيرهم[86].

وعلى ذلك، فحتى بعد الغزو الإسرائيلي في العام 1956، ظل الكثير من اليهود الحاملين للجنسية المصرية أو غيرها قادرين على البقاء في مصر.

إن العدد الإجمالي للأشخاص الذين تعرضوا لمصادرة الممتلكات أو التأميم غير معلوم. وعموما فإن الكثير من رجال الأعمال لم يتعافوا من صدمة الوصول إلى مكاتبهم صباحا في العام 1961 ليجدوا ضباطا عسكريين يجلسون على مكاتبهم ويطلبون منهم أخذ متعلقاتهم الشخصية وتسليم مفاتيح المكاتب والمغادرة في الحال: «لم يعد لك شيء تفعله هنا». ومن ذلك الحين كان للضابط المعيّن سلطة توقيع الشيكات من دفتر شيكات الشركة[87]. كان اليوم الذي طُرِد فيه تشارلز بولاد Charles Boulad مؤسس شركة الإسكندرية للاستيراد والتصدير من شركته، المرة الوحيدة التي رآه ابنه جو Jo يبكي فيها[88]. ومات الكونت عزيز دي صعب Comte Aziz de Saab، مالك صحيفة لاريفورم، في العام 1962، بعد ستة أشهر من مصادرة صحيفته وعقاراته الحضرية وأطيانه الزراعية الواسعة. وجاءته الضربة الأشد قسوة عندما تسلم خطاب بطرده من النادي السوري الذي كان رئيسه. إذ كانت أندية الإسكندرية عادة تطرد الأعضاء الذين يعتقدون أن النظام غير راضٍ عنهم. وأُغلِقت صحيفة لاريفورم في العام 1964[89].

لقد حلت نخبة محل أخرى: الضباط محل رجال الأعمال. أحس أولئك الذين صودرت شركاتهم أو أُمِمت أن الضباط المعينين لإدارتها كانت تغلب عليهم اللامبالاة أو الجهل أو الجبن. خُرِبت الشركات، ودُمِر الاقتصاد المصري الذي كان حيويا في الأربعينيات وأوائل الخمسينيات على يدي الدولة. و«نتيجة لذلك لم يجد كل الأجانب تقريبا بديلا من مغادرة مصر» بتعبير مايكل باركر، وعلى الأخص التجار والحرفيون. بينما كان آخرون أكثر بلادة، إذ «كانوا يعرفون فقط كيف يملأون جيوبهم»، كما يقول أحد السكندريين[90].

في كل يوم، كانت ماري دي زغيب تكتب أسماء مزيد من الناس الذين غادروا المدينة «نهائيا»: كوريمي وبيناكي وسيفاستوبولو Sevastopoulo وكاتزفليس Catzeflis وكولوتشي Colucci وسلامة Salama[91]. كان من بين رجال الأعمال الذين اعتُقلوا أحمد عبود وخليل سرسق وفرغلي باشا وأفراد من عائلتي سموحة

وعدس. وأُخِذت من الكثيرين منهم جوازات سفرهم المصرية. وإجمالا، وفق تقدير لروبرت تينور، دفعت الحكومة المصرية نحو ثلاثمائة وواحد وعشرين مليونا في أصول تساوي ستمائة وواحد وثمانين مليونا(*). ويرى تينور أن هجوم الدولة على الملكية الخاصة (مثل تأميم قناة السويس) كان أكثر من مجرد نزوة مفاجئة من الرئيس، بل حُضِّر له طويلا[92].

***

تحولت مصر في عهد عبدالناصر إلى دولة بوليسية، وإن كانت أقل قسوة من دول أخرى، وإن كانت أحكام الإعدام فيها نادرة. ومع أن المنقولات المسموح بخروجها كانت كبيرة، فقد أصبحت هناك قيود على السفر والصادرات ورقابة وتنصت على الهواتف وإبلاغ المواطنين بعضهم عن بعض وعمليات اعتقال ليلية وسجون منتفخة ومعسكرات اعتقال للشيوعيين والإخوان المسلمين. يتذكر أحد المصريين أنه «كان من الممكن أن تكون الخادمة أو البواب أو البائع في الشارع يتجسسون عليك»[93]. ضاق السكندريون باضطرارهم إلى السفر إلى القاهرة لإجراء معاملاتهم الورقية في بناية المجمع الحكومي الهائلة بميدان التحرير. وأصبحت الهجرة صعبة، حتى على أولئك الذين يستخدمون «وسيطا» لمساعدتهم في اجتياز الجمارك بالرشى في الأماكن الملائمة. سُمِح لكثيرين بأن يأخذوا كميات كبيرة من المنقولات. بيد أنه قد أُخِذت من البعض أشياء ثمينة حتى بعد أن صاروا على متن السفينة[94]. وبعد فترة طويلة من الخروج من البلاد، ظل بعض المصريين يتحدثون همسا بعد أن غُرِس فيهم الخوف من الجواسيس[95].

أسهم أربعة زعماء قوميين في تدمير الإسكندرية: إيدن وموليه وبن غوريون (رئيس الوزراء الإسرائيلي في العام 1956) وعبدالناصر. فمن خلال مهاجمة مصر، ساعد موليه وإيدن في تدمير «القوة الناعمة» البريطانية والفرنسية هناك، وكذلك

(*) لعلها من سخرية القدر أو انتقامه أن تشهد العملية المقابلة للتأميم التي عُرِفت باسم خصخصة القطاع العام المصري إبان أواخر القرن العشرين فسادا أشد، لكن في الاتجاه المقابل، إذ جاء في تقارير الصحف وحيثيات أحكام المحاكم أن شركات القطاع العام بيعت في بعض الحالات بأقل من ربع قيمتها، وكأن القدر ينتقم لأصحاب الشركات والممتلكات التي أممت وصودرت، لكن للأسف لمصلحة رجال أعمال غير الذين أسسوها في البداية، وإن كان تكوين هذه الثروات من البداية لم يخلُ من الفساد والاستغلال. [المترجم].

تدمير مدارسهم وأعمالهم التجارية. وساعد بن غوريون في القضاء على ما أسماه أحد اليهود المصريين لاحقا «واحدة من أكثر الجاليات اليهودية حظوة وامتيازات في العالم»[96]. ومن خلال التخلص منَ الأغنياء وكثير من غير المسلمين، عزز عبدالناصر سلطة الدولة، لكنه على المدى البعيد ترك فراغا للحركة الإسلامية التي حاربها، فراغا شكّل تهديدا بدفن مصر الحديثة التي أراد عبدالناصر من دون شك أن يبنيها.

يعكس تراجع الإسكندرية نمطا عاما ومحددا في الوقت عينه. فالدول تسعى إلى إخضاع المدن، تماما كما يريد السجانون حبس السجناء. وقد تكبدت الإسكندرية شكلا أخف من مصير فلورنسا التي قضى البابا والإمبراطور كارلوس الخامس عليها بوصفها دولة مدينية في العام 1530(*)، ومصير باريس التي عاقبها الجيش الفرنسي في العام 1871 على عقود الراديكالية السابقة، ومصير سميرنا في العام 1922. خلاصة القول إن المنطقة الداخلية نجحت أخيرا في كبح سواحلها.

***

كانت الإسكندرية في السابق رمزا للحداثة. وصفها دليل سياحي يرجع إلى العام 1938 بأنها «تتحسن سريعا وباستمرار في النظافة والرفاهية وفي كل أوجه التقدم الحديث»[97]. لكنها في الأعوام 1956-1963 فقدت حريتها وأناقتها، في الوقت نفسه الذي حققت فيه شهرة عالمية في الحرية والأناقة بفضل رواج «رباعية الإسكندرية» للورنس داريل، التي نُشِرت في الأعوام 1957-1960، لكن أحداثها تدور في أثناء العنفوان الكوزموبوليتاني قبل العام 1945. لا تشكل الرباعية رسالة حب في الإسكندرية ونسائها فقط، بل رواية سياسية أيضا. إذ يتمثل أحد موضوعاتها المركزية في تصميم الأقليات مع ضعف «قبضة» فرنسا وبريطانيا على ألا «يبتلعهم المد العربي والمد الإسلامي»[98].

زاد سقوط المدينة من سحرها. غدت الإسكندرية مثل نابولي بعد سقوط المملكتين الصقليتين في العام 1860، مدينة فقدت دورها. ففي العام 1963 كتب

(*) الدولة - المدينة أو الدولة المدينية city-state، كيان سياسي مستقل أو قائم بذاته، يتكون إقليمه من مدينة واحدة فقط، أو مدينة واحدة كبيرة وملحقاتها، من أمثلتها التاريخية المدن السومرية في بلاد ما بين النهرين مثل بابل وأور، ومدن كنعان الفينيقية مثل صور وصيدا، ومن أشهر أمثلتها التاريخية المدن اليونانية مثل أثينا وإسبرطة وثيفا وكورنث، ومن أمثلتها المعاصر إمارة موناكو وسنغافورة والفاتيكان. [المترجم].

الصحافي ديفيد هولدين David Holden أن «الإسكندرية الأوروبية أصبحت تاريخا... مثل الجزائر وتونس أو لبدة الكبرى وقوريني(*)... وغدا دليل الهاتف الخاص بالإسكندرية أشبه بقداس مشرقي لأرواح الموتى». كانت حفلات وداع السكندريين المغادرين متكررة. وتحولت البورصة إلى مكاتب للحزب السياسي الحاكم، وتحولت حلقة محمد علي إلى مركز ثقافي حكومي.

كان كومت باتريس دي زغيب Comte Patrice de Zogheb يقيم عشاء خريجي إيتون السنوي في نادي الاتحاد وحفلات موسيقية ومسرحيات على مسرح في بيته(**). وها هو لم يعد يفعل شيئا غير تشغيل أسطوانات «المسيح المنتظر» يوم الأحد بعد الظهر(***). ظل مقهى بسترودس «مصدرا لسلوى موجعة»، لكن صديقا يونانيا صاح فجأة: «انتهى! كل شيء انتهى! نحن الليلة مؤرخون. فنحن حاليا نتحدث عن التاريخ فقط»[99].

أيّد يونانيو الإسكندرية عبدالناصر في العام 1956، لكنهم لم يؤيدوا سياساته الاقتصادية اللاحقة. تحوّل اسم المستشفى اليوناني إلى مستشفى جمال عبدالناصر. وغادر المطرب ديميس روسوس Demis Roussos وأبواه في العام 1961. وعلى رغم توجهه الاشتراكي، غادر في العام 1963 استراتيس تسيركاس Stratis Tsirkas مؤلف رواية مشرقية أخرى بعنوان «مدن في مهب الريح». وفي العام 1962 أُغلِقت شركة القطن الدولية الكبيرة المملوكة لعائلتي كوريمي وبيناكي التي تأسست في العام 1875. واضطر حفيد أحد المؤسسين، هو جان كوريمي Jean Choremi، إلى أن يتخفى في سفينة لكي يرحل عن مصر. كان أهم ما احتفظ به جان من حياته في الإسكندرية، ما أسماه وهو جالس في بيت العائلة في جزيرة خيوس، الذي كان بمنزلة متحف حي لعائلة سكندرية: «مقت شديد للعرب»[100].

(*) لبدة الكبرى Leptis Magna، مدينة قديمة على ساحل ليبيا تقع على مصب وادي لبدة على بعد ثلاثة كيلومترات من مدينة الخمس التي تبعد مائة وعشرين كيلومترا شرق طرابلس، كانت من أهم مدن شمال أفريقيا في زمن الإمبراطورية الرومانية، والمدينة مدرجة حاليا ضمن مواقع التراث العالمي. وقوريني أو قورينا أو سريني أو شحات Cyrene، مدينة قديمة تقع في وادي الجبل الأخضر شرق ليبيا على بعد عشرة كيلومترات من مدينة البيضاء، شيدها اليونانيون وكرسوها لعبادة أبولو، عُرفت بفضل حضارتها وأهميتها باسم «أثينا الإفريقية». [المترجم].

(**) راجع حاشية سابقة حول إيتون كوليدج. [المترجم].

(***) المسيح المنتظر Messiah، موشحة دينية موسيقية ألفها جورج فريدريك هاندل George Frideric Handel في العام 1741 ومعها نص من الكتاب المقدس، أديت لأول مرة في 13 أبريل 1742، وعلى رغم استقبالها المتواضع، أصبحت لاحقا من أكثر الموشحات والأعمال الكورالية شهرة وأداء في الموسيقى الغربية. [المترجم].

انتقل بعض اليونانيين السكندريين إلى أثينا. وتحت صورة كفافيس الحاضر دائما، لاتزال جمعية اليونانيين من مصر في أثينا Association of Greeks from Egypt in Athens تستخدم طهاة مصريين لطبخ أكلات مصرية مثل الفول والفلافل لليونانيين من مصر. كان المنفيون يونانيين جاءوا من مصر، بينما أُطلِق عليهم في اليونان وقبرص اسم اليونانيين المصريين Egyptiotes[(101)]. أنشأ مانوس خارياتيس Manos Hariatis الأرشيف الأدبي والتاريخي الهيليني المعروف اختصارا باسم إليا Elia [الاختصار من الاسم اليوناني] في شارع سانت أندرو في أثينا في العام 1980. وإلى جانب كونه أرشيفا خاصا لخارياتيس فقط، مثل أرشيف كفافيس، فقد أضيفت إليه حاليا أرشيفات مؤسسات سكندرية مثل البطريركية الأرثوذكسية والجالية الهيلينية[(102)]. لقد أُمِّم تاريخ الإسكندرية، كما أُمِّمت شركات السكندريين.

وبالمثل بدأت النخبة الإسلامية القديمة، التي كانت تخيف عبدالناصر أكثر من غيرها، ترحل هي الأخرى. وأُزيلت الأسماء المَلَكية عن الشوارع، على رغم أن معظم السكندريين لايزالون يستخدمون اسم شارع فؤاد بدلا من شارع الحرية. فرحلت أغلب العائلة المَلَكية إلى أوروبا. ولم يرجع الأمير سعيد طوسون من عطلته الصيفية إلى فرنسا في العام 1952، وحل محله محافظ المدينة رئيسا لنادي سبورتنغ. ونقلت الحكومة قبور أبيه الأمير عمر طوسون وسلفهم سعيد باشا من الجامع الكائن بشارع النبي دانيال. وفي العام 1966 نُزِع تمثال الخديو إسماعيل على الكورنيش من رواقه وحل محله «قبر الجندي البحري المجهول»، ولايزال الموقع يشهد احتفالا عاما سنويا في السادس والعشرين من يوليو[(103)]. ويقال إن حكومة عبدالناصر انتوت أيضا أن تنزع تمثال محمد علي مما أُعيد تسميته في عهد عبدالناصر بميدان الحرية(*).

حاول علي باشا يحيى بن أمين باشا يحيى أن يستميل الضباط، وهو ما فعله نفسه رجال أعمال آخرون. كان من هؤلاء الضباط صلاح سالم، الذي

(*) فيما يتعلق بسياسة نظام عبدالناصر مع المشرقيين الأجانب والرأسماليين عموما الذين استغلوا المصريين أكثر من قرن ونصف القرن، وليس بمجمل سياساته في الاقتصاد وإدارة الدولة والسياسة الداخلية والخارجية، لا ريب أنه في مقابل هذه الرؤية توجد رؤى لا تحصى تحتفي بما فعله عبدالناصر بوصفه انتقاما عادلا. وإجمالا، فإن الرؤية التي يقدمها الكتاب الحالي تسهم في ترشيد تقييم دولة عبدالناصر، على الأقل بوضع وجهة نظر المطرودين والمصادرة ممتلكاتهم في الحسبان. [المترجم].

استضافه علي يحيى على العشاء في غرفة طعام فخمة في بيت العائلة في زيزينيا لم تكن تستخدم إلا للمناسبات الخاصة. رمى الرائد عظام الدجاجة التي يأكلها من فوق كتفه على الأرض، فقلدته مضيفته بتأدب. وأخيرا، غادر علي يحيى مصر في العام 1959، وتقلصت الإمبراطورية التجارية للعائلة إلى ممتلكات يصعب انتزاع إيجارات منها. وبيع بيت العائلة في زيزينيا، وكالمعتاد في مثل هذه الحالات هُدِم لكي تحل محله ثلاث عمارات سكنية. يعيش ابنه في كاليفورنيا حاليا[104].

***

في العام 1965 كان الرحيل عن المدينة بالسفر وعن العالم بالموت يوحيان بنهاية عصر. ففي السادس من يوليو حاولت أرجيني سلفاغو في عمر الثامنة والسبعين أن تغادر بخمس وثلاثين حقيبة أمتعة. لكنها أُوقِفت في الجمارك عندما وجدوا سوارا ذهبيا في حقيبة خادمتها واحتُجزت ست عشرة ساعة على رصيف الميناء بلا طعام، إذ لم يسمح لها بالعودة إلى البيت إلا في الثالثة من صباح اليوم التالي. وأخيرا - باستخدام الرشوة من دون شك - حصلت على إذن المغادرة بمعظم مقتنياتها من الأنتيكات الإسلامية. كتبت صديقتها ماري دي زغيب في يومياتها:

> [24 أغسطس] اتصال هاتفي بأرجيني. وداعا.
>
> [26 أغسطس] أرجيني غادرت. اتصال هاتفي. كنت في خارج المدينة[105].

أصبح بيت أرجيني سلفاغو قنصلية الاتحاد السوفييتي، وحلّت صور لينين وستالين محل الصور الموقعة للعائلات المَلَكية الأوروبية. ولو لم تشتره حكومة أجنبية لتحول إلى أطلال، كما حدث لقصور أخرى في الحي اليوناني. ماتت أرجيني في العام 1977، وتركت معظم مقتنياتها لمتحف بيناكي[106]. وانتهى المطاف بمقتنيات سكندرية عظيمة أخرى من الأنتيكات والخزف إلى متاحف خارج مصر: متحف فيتزوليام Fitzwilliam (مجموعة عائلة مِنَشًا) ومتحف فيكتوريا وألبرت Victoria & Albert (مجموعة عائلة فيني) والمتحف البريطاني (مجموعة رالف هاراري Ralph Harari). وتفرقت مجموعات أخرى من خلال المزادات، كما حدث مع

مجموعة عائلة أغيون، ما مكّن تجار الأنتيكات الدهاة أو السياح من شراء قطع سيفر ولاليك بأثمانٍ بخسة[107](*).

وفي السنة التي غادرت فيها أرجيني سلفاغو، مات ماكس دبانة عرّاب علم السكندريات Alexandrinology الذي يُعنى بدراسة الإسكندرية، والذي رأى ماكس أنه لا يقل أهمية عن علم المصريات Egyptology، عن عمر اثنتين وسبعين سنة. عاش دبانة في فيلا أمبرون Ambron التي سكنها لاحقا لورنس داريل، في حي محرم بيه، محاطا بحديقة من أشجار التين البنغالي. اعتبره أولاد زوجته «سوريا أحمق»[108]. كان يُرى في سنواته الأخيرة وهو يتمشى في شوارع المدينة التي أحبها واضعا كوفية حول رقبته وقبعة لبادية سوداء كبيرة على رأسه، تجسيدا «للعزلة المبهمة». ظل لسنوات يدير مجلة الجمعية الأثرية السكندرية Societe Archeologique d'Alexandrie. ومع أنه لم يكتب غير بضع دراسات، فقد جمع بين الأشياء والتذكارات في بيته، آلاف الملفات والدوسيهات حول الإسكندرية، مملوءة بملحوظات بخط يده المتصل الصغير. عندما ننظر إلى تركته «مرتبة ومزودة بملحوظات وموزعة بترتيب لا يعرف مفتاحه إلا هو»، على نحو ما ذكر ناعيه وكاتب سيرته بكلمات يمكن أن تنطبق على كثير من المؤرخين الآخرين، «يتملكنا إحساس مروع بموت ثان، ربما كان أشد قسوة من الموت الأول، وهو موت ذلك الكون الذي بناه بصبر وأناة في خياله». اشترت مكتبة الجامعة الأمريكية في القاهرة ثلاثة آلاف وثلاثمائة كتاب من كتبه، بينما ضاعت الملفات والدوسيهات[109].

***

تحسنت الحالة الصحية للناس بفضل تحسن التغذية والرعاية الصحية. بينما تدهورت الحالة الصحية للمدينة. ففي العام 1966 وجد جيمس موريس James Morris «المدينة المشرقية تلفها بذور الإهمال كأنها كانت آفة». أخبره

(*) اشتهرت مدينة سيفر Sevres الفرنسية بإنتاج الخزف الذي كان حتى أوائل القرن العشرين من الماركات المميزة ومقتنيات النخب على مستوى العالم. ولاليك Lalique، أعمال خزفية وآنية زجاجية من إنتاج مصمم الزجاج الفرنسي الشهير رينيه - جول لاليك Rene-Jules Lalique مثل الفنون الزجاجية وقنينات العطور والحلي والثريات وساعات الحائط. [المترجم].

بواب فندق سيسيل أن الماء يمكن أن يأتي «بعد ساعتين، ربما»[110]. وقد غُطيت جدران الفندق بشعارات سياسية. أما فوتيوس فوتاروس Photios Photaros رئيس النُّدل في مطعم الاتحاد الذي اعتاد أن يأتي بسيقان الضفادع من فرنسا بالطائرة، فقد غدا - أي فوتيوس - يأتي يوميا فقط لإطعام القطط التي تبعد الفئران[111]. إذ لم تكن هناك صيانة كافية. وبدت المدينة منهكة حتى إن زائرا سأل الأستاذة الجامعية عزة هيكل إن كانت المدينة خارجة من فورها من حرب[112].

***

كانت المحادثات في الإسكندرية تُستهجَن على طيشها وعبثها. فردا على رواية إحدى الناجيات من معسكرات الاعتقال النازية بأوشفيتز، قال ابن عمها السكندري: «لقد مررنا نحن أيضا بوقت عصيب بسبب نقص السكر»[113].

كان من الملحوظات الأخرى الأقل قسوة:

سرعان ما سترى أنه من السهل جدا ألا تفعل شيئا.

إن نساء الإسكندرية، مثل الرسامين، يتمتعن ببراعة وافية، لكن ينقصهن المزاج[114].

هل ترى هذين السوريين الأصلعين هناك؟ إن أحدهما يحب البحارة والآخر يحب الأحذية.

أما بعد العام 1961 فقد تغيرت النغمة:

عبدالناصر علّم المصريين أن يعتقدوا أنهم شيء، مع أنهم لا شيء، لا شيء، لا شيء!

لقد فقدنا كل شيء، كل شيء، كل شيء![115]

إننا نعيش في غابة. تتقاتل الوحوش الضارية على الفريسة[116].

ماذا في وسعي أن أفعل، وكيف يمكنني أن أترك أمي وهي ترفض رفضا باتا أن تغادر الإسكندرية؟

قبل الحرب، كانت هذه المدينة الأسعد في العالم.

وانظر إلى حالنا الآن!

ما الذي فعلناه حتى نستحق ذلك؟

ما الذي ستجلبه الأيام علينا[117].

رحل كل أصدقائي، إنها الآن أشبه بقرية.

أخذ النزوح الجماعي نحو مائة ألف سكندري بين العامين 1956 و1966، وهم هدية عبدالناصر الثمينة إلى الغرب: إلى ساو باولو أو سيدني، مونتريال أو ميلان، أثينا أو تل أبيب، لندن أو باريس. كان النجاح حليفهم على الإجمال. وقد شكلوا مجموعات، مثل «أولاد بحري [محبي الشاطئ] دي مونتريال Bahharines [Beach-Lovers] de Montreal» و«الإسكندراني من أستراليا the Skandarani from Down Under» و«المقيمون في ساو باولو les meteques de Sao Paulo»، كانت تجتمع تحت شمس أجنبية لألعاب الورق والعشاء وتبادل الذكريات. لم يتخلص كثيرون منهم من الإسكندرية. فـ«لا أحد ينسى الإسكندرية على الإطلاق»، كما كتبت جاكلين كوبر Jacqueline Cooper ابنة رجل أعمال بارز يدعى جول كلات Jules Klat تعيش حاليا في جنيف[118].

أضيفت بذلك إلى عبادة ماضي المدينة الهيليني والروماني عبادة أخرى هي «العصر الذهبي» للمائة عام 1860-1960. وفي حين فضل السميرنيون ألا يتحدثوا عن الماضي، فإن السكندريين لم يتحدثوا عن شيء غيره، ومازالوا يتحدثون. كتب كثيرون مذكرات أو روايات بعناوين مثل «وداعا الإسكندرية» أو «فقدان الإسكندرية» أو «الرحيل عن الإسكندرية». كان تأثير «رباعية الإسكندرية» كبيرا حتى إنهم أعادوا طباعتها كثيرا، باعتبارها ذكرياتهم ومشاهدهم وعباراتهم وقد سجلها داريل[119]. يحتل الطعام في ذكرياتهم أهمية الموسيقى نفسها في ذكريات السميرنيين. لم تحتوِ الإسكندرية مكافئا لمقاهي الكردون التي مزجت تقاليد موسيقية مختلفة، بل كانت الموسيقى الرائجة فيها غربية تقريبا(*). وفي مجلة أصدقاء الإسكندرية الأمس واليوم (Amicale Alexandrie Hier et Aujourd'hui; AAHA) يتحدثون بحماس عن الكعك بالعسل وسمك القاروس والفلافل. «تغير كل شيء، لكن بقيت الرائحة في أنوفنا، والطعم على شفاهنا،

(*) وفقا لفكرة تخصص المدينتين نفسها، كانت القاهرة في المقابل تطور الموسيقى العربية أو الشرقية منذ وقت مبكر مع موسيقيين من أمثال عبده الحامولي (1836-1901) وزوجته ألمظ (1860-1896) وسلامة حجازي (1852-1917) وغيرهم. [المترجم].

والذاكرة في قلوبنا» وفقا لكلمات موقع برازيلي باللغة الفرنسية على شبكة الإنترنت حول «حلويات الإسكندرية» les patissiers d'Alexandrie[120].

بيد أن الشتات الكبير الذي تعرضت له الإسكندرية لم يكن حتميا. فقد كانت العلاقات العرقية في أثناء التشتيت أفضل منها في العامين 1882 و1921. وكان المصريون يشاركون في الفوائد الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمدينة. ولم يكن هناك نزاع إقليمي قاتل بين دول كما في حالة سميرنا، ولا انفجار للكراهية الدينية كما في حالة الهند في العام 1947 الذي أدى إلى النزوح الجماعي المذعور للهندوس والمسلمين من المدن التي ظلت مختلطة في السابق. كما أن مصر لم تكن تشبه الجزائر، تلك المستعمرة التي أُسست منذ البداية على الاستيطان ونزع الملكية، ولذلك كان معظم الجزائريين في نهاية حرب الاستقلال في العام 1962 يريدون من الفرنسيين أن يرحلوا، ونُقِل أكثر من مليون فرنسي عبر البحر الأبيض المتوسط للعيش في فرنسا. أما في الإسكندرية، فكانت الأسباب الرئيسة للتمصير غير جوهرية، وهي أزمة السويس والاشتراكية.

***

بقي كثير من أعضاء النخبة القديمة في الإسكندرية بسبب تقدم السن أو الفقر أو العلاقات الجيدة مع النظام (من هؤلاء على سبيل المثال عائلتا قرداحي وسرسق اللتان لم تصادر ممتلكاتهما). وظلت الأميرة فوزية، آخر أخوات الملك فاروق الباقيات على قيد الحياة، تعيش (حتى العام 2010) في فيلا في الإسكندرية(*). وظل سائق فرغلي باشا يأخذه يوميا إلى نادي الإسكندرية الرياضي في سيارته الرولز رويس الخضراء الغامقة مرتديا الطربوش، رمز النظام القديم، وعمّر فرغلي طويلا حتى إنه حضر زفاف أبناء عبدالناصر واستشاره السادات حول سياسة الانفتاح الاقتصادي. وكان من المتبقين الآخرين ألكسندر بيناكي Alexander Benaki، الذي كان معروفا لعائلته باسم بوبوس Bobos

(*) توفيت الأميرة فوزية ابنة الملك فؤاد وشقيقة الملك فاروق وإمبراطورة إيران السابقة في 2 يوليو 2013 في القاهرة ودُفنت بمقابر العائلة بجوار زوجها الثاني إسماعيل شيرين. وعندما ماتت ابنة أخيها فوزية في سويسرا في 28 يناير 2005، نُشر خطأ أن إمبراطورة إيران هي التي ماتت، ونقلت الدولة المصرية جثمان فوزية ابنة فاروق لتدفن في المقابر الملَكية بالقاهرة بحضور شقيقها الأصغر الملك أحمد فؤاد الثاني. [المترجم].

الذي أقام لجون كراسويل John Carswell غداء إنجليزيا في العام 1964 في «قصره [تيودوري الطراز] وهو يرتدي بنطلونا رياضيا قصيرا من قماش التويد ويدخن البيبة»، ويصحبه كلبان صغيران. بقي ألكسندر في الإسكندرية جزئيا بسبب حبه للخيول[121].

كان أكثر المتبقين على قيد الحياة مرحا من بين النخبة القديمة هو برنار دي زغيب Bernard de Zogheb ابن زيكيت وماري دي زغيب المعروف بين عائلته وأصدقائه باسم بنتا Binta أو بنتا الصغير Little Binta (من الكلمة العربية «بنت»). فقد احتفظ برنار الذي صدمته سيارة وهو في عمر الثالثة عشرة، بينما كان يطارد الفراشات، بالجانب الطفولي في طبيعته. أحب الأصدقاء مرحه ولطفه: «ألطف إنسان عرفته على الإطلاق» و«الشخص الوحيد الذي سيبكي في جنازتي» كما قال أحدهم[122]. عمل برنار في شبابه سكرتيرا لسلاح الجو البريطاني إبان الحرب، وكوّن صداقات مع جنود وطيارين، زار بعضهم لاحقا في إنجلترا، لكن لم تكن له ارتباطات دائمة. وباءت جهود أمه لتزويجه بالفشل.

بعد الحرب، قضى برنار معظم وقته في الرسم ولعب لعبة سكرابل(*) وكتابة يومياته ومقالات عن الحفلات لمجلة لاريفورم المصورة La Reforme illustree. ابتكر شخصيات مثل هيزل هالوب Hazel Halloub وفارفالينا بيها Farfalina Piha (التي تخفي مؤخرتها الضخمة بارتداء فيونكة عليها)، حتى لا يغضب أحد من الأشخاص الحقيقيين الذين ذُكِروا ضمن الحضور في الحفلات التي كان يغطيها. ومثل كثير من السكندريين في محيطه، المسلمين والمسيحيين على حد السواء، كان برنار يتحدث الإنجليزية والفرنسية ويكتبهما بطلاقة، والإيطالية بدرجة جيدة، واليونانية بعض الشيء، لكنه لم يكن يعرف غير «ثلاث كلمات» من اللغة العربية، أخذها من المطبخ أو الكازينوهات القريبة من الميناء.

جمع برنار بين الشغف بتخليد الذات وما أسمته كاتبة سيرته هالة حليم «طريقة متفردة ومازحة جدا لعمل الأشياء». فقد جعل من كتب الكلمات المتقاطعة مخطوطات مزخرفة، إذ كان يملأ كل حرف في لغز الكلمات بلون مختلف

(*) سكرابل scrabble، لعبة من ألعاب اللوحات، يكسب اللاعب فيها نقاطا من بناء كلمات من حروف ذات قيم مختلفة وربطها بكلمات موجودة فعلا على اللوحة. [المترجم].

بقلم لبادي، ثم يسجل المكان الذي يذهب إليه الحرف، كأن يسجل «يتناول العشاء مع سام وأدريان في تشيلسيا»، ويغطي سطح كل صفحة وظهرها بالرسوم.

تجلى طيش زغيب في الأوبرات الهزلية التي كتبها باللغة الإيطالية المبسطة التي تميّز الخادمات السكندريات القادمات من شبه جزيرة إيستريا الإيطالية. تعد هذه الأوبرات القوس الأخير في شكل من اللغة المشتركة(*)، حيث الموسيقى حديثة، والشخصيات تحركها دمى. تسخر أوبرا الأخوات برونتي Le Sorelle Bronte من عبادة الأخوات برونتي بإظهارهن نساء طائشات نهمات للجنس والشهـــرة والمال(**). وتصف أوبرا «عشاء في باريس» Le Vacanze a Parigi أشخاصا يتناولون العشاء في مطعم برونييه Prunier يتخفون في المرحاض حتى لا يدفعون الحساب، ومدام لافابو Lavabo أميرة روسية. وتقدم أوبرا «الحياة السكندرية» La Vita Alessandrina فانتازيا حول كفافيس «الجبان والمختلس» الذي يلتقي بثلاثة من الملائكة في حانة ويشربون معا شرابا يدعى «بلاديميري» bladimeri. تفتح الأوبرا بمشهد بعنوان «في انتظار عائلة زِرفوداكي»، وهي محاكاة ساخرة لقصيدة كفافيس «في انتظار البرابرة»، حول حفلة شاي أقامتها والدة كفافيس، بينما تترفع هذه العائلة السكندرية الغنية عن حضور الحفل. أما أوبرا «الأقباط واللصوص» Copts and Robbers، فهي رواية لحفلة عشاء تبيّن رأي السكندريين في الكُتاب الذين يشكل السكندريون أنفسهم إلهاما لهم: وفيها يتضح أن وصفات كلوديا رودين Claudia Roden خطأ، وتظهر أوليفياماننغ «ساحرة صغيرة عابثة شريرة صوتها كالصهيل». كما قال زغيب عن داريل - وهو كلام يجافي الحقيقة - إنه «لم يعرف أحدا، وكان مجرد مدرس رقيق الحال»[123]. لكنه أحب روبرت ليدل الذي كرّس حياته لكفافيس (1977): إلى برناردي زغيب وأصدقاء سكندريين آخرين».

ولكي يهرب من عائلته، قضى برنار دي زغيب سنوات في الخارج، إذ عمل في باريس لوكالة الصحافة الفرنسية في كتابة تعليقات مصورة، وعمل كذلك مرشدا

(*) كانت اللغة الإيطالية هي اللغة المشتركة للمشرق وموانئه قبل أن تحل الفرنسية محلها. [المترجم].

(**) الأخوات برونتي Bronte، ثلاث شاعـرات وروائيـات إنجليزيـات أخـوات، هـن شارلـوت Charlotte (1855 -1816)، وإميلي (1818- 1848) Emily، وآن (1820- 1849) Anne، نشرن أعمالهن بأسماء مستعارة، من أهمها رواية «جين آير» Jean Eyre لشارلوت، ورواية «مرتفعات ويذرنغ» Wuthering Heights لإميلي، ورواية «مستأجر وايلدفيل هول» Tenant of Wildfell Hall لآن. [المترجم].

سياحيا في اليونان والمغرب. وكما حدث مع صديقه الرسام أدريان دي مِنَشّا، وجد برنار صعوبة في الحصول على جواز سفر أوروبي. فقد تنكر له سلاح الجو الملكي لأنه قال إنه مصري[124]. ومع أنه من مواليد باريس في العام 1921، فإنه لم يستطع أن يحصل على جواز سفر فرنسي. وفي النهاية، تمكن بفضل أصوله اللبنانية من أن يحصل على جواز سفر لبناني.

وفي أوائل الثمانينيات عاد إلى الإسكندرية للاعتناء بأمه. كانت المدينة قد وصلت إلى ذروة التمصير، إذ كانت المحلات خاوية، وحلت جلابية الفلاحين المصريين محل البدلات الأوروبية في شوارع المدينة. وبعد موت أمه في العام 1985(*)، انتقل إلى شقة في شارع الجبرتي كانت تضم غرفة معيشة على شكل حرف إل اللاتيني، وبها حائط يوناني عليه لوحات بالألوان المائية لليونان وصور لزهور برية، وحائط مصري عليه نقش للإسكندرية ومقتنياته من الفراشات والأحجار والأحافير، وحائط للهدايا عليه رسوم تخطيطية تعرض نسخته من فايدرا(**). كان برنار في كل صباح يتناول الإفطار مع لوسيت دي صعب Lucette de Saab. وبينما كانت لوسيت تؤدي تمريناتها الرياضية، كان هو يقرأ لها يومياته، وإن حاول أن يخفي بعض جوانب حياته وزياراته إلى الميناء، مثل أصدقاء غاستون زنانيري الذين «يخفون بعناية حياة سرية يتحدث عنها الجميع سرا»[125]. كان برنار يقيم معارض لصوره وحفلات، وفيها كان في الأغلب يرتدي بدلة بحار أو بنطالا من الجينز ضيقا. وكان في بعض الأحيان يمثل حياة الحفلة وروحها من خلال تقديم عروض تقليد مضحكة، وفي أحيان أخرى كان يمكن أن يجلس صامتا لساعات «مثل جمل كبير»[126].

أجرت هالة حليم ومايكل هاغ مقابلات معه، تحدث فيها بصوته المشرقي الساحر الدافئ، وسخر بالقول إن العصر الذهبي للإسكندرية كان «برونزا مُذَهّبا أكثر من ذهب حقيقي». وفقط حين كان يتمشى على الكورنيش، كان يمكنه أن يتجنب ملاحظة مدى التغير الذي لحق بالمدينة. «في وسعي أن أنظر إلى البحر،

(*) هكذا ماتت في الإسكندرية في العام 1985 ماري دي زغيب التي وثّقت في يومياتها رحيل السكندريين غير المصريين والإسكندرية الكوزموبوليتانية. [المترجم].

(**) تقول أسطورة يونانية إن فايدرا Phaedra وقعت في حب هيبوليتوس Hippolytus ابن زوجها ثيسيوس Theseus، لكنه رفض إغراءها، فقالت لأبيه إنه اغتصبها، فلعنه أبوه ما أدى إلى موته. وتقول رواية أخرى إن الأب قتل ابنه وإن فايدرا انتحرت لشعورها بالذنب في حق هيبوليتوس. [المترجم].

فهو لم يتغير». ومات في الرابع عشر من يوليو 1999 وهو يقول «كم من المحزن أن أموت في الرابع عشر من يوليو»، وذلك لأنه لن يلحق بالحفلة السنوية التي يقيمها القنصل العام الفرنسي»[127]. كان من بين معجبيه الأخيرين سوزان مبارك زوجة الرئيس المصري الأسبق.

***

في هذه الأثناء، أسهم التمصير في نقل الإسكندرية إلى نقيضها. نجت البورصة من قصف بريطانيا ودول المحور، لكنها لم تنجُ من الاستقلال المصري. ولكونها مقرا للحزب الوطني الديموقراطي الحاكم، فقد أُحرِقت في أثناء انتفاضة الخبز في الثامن عشر من يناير 1977. وتحوّل المكان حاليا إلى موقف سيارات.

ابتلعت غابة خرسانية الفيلات والحدائق، وعمارات سكنية تشبه الأطلال التي رسمها مونسو ديسيدريو(*). تُرِكت فيلا أمبرون حتى تنهار، لكي يسهل هدمها وإقامة مزيد من العمارات. وكذلك الطوابق العليا من قصر زغيب على وشك الانهيار، وتجثم مدرسة النخبة الجديدة ومطعم سندويشات على نحو متنافر في الطابق الأرضي من القصر. وغدت بورصة القطن في مينا البصل أشبه بمدينة أشباح من المخازن الصامتة. ولم يعد القطن المصري الأعلى قيمة في العالم[128]. وأصبح كثير من بنايات القرن التاسع عشر العظيمة في ميدان محمد علي، مثل بناية مونفيراتو Monferrato ووكالة مِنَشّا، تكتظ بمحلات الملابس والمقاهي والإعلانات والمساجد المؤقتة وأكواخ على أراضٍ غير مملوكة لأصحابها. ولا تقل الشوارع خرابا عن البنايات. وفي بعض الأيام تبدو المدينة كأن محيطا من القمامة قد ابتلعها. حافظت المقاهي على الأسماء القديمة، لكنها لم تحافظ على معايير الماضي. صار الكورنيش طريقا سريعا من اثنتي عشرة حارة، وتلتف حول المدينة أميال من العمارات السكنية التي تبدو على وشك الانهيار حتى قبل أن ينتهي العمل فيها. وبعد أن هُدِم فندق سان ستيفانو، أعيد بناؤه كمجمع تسوق شاهق للسياح القادمين من الخليج.

بيعت كتب القرن الثامن عشر من مكتبة الجامعة بلا مقابل، إذ لم يجدوا متسعا لها في مكتبات المدينة. كتب جيمس موريس في العام 1966 أن «الطاقة

(*) مونسو ديسيدريو Monsu Desiderio، اسم أعطي لرسام تخصص في رسم مشاهد معمارية شبحية متداعية في نابولي إبان أوائل القرن السابع عشر، يرجع مؤرخو الرسم حاليا أعماله إلى ثلاثة رسامين مختلفين. [المترجم].

التي لا تلين» التي تميّز المصريين ستنجح يوما ما في إحياء الإسكندرية[129]. لكن هذه الطاقة عينها هي التي تدمر المدينة الممصرة. إذ ارتفع عدد سكان المدينة من خمسمائة وثلاثة وسبعين ألفا وثلاثة وستين في العام 1927 إلى تسعمائة وتسعة عشر ألفا واثنين وأربعين في العام 1947، ثم إلى مليون وثمانمائة وألف ومائة في العام 1966، ثم إلى مليونين وثمانمائة وخمسة وخمسين ألفا وستمائة وسبعة وعشرين في العام 1986، وتخطى الأربعة ملايين في العام 2009. تحولت ملكة البحر الأبيض المتوسط إلى عاصمة دلتا النيل. وبُنيت مدن صناعية ومصانع صلب وأسمنت وورق ومنسوجات ضخمة على أطراف المدينة. يعمل 38 في المائة من سكانها في الصناعة. ومع عودة اندماج الاقتصاد المصري مع الاقتصاد العالمي، تضاعف المرور في ميناء الإسكندرية بين العامين 1975 و1993، لكن الميناء الرئيس للقاهرة اليوم أصبح العين السخنة الواقعة على البحر الأحمر، وليس الإسكندرية[130]. تتراجع أهمية الإسكندرية في الاقتصاد المصري. وبعد خمسين عاما من ثورة 1952، لايزال المحافظ عسكريا. يقول أحد رجال الأعمال إن «المدينة يديرها مجموعة من رجال الأعمال على علاقة بالدائرة الداخلية لجلالته والعائلة المالكة الجديدة [عائلة مبارك]... وكل شيء يتوقف إذا جاء مبارك إلى المدينة»[131].

***

بعد أن اكتمل التمصير، تسارعت وتيرة الأسلمة، كما تنبأ البعض. وقد أسهمت الأموال السعودية والتقاليد المصرية وخوف السادات من اليسار بدرجات يصعب تحديد حجم تأثير كل منها في النزعة التدينية الجديدة. والإسكندرية التي غدت حاليا أكثر إسلامية من القاهرة وأقل كوزموبوليتانية منها، أصبحت معقل الإخوان المسلمين. فما أسماه يوسف شاهين «موجة سوداء قادمة من الخليج» أدت إلى رفض الرقابة لبعض أفلامه، حوّلت الإسكندرية إلى التدين الزائف. ينتشر في المدينة الزواج المؤقت أو العرفي. وفي أثناء صلاة الجمعة، يضع كثير من المساجد حاليا حصر الصلاة على الأرصفة وفي الشوارع، ما يغلق الطرق أمام المرور، وذلك لاستيعاب حشود الرجال الذين يريدون مكانا للصلاة، بينما لا تُرى النساء. وتسمع القرآن في المحلات وسيارات الأجرة، وانتشرت العلامات السوداء في جباه الرجال التي تعرف باسم «الزبيبة» التي تعلن أن صاحبها يكثر من السجود في الصلاة. وفي

الإسكندرية يقولون إنه كلما كبرت زبيبة المرء، زاد رياؤه. وتوقف سباق الخيل في نادي الإسكندرية الرياضي لأن الرهان يعتبر «مخالفا للإسلام». وباتت مقصورات المتفرجين على حافة الانهيار، وأقيم مسجد للأعضاء. وبعد أن كانت الإسكندرية «متخمة بالكازينوهات»، لا يوجد بها حاليا إلا ثلاثة. ومُنِع الكحول في نادي الإسكندرية الرياضي في العام 1990، وفي نادي اليخوت في العام 2004. وغدا بعض المسلمين يمتنعون عن زيارة أقرب أقاربهم إذا كان في بيوتهم كحول[132].

في العام 1963، لم ير ديفيد هولدين David Holden «حجابا واحدا»[133]. أما الآن، فكل النساء السكندريات تقريبا يغطين شعورهن بأوشحة تسمى النقاب، أو حجاب الوجه، وكذلك بدأت القفازات السوداء في الظهور. تحتفظ الإسكندرية بذكرى سعد زغلول وزوجته صفية - وهي واحدة من أوليات المصريات اللاتي كشفن عن وجوههن - عبر اسمي شارع وميدان يحوي تمثالا لسعد زغلول ينظر ناحية البحر فوق تماثيل نسائية بلباس فرعوني يمثلن مصر للنحات المصري محمود مختار. غير أن اتجاهاتهما العلمانية - سعد وصفية - قد طواها النسيان في الإسكندرية.

ومع كل عام جديد، يتغوّل الطابع الديني على مصر أكثر فأكثر. وغدا كثير من السكندريين يشعرون بأنهم يعيشون فوق بركان. وسادت عبارات: «يمكن أن تنفجر في أي لحظة»، «لا أمل في هذا البلد»، «المدينة تُدمّر»، «من يستطيع أن يهاجر، عليه ألا يتردد عن المغادرة»[134].

بعد عقد اتفاقية السلام مع إسرائيل في العام 1978 أقام الرئيس السادات توأمة بين الإسكندرية وحيفا، وأرسل يخت المحروسة إلى حيفا في زيارة لإثبات حسن النية. ويوجد بالإسكندرية حاليا قنصل إسرائيلي، لكن لا توجد تجارة أو سياحة تذكر بين البلدين، وتقيم الإسكندرية اليوم توأمة مع أوديسا وسانت بطرسبورغ، بينما توقفت توأمتها مع حيفا[135]. ولايزال المعبد اليهودي الأخير في شارع النبي دانيال المبطن بألواح تعلن كرم عائلات مصيري ومِنَشّا وعدس، في حالة جيدة، لكنه خاو من المصلين. فلم يبق في الإسكندرية ما يكفي من اليهود لتشكيل نصاب إقامة السبت.

أما متحف كفافيس الذي أنشأته المؤسسة الهيلينية للثقافة في العام 1992 في بيت كفافيس المكون من ثماني غرف في شارع ليبسيوس (شرم الشيخ حاليا، الذي

تدهور مثل الشوارع الأخرى في الحي)، فإن اليونانيين يقبلون على زيارته أكثر من المصريين. ويدوي صوت الأذان الصادر عن مكبرات صوت من مسجد قريب، في غرفة نوم كفافيس التي تُعلّق فيها أيقونات. يقول أمين المتحف محمود سعيد: «لم تعد الإسكندرية مهتمة بكفافيس. إننا حتى لسنا مهتمين بالإسكندرية التي عاش فيها». وبالنسبة إلى الروائي إبراهيم عبدالمجيد «يكفي كفافيس أنه كان يونانيا ويكتب باليونانية حتى يكون منفرا. لقد انتهت الإسكندرية الكوزموبوليتانية». ويقول صبحي صالح نائب الإخوان المسلمين السابق في البرلمان عن الإسكندرية: «كان كفافيس حدثا عابرا في الإسكندرية، وقصائده آثمة». فاليوم يُطرَد كفافيس من المدينة[136].

15

بيروت:
مولد عاصمة

فيليب بيرتلو Philipe Berthelot:

لكن بيروت جزء من لبنان.

الأمير فيصل: بيروت ليست مشمولة ضمن حدود لبنان حتى الآن.

محادثة في وزارة الخارجية، باريس، 21 أكتوبر 1919

«كانت الوطنية اللبنانية تزداد قوة منذ العام 1870، وعكست كذلك رغبة عالمية في الانعتاق من أوروبا»

بعد فرض التجانس على الإسكندرية وسميرنا، أصبحت بيروت آخر مدينة مشرقية بقيت متنوعة في طابعها، وآخر مدينة لاتزال الدول الأجنبية تتدخل فيها كأن ذلك حق لها، وفي الأغلب بدعوة من اللبنانيين. وكانت بيروت أيضا المدينة المشرقية الأولى التي تصبح عاصمة بعد الإسكندرية في عهد محمد علي وسعيد. وأصبحت مركز القومية العربية في أنحاء الشرق الأوسط كافة.

بعد الهزيمة العثمانية في سبتمبر 1918، بدأت بيروت تكتسي هوية جديدة. ففي الثلاثين من سبتمبر من ذلك العام، تحولت السيطرة على المدينة إلى «جمهورية التجار». رتب ألفريد سرسق وسليم سلام وأحمد بيهم مغادرة الوالي العثماني إسماعيل حقي Ismail Hakki (الذي استمر سرسق في إرسال المال إليه). ترأس رئيس البلدية عمر الداعوق إدارة مؤقتة. وفي الخامس من أكتوبر، أي بعد خمسة أيام من دخول القوات البريطانية والعربية دمشق، ما أكد نبوءات «الشهداء» القوميين، رَفعت فاطمة المحمصاني، أخت اثنين منهم، العلَم الهاشمي فوق السراي الصغير في بيروت[1](*).

احتل البحارة الفرنسيون الميناء في السابع من أكتوبر، وسط هتافات من حشود مسيحية تصفهم بالمحررين، مع أن محرري بيروت كانت القوات العربية في حقيقة الأمر. رأى أبناء سليم سلام مدرسهم الكاثوليكي اليوناني بين الحشد الهاتف، لكن عينه لم تلتق بأعينهم. وفي الثامن من أكتوبر، رُفِع العلم الفرنسي ثلاثي الألوان على البنايات الحكومية بدلا من العلم الهاشمي. وسيطر المسؤولون الفرنسيون على الإدارة العثمانية القديمة وبدأوا في اتخاذ إجراءات لوضع حد للمجاعة[2].

أُقيمت مطاعم عامة للفقراء. وطلب المسؤولون الفرنسيون إمدادات قمح من المضاربين، واستوردوا مزيدا من مصر. ووُضِعت قيود على الأسعار، ووُضِع خمسون ألف شخص ضمن نظام لتوزيع الطعام. ومع ذلك، فقد لاحظ جندي أسترالي في شهر نوفمبر أعدادا كبيرة من الأطفال العراة يتسولون، وكتب في ذلك: «يطاردك عويل المجاعة في أزقة المدينة»[3].

وبعد العام 1918، استؤنفت اللعبة المشرقية القديمة، لكن بلاعبين جدد. كان الأمير فيصل بن الحسين شريف مكة يسعى إلى حكم سورية مستقلة موحدة من العاصمة دمشق «بمساعدة أمة متحضرة عظيمة»، هي فرنسا[4]. وكان يتردد على بيروت كثيرا في طريقه إلى مؤتمر السلام بباريس ومنه. وفي الثاني والعشرين من نوفمبر 1918، جرّ مسلمون عربته في موكب انتصاري خلال المدينة إلى ساحة الحرية التي أعطاها فيصل اسمها الحالي: ساحة الشهداء. ولاحقا وُضِع في وسط

(*) فاطمة أخت الشهيدين محمد ومحمود المحمصاني اللذين أُعدِما في الحادي والعشرين من أغسطس 1915. [المترجم].

ساحة الشهداء تمثال ضخم لامرأتين واحدة محجبة وأخرى سافرة (أي مسلمة ومسيحية) وقد وحّدهما الحزن.

كان فيصل الزعيم الوحيد الذي حاول التوفيق بين جميع الطوائف والآراء. فكان له الكثير من الأصدقاء المسيحيين واليهود، وفي الأول من مايو 1919 تحدث في ساحة الشهداء عن ضرورة الاتحاد «مع كل مكونات الوطن السوري»[5]. قال إن جبل لبنان يجب أن يتسع نطاق حكمه، على ألا يشمل بيروت، ذلك أن بيروت «الباب إلى سورية... ولا يمكن لبيت أن يكون بلا بابه»[6]. كانت بيروت محل نزاع. فبسبب حجمها وأهميتها التجارية، أرادها فيصل وكثيرون آخرون أن تكون ميناء حرا يتمتع بحكم ذاتي ومتميّز عن لبنان وسورية كلتيهما[7].

وفي المقابل، كان الموارنة يريدون توسيع جبل لبنان ليشمل بيروت ووادي البقاع والساحل ضمن «فينيقيا الجديدة» داخل «حدودها الطبيعية والتاريخية»، وهي حدود لم تكن طبيعية ولا تاريخية في حقيقة الأمر. صدم الموارنة حتى حماتهم الفرنسيين بزعمهم التحدث باسم لبنان، إذ تملكهم الشعور بأن ثقافتهم ومسيحيتهم تؤهلهم للاستقلال عن سورية. ومن خلال شن حملات دعائية في باريس التي زارها بطركهم في العام 1919، أخذوا السياسة الفرنسية رهينة، ما أضعف تأثير فرنسا في الطوائف الأخرى، على نحو ما تذمر بعض المسؤولين الفرنسيين. بل إنهم هددوا حتى بالقيام بهجرة جماعية إلى فرنسا إذا لم تؤيد فرنسا سياستهم، أو أن يتحولوا إلى بريطانيا[8].

***

اجتاز ألفريد سرسق أهوال الحرب وسقوط الإمبراطورية العثمانية وخرج منها قويا كما كان، وهنأته أخته إيزابيل في نهاية الحرب بالقول: «أخيرا تحققت أحلامك. إنني أتخيل فرحتك وأنت ترى القوات الإنجليزية - الفرنسية تدخل بيروت. وأتخيل فرحة البلد كله. أخيرا تخففت من كل آلامك»[9]. وحل ضباط فرنسيون محل جمال باشا وموظفيه ضيوفا على سراي سرسق.

ولكونه عضوا في لجنة بيروت البلدية ورئيسا «للجنة مسيحيي بيروت»، ولى ألفريد سرسق، الدبلوماسي العثماني السابق، وجهه شطر الموارنة. وفي أواخر العام 1918 وأوائل العام 1919، قرر ممثلون «للكتل المسيحية» في اجتماعات وحفلات

استقبال في قصره، أن يطالبوا بلبنان الكبير الذي يشمل بيروت «تحت حماية حاميهم التقليدي فرنسا وبمساعدته». وكان الاقتصاد الرابط الوحيد الذي قبلوا به مع سورية. ورفض سرسق الانضمام إلى المؤتمر الذي عُقِد في دمشق للمطالبة بالاستقلال الكامل لسورية والتخلص من السيطرة الفرنسية[10].

كانت الحكومة الفرنسية المصممة على فرض «حقوقها الثابتة» التي ترجع - في زعمها - إلى زمن فرانسوا الأول(*)، والتي تأكدت أخيرا بموجب اتفاقية سايكس - بيكو التي قسمت الإمبراطورية العثمانية بين فرنسا وبريطانيا في العام 1916، تسعى إلى السيطرة على لبنان وسورية كليهما باستخدام الطوائف المطيعة لها، أيا كانت. وكانت توقعات الفرنسيين واستثماراتهم في لبنان كبيرة إلى الحد الذي جعلهم يصممون على السيطرة على البلد. علاوة على أن صناعة الحرير اللبنانية كانت ضرورية لشركات الحرير في ليون[11].

قال إميل إده، السياسي البيروتي وابن عائلة من الأساتذة والكهنة ذوي التعليم الجزويتي، الذي كان يتحدث الفرنسية أفضل من العربية، إن المسيحيين يريدون فرنسا، بينما يريد المسلمون الاستقلال. وفي حقيقة الأمر، كان السكان يتنقلون بين الهويات - الفرنسية أو اللبنانية أو السورية أو العربية - للتأكيد على ما يناسبهم في هذا الوقت أو ذاك. من ذلك أن الكثير من الأرثوذكس والكاثوليك اليونانيين كانت لديهم تحفظات على الارتباط بفرنسا. ومنه أيضا أن نجيب سرسق - على خلاف ابن عمه ألفريد - فضل الاتحاد مع سورية[12]. كما أن الكثير من المسلمين كانوا مستعدين للتعاون مع فرنسا، خصوصا عندما بدت فرنسا قوية. لكن أحدا من اللبنانيين لم يرد أن يكون بلدهم مستعمرة مثل الجزائر التي جاءت منها كتائب «قناصة أفريقيا» التي أُنزِلت في بيروت(**). يتسبب الدعاء المستجاب أحيانا في حزن أشد من الدعاء غير المستجاب. وفي ذلك كانت الصحف البيروتية تتساءل عما إذا كان «محرروهم» الفرنسيون ليسوا في حقيقتهم إلا شركة خاصة تستعد لاستغلال البلد[13].

(*) صاحب أول معاهدة تحالف مع العثمانيين في زمن السلطان سليمان القانوني إبان العقد الثالث من القرن السادس عشر. [المترجم].

(**) «قناصة أفريقيا» أو «الصيادون الأفارقة» Chasseurs d'Afrique كتيبة فرسان خفيفة ضمن جيش أفريقيا الفرنسي، تشكلت لأول مرة في العقد الرابع من القرن التاسع عشر من سلاح الفرسان الفرنسي المتمركز في الجزائر، وكانت على مر تاريخها تجند أفرادها من بين المتطوعين الفرنسيين أو المستوطنين الفرنسيين في شمال أفريقيا كشكل من الخدمة العسكرية الإلزامية، على خلاف كتائب زواوة التي كان أفرادها يجندون من صفوف هذه القبيلة الأمازيغية من جبال جرجرة. [المترجم].

وبحلول شهر سبتمبر 1919، رحلت القوات البريطانية. ووصل الجنرال هنري غورو Henri Gouraud، الكاثوليكي المتدين الذي قضى سنوات في شمال أفريقيا الفرنسي، إلى بيروت مندوبا ساميا. وارتفع عدد القوات الفرنسية في سورية من خمسة عشر ألفا في أكتوبر 1919 إلى ستة وستين ألفا بعد سنة. وانتقل المندوب السامي إلى قصر الصنوبر، وهو بناية ضخمة ومزخرفة بإتقان على الطراز المغاربي المُحْدَث بناها ألفريد سرسق في الأعوام من 1915 إلى 1917 في غابة صنوبرية بالقرب من طريق دمشق، وكان يتمنى أن تتحول إلى كازينو ودار سينما[14]. وأعطيت سلطات واسعة للمستشارين الإداريين الفرنسيين. وفي مارس 1920، أصدرت عملة جديدة اسمها الليرة السورية تعتمد على الفرنك ويصدرها بنك سورية الذي يملكه الفرنسيون.

في السابع من مارس 1920، أعلن مؤتمر دمشق فيصل ملكا لسورية (التي تشمل لبنان وفلسطين). وفي الرابع والعشرين من يوليو، دحرت القوات الفرنسية جيشه الصغير في ميسلون على طريق بيروت - دمشق. ونُفي هو وأتباعه. وباتت السيطرة كاملة في يدي فرنسا[15].

على خلاف رغبات معظم السكان غير الموارنة، وسعت فرنسا حدود لبنان لتشمل مدينتي صيدا وطرابلس الإسلاميتين وشريطهما الساحلي المحيط، فضلا على بيروت ووادي البقاع. محاطا بالبطريرك الماروني والمفتي (الذي ادعى لاحقا أنه أُجبِر على الحضور) والضباط والمسؤولين الفرنسيين «في كامل زيهم»، أعلن الجنرال غورو في مراسم فخمة في الأول من سبتمبر 1920 من على درجات سلم قصر الصنوبر، الدولة الجديدة: «لبنان الكبير».

وبما يكشف عن التفاؤل أكثر مما يكشف عن الحقيقة، قال غورو إن لبنان الجديد بلد للجميع وليس ضد أحد. «سيبني الاتحاد عزكم، تماما كما تسبب الشقاق العرقي والديني في ضعفكم». وجاءت كلمة الشكر على لسان متصرف بيروت نجيب بك أبي صوان تعبيرا متطرفا عن الهوس بفرنسا الذي سيطر على اللبنانيين:

> إن من دواعي الفخر للبنان، أن يحدث هذا التوسع الفرنسي فيما وراء البحار على يدي محرر شمبين (غورو)(*). سيعيش لبنان في ظل العلم

(*) بعد أن فقد هنري غورو ذراعه اليمنى في أثناء حملة الدردنيل في الثلاثين من يونيو 1915، بنى شهرته العسكرية من قيادته للجيش الخامس الفرنسي على الجبهة الغربية من استخدامه لإستراتيجية الدفاع المرن في معركة المارن الثانية، ومن ضمنها معركة شمبين Champagne الرابعة التي صمد فيها بمعاونة قوات أمريكية أمام هجوم ألماني. [المترجم].

الذي عزز مجده السامي الطاهر خلود فرنسا وعزتها وأهميتها. وفي هذه الساعة المهيبة التي تدخل التاريخ لكي تدوّن حقبة غير قابلة للامّحاء، تستعيد بيروت زهرة سورية وعاصمة لبنان الكبير أنفاسها الحرة وتحيي فيكم راعيها وتحيي في شخصكم فرنسا المجيدة.

وأشار نجيب إلى تحقق أحلام القرون الوسطى، أي الحملات الصليبية. فمثل سميرنا، كان الماضي في بيروت يمكن أن يكون ساما[16].

وُلد لبنان، لكنه على نحو ما كتب جورج فياض - وهو مسيحي آخر - إلى ألفريد سرسق، «كان مسخا، رأسه (بيروت) أكبر من جسمه». كان من رأي فياض المنزعج من «المصالح المتعارضة للطوائف»، أن لبنان مسيحي في جوهره، ولا بد من أن تقتصر حدوده على سكانه المسيحيين، وهي مساحة تتطابق تقريبا مع جبل لبنان قبل العام 1915، وأن بيروت يجب أن تكون مدينة حرة. وقد أدى ضم المسلمين وفصل لبنان عن سورية من دون موافقة المسلمين، إلى تصعيد القابلية المتأصلة للاشتعال التي ميّزت لبنان دوما[17].

***

بعد العام 1920، نالت بيروت بعض السمات الخارجية للعاصمة. فغدا السراي الكبير، تلك الثكنات العثمانية الواقعة على تل يشرف على المدينة القديمة، مقر المندوبية السامية الفرنسية لـ«دولتي المشرق»، أي لبنان وسورية. وبذلك أصبحت دمشق للمرة الوحيدة في تاريخها تابعة لبيروت، بمعنى أن العاصمة الداخلية غدت تابعة للميناء المشرقي. أُسْكِنت القوات الفرنسية القادمة من السنغال التي أسماها ضابط فرنسي متحمس «القوة السوداء» في الثكنات التي تطوق المدينة[18]. تمتع المندوبون السامون الفرنسيون، سواء أكانوا عسكريين مثل الجنرال مكسيم ويغان Maxime Weygand أم مدنيين مثل هنري دي جوفينيل Henri de Jouvenel، بسلطة مطلقة على لبنان حتى العام 1943. كان من دلائل ذلك أن فرنسا أنشأت للمحاكمات التي تشمل مواطنين فرنسيين أو أوروبيين آخرين، محاكم مختلطة على غرار النموذج الذي كان المصريون يتوقون إلى الخلاص منه. وكانت اللغة الفرنسية اللغة الوحيدة لهذه المحاكم، وكذلك كان قضاتها فرنسيين، مع أنهم كانوا يتقاضون رواتبهم من الميزانيتين السورية واللبنانية. وقد استقبل البيروتيون افتتاحها في العام 1923 بأعمال شغب وغلق الأسواق[19].

وإلى جانب المندوبية السامية، كانت هناك حكومة لبنانية تعمل من السراي الصغير الذي كان المقر السابق للحاكم العثماني، كانت خاضعة كليا لسيطرة الفرنسيين. وفي العام 1925، دُشّنت الجنسية اللبنانية واكتسبت الصفة القانونية. وفي تلك السنة أُعلِن الدستور وبُني مقر للبرلمان بالقرب من ساحة الشهداء، فيما أصبح يعرف باسم ساحة ليتوال(*)، وامتدت حوله سلسلة من الشوارع المستقيمة، لتحل محل أسواق وحانات وكنائس ومساجد قديمة. جاءت بناية البرلمان على طراز «الآرت ديكو الفينيقي» الذي فضّله الانتداب الفرنسي[20]. وكان برج الساعة القابع خارجه الذي انتهى العمل به في العام 1932، هدية من اللبناني المهاجر إلى المكسيك ميغيل عبد Miguel Abed[21].

وفي العام 1927، انتقلت بلدية بيروت إلى بناية فينيقية مُحْدَثة رائعة أخرى بالقرب من ساحة الشهداء، صممها يوسف بك أفتيموس الذي بنى في قرن آخر برج الساعة أمام السراي الكبير تكريما للسلطان عبدالحميد.

غلبت الطائفية على بلدية بيروت، تماما كما غلبت في مناحي لبنان كافة. وبموجب المادة 95 من الدستور، حدد الانتماء الديني توزيع المناصب في كل من الوزارات والبلديات[22]. كان رئيس مجلس بيروت سُنيا دائما، وكان أول شاغلي المنصب هو مالك الأطيان والتاجر الثري عمر بيهم. وكانت كل الطوائف الدينية ممثلة بالتناسب مع عدد أصواتها، كما لاتزال الحال إلى اليوم: خمسة مسلمين ومارونيان اثنان وأرثوذكسيان اثنان وكاثوليكي يوناني واحد، وواحد يمثل كل واحدة من الأقليات الأخرى. وكان المسؤولون البلديون الذين بلغ عددهم إجمالا نحو خمسمائة وخمسين شخصا، مقسمين بالتساوي تقريبا بين المسلمين والمسيحيين. وكانت الشرطة في أغلبيتها من المسلمين. وكانت ميزانية بلدية بيروت في ذلك الوقت زهاء ثلث ميزانية الدولة، وكذلك ثلث عدد موظفيها[23].

على أن بيروت من خلال توزيع التعيينات البلدية بصرامة وفقا للدين، فرضت الإحساس بالاختلاف، بدل أن تشجع الاندماج. ففي مدينة نيويورك التي لا تقل تنوعا، تهيمن بعض الجماعات فعلا على بعض الوظائف، مثل هيمنة الأيرلنديين

(*) الاسم الشائع لساحة ليتوال Place des Etoiles هو ساحة النجمة، وهي ترجمة للاسم الفرنسي. [المترجم].

على الشرطة، لكن لم تكن هناك حصص رسمية. كما شجعت سلطات الانتداب الفرنسي الاختلافات هي الأخرى من خلال الدعم المالي الذي قدمته للمدارس الدينية. وأظهرت فرنسا تسامحا أكبر من الإمبراطورية العثمانية من خلال اعترافها بالشيعة للمرة الأولى كطائفة دينية متميّزة لها محاكمها الخاصة. وأكد الموارنة اختلافهم عن الطوائف الأخرى من خلال تحدث اللغة الفرنسية وإعطاء دروس مجانية لتعليمها[24].

***

إلى جانب مولدها كعاصمة، كانت بيروت تتحول أيضا إلى مدينة تجارية حديثة. إذ أراد رجال الأعمال هناك أن تصير مدينتهم العاصمة الاقتصادية لآسيا وبوابة فرنسا إلى الشرق. وحتى في حالة الغموض السياسي في العام 1919، كانت الفنادق والبيوت في المدينة مزدحمة. فـ«من كل صوب وحدب، يأتي الناس إلى بيروت»، وكان رجال الأعمال يطمحون إلى جعلها «باريس صغيرة»[25]. وفي تلك السنة، أسس غورو البورصة. وفي العام 1921، جذب معرض بيروت الدولي الأول ألفا ومائتي مشارك[26]. كتب جورج فياض إلى ألفريد سرسق في السابع من سبتمبر 1922: «ستكون بيروت من الناحية الاقتصادية - يا عزيزي ألفريد - ميناء إعادة التصدير لشرق البحر الأبيض المتوسط، وسوف تكون المدينة الصناعية للمشرق بورشها وأحواض سفنها ومعارضها. وبفضل العبقرية التجارية لسكان بيروت وكفاءتهم ورأسمالهم، ستأتي بلدان آسيا للتزود بالبضائع منها»[27].

بعد نزاع مع الحكومة الفرنسية حول ملكية قصر الصنوبر، استقال سرسق من مناصبه الرسمية وعاد إلى التجارة[28]. تكشف أسماء الشركات التي كان سرسق مالكها أو رئيسها ازدهار بيروت الاقتصادي: الشركة السورية للمياه والكهرباء، والشركة الفرنسية العامة للتجارة والأشغال العامة، ودائرة المشرق، ومتنزه بيروت، ومضمار سباق الخيل، والشركة السورية للفنادق والكازينوهات. كما عمل في لجان رسمية في مجالات السياحة وصناعة الحرير وحكومة لبنان الكبير، وكان من رأيه أن رأس المال والمعرفة الفنية الفرنسيين يمكن أن يساعدا في النهوض بسورية[29]. على أن البرنامج الطموح الذي تخيله انقطع بموته المبكر في العام 1924.

***

استأنفت بيروت كذلك دورها بوصفها دافعة للتغيير السياسي والاجتماعي. ومنذ العام 1909، وهو وقت مبكر، شبّهت مجلة نسائية كانت تُنشَر في بيروت، استبداد الزوج باستبداد السلطان. وفي لندن في العام 1927، استمتعت عنبرة سلام بصحبة أبيها سليم سلام، الذي ذهب لمناقشة أملاكه حول بحيرة الحولة في فلسطين، بالكشف عن وجهها. قالت لصديقها فيصل الأول (الذي كانت الحكومة البريطانية قد عيّنته بعد سنة من طرده من سورية ملكا للعراق) وهما يسيران في متنزه ريتشموند: «ما الذي فعلته المرأة الإنجليزية لكي تستحق كل هذه الاستقلالية» وما «الذنب الفظيع» الذي اقترفته المرأة العربية لكي تستحق «حياة ملؤها القمع والإنكار»؟ إن المرأة المحجبة تشبه السجين الذي أطلق سراحه بشروط. وعندما عادت عنبرة سلام، أخذت تحاضر في الجامعة الأمريكية ببيروت (وهو الاسم الذي أعطي للكلية البروتستانتية السورية في العام 1921) تحت عنوان «امرأة شرقية في إنجلترا». ولم تكن ترتدي حجابا. وسرعان ما أدت العاصفة التي حدثت من جانب المسلمين إلى اختفائها وعدم تجاسرها ثانية على العمل العام طوال بقية حياتها. وعلى أي حال، فإن أختها الأصغر رشا كانت تذهب إلى المدرسة راكبة دراجة(30). وبحلول الثلاثينيات، كانت نساء بيروت يخرجن للتسوق من دون طلب إذن أزواجهن. وكان الكثير من النساء المسلمات يكشفن عن وجوههن في وسط المدينة، لكن يتحجبن ثانية قبل العودة إلى أحيائهن(31).

كشفت الأحزاب السياسية الجديدة عن ارتباطات لبنان الوثيقة بأوروبا. ففي العام 1932، أسس أنطون سعد مدرس اللغة الألمانية في الجامعة الأمريكية ببيروت حزب الشعب السوري (Parti Populaire Syrien; PPS) المكرس لخلق «سورية الكبرى» من البحر الأحمر إلى قيليقية(*)، بما في ذلك قبرص. كان أنصاره يلقبونه بـ«الزعيم»، وكان الحزب يتخذ رمزا قريبا من الصليب المعقوف النازي. أما حزب الكتائب Phalange، وكما يوحي اسمه وأزياؤه الرسمية، فكان يستند إلى الحزب الفاشي الإسباني. تأسس هذا الحزب الذي كان مكرسا للسلطة المارونية وللشعار «الله، العائلة، الوطن»، على يدي بيار الجميل في العام 1936 بعد عودته من دورة

(*) راجع حاشية سابقة حول قيليقية. [المترجم].

الألعاب الأوليمبية ببرلين. كان الأعضاء الأوائل في الحزب من جامعة القديس يوسف بالدرجة الأولى، بينما كانت عقلية الحزب مستمدة، مثل الجميليين أنفسهم، من جبل لبنان المسيحي الذي كان أكثر تطرفا من مدن الساحل[32].

ومع توسع بيروت من مركزها القديم غربا وجنوبا وشرقا، استفاد ملاك الأراضي الأثرياء من «عمليات نزع الملكية المواتية لهم» التي نفذتها البلدية. وُسّعت الشوارع، وفقدت أسماءها العثمانية، وانتحلت أسماء فرنسية، وكانت في أغلب الأحيان تخلد ذكرى حرب انتصر فيها الفرنسيون أخيرا (مثل فوش وويغان وفيردان(*). وكـــان جـــزء مـــن الكورنيـــش يسمـــى شـــارع الفرنســـيين Avenue des Francais[33]. وزادت مساحة المدينة من ألف وأربعمائة هكتار في العام 1922 إلى ثلاثة آلاف هكتار في العام 1936، وارتفع عدد السيارات من مائة في العام 1919 إلى أحد عشر ألفا في العام 1939[34].

وفي العام 1930، وبما يعكس رغبات قرائها المسيحيين والمتفرنسين بالدرجة الأولى، وصفت مجلة ريفو دو ليبان Revue du Liban (مجلة لبنان) بيروت بأنها «حاضرة جديرة باسم عاصمة، ومدينة بحر متوسطية كبرى»[35]. كانت بيروت المدينة الوحيدة في المشرق التي تحوي مركزا وبنية تحتية حديثة جذابة، باستثناء تل أبيب التي تأسست إلى الجنوب على الساحل في العام 1909، والتي أصبحت عاصمة «دولة داخل الدولة» لكيان صهيوني في فلسطين الواقعة تحت الانتداب البريطاني. وبحلول العام 1932، كان عدد سكان بيروت قد ارتفع إلى نحو مائة وتسعة وخمسين ألفا: ثلاثة وخمسين ألفا وخمسمائة وثلاثين سُنيا، وتسعة وعشرين ألفا وأربعمائة وسبعة وسبعين مارونيا، وثلاثة وعشرين ألفا وستين أرمنيا، وعشرين ألفا واثنين وسبعين أرثوذكسيا، وأحد عشر ألفا وستمائة وسبعة وخمسين شيعيا، وثمانية آلاف وأربعمائة وخمسين كاثوليكيا، وخمسة آلاف وستة وخمسين درزيا، وثلاثة آلاف وستمائة وسبعة وتسعين بروتستانتيا، وألفين ومائتين وستة وأربعين

(*) فوش على اسم فرديناند فوش Ferdinand Foch (من 2 أكتوبر 1851 إلى 20 مارس 1929) مارشال فرنسي وأحد القيادات العسكرية خلال الحرب العالمية الأولى، وويغان Weygand على اسم المندوب السامي البريطاني الجنرال مكسيم ويغان. وفيردان Verdun على اسم واحدة من أشهر معارك الحرب العالمية الأولى، وقعت بين 21 فبراير و18 ديسمبر 1916 على الجبهة الغربية، تصدى فيها الجيش الفرنسي للغزو الألماني. [المترجم].

كاثوليكيا سريانيا، وألف وسبعمائة وتسعة وخمسين سريانيا. أكد التوازن بين أعداد المسلمين وغير المسلمين على الطابع المشرقي المختلط للمدينة، على خلاف تل أبيب التي خططت منذ البداية كمدينة بلا «أغيار»[36](*).

كانت بيروت علاوة على ذلك مدينة ثنائية اللغة، حيث كان الكثير من اللبنانيين، ومنهم بيار الجميل الذي عاش في الإسكندرية، يجيدون اللغة الفرنسية تحدثا وكتابة أفضل من اللغة العربية. ومن بين الصحف اليومية الصادرة في بيروت، كان ثلاث منها باللغة الفرنسية واثنتا عشرة باللغة العربية، وكان إجمالي توزيعها سبعة آلاف وأربعمائة وخمسين وثمانية عشر ألفا على التوالي[37].

كانت بيروت تعتبر حيفا منافسها التجاري، وحيفا هو الميناء الرئيس بفلسطين الواقعة تحت الانتداب البريطاني. قدم رئيس الغرفة التجارية عمر الداعوق التماسا إلى المندوب السامي ذكر فيه أن «بيروت مهددة من ميناء حيفا الحديث والكبير، كما أن العراق وبلاد فارس يبحثان كلاهما عن منفذ على البحر الأبيض المتوسط، والتجارة البرية في ازدياد». ومن باب الرد على المنافسة، افتتح ميناء ومطار جديدان في بيروت في العام 1938 لتأكيد دورها كمحور مركزي لعمليات النقل[38]. وقبل ذلك في العام 1928، تمثلت حمولة أول طائرة في حجاج طاروا من بيروت إلى مكة[39]. وسرعان ما ارتبط المطار برحلات منتظمة إلى مارسيليا والقاهرة ووارسو. وفي السابع من يناير 1939، كان غابريال بيو Gabriel Puaux أول مندوب سامٍ فرنسي يأتي إلى بيروت بالطائرة[40].

***

كانت بيروت تشهد في الوقت نفسه تحديثا سياسيا. ففي العام 1936، كان من شأن معاهدة أُبرِمت أن تزيد صلاحيات الحكومة اللبنانية وتقلل صلاحيات السلطات الفرنسية، غير أن الحكومة الفرنسية وضعتها على الرف. ووقعت أعمال شغب في شوارع بيروت من جانب المسلمين تأييدا للاتحاد مع سورية، نجحت السيطرة عليها فقط من خلال نشر القوات السنغالية وفرض الأحكام العرفية، وكما في العام 1903 من خلال التماسات أعيان «جمهورية التجار».

(*) يشير مصطلح الأغيار goy (غوي والجمع غوييم goyim في اللغة العبرية) في الدين اليهودي إلى كل ما عدا اليهود. [المترجم].

كشفت الاضطرابات عن استمرار رفض المسلمين للدولة التي اعتبرها الكثيرون اختراعا فرنسيا. في بادئ الأمر، رفض الكثيرون بطاقات الهوية اللبنانية، لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم سوريين. وفي العام 1925، وقعت ثورات من جانب المسلمين في جنوب لبنان، وكذلك في سورية، جرى قمعها بصعوبة[41]. وعُلِّق الدستور بين العامين 1932 و1937. وشارك الكثير من المسلمين، منهم سليم سلام وبعض الشيعة، مع المسيحيين الأرثوذكس في «مؤتمرات الساحل» في بيت سلام التي دعت حتى العام 1936، وهو وقت متأخر، إلى ضم لبنان إلى سورية[42]. وقاطعوا الانتخابات، وزعموا أن مدن الساحل تسهم باثنين وثمانين في المائة من الدخل الحكومي، في حين أن جبل لبنان يحصل على ثمانين في المائة من الإنفاق الحكومي. كما اشتكوا أيضا من التمييز المنظم في الوظائف، وطالبوا بأن تخصص نصف الوظائف الحكومية والرئاسة نفسها للمسلمين[43]. كانت عائلة سلام لاتزال من التجار والسياسيين السُّنة المؤثرين، ولايزالون كذلك حتى اليوم، لكن ذلك لم يمنعهم من بيع أراض في فلسطين للوكالة اليهودية، وهو نفسه ما فعله وجهاء بيروتيون آخرون مثل عائلة سرسق وعائلة شهاب. وحصلوا على أسعار جيدة، لكن حل محل مستأجري أراضيهم الفلسطينيين مهاجرون يهود[44].

بلور لبنان الجديد فلسفة وأسطورة تأسيسية جديدتين. فبينما كان بعض اللبنانيين مستعدين «للحياة والموت من أجل العروبة»، كان آخرون يولون وجوههم شطر البحر الأبيض المتوسط. كان هؤلاء يطمحون إلى جعل لبنان «فينيقيا جديدة». كان زعماؤهم ثلاثة أصهار متألقين: بشارة الخوري السياسي البارع، وميشال شيحا مهندس النظام الطائفي ومحرر صحيفة لوجور Le Jour (اليوم) الذي أسهم في وضع دستور العام 1926، وهنري فرعون. وكما يفعل كثير من اللبنانيين إلى اليوم، كان شيحا يعرف اللغة العربية، لكنه لم يكتب بها على الإطلاق. تزوج شيحا أخت هنري فرعون شريكه في بنك فرعون وشيحا Banque Pharaon et Chiha، الذي كان كاثوليكيا يونانيا، وكان عضوا في الطائفة الأكثر نجاحا في التجارة والفنون وفي الحفاظ على علاقات جيدة مع كل من الوطنيين المحليين والقوى الأوروبية.

اعتبر هؤلاء «الفينيقيون المُحْدَثون» أنفسهم ورثة كيان تاريخي مميز عمره ثلاثة آلاف عام، قام على المدينتين التجاريتين القديمتين صور وصيدا، وهما أقدم

الدول المدينية في العالم، كانتا - ولاتزالان - تشكلان إلهاما لبعض اللبنانيين، تماما كما كانت الإسكندرية وسميرنا القديمتان تمثلان بالنسبة إلى بعض السكان اليونانيين الحديثين[45].

اعتبر البعض الفينيقية مؤامرة مسيحية. لكن كما تجلى في حالة حزب الوفد في مصر وإحيائه الفرعونية، أو في حالة مصطفى كمال وإحيائه الحثيين في تركيا الحديثة(*)، أراد بعض المسلمين في لبنان أيضا هوية ما قبل إسلامية. ومنذ ذلك الوقت بدأت علامات فينيقية مثل السفن والأرز والأبجدية الأولى تظهر في لبنان على العملات المعدنية والصور وفي الكتب والشعارات، ولاتزال كذلك إلى اليوم. كما افتُتِح المتحف الوطني في السابع والعشرين من مايو 1942، وكان مديره ابن العائلة الحاكمة القديمة الأمير موريس شهاب، وخصص المتحف غرفا لماضي البلاد الفينيقي أكثر من ماضيها الإسلامي. فعلى غرار التاريخ، كانت الآثار قضية سياسية[46].

رأى «الفينيقيون المُحْدَثون» أن لبنان مقدَّر له بحكم التاريخ والجغرافيا أن يكون تقاطع طرق للحضارات وحلقة وصل بين الشرق والغرب. و«أوروبا» التي حملها ثور على ظهره عبر البحر، كانت ابنة ملك صور(**)، ويمكن أن يعاد الارتباط بين لبنان وأوروبا من خلال هويتيهما البحر متوسطية المشتركة. أما ميشال شيحا، فكان من رأيه أن هوية لبنان تقوم على التنوع، فـ«الهوية اللبنانية بحر متوسطية. ولبنان هو اللبنانيون ليس أكثر، وفينيقيته ليست أقوى من مصريته أو إيجيته أو آشوريته أو بحر متوسطيته أو يونانيته أو رومانيته أو بيزنطيته أو عروبته»[47]. و«لبنان المنارة» الذي ابتُكِرت فيه أول أبجدية، يجب أن يعود ثانية مصدرا للنور للغرب والشرق. ولا بد أن يكون «الأرض الموعودة، أرض التفاهم المتبادل والتسامح

(*) الحثيون، شعب هندوأوروبي كانت له حضارة وإمبراطورية قبل ثلاثة آلاف عام في الأناضول وشمال بلاد الشام. وعلى رغم الوجود التاريخي للأتراك في جنوب شرق أوروبا عموما وآسيا الصغرى تحديدا، فإن الأتراك العثمانيين جاءوا إلى الأناضول من آسيا الوسطى إبان القرن الثاني عشر. [المترجم].

(**) تقول الميثولوجيا اليونانية إن أوروبا Europa كانت امرأة فينيقية من أصل عريق، وفي رواية أخرى ابنة أجينور ملك صور الفينيقية، اختطفها زيوس وهو على هيئة ثور بعد أن نفث فيها زعفران من فمه وحملها على ظهره إلى جزيرة كريت. تعد هذه الأسطورة من الأساطير التأسيسية لأوروبا. [المترجم].

والحرية» (بشارة الخوري)، و«نبع الفلسفة والثقافة» (الرئيس اللبناني المستقبلي كميل شمعون)[48].

***

في العام 1941 أضافت بيروت إلى رصيدها من النزاعات الحرب بين فرنسا الفيشية وبريطانيا. دمر سقوط فرنسا في يونيو 1940 المسيحيين اللبنانيين الذين بنى كثيرون منهم حياتهم على القوة والثقافة الفرنسيتين. في حين كان كثير من العرب يؤيدون ألمانيا، استنادا إلى مبدأ «عدو عدوي صديقي»، وكانوا فرحين لأنه بعد عشرين عاما من إذلالهم على يدي فرنسا، جاء الدور على فرنسا لتذوق الذل[49]. وغدت الأغنية «ما عاد مسيو، ما عاد مستر، كله يولي، بفضل الله والسيد هتلر» تعمّ شوارع دمشق وبيروت[50]. وعلى رغم أن الإدارة الفرنسية حاولت أن تبقى على الحياد، فقد سمحت للطائرات الألمانية في أبريل ومايو 1941 باستخدام المطارات السورية، بل أرسلت إمدادات عسكرية لدعم الجانب العراقي ضد بريطانيا[51].

ونزولا على إصرار تشرشل، قررت بريطانيا وفرنسا الحرة غزو لبنان في الحادي والعشرين من مايو، وشنّتا «العملية إكسبورتر» Operation Exporter في الثامن من يونيو 1941. وبذلك أُخذِت قوات الحلفاء في طريق جانبي، على رغم أن العراق كان قد أُخْضِع فعلا في ذلك الوقت، وأن الطائرات الألمانية كانت قد غادرت، وكان وافيل في حاجة إلى كل القوات المتاحة للحرب في مصر. كان الدافع وراء ذلك هو الخوف من الاختراق الألماني والحاجة إلى إظهار الروح القتالية في وقت كان الحلفاء فيه قد فقدوا اليونان من فورهم. لاحقا شكّ بعض الفرنسيين في أن بريطانيا غزت سورية لإخراجهم منها. لذلك طبع القائد الفرنسي الحر الجنرال جورج كاترو Georges Catroux وهو أكبر ضابط فرنسي انضم إلى ديغول، آلاف الكراسات الدعائية التي تعد سورية ولبنان بالاستقلال التام[52].

حاربت قوات فرنسا الفيشية وسفنها وطائراتها على نحو أفضل من المتوقع، على الأخص ضد قوات فرنسا الحرة، حتى قيل إن القوات الفرنسية لو قاتلت ضد الألمان في العام 1940 بالحماسة التي أظهرتها ضد الحلفاء في العام 1941 لربما اتخذت الحرب مسارا مختلفا تماما[53]. لكن بحلول أوائل شهر يوليو، وجزئيا

بفضل المهارة القتالية للأستراليين، كان النصر من نصيب الحلفاء. غير أن بيروت لم تتكبد أضرارا كبيرة، إلا من الغارات الليلية لسلاح الجو الملكي البريطاني، إذ أصر الرئيس اللبناني ألفريد النقاش على إعلانها «مدينة مفتوحة»[54]. ومن خلال وساطة القنصل الأمريكي، وُقّعت هدنة في الرابع عشر من يوليو. وفي اليوم التالي دخلت قوات الحلفاء بيروت دخولا علنيا. وساد الهدوء المدينة. وحول ساحة الشهداء اكتظت النوافذ وأسطح البيوت بأناس يلوحون بأعلام فرنسا الحرة. ظن اللبنانيون أنهم في طريقهم إلى نيل الاستقلال[55]. آثر 90 في المائة من القوات الفرنسية في سورية ولبنان أن يبحروا إلى فرنسا الفيشية، بدلا من البقاء في المشرق للقتال في صف فرنسا الحرة. وانحازت الأغلبية الساحقة من الفرنسيين إلى بيتان ضد ديغول، ربما دفعهم إلى ذلك الاحتلال الألماني الذي بدا ناجحا للاتحاد السوفييتي الذي شُنّ في الثاني والعشرين من يونيو 1941. وفيما رحلت أغلبية القوات الفرنسية، بقي المسؤولون الفرنسيون[56].

***

وبعد أن سبّب المشرق حربا بين بريطانيا وفرنسا الفيشية، أوشك أيضا أن يسبّب حربا أخرى بين بريطانيا وفرنسا الحرة، علاوة على دفع ديغول في رأي بعض شهود العيان إلى حافة الجنون[57]. كانت الشخصية الرئيسة في تلك الأحداث هي الجنرال سير إدوارد سبيرز Edward Spears الذي لعب بين العامين 1941 و1944 دورين متعارضين: ضابط الاتصال الفرنسي - البريطاني في سورية ولبنان، ووزير بريطاني مفوض في هاتين الدولتين. بوصفه ضابط اتصال متفرنسا لتشرشل مع الحكومة الفرنسية، طار سبيرز في السابع عشر من يونيو 1940 على متن الطائرة نفسها مع ديغول من بوردو إلى بريطانيا. ومن أواخر شهر يونيو 1941 غيّر سبيرز دوره خوفا من إشارة ديغول إلى أنه غير مهتم بانتصار بريطانيا، وتصميمه الذي كرره في زيارة ثانية في أغسطس 1942 على عدم منح الاستقلال الموعود لسورية ولبنان لعدد غير محدد من السنين. إذ تحوّل سبيرز من دور حامي ديغول إلى عدو مصمم - كما قال - على عدم مساعدة «فرنسا الحرة في اغتصاب» سورية ولبنان، لأنه كان متأكدا من أن مكافأته لن تكون غير «رفسة في مؤخرته». فمثل سكان المشرق، كان زوار المشرق أيضا قادرين على تغيير هوياتهم بسهولة. وبعد أن كان سبيرز لا يبدي أي

اهتمام سابق بسورية ولبنان، تبناهما كقضية شخصية، حتى صار أحيانا سفيرا لهما لدى الحكومة البريطانية[58].

***

ربما كانت تدفع سبيرز أيضا عواطف خاصة. إذ كتب في مذكراته أن المشرقيين «نتاج حضارة أعرق وأرقى كثيرا» من الفرنسيين. كانت البيروتية مود فرج الله Maud Farghallah تعرف سبيرز جيدا، وكذلك آمال الأطرش، الأميرة الدرزية من سورية التي اشتهرت في القاهرة كمطربة وممثلة باسم أسمهان. في مايو 1941 جند آمال عميلُ الدعاية البريطاني في دمشق لإقناع السوريين – باستخدام جنيهات ذهبية إنجليزية - بأن بريطانيا ستربح الحرب ضد فرنسا الفيشية. وفيما بعد، عاشت الأميرة في بيروت، وكانت كثيرا ما تغني في الحفلات المقامة في قصري عائلة بسترس وتويني. كمشرقية حقيقية، جمعت آمال بين كثير من الأدوار المختلفة: الأميرة الدرزية، والنجمة السينمائية المصرية، والمطربة العربية، والعميلة البريطانية، عشيقة علية القوم. وقع سبيرز في غرامها، كما حدث مع كثير من الضباط البريطانيين، ومنهم الجنرال جاك إيفتس Jack Evetts قائد القوات البريطانية في سورية. تحوي كتابات سبيرز ما يعد الكتابة الأكثر رومانسية في مذكرات جنرال بريطاني: «كانت (آمال) وستظل دائما من أجمل النساء اللاتي رأيتهن على الإطلاق. كانت عيناها رائعتين وفي خضرة لون البحر الذي تعبره وأنت في الطريق إلى الجنة... وعرفت لاحقا أنها تتمتع بصوت متألق... كانت تصرع الضباط البريطانيين بسرعة الرشاش الآلي ودقته. وكانت عادة تحتاج إلى المال وتنفقه بالسرعة التي تبعثر بها سحابة المطر الماء»[59].

يقول صديق فرنسي لآمال من هذه الفترة: «كانت امرأة في كل شيء. وكانت تعرف كيف تتلاعب بالرجال. كانت شيطانة مع الرجال»[60]. وذاع خبر هيام الجنرال إيفتس بها بين الناس حتى استدعته إنجلترا من سورية.

في منتصف شهر سبتمبر غادرت آمال بيروت فجأة مع صحافي أمريكي مرح يدعى مستر فيوليت Mr Violet كان هو الآخر عميلا لألمانيا. استقلّا السيارة إلى حلب لأخذ قطار طوروس السريع (المعروف باسم الماخور المشّاء le bordel ambulant) الذي يمتد بين بغداد وإسطنبول، للذهاب إلى تركيا المحايدة. كانت أسمهان تنوي أن تبيع للسفارة الألمانية في أنقرة الخطط العسكرية التي تنوي سرقتها من عشاقها

البريطانيين. وقبل أن يصل القطار الحدود التركية مباشرة، اعتقلها ضابط بريطاني. يتذكر هذا الضابط «أنها عضتني في ذراعي وظلت ترفسني لفترة طويلة».

وبعد أن أعيدت إلى بيروت ووضِعت قيد الإقامة الجبرية، استغلت العداء بين البريطانيين والفرنسيين الأحرار وحصلت على فيلا وراتب وحارس من سلاح الفرسان من الفرنسيين الأحرار(61). وقيل إن المرء كان يمكن أن يجد في غرفة نومها كبير الطيارين كينيث باس Kenneth Buss تحت السرير، والجنرال إيفتس فوق السرير، وسبيرز معلقا في الثريا، ما يجعلك لا تشعر بالوحدة أبدا(62). كتبت زوجة سبيرز في يومياتها الكثير من العناوين حولها: «حفل كوكتيل ممتد للأميرة»، و«عشاء للأميرة».

وبعد أن أوقف الفرنسيون الأحرار راتبها، انتقلت إلى القدس ثم إلى القاهرة. وفي العام 1944، وبعد أن انتهت من فورها من تصوير فيلم بعنوان «غرام وانتقام»، ماتت أسمهان في حادث سيارة انحرفت بها في ترعة بدلتا النيل. ولاحقا، تجشم سبيرز عناء السفر خارج القاهرة إلى الريف المصري لزيارة مشهد وفاتها(63)(*).

***

في غضون ذلك، تطورت «مهمة سبيرز» في سورية ولبنان ومقرها بيروت، إلى حكومة موازية تنقسم إلى قسم عسكري وبحري واقتصادي تضم مائة مسؤول سياسي. كان من إنجازات سبيرز في العام 1942 هزيمة رغبة أصحاب الأطيان والفلاحين في رفع أسعار الخبز بإخفاء القمح. إذ كانوا على استعداد لتجويع شعبهم، كما فعل جمال باشا وميشال سرسق إبان الحرب العالمية الأولى. كانت الحمير المستخدمة في نقل أجولة القمح إلى مخابئ سرية تُحمَّل بأجولة لكي تسير من تلقاء نفسها وتقود موظفي لجنة القمح إلى المخابئ(64).

من خلال إخفاء الاختلافات الدينية فيما كان في ذلك الوقت المناخ المعتدل لبيروت، كان السياسيون اللبنانيون يضعون «الميثاق الوطني». كان رياض الصلح إحدى الشخصيات البارزة في ذلك الحين. ولكونه ابن المسؤولين العثمانيين

(*) أثيرت إشاعات كثيرة عن مقتل أسمهان، منها أن الملكة نازلي هي التي دبرت الحادث بسبب العلاقة التي ربطت أسمهان برئيس الديوان الملكي أحمد حسين باشا الذي كان عشيق الملكة أو زوجها العرفي، إذ لم يكن في مقدورها أن تتزوج رسميا لكونها أم الملك. [المترجم].

وحفيدهم والمسلم الذي تلقى تعليمه في مدرسة اللازاريست والكلية العثمانية ببيروت، كان رياض الصلح في بادئ الأمر يؤيد الوحدة مع سورية المستقلة. وفي أثناء الانتداب الفرنسي حُكم عليه بالموت غيابيا. وحتى بعد تعليق الحكم، لم يدخل السراي الكبير[65]. وبعد العام 1937 أخذ يؤيد فكرة لبنان المستقل. كان من المؤيدين الآخرين بشارة الخوري وميشال شيحا وهنري فرعون وكذلك البطريرك الماروني الذي أراد من فرنسا أن تغادر بعد نزاع معها حول احتكار التبغ في العام 1935. وقال البطريرك في ذلك إن فرنسا تشبه الشمس، تنير من بعيد، لكنها تحرق من يقترب منها.

في أغسطس 1943 جاءت الانتخابات بحكومتين وطنيتين إلى السلطة في كل من سورية ولبنان. من بين القبضايات الواحد والثمانين في بيروت، تلك الشخصيات الرئيسة في جمع أصوات الناخبين، كان واحد وخمسون يؤيدون صديقهم رياض الصلح[66]. اعترف سبيرز في مفكرته، وإن لم يكتب ذلك لاحقا في المذكرات، بأنه شجع سرا مطالب الوطنيين بالاستقلال[67]. وكان يفتخر بين موظفيه بأن رياض الصلح لم يكن يفعل شيئا من دون استشارته، وشبّه الموقف باندلاع الثورة الفرنسية في العام 1789، وقد صدمت بعض موظفيه فضلا على وزارة الخارجية رغبته في التنمر على المسؤولين الفرنسيين وإرهابهم «في كل مناسبة ممكنة»[68].

كانت الوطنية اللبنانية تزداد قوة منذ العام 1870، وعكست كذلك رغبة عالمية في الانعتاق من أوروبا. وفي التاسع عشر من سبتمبر 1943 اكتمل الميثاق الوطني بين بشارة الخوري ورياض الصلح في عاليه بالجبال المطلة على بيروت. تخلى الميثاق عن أفكار الهيمنة المارونية أو الوحدة السورية لمصلحة فكرة مشرقية تقوم على التوازن. وباستخدام إحصاء السكان للعام 1932 كأساس لتوزيع الوظائف، خُصص ثلاثون مقعدا للمسيحيين، وخمسة وعشرون للمسلمين في البرلمان. أما منصب الرئيس فأعطي للموارنة، وأعطي منصب رئيس الوزراء للمسلمين السنة، و(بعد العام 1947) رئيس مجلس النواب للشيعة. وأعطي منصب وزير الدفاع للدروز، ورئيس هيئة الأركان للموارنة. كانت الدوائر الانتخابية متعددة الأعضاء، مع حجز مقاعد لكل طائفة، لجعل النواب من كل طائفة في حاجة إلى أصوات من الطوائف الأخرى. اتُّخِذت الطائفية كصمام أمان، إذ أريد بالميثاق الوطني أن يجعل

المسلمين يشعرون بأنهم لبنانيون، والمسيحيين يشعرون بأنهم عرب. لكن على أرض الواقع حصل الموارنة بفضل تعليمهم وتنظيمهم الأعلى على وظائف أكثر من العدد المخصص لهم، والشيعة على وظائف أقل من العدد المخصص لهم[69].

عند افتتاح مجلس النواب في السابع من أكتوبر، أعلن رئيس الوزراء رياض الصلح تصميمه على نيل «السيادة الوطنية الكاملة» وإنهاء الانتداب وإنهاء استخدام الفرنسية لغة رسمية، وأخذ يهاجم فرنسا وهيمنتها الثقافية والسياسية (ومنذ ذلك الحين أصبحت العربية اللغة الرسمية الوحيدة للحكومة، وإن ظلت الفرنسية مستخدمة على نطاق واسع لغة للثقافة والتجارة. وظل كثير من اللبنانيين الذين يجدون صعوبة في قراءة العربية أو كتابتها مضطرين إلى استخدام مترجمين محترفين للوثائق الرسمية). وإيمانا منه بأن لبنان يجب أن يكون «وجهه عربيا»، أيد الصلح تعديل دستور العام 1926 وتوثيق الصلات مع الجيران العرب[70].

ردت السلطات الفرنسية، الذين خدم أغلبيتهم في قوات فيشي، بانقلاب أخرق. كان ديغول أقل واقعية في المشرق منه في الجزائر لاحقا. وفي الحادي عشر من نوفمبر 1943، وعلى رغم أنه أعطى سبيرز في الليلة السابقة كلمة شرف بأنه لن يفعل ذلك، أقدم المندوب الفرنسي الجنرال جان هللو Jean Helleu على تعليق الدستور، وإغلاق مجلس النواب، وفرض حظر التجوال، وأمر باعتقال الوزراء والرئيس الخوري من غرف نومهم وإيداعهم السجن في شمال لبنان. أسرع ابن الخوري مذعورا إلى إيقاظ سبيرز من نومه لإخباره بما حدث. وامتلأت شوارع بيروت بجنود سنغاليين كانوا «يضحكون وهم يطلقون النار على المارة من دون تمييز» بتعبير سبيرز. وفي الخامس عشر من نوفمبر أُوقِفت سيارة سبيرز نفسه ورُفِع مسدس معمر في وجهه. وأطلقت النيران خارج الجامعة الأمريكية ببيروت على مظاهرة طلابية، أصيب فيها كثيرون[71].

حقق الانقلاب الفرنسي معجزة توحيد كل اللبنانيين تقريبا ضده. ففي الثاني عشر من نوفمبر تجمع حشد محتج من النساء المسيحيات بالدرجة الأولى في وسط بيروت. وفي حي إسلامي انضمت إليهن نساء مسلمات قمن فجأة «في حركة واحدة كأنهن كن يطعن قيادة صامتة برفع أحجبتهن عن رؤوسهن». شعر سبيرز بأنه أمام «موجة عظيمة من العاطفة... تشبه جنيا أُطلِق من كهف». قدم له الحشد عريضة تطلب من تشرشل التدخل: «إننا السيدات اللبنانيات من

الطوائف المختلفة نحتج بقوة على العدوان والخيانة الآثمين اللذين اقترفا بحق مسؤولي حكومتنا المستقلة... إنها إهانة لشرفنا وحريتنا». قال الدكتور بيار ضودج Bayard Dodge من الجامعة الأمريكية لسبيرز إن الفرنسيين أضاعوا ما بقي لهم من هيبة، حتى لدى المسيحيين. وقال رئيس أساقفة بيروت الماروني «بحرارة شديدة»: إن هناك اتفاقا كاملا بين المسيحيين والمسلمين، وإن الفرنسيين بعد سنوات من الاستغلال يجب أن يرحلوا. وهو الرأي نفسه الذي عبّر عنه المفتي. وأعلِن الإضراب العام. غير أن كثيرا من المحلات في حي الجميزة المسيحي الواقع وراء ساحة الشهداء رفضت أن تغلق أبوابها[72].

وفي الثاني والعشرين من نوفمبر، وتحت ضغط بريطاني، مع العلم بأنه كانت لاتزال هناك قوات بريطانية وفرنسية كثيرة في المنطقة، أمر هللو بإطلاق سراح الرئيس والوزراء. ودخل بشارة الخوري ورياض الصلح بيروت دخول المنتصرين. واستُدعي هللو إلى بلاده. كانت فرحة الحشود في ساحة الشهداء غامرة حتى إنها ذكّرت سبيرز بباريس في الحادي عشر من نوفمبر 1918، وهو اليوم الذي أُعلِن فيه انتهاء الحرب العالمية الأولى[73]. وفي يناير 1944 أخذ اللبنانيون السيطرة على الإدارة من الفرنسيين[74].

كان سبيرز محررا في نظر معظم اللبنانيين. لكنه أُبْعِد في ديسمبر 1944. إذ اعتبرته وزارة الخارجية البريطانية مسؤولا عن أغلبية المشكلات الحادثة في لبنان وأنه «من دون شك مبغض للفرنسيين»[75]. غادر سبيرز مكرما، إذ أُعطي حق المواطنة في بيروت ودمشق، وسُمي شارع على اسمه. واليوم يقف محل الحلاقة الرجالي «صالون سبيرو» بشارع سبيرز تذكارا ملائما لرجل كان يسعد دائما بمظهره الأنيق[76].

غير أن رحيله لم يغيّر الشيء الكثير. كان لبنان يريد الاستقلال، وفرنسا تريد السيطرة. تمثلت نقاط النزاع المتبقية في السيطرة على الدرك والشؤون الاقتصادية، وكذلك الرغبة الفرنسية في قواعد عسكرية وبحرية. وفي السادس من مايو 1945 أُنزِلت قوات فرنسية، كثيرون منهم من السنغاليين، من السفن الحربية في ميناء بيروت. ورفض لبنان وسورية التفاوض. وأُعلِن الإضراب العام. قصفت القوات الفرنسية دمشق، بما في ذلك بناية البرلمان، مطلقة ما أسماه تيرنس شون Terence

Shone خليفة سبيرز «عهد الإرهاب» وثمانمائة حالة وفاة. وأخيرا في الحادي والثلاثين من مايو أمر تشرشل القوات البريطانية بحجز الفرنسيين في الثكنات[77].

أعلن ديغول أنه لن ينسى أن بريطانيا «أهانت فرنسا وخانت الغرب». وفي الأول من أغسطس انتقلت السيطرة كاملة على القوات المسلحة في لبنان وسورية إلى الحكومتين الوطنيتين. وفي الحادي والثلاثين من ديسمبر 1946 أخبر رياض الصلح مجلس النواب برحيل آخر الجنود الفرنسيين عن لبنان. سجلت يوميات الصلح نشوة التحرر: «ارتعشت يدي وأنا أمسك بنص خطابي، وارتجف صوتي من شدة التأثر. وأخذت أنطق بصعوبة كلمات كررتها وتدربت عليها طوال حياتي... تمنيت أن يكون رفاقنا الشهداء معنا في ذلك اليوم. إنني أرى روح أبي فرحة ومبتسمة. تغمرني الفرحة لأنني كنت محظوظا بما يكفي حتى أعيش إلى ذلك اليوم»[78].

16

باريس الشرق الأوسط

«وأهديناكِ مكان الوردة سكينا»

نزار قباني، 1990

بعد العام 1946 نجت بيروت المستقلة ولبنان والميثاق الوطني من التهديدات التي ابتلعت كثيرا من الدول الأقوى. وفي العام 1948 أدت الهزيمة العربية في الحرب العربية - الإسرائيلية الأولى إلى وصول مائة وعشرين ألف لاجئ فلسطيني إلى لبنان في حالة من المرارة والبؤس، استقر كثيرون منهم في «حزام بؤس» من المخيمات المؤقتة حول بيروت، بعد أن كان كثير من الفلسطينيين الأكثر ثراء قد انتقلوا من قبل إلى بيروت لتجنب الصراع، ما أضعف الفرص الفلسطينية في هزيمة إسرائيل.

وعلى رغم المعارضة السورية، انتهت الوحدة الاقتصادية مع سورية في العام 1950.

«تمثّل رمز تدمير الذات في حالة بيروت في استبدال بناية السراي الصغير الحجرية الجذابة التي ترجع إلى العام 1884، والواقعة في ساحة الشهداء، بسينما ريفولي الخرسانية في العام 1960»

وفي العام 1951 اغتيل رياض الصلح في أثناء زيارة له إلى عمان انتقاما لإعدام أنطون سعد قبل سنتين بسبب شن حزب الشعب السوري التابع لسعد هجمات على البنايات الحكومية اللبنانية. خلّدت بلدية بيروت ذكرى رياض الصلح بتمثال في ساحة قريبة من البرلمان تسمى حاليا ساحة رياض الصلح[1]. وفي العام 1956 قوّض الهجوم البريطاني - الفرنسي - الإسرائيلي على مصر استقرار الشرق الأوسط وأسهم في قيام الوحدة المصرية - السورية ضمن «الجمهورية العربية المتحدة» في الأعوام 1958 - 1961 بقيادة سيرانة القومية العربية جمال عبدالناصر[*]. وفي العام 1961 وقعت محاولة انقلاب عسكري أخرى من جانب حزب الشعب السوري[2].

كان التهديد الرئيس للبنان عسكريا. إذ كان الجيش والدرك اللبنانيان يتكونان من بضعة آلاف رجل فقط، بينما ظلت بيروت كما كانت إبان القرن التاسع عشر مدينة البنادق. إذ كان كثير من اللبنانيين يحتفظون ببندقية في بيوتهم، ويحتفظ سائقو سيارات الأجرة ببنادق تحت مقاعد القيادة، على رغم أنها كانت لا تستخدم إلا نادرا[3]. وكان الآباء يصوّرون أبناءهم وهم يحملون البنادق، حتى الأطفال الرضع[4]. وكان القادة السياسيون جميعا، حتى رياض الصلح نفسه، يستخدمون حراسا مسلحين. وعندما طُرد الزعيم الدرزي الأرستقراطي الاشتراكي كمال جنبلاط من البرلمان بسبب التلويح بمسدسه، صاح في الحضور: «سأخرج الآن، لكنني سأعود بقوة السلاح»[5]. حتى إن كثافة إطلاق النيران في أثناء انتخابات العام 1950، ذكّرت ديبلوماسيا بريطانيا بقصف لندن[6].

سُجِن صحافي يدعى جورج نقاش، محرر صحيفة «لوريون» L'Orient [الشرق]، لوصفه البرلمان اللبناني بأنه تحالف متغطرس بين رأس المال والإقطاع، وصار جورج مهددا من طابور خامس من المسلمين والمسيحيين[7]، لكن الرجل كان محقا. وكذلك شعر بعض المسلمين بأنهم مهمشون من جانب الدولة الواقعة تحت سيطرة المسيحيين. وفي العام 1951 جاء في تقرير للشرطة أن «كل المسلمين في لبنان، المتعلمين وغير المتعلمين على حد سواء، يشعرون بأنهم مغبونون وأن العناصر المارونية المتطرفة تعمل من خلال مؤسسات السلطة لجعلهم أقلية

(*) السيرانة siren، واحدة من كائنات أسطورية يونانية لها رؤوس نسوة وأجساد طيور، كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك. [المترجم].

مهمَلة وعاجزة كليا». سيطر المسيحيون على المناصب العليا في الشركات والرئاسة والوزارات، بما في ذلك مصلحة إحصاء السكان التي لم تنشر تعدادا واحدا للسكان خوفا من كشف الصعود في نسبة المسلمين. وخشي بعض المسلمين من أن يتحول لبنان إلى «وطن قومي» للمسيحيين العرب وحليف لإسرائيل، وهي الرغبة التي عبّر عنها بعض الموارنة من حين إلى آخر[8]. وكان الرئيس كميل شمعون الذي تولى السلطة في العام 1952 لا يخفي تأييده للغرب، حتى إنه أراد أن يأخذ لبنان إلى «حلف بغداد» الذي كانت بريطانيا تهيمن عليه والذي ضم تركيا والعراق وإيران وباكستان. بينما وضع المسلمون صور عبدالناصر وليس شمعون على جدران بيوتهم.

وفي العام 1958 أخذ مزيد من البنادق يتدفق على البلاد. وقف كثير من رجال الدولة، مثل صائب سلام (ابن سليم سلام)، وكذلك البطريرك الماروني، في وجه الرئيس كميل شمعون الذي حاول، في تعارض مع نصوص الدستور، الترشح لمدة رئاسة ثانية. وصار البطريرك على اقتناع بأن الموارنة كانوا قطرة في المحيط وأنهم يجب أن يعيشوا في سلام مع المسلمين[9]. وكان صائب الزعيم الطبيعي للمسلمين من خلال أعمال الخير التي كان بوسعه أن يتوجه بها إلى المسلمين السُّنة كرئيس لشركة طيران الشرق الأوسط التي كانت في ذلك الوقت أكبر شركة طيرانٍ في المنطقة، ومن خلال سيطرة عائلته على جمعية المقاصد الخيرية[10]. وفي مايو أُعلِن إضراب عام، وأُغلِقت دور السينما والنوادي الليلية. كان بيت صائب سلام وحديقته، وكذلك بيوت الزعماء الآخرين تمتلئ بشباب مسلحين «يرفعون بنادقهم لأزيز الذباب». وأقيمت متاريس في شوارع بيروت. وغدت بعض الطرق أشبه بـ «وديان خاوية» لا تمر فيها غير القطط، ومن حين إلى آخر دورية للجيش، وكانت العائلات ترقب الوضع من شرفات البيوت[11].

كان القائد العام للجيش هو الجنرال فؤاد شهاب، الذي تحدّر من فرع فقير لتلك العائلة الإقطاعية الكبيرة. رفض فؤاد أن يتدخل الجيش في السياسة. وعلى النقيض من ذلك، طلب الرئيس شمعون التدخل الأمريكي للحفاظ على القانون والنظام. ونزل جنود البحرية والدبابات الأمريكية من سفن الأسطول السادس على شاطئ الرملة البيضاء أدنى رأس بيروت، وسط دهشة من البيروتيين الذين كانوا

يأخذون حمامات شمسية بالمايوه البكيني، مع أن السفير الأمريكي روبرت مورفي تذكر لاحقا أنه «لم يتم إنزال أسلحة نووية» إلى بر لبنان. ونجح الجيش اللبناني في أن يمنع تقدمهم إلى وسط المدينة لبعض الوقت[12].

في ذلك الصيف مات في كل أنحاء البلاد نحو ألفين وخمسمائة شخص في حرب طائفية. واستقال شمعون في شهر يوليو وحل شهاب محله رئيسا للبلاد بشعار «لا غالب ولا مغلوب». وانسحب آخر جنود البحرية الأمريكية في أكتوبر من ذلك العام. وصف الكاتب الإنجليزي ديزمند ستيوارت Desmond Stewart أحداث العام 1958 في لبنان بأنها أول «ثورة شعبية حقيقية في العالم العربي» (في مقابل الأحداث التي وقعت في يوليو 1952 في مصر). ومن خلال الاحتفاظ بعلاقات جيدة مع المسلمين وبطلهم عبدالناصر، رفع شهاب حجم الجيش اللبناني إلى خمسة عشر ألفا وقوّى المخابرات العسكرية المعروفة باسم المكتب الثاني بهيئة الأركان العامة[13]. ساعد أحد «القبضايات» التابعين لشهاب - هو إبراهيم قليلات، زعيم عصابة مؤثر في منطقة الميناء - في جمع أصوات الناخبين لشهاب، إضافة إلى تجارة المخدرات وتهريب الأسلحة وتوفير الحماية للشركات في مقابل المال، وفي منطقة قليلات استُقبِلت براءته في العام 1966 من اغتيال محرر صحيفة معادٍ لعبدالناصر يدعى كامل مروة بوابل من النيران وذُبح كثير من الخراف[14].

كان استمرار وجود جالية يهودية صغيرة على رغم حالة الحرب مع إسرائيل إحدى أمارات إمكانية نجاح لبنان كدولة لكثير من الأقوام والأديان، على نحو ما أراد شيحا وفرعون. يتذكر اليهود لبنان كجنة للأمن والازدهار. كتب يهودي بيروتي يدعى ديزاير لينيادو Desire Liniado: «لدي كل ما يجعلني سعيدا. وداعا العام 1947. يحيا العام 1948». وبعد إنشاء الكيان الصهيوني وحرب السويس، زاد عدد اليهود في بيروت من خمسة آلاف إلى سبعة آلاف، بينما فروا من جيرانها العربيات أو طُرِدوا منها[15].

في أحد التحولات المؤثرة في هذه الأثناء، كان الشيعة يبدأون الانتقال من الريف إلى ضواحي بيروت الجنوبية. وفي 1967 اعترفت الدولة اللبنانية بهياكلهم الطائفية، وكان زعيمهم الرسمي الأول هو الإمام موسى الصدر، الذي ظل اختفاؤه في أغسطس

1978 في أثناء زيارة رسمية إلى ليبيا بلا تفسير. ولايزال بعض الشيعة يؤمنـون بعودته الوشيكة[16].

***

أسهم التنافس بين الأديان في إعطاء بيروت مدارس وجامعات أفضل من غيرها، وكذلك استفاد اقتصادها بعض الوقت من النزاعات الإقليمية. إذ أدّت الحرب العربية - الإسرائيلية الثالثة في العام 1967 إلى ازدهار بيروت كميناء عبور مع إغلاق قناة السويس ثماني سنوات، تماما كما أدّت حرب العام 1948 إلى إزالة حيفا كمنافس لتجارة العبور مع المشرق والعراق. لذلك بُني حوض ثالث لميناء بيروت في العام 1967، واعتُمِد بناء حوض رابع قبل اندلاع الحرب الأهلية في العام 1975[17]. دفعت الانقلابات العسكرية وعمليات التأميم في سورية كثيرا من السوريين إلى الانتقال إلى لبنان ومعهم مهاراتهم ورأسمالهم. وبالمثل، دفعت عمليات التأميم التي نفذها عبدالناصر في مصر بعد العام 1961 كثيرا من السوريين واللبنانيين إلى العودة إلى بيروت (التي صُدم بعضهم فيها عندما رأوا الأولاد الأغنياء في مدارسها يدفعون للأولاد الآخرين لتلميع أحذيتهم)[18].

على نحو ما خطط شيحا وفرعون، غدت الرأسمالية جزءا من هوية بيروت. وبحلول العام 1951 كان 30 في المائة من حركة الذهب العالمية تمر عبر المدينة[19]. وبلغ متوسط النمو الاقتصادي 7 في المائة في ذلك العام. وعلى النقيض من اشتراكية الدولة التي فُرِضت في سورية ومصر، أسهم قانون العام 1956 الذي أدخل سرية العمليات البنكية، باقتراح من ميشال شيحا، في تحويل لبنان إلى «سويسرا الشرق الأوسط»، وهو الوصف الذي تباهى به كثير من اللبنانيين. وفي البلدان العربية الأخرى، صعدت نظم وسقطت أخرى، بينما ازدهرت بيروت. وغدا شارع البنوك أسفل السراي الكبير وبجوار البرلمان وساحة ليتوال، رمزا للرأسمالية اللبنانية[20]. ضمت بيروت في آن معا بنوكا يهودية (بنك زيلخا وبنك صفرا) وفلسطينية (البنك العربي وبنك إنترا الذي انهار في العام 1966). وعندما وصل إلى بيروت ثيو لارسون Theo Larsson، ابن القنصل السويدي في القدس، قال له الرئيس شمعون إنه في لبنان «لا شيء ممنوع، إلا أن يكون جيبك خاويا، وفي هذه الحالة لا شيء يمكن أن يغفر لك». وبيروت التي كانت تعد ريفية في السابق، غدت مدينة كوزموبوليتانية

وصفتها صحيفة تايمز في العام 1964 بأنها «سويس الأموال»[21](*). ولأول مرة توقفت الهجرة تقريبا[22].

ومع تدفق الفلاحين بحثا عن العمل، خصوصا الشيعة الآتين من الجنوب، ارتفع عدد سكان بيروت من ثلاثمائة ألف في العام 1950 إلى مليون ومائتي ألف في العام 1975. وفي ذلك الوقت كانت المدينة قد وصلت إلى الوضعية الفريدة بكونها العاصمة التي تضم نصف سكان دولتها[23]. ومع ازدهار الاقتصاد، قيل إن المستشار الاقتصادي للحكومة بول فان زيلاند Paul van Zeelandt قال: «أنا لا أعرف ما الذي يجعل عجلة الاقتصاد تدور، لكنها تعمل بشكل جيد جدا، وأنصحكم بألا تقربوها»[24].

***

كتب جيمس موريس في العام 1957 ثناء مفعما بالحياة للمدينة: «عندما ذهبت إلى بيروت لأول مرة، كرهت إحساس المرتزقة المتجذر الذي ينبعث من المدينة». لكنه تحوّل إلى تفضيل المدينة على بقية الشرق الأوسط «المتورط في سعي دؤوب وراء السلطة والانتقام»، ذلك «أنني أعرف أن العواطف التي تحرك هذه الدولة الصغيرة لا تهدد أرواحا، ولا تهين مقدسات قديمة، ولا تتلاعب بالأيديولوجيات، لكنها تهتم بشيء واحد فقط... إنه الربح»[25]. وفي العام 1962 كتب فلاديمير دورميسون Wladimir d'Ormesson في صحيفة «لوفيغارو» أن بيروت عاصمة فكرية وروحية ودينية وجزيرة من السلام في منطقة تحترق بالحمى، فـ«كل شيء في لبنان يعكس الهدوء والتوازن والنظام والعمل والسلام»، والشرف الأسمى، و«الألفة العميقة» مع فرنسا. وقال إنه لم يسبق له أن رأى ذلك العدد الكبير من المؤسسات الدينية المختلفة إلا في روما[26].

أصبحت بيروت مونت كارلو الشرق الأوسط، فضلا على كونها سويسرا الشرق الأوسط. ففي السابع عشر من ديسمبر 1959 افتُتِح كازينو لبنان على البحر خارج المدينة، وبه بارات ومطاعم وأربعون نادي قمار أجنبيا وبرنامجا ترفيهيا من باريس. وكانت الحشود تضطر المرء إلى أن يستغرق ساعتين بالسيارة لكي يقطع رحلة قصيرة من بيروت إلى افتتاح المهرجان[27]. في هذه السنوات، كانت فرقة باليه البولشوي

(*) تشبيها لها بقناة السويس وأهميتها للاقتصاد العالمي. [المترجم].

وأوركسترا برلين والمسرح الوطني الفرنسي تعرض أعمالا لها في مهرجان بعلبك الذي بدأ في منطقة الأطلال الرومانية في العام 1955، وكذلك مطربون لبنانيون محبوبون مثل فيروز (التي ولدت في بيروت باسم نهاد حداد في العام 1935). كان المهرجان دوليا ولبنانيا في الوقت عينه[28].

نسي الناس تألق بيروت بين العامين 1958 و1975 بفعل الأهوال التي شهدتها المدينة لاحقا. ومع ذلك فإن البعض لايزالون يتذكرون هذه السنوات باعتبارها العصر الذهبي لبيروت أو اللحظة التاريخية التعريفية للمدينة، مثل الأعوام 1922 - 1956 في حياة الإسكندرية والأعوام 1908 - 1922 في حياة سميرنا. من ذلك أن توني بيس Tony Besse الذي جاء إلى بيروت من عدن يصفها في ذلك الوقت بأنها «أفضل السنوات من حياتي... إنها منتدى حقيقي للحوار كما كانت إبان القرن الثامن عشر». ويتفق كثيرون آخرون ممن عاشوا فيها خلال تلك السنوات على أنها «الجنة! الجنة بكل معناها!»، «مدينة رائعة... لقد جعلتني إنسانا»، إنها «أفضل فترة في حياتي». بل إن البعض فضلوها على باريس أو روما. وكما كانت الحال في الإسكندرية، لم يكن أحد يتحدث عن الدين[29]. وزادت السياحة بنسبة 25 في المائة بين العامين 1962 و1963 وبنسبة 400 في المائة بين العامين 1968 و1974[30]. وكانت الأفلام تظهر في بيروت قبل لندن، وكان شراء المجلات الفرنسية فيها أسهل منه في لندن.

تتذكر طالبة كندية بالجامعة الأمريكية في بيروت إبان تلك السنوات: «يمكنك في بيروت أن تنعم سريعا جدا بحياة اجتماعية مفعمة، إذ لم تكن المدينة غيتو للمغتربين» (على النقيض في ذلك الوقت من طنجة بالنسبة إلى بول بولز)(*). وفيما بعد ظلت هذه الطالبة تقارن المدن الأخرى ببيروت، ودائما كانت نتيجة المقارنة تأتي لمصلحة بيروت[31].

تمثلت بؤرة هذا العصر الذهبي لبيروت في فندق سان جورج ذي خمسة الطوابق والمائة غرفة والعشر، الذي يطل على خليج سان جورج الذي أنزلت فيه

(*) بول بولز Paul Bowles (1910 - 1999)، مؤلف موسيقي ومترجم أمريكي مغترب، ارتبط اسمه بمدينة طنجة المغربية التي استقر فيها لمدة اثنتين وخمسين سنة من العام 1947 حتى وفاته، له روايات وقصص قصيرة وكتب رحلات ومؤلفات موسيقية. [المترجم].

السفن البريطانية الأسلحة للموارنة في العام 1840(*). افتُتِح الفندق في العام 1934 بصفته فندق الدرجة الأولى في المدينة[32]. وسرعان ما أصبح هذا الفندق، الذي فضّله الضباط البريطانيون وصديقاتهم في الأربعينيات، المكان الذي يذهب إليه «الجميع» - الصحافيون والسياسيون ورجال الأعمال - بحثا عن الأخبار أو الإثارة أو الرومانسية. كان من بين رواد الفندق نواب مثل ريمون إده والأمير مجيد أرسلان (الوجيه الدرزي الذي تبوأ مناصب في أربع وعشرين وزارة مختلفة)، ومي جنبلاط زوجة كمال جنبلاط، والمطربة العراقية عفيفة إسكندر، وكيم فيلبي Kim Philby الذي كان يذهب إلى الفندق يوميا من الصباح حتى منتصف النهار.

***

غدت بيروت عاصمة الجاسوسية والصحافة للشرق الأوسط. وفي العام 1952، وبعد ثورة عبدالناصر في مصر والزيادة التالية في الرقابة الحكومية، ذكر عميل للأمن العام في بيروت أن «معظم الوكالات الأجنبية التي كانت تحتفظ بمكاتب رئيسة لها في القاهرة انتقلت إلى لبنان وفتحت مكاتب لها تحت أسماء مستعارة مثل الشركات التجارية وما شابهها للتغطية على عملياتها، وأن مكاتبها في مصر أصبحت مكاتب فرعية»[33]. وكان مركز الشرق الأوسط للدراسات العربية (Middle East Centre for Arab Studies; MECAS)، وهو مدرسة لتعليم اللغة العربية للدبلوماسيين البريطانيين، قد انتقل في العام 1947 من القدس إلى قرية شملان الواقعة على التلال المطلة على بيروت، وهو المركز الذي اتهمته الصحافة المصرية بأنه مدرسة للجواسيس البريطانيين، على رغم أن جودة التعليم المقدم فيه جذبت كثيرا من رجال الأعمال والدبلوماسيين غير البريطانيين[34]. عمل فيلبي في بيروت مراسلا للإيكونومست والأوبزيرفر من العام 1956 حتى فراره - ربما بزورق - من بيروت إلى الاتحاد السوفييتي في 23 يناير 1963، مع انتهاء تحقيق بريطاني. وعلى رغم، أو بالأحرى بسبب اشتهاره بالسُّكْر والشهوانية، كان له كثير من الأصدقاء، من اللبنانيين والبريطانيين. واعتبره الدبلوماسي البريطاني غلين بلفور بول Glen Balfour-Paul أفضل الصحافيين إلماما في المدينة، وأنه «مُسلٍ لأقصى حد ومتعاون جدا»، وفي هذه

(*) عندما شجع الإنجليز الثورة السورية ضد حكم محمد علي في الشام. [المترجم].

المدينة ذات الهويات المتعددة، عمل فيلبي للمخابرات البريطانية والسوفييتية في آن معا[35].

كان والد فيلبي - المستكشف الكبير سانت جون - قد انتقل إلى بيروت من المملكة العربية السعودية في العام 1955، ومات فيها في العام 1960، ودُفِن في جبّانة للمسلمين، إذ كان قد اعتنق الإسلام منذ وقت طويل. تلقى فيلبي وأبوه خبر موت زوجتيهما الأوليين بالبرق في فندق سان جورج، وهو أسهل مكان كان يمكن العثور عليهما فيه[36](*).

وفي بار فندق سان جورج أيضا، التقت إلينور برور فيلبي لأول مرة، ولاحقا قالت لزوجها سام برور Sam Brewer، مراسل «نيويورك تايمز»: «أنا وكيم نريد أن نتزوج». وقيل إنه أجابها: «أتمنى ألا أكون عائقا في طريقكما»(**). كان النادل بالفندق علي البيطار يعمل لحساب مكتب الأمن العام. وكانت ميرنا البستاني شريكة في البار، وهي أول نائبة في البرلمان اللبناني ورئيسة واحدة من العدد المتزايد من الشركات اللبنانية الدولية، هي شركة المقاولات والتجارة (Contracting and Trading Company Ltd; (CAT التي أسسها أبوها إميل البستاني في حيفا في العام 1937. كان السمك يُصاد لمطعم الفندق من المياه المحلية، وكان اللحم يأتيه بالطائرة من باريس[37].

ذكّر الكورنيش غرب فندق سان جورج، بما شمله من مزيج الفنادق والمقاهي والنوادي الليلية، الروائي الإنجليزي أليك وو Alec Waugh بكان ومونت كارلو.

(*) كان هارولد أدريان رسل «كيم» فيلبي Harold Adrian Russell "Kim" Philby (1912 - 1988) عضوا بارزا في المخابرات البريطانية، وقبل أن يصل إلى إدارتها اكتُشف أنه عميل مزدوج للاتحاد السوفييتي، فهرب على الفور إلى موسكو التي مات فيها. وكان أبوه هاري سانت جون بريدجر فيلبي Harry St John Bridger Philby (1885 - 1960) مستكشفا ومستعربا وضابط مخابرات بريطانيا، أدى دورا في الثورة العربية ضد العثمانيين وعمل مستشارا للملك عبدالعزيز آل سعود، أشهر إسلامه وتزوج من امرأة نجدية، وعمل في آخر حياته لمصلحة المخابرات الأمريكية. [المترجم].

(**) في النمسا، تزوج كيم في العام 1934 من ليتزي فريدمان Litzi Friedmann. وبعد أن انفصلا ارتبط في أثناء عمله في إسبانيا بممثلة مطلقة تدعى ليندساي هوغ Lindsay-Hogg. وبداية من العام 1940 دخل في علاقة مع إيلين فيرس Aileen Furse وأنجب منها ثلاثة من أبنائه قبل أن يتزوجها. وفي بيروت في العام 1956 تعرف على إلينور برور Eleanor Brewer وتزوجها بعد طلاقه. وبعد أن هرب إلى موسكو لحقت به ثم عادت إلى الولايات المتحدة الأمريكية لتنهي أمورها وتعود لتستقر معه في موسكو، لكنها عادت لتجده قد رتب للارتباط بسيدة كانت متزوجة تدعى ميليدنا، فرجعت إلينور إلى الولايات المتحدة. وفي العام 1971 تزوج شابة روسية تدعى روفينا إيفانوفا بوخوفا Rufina Ivanova Pukhova ظلت معه حتى وفاته. [المترجم].

وسرعان ما أضحت أسماء الفنادق التي كانت تعكس التفضيلات الثقافية لملاكها مألوفة لقراء الصحف حول أنحاء العالم، مثل فنادق نورمندي وفينيقيا وريفييرا وكومودور وكارلتون[38].

***

في أثناء الانبعاث المتأخر للنزعة القومية، في الوقت الذي كان اليونانيون فيه يُطرَدون من إسطنبول، وكانت الإسكندرية فيه تفقد أقلياتها، ويغادر الفرنسيون فيه شمال أفريقيا، والذي أعلن فيه رئيس الوزراء الإسرائيلي ديفيد بن غوريون أن «من واجبنا أن نحارب روح المشرق التي تخرّب الأفراد والمجتمعات»، كان لبنان استثناء مظفرا. وفي العام 1960 كان للمسيحيين في مجلس النواب ثلاثون نائبا للموارنة وأحد عشر للأرثوذكس وستة للكاثوليك اليونانيين وخمسة للأرمن واثنان للأقليات، وللمسلمين عشرون نائبا للسنة وتسعة عشر للشيعة وستة للدروز[39].

وعلى رغم قيام الدولة اللبنانية على الطائفية، فإنها كانت رسميا - ولاتزال - دولة متعددة الأديان. وكان الرئيس المسيحي يستضيف مفتي بيروت على مائدة إفطار في أحد أيام الصيام في رمضان. وتعد الأعياد الدينية لكل من المسيحيين والمسلمين عطلات وطنية. وكان النواب والوزراء المسلمون يحضرون الصلوات المسيحية الرسمية مع الرئيس، مثل عيد مار مارون القديس الشفيع للموارنة في التاسع من فبراير في كنيسة مار مارون في حي الأشرفية، بينما لم يكن المسيحيون يدخلون المساجد لأنهم لا يعرفون الصلوات المطلوبة[40]. وكان كثير من أولياء الأمور يعطون أطفالهم أسماء محايدة، مثل كريم وسمير ومنى ورندا، التي يستخدمها المسلمون والمسيحيون جميعا[41].

كان لبنان في هذه السنوات يقوده جيل من «المشرقيين الجدد». كان من بينهم، إضافة إلى الرئيس فؤاد شهاب وإميل البستاني، الأمير فريد حارس شهاب. ترأس هذا الأمير مكتب الأمن العام بين العامين 1948 و1958، ووصفه صديقه الأستاذ جون مونرو John Munro من الجامعة الأمريكية في بيروت بأنه شخص «كان يكتسي هويته المشرقية بسلاسة. إذ كان ينتقل بمنتهى اليسر بين الشرق والغرب، ويتحول بسهولة من اللغة العربية إلى الفرنسية والإنجليزية، ويتبنى فنون البلاغة والإيماءات التي تميّز كلا منها». وكان يتميّز بـ «تعاطف فطري مع البشر أيا كانوا من هم»،

بل كان عالَما «تسمو فيه الأخلاق والفكر والسلوك الرفيع، وينزوي فيه الانفعال، وتُستبَعد فيه الأيديولوجيا بوصفها عكاز الرجل عديم الفكر»[42].

كان من المشرقيين الجدد الآخرين رئيس الطائفة الكاثوليكية اليونانية هنري فرعون. كرّس فرعون حياته المهنية للتوسط بين المسيحيين والمسلمين. من ذلك أنه في العام 1943 أسهم في تصميم العلم الوطني الجديد الذي أبقى على أرز لبنان في وسط العلم، لكن مع الاستعاضة عن العلم ثلاثي الألوان الفرنسي بخطين أحمرين أفقيين مع نطاق أبيض في الوسط[43]. وفي أثناء عمله وزيرا للخارجية في العام 1945 أسهم فرعون في إتمام وثيقة جامعة الدول العربية، وفي هذه المهمة قاوم بنجاح أي مواد قد تهدد استقلال لبنان[44]. وبدافع الخوف مما اعتبره الانقسام الأسوأ في بلاده خلال حياته، عقد اجتماعا في قصره في العام 1957 لمعارضة إعادة انتخاب شمعون[45]. وعلى رغم قصر قامته وقبح هيئته ووحمة أرجوانية بارزة في وجهه، كان فرعون غنيا بما يكفي لتحقيق كثير من مصالحه، مثل تحسين سهم سباق الخيل العربي. وساعد أيضا في إدارة ميناء بيروت ومضمار سباق الخيل في بيروت وفاز بكثير من سباقات الخيل[46]. وكان أيضا بطلا دوليا في التنس، وكان مثل أنطوني بيناكي في الإسكندرية، جامعا نهما للمقتنيات النفيسة، بل «أعظم جامع لها في العالم العربي، فكان سابقا لعصره بكثير» في رأي صديقه جون كارسويل John Carswell[47].

في فيلا العائلة التي بناها أبوه رافائيل فرعون في العام 1892 وراء السراي الكبير، والتي تحوّلت منذ العام 2004 إلى متحف، جمع هنري مجموعة مقتنيات تلخص مشرقيته. تحوي الحديقة أعمدة كلاسيكية، وكانت غرف الفيلا تمتلئ بتماثيل تَدْمُرية وتوابيت هيلينية ويشب وخزف صينيين وأيقونات يونانية وسجاد فارسي، ومبطنة بألواح مأخوذة من سبع وعشرين غرفة ملوّحة من بيوت في سورية تعود إلى القرن الثامن عشر. وتوجد في الفيلا غرف ذهبية وزرقاء وحمراء ترجع إلى الأعوام 1623 و1775 و1778، جاءت من بيت باسيل في حلب أو بيت القوتلي في دمشق. وزعم أنه أنقذ هذه النفائس من «خراب محقق»[48]. وقال البعض إنه لم ينقل هذه الغرف من بيوت تهدمت، بل رتب لهدمها بنفسه من أجل ذلك الغرض تحديدا[49].

غير أن هذه السنوات الذهبية شهدت أيضا تحول بيروت من جنة للجمال إلى كابوس بصري، وهو التحول نفسه الذي كان يشق طريقه إلى مدن أخرى

مثل إسطنبول والإسكندرية. حتى ذلك الوقت كانت بيوت نخبة المدينة بنايات حجرية جذابة ذات درابزينات حديدية وشرفات وفرندات ونوافذ مقنطرة وحديقة محيطة. كانت تفاصيل كثيرة في العمارة مستوردة من فرنسا أو إيطاليا أو إنجلترا، وكان الخشب يأتي عادة من رومانيا. يتمثل أحد الأمثلة القوية لتلك العمارة في بناية بركات المقوسة، التي شيّدها المهندس يوسف أفتيموس على زاوية شارع دمشق وشارع الاستقلال لنيقولا وفيكتوريا بركات في الأعوام 1924 - 1936. الموقع المرتفع للفيلا ونوافذها المقوسة منحاها إطلالة على المدينة[50].

وعلى أي حال فقد بدأت تظهر في ضواحي المدينة مصانع الأسمنت والخرسانة التي وفر الفلسطينيون أيديا عاملة رخيصة لها. وفي العام 1945 أعطيت تراخيص بناء لثلاثمائة وتسعين بناية، وفي العام 1955 أعطيت تراخيص لألف ومائتين وإحدى وستين بناية[51]. وفي أواخر الخمسينيات غيّرت مجموعة من المهندسين قوانين التخطيط اللبنانية التي كانت تقضي ببيع عدة وحدات سكنية معا، وكانت بذلك تحابي البنايات المكونة من أربع أو خمس وحدات. فأصبح من الممكن بيع وحدات منفصلة. وفي مخالفة لقوانين التقسيم، بُدِئ في بناء أبراج سكنية، مثل مركز إنترديزاين وبرج المر (34 طابقا و510 نوافذ). شيّد بعض هذه الأبراج خليل خوري «لوكوربوزييه لبنان»(*). وإجمالا، فإن كانت هناك حجة مؤيدة لعمارة الستينيات، فإنها ليست بيروت[52].

وفي العام 1960، أي بعد عامين من تأسيس المجموعة الجورجية الأيرلندية في دبلن، أسست ابنة ألفريد سرسق ووريثته إيفون كوكرين (تزوجت من البارون الأيرلندي سير ديزمند كوكرين Desmond Cochraine الذي أصبح القنصل الأيرلندي في بيروت) منظمة لحماية البيوت القديمة، إذ آلمها ما تتعرض له من نهب، وأنها «تُرِكت للاحتقار والإهمال». فبينما كانت عينا إيفون سرسق في صباها لا تقعان في كل صباح إلا على جمال بيروت، كانت في كبرها لا ترى فيها في كل صباح غير القبح. لكن صوت إيفون كان مجرد صرخة في بيداء، أو بالأحرى في غابة حضرية، في مقابل صوت فرق الهدم ومثاقب البنّائين[53]. وفي العام 1968 اشتكى الكاتب جون غانثر John Gunther من الهوس بناطحات السحاب. لقد كانت بيروت ترتكب

(*) تشبيها له بالمهندس المعماري والمصمم والرسام والمخطط الحضري السويسري - الفرنسي شارل جانريه كري، الشهير باسم لوكوربوزييه Le Corbusier، أحد رواد العمارة الحديثة. [المترجم].

خيانة بحق نفسها وبحق الجمال «الفريد» المحيط بها. كانت الشوارع والبحر في بيروت أقذر منها في «أي مدينة أخرى ذات شأن رأيتها على الإطلاق»[54].

تمثل رمز تدمير الذات في حالة بيروت في استبدال بناية السراي الصغير الحجرية الجذابة التي ترجع إلى العام 1884، الواقعة بسينما ريفولي الخرسانية في العام 1960 في ساحة الشهداء. وأصبحت ساحة الشهداء، فضاء عاما واسعا لسيارات الأجرة والحافلات والاحتفالات العامة والمظاهرات السياسية. كانت الساحة التي تصطف حولها المقاهي ومحلات الحلاقة وصيدلية الجميل مصدر رزق مؤسس الكتائب، قلب بيروت ولبنان، ومنطلق آلاف الرحلات اليومية ومنتهاها[55].

وعلى الجانب البعيد، كان يوجد حي المواخير في بيروت: مملكة مدام ماريكا. جاءت ماريكا إلى بيروت في العام 1912 كفتاة يونانية. حظيت في البداية بحماية الضباط العثمانيين، ثم الفرنسيين لاحقا. ومع الوقت، جعلها جمالها وقوة شخصيتها القوادة الأولى في بيروت. كان بيتها المكون من ثلاثة طوابق والغرف «المقسمة» المملوءة بالأنواع المختلفة من الفتيات، ملاذا من البيت بالنسبة إلى وزراء الحكومة. وكان هناك جيش من القوادين القساة والدهاة يزودون بيت ماريكا بما يحتاج إليه[56].

***

بيد أن بيروت لم تكن مدينة الرأسمالية والتشييد فقط. فعن تلك الأيام كتبت مي غصوب: «كانت بيروت تنشر التفاؤل، حتى الناس الأكثر حرمانا فيها كانوا يرونها واعدة»[57]. وإلى جانب الجامعة الأمريكية ببيروت وجامعة القديس يوسف، فُتحت جامعات جديدة: الجامعة اللبنانية في العام 1950، وجامعة هايكازيان الأرمنية في العام 1955، والجامعة العربية في العام 1960 وهي فرع لجامعة الإسكندرية كانت تموّل جزئيا في بادئ الأمر من جانب الحكومة المصرية. وفي المدرسة الوطنية للأدب Ecole Nationale des Lettres، التابعة لجامعة ليون، أدخل الناقد الفرنسي غابريال بونور Gabriel Bounoure، المدير السابق للتعليم العام في عهد الانتداب الفرنسي، أجيالا من الطلاب في مذهب «حياة الروح»(*).

(*) حياة الروح the life of the spirit، مذهب يقول إن الأديان واحدة في جوهرها، إذ إن الإنسان واحد في روحه، بينما يختلف مع غيره في الظاهر، وإن مملكة الروح أبدية وثابتة، وبينما يتغير اللاهوت والمذهب من حين إلى آخر، تظل الحقيقة الروحية الداخلية من دون تغيير، وفيها يوجد الله، وهو ما يبقي على الدين في وجه تفنيد العلم. [المترجم].

ومن خلاله، تتذكر الكاتبة عفت عدنان Effet Adnan أنها «دخلت عالم الأدب من أوسع أبوابه»، على رغم أن تعليمها الفرنسي المبكر أيضا علّمها أن ترى العالم فرنسيا والكنيسة الكاثوليكية معصومة. وفي بعض المدارس كان التلاميذ يعاقبون على تحدث اللغة العربية خارج حصة اللغة العربية[58]. وكانت الصحافة والبرلمان أكثر حرية منهما في أي بلد آخر في المنطقة، ربما باستثناء إسرائيل. وفي العام 1965 جرى تطبيق شكل من الضمان الاجتماعي[59].

كانت بيروت جديرة بلقب باريس الشرق الأوسط، لأنها كانت مدينة المتع، وقبل ذلك بسبب هيمنتها الثقافية وكونها عاصمة الفكر والنشر والترفيه للعرب. وقد تعززت مكانتها، على نحو ما حدث مع باريس، بفضل القمع الذي كان سائدا في العواصم المجاورة. كانت بيروت عربية وغربية في الوقت عينه، وقد استفاد كل جانب من الاثنين من الجانب الآخر. ففي العام 1956 أقيم أول معرض عربي للكتاب في الجامعة الأمريكية ببيروت. وفي بيروت في العام 1965 نُشرت رواية نجيب محفوظ «أولاد حارتنا» التي مُنعت في مصر. وأعلن طه حسين أن بيروت أخذت مكانة القاهرة بوصفها مركزا ثقافيا للعرب. وأخذ الناشرون السوريون والفلسطينيون أولا، ثم العراقيون والليبيون والتونسيون لاحقا، ينتقلون إلى بيروت. وفيها كان السياسيون والضباط العرب ينشرون مذكراتهم. وفي العام 1970 كان ألف وثلاثمائة وثمان وخمسون دورية تُنشَر في لبنان، مقارنة بإجمالي ألفين وسبعمائة وأربع عشرة تُنشَر في العالم العربي ككل من المغرب إلى عُمان. وغدت الصحف التي تُنشَر في بيروت، مثل «النهار» التي كان يحررها غسان تويني، تُقرأ في بقية العالم العربي، كما كانت الصحف المصرية من قبل[60].

أصبحت بيروت مدينة الكُتاب. من ذلك أن الشاعر العلوي السوري أدونيس وجد في بيروت تحفيزا بفضل المجموعات المتنوعة من الماركسيين والفينيقيين المُحْدَثين والقوميين العرب التي التقاها هناك عندما وصل في العام 1956[61]. وفي العام 1966 انتقل إليها أيضا شاعر سوري آخر هو نزار قباني الذي سحرت العالم العربي أشعاره في العشق، وأسس فيها شركة نشر راديكالية. ولاحقا، كتب عن بيروت التي ابتليت بالحرب الأهلية «يا بيروت يا ست الدنيا» التي تغنت بها ماجدة الرومي، والتي تكشف عن سيطرة بيروت على مخيلة العرب. يلقي الشاعر نزار

قباني باللائمة على البشر، وليس المدينة:

أنّا كنّا منكِ نغار

وكان جمالكِ يؤذينا

نعترف الآن

بأنّا لم ننصفكِ ولم نعذركِ ولم نفهمكِ

....

قومي من تحت الردم

الآن عرفنا أن جذوركِ ضاربة فينا

في لقاء في الجامعة الأمريكية ببيروت، حث نزار قباني النساء العربيات على الثورة قائلا: «ثوري، أحبكِ أن تثوري.. ثوري على شرق السبايا والتكايا والبخور.. لا ترهبي أحدا.. فإن الشمس مقبرة النسور.. ثوري على شرق يراكِ وليمة فوق السرير.. إنني أحرضكنّ على الارتفاع إلى مستوى الإنسان.. نريد أن نرد جسد الأنثى إليها»[62]. وكذلك انتقل إلى بيروت في العام 1972 الشاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش الذي ترجع جذور عائلته إلى إحدى القرى التي «محتها» إسرائيل (أي أفرغتها من أهلها وسوّتها بالأرض) بعد العام 1948. كتب درويش قصيدة امتنانا للمدينة بوصفها «خيمة العرب الوحيدة» و«نجمتهم الوحيدة»[63].

ثمة كاتب فلسطيني آخر، هو إدوارد سعيد، كان يكره الإسكندرية التي وصفها بأنها «مشرقية وكوزموبوليتانية ومنحرفة ونزوية»، في مقابل القاهرة «العربية الإسلامية الجادة الدولية الفكرية». ففي الإسكندرية، وجد «المدينة غاية في البؤس من دون جالياتها الأجنبية الكبيرة، وبلا رسالة، وقد رجعت إلى مستوى أدنى من الوجود كمصيف رخيص ملأني حزنا»[64]. وفضّل بيروت عليها كثيرا: «كان كل شيء يبدو ممكنا في بيروت حينذاك [قبل العام 1975]، ويوجد فيها كل أنواع البشر، والأفكار والهويات كلها، وطرفا الثراء والفقر كلاهما». وعلى وجه التحديد، وجد إدوارد سعيد منطقة رأس بيروت القريبة من الجامعة الأمريكية والبحر وشارع الحمراء التي بهرت الأجانب واللبنانيين الريفيين بحياتها وألوانها: «مجتمعا منفتحا وتعدديا وغير طائفي من الدارسين والنشطاء السياسيين ورجال الأعمال والفنانين، على النقيض من أي شيء آخر في العالم العربي». لكنه مع ذلك لاحظ أن «كل

شخص» يعرف دين الآخرين أو أصلهم العرقي، وسمع أقارب مسيحيين له يتهمون المسلمين زعما بالفسق والنفاق والفساد والانحطاط[65].

***

كانت بيروت تتحول أيضا - على نحو ما كانت الإسكندرية في السابق - إلى مدينة للمنفيين: الأرمن والفلسطينيين والكرد والسوريين. كان المنفيون في بيروت يكشفون جوهر الدولة اللبنانية. إذ ظل الأرمن أرمنا بحزبيهم الثوريين المتنافسين الهنشاق والطشناق(*) (اللذين تقاتلا أحيانا في شوارع بيروت) ومدارسهم وجامعتهم[66]. لم يكن الأرمن مرحبا بهم في بادئ الأمر، إذ اتُّهِموا بأخذ الوظائف من اللبنانيين، حيث استخدمت السلطات الفرنسية العمالة الأرمنية الرخيصة في مشروعات البناء في العشرينيات[67]. لكن نظرا إلى أنهم مسيحيون، فقد أُعطيت لهم المواطنة اللبنانية وخُصِّصت لهم مقاعد في البرلمان.

وفي العام 1930 أسس رأس الكنيسة الأرمنية بطريركية أرمنية في بيروت في حي أنطلياس، وكان في مقدور زوار المتحف الأرمني الملحق بالكنيسة أن يستمتعوا بالأيقونات وأعمال التطريز والعلب المُذَهّبة للذخائر المقدسة والثريات الفضية التي تقف دليلا مرئيا على الازدهار الأرمني في الأناضول العثمانية (وعلى نجاح الأرمن في إنقاذ نفائسهم على رغم أهوال العام 1915). تشبه هذه الكنوز بعض المقتنيات في قصر توبكابي.

وعلى النقيض من ازدهار الأرمن، عاش معظم الفلسطينيين في مخيمات للاجئين خارج بيروت، وحُرِموا من المواطنة اللبنانية، ولم يكونوا مسؤولين من السلطات اللبنانية، بل من الأمم المتحدة (تأسست وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين المعروفة اختصارا باسم الأونروا UNRWA لهذا الغرض). فإلى جانب

(*) تأسس حزب الهنشاق في جنيف في العام 1887، وكان أول حزب ماركسي ثوري في الإمبراطورية العثمانية وبلاد فارس، نشأ متأثرا بالنزعة الشعبوية وحركة الاغتيالات الروسية، سُمي على اسم جريدته هنشاق Hanchak، التي تعني «البوق» أو «النفير»، وانتشر في كل البلاد التي توجد فيها تجمعات من الأرمن. شارك الحزب في كثير من عمليات الاغتيال والتفجير في إسطنبول قبل استقلال أرمنيا؛ تأسس حزب الطَشناق Dashnaks أو الاتحاد الثوري الأرمني كحزب سياسي اشتراكي أرمني في العام 1890 في تبليسي الواقعة حينذاك ضمن الإمبراطورية الروسية، وانتشر في كل البلاد التي توجد فيها تجمعات من الأرمن، ونشط مع حزب الهنشاق في اغتيال الأرمن العاملين في خدمة السلطان العثماني ونشر الرعب في إسطنبول بعمليات تفجير منسقة، من أبرزها عملية الاستيلاء على المقر الرئيس للبنك العثماني في غلطة. [المترجم].

تصميمهم على العودة إلى فلسطين - في مقابل الأرمن الذين لم تكن لديهم رغبة في العودة إلى تركيا - كان دين الفلسطينيين التفسير الرئيس لإقصائهم من الحياة اللبنانية. ولذلك كان الحصول على جوازات السفر اللبنانية أيسر على الفلسطينيين المسيحيين - من أمثال يوسف بيدس مؤسس بنك إنترا - عن الفلسطينيين المسلمين (الذين كانوا ملزمين بإثبات ثرائهم أو تحدرهم اللبناني). وواجه معظم الفلسطينيين المسلمين صعوبة حتى في الحصول على تراخيص العمل(68).

ظلت المخيمات الفلسطينية - مثل شاتيلا الواقع في غابة صنوبرية جنوب بيروت - أكثر انعزالا عن بيروت من منطقتي برج حمود والكرنتينا الأرمنيتين. كانت لمخيمات الفلسطينيين نظم خاصة بها للمدارس والمصانع والمحاكم العدلية والمستشفيات (وسُميت على أسماء المدن المفقودة عكا وغزة وحيفا)، كانت الأونروا تنظمها وتنفق عليها. وكانت المخيمات - ولاتزال - كتلا كثيفة من البنايات تشبه مجمعات السجون، ومن باب التأكيد على طبيعة الإقامة المؤقتة للفلسطينيين في لبنان، لم يكن مسموحا لهم في بادئ الأمر حتى أن يحفروا مراحيض خاصة، بل كان عليهم أن يستخدموا مراحيض عمومية. وفي العام 1951 رفضت الحكومة اللبنانية اقتراحا من الأمم المتحدة ببناء مساكن دائمة لهم. وعلى رغم سوء حالهم، كان الفلسطينيون من الطبقة الوسطى في لبنان على أي حال أكثر حرية من إخوتهم في سورية أو الأردن(69).

***

كان لبنان تحت السطح المتألق بركانا على وشك الانفجار. فعلى نحو ما كتبت الروائية المصرية - اللبنانية المقيمة في باريس أندريه شديد(*)، «كانت أرضها الصغيرة سقيمة جدا، لكن أحدا لا يريد أن يعترف بذلك. ذلك أن هذه الأرض التي تتألق تحت بلسم الازدهار، تخفي مرضها وأزماتها وبلادتها. كانت التناقضات جزءا من سحرها. فاعتبرها الأجانب والسياح مضيافة وأخاذة، وأحبوا فيها الاستمتاع بمباهج الحياة، وشعروا بالإهانة في إظهارها للثراء، وأخذتهم النشوة بدفئها وترحيبها،

(*) أندريه شديد (من 20 مارس 1920 إلى 6 فبراير 2011)، شاعرة وروائية وكاتبة فرنسية، اسمها بالمولد أندريه صعب، وشديد هو لقب زوجها، ولدت في القاهرة لأب لبناني يدعى سليم صعب وأم سورية تدعى أليس خوري حداد غوديل، سافرت إلى باريس في عمر الرابعة عشرة، ثم عادت للدراسة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وهاجرت بعدها نهائيا إلى باريس في العام 1946 وتوفيت ودفنت بها. [المترجم].

وسخروا من تفاخرها». في «هذا المزيج الغريب من الطائفية والحرية» الذي «يمكن فيه التغلب على أي شيء»، لاحظت أندريه شديد أن اسم الله كان «يُحشَر في أتفه الحوادث، وفي أي مشاجرة، وفي أي تسوية»[70].

كتب ميشال شيحا في العام 1947 أن إنشاء دولة إسرائيل كان أحد أكبر الأخطاء في السياسة المعاصرة، وعلى رغم أنه كان حدثا صغيرا في ذلك الوقت، فإنه سيسهم في «زعزعة العالم من جذوره». وقد أدى بالفعل إلى زعزعة لبنان[71]. لم يكن لبنان دولة ضعيفة ذات جيش ضعيف وكثير من الأسلحة في أيدي الأهالي وحسب. إذ بحلول العام 1975 كان هناك جيشان على الأرض نفسها - لبناني وفلسطيني - إضافة إلى كثير من الميليشيات الخاصة. كشف ذلك، فضلا على الطائفية ووجود ستة عشر دينا في دولة واحدة، أن الناس كانوا مخطئين عندما كانوا يقولون إن لبنان دولة مثل أي دولة أخرى.

بعد الحرب العربية - الإسرائيلية في العام 1967 كثّفت منظمة التحرير الفلسطينية عدد «عملياتها» (هجماتها) من لبنان على إسرائيل من اثنتين في العام 1967 إلى تسعة وعشرين في العام 1968. وبدأ زعيمها ياسر عرفات يتحدث عن لبنان كأنه يملكه. ووصف لبنان بأنه «ضرورة استراتيجية لعملنا... إننا ثورة ونناضل على أرضنا. ولبنان أرض عربية يجب أن يحمينا ولا يقاتلنا». وردا على هجمات المقاومة، دمرت إسرائيل ثلاث عشرة طائرة مملوكة لشركة طيران الشرق الأوسط في مطار بيروت في الثامن والعشرين من ديسمبر 1968[72].

أصبحت بيروت عاصمة اليسار العربي و«الثورة الفلسطينية»، فضلا على كونها عاصمة الرأسمالية اللبنانية والعربية. فأسس فيها الطبيب الفلسطيني الراديكالي جورج حبش، الذي تلقى تعليمه في بيروت، حركة القوميين العرب والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في العامين 1950 و1967 على التوالي. وفي شارع بلس بالقرب من الجامعة الأمريكية ندد اتحاد طلاب الخليج العربي بالإمبريالية الأمريكية، وكان هتافهم «تحيا وحدة القوات الثورية». وأقسموا على دعم الكفاح من أجل الاستقلال والتحرر الوطني في وجه تعذيب الشرطة وهيمنة الاستعماريين[73].

وفي أبريل 1969 أدى قمع مظاهرة فلسطينية إلى قتل أحد عشر وإصابة اثنين وثمانين شخصا. واستقالت الحكومة اللبنانية. ووقعت صدامات أخرى، واحتل الفلسطينيون مراكز شرطة في بيروت[74]. وفي الثالث من نوفمبر 1969 أعطى اتفاق

القاهرة، الذي أقره حتى الجميل والكتائب، الفلسطينيين حرية كاملة في مخيماتهم، وأعطاهم حرية حمل الأسلحة خارجها في بعض المناطق، وهي حريات تفاوض عليها عبدالناصر الذي ما كان ليسمح بها في بلده. وطُرِد عملاء المخابرات الحربية اللبنانية من المخيمات. فمثلما فعل اللاجئون اليونانيون من آسيا الصغرى في اليونان، لكن بدرجة أشد وبالا، أسهم الفلسطينيون في زعزعة استقرار لبنان[75].

بالتفكير في الأحداث بعد انقضائها، نتبيّن أن انتخاب سليمان فرنجية رئيسا في العام 1970 كان اللحظة الخطرة التي بدأ فيها المجانين في السيطرة على البيمارستان. فعلى خلاف سابقيه، كانت يدا فرنجية ملطختين بالدماء، إذ تورط هو وأتباعه في العام 1957 في معركة في إحدى الكنائس راح ضحيتها ثلاثة وعشرون شخصا، واضطر إلى الهرب إلى سورية لمدة عام. وكان فرنجية أيضا أول رئيس يأتي من منطقة مسيحية تماما، وليس منطقة مختلطة. احتفل المسيحيون المغتبطون في بيروت بانتخابه الذي جاء بفارق صوت واحد عن منافس شهابي معتدل يدعى إلياس سركيس، بإطلاق نيران بنادقهم في الهواء[76].

تراجعت سلطة الدولة. وأدت حواجز الطرق التي أقامها الفلسطينيون خارج مخيماتهم، حتى على الطريق بين بيروت ومطارها، إلى مضايقات وحوادث اختطاف. وتجلى ضعف المدينة في التاسع من أبريل 1973، حين نزلت قوات كوماندوز إسرائيلية من البحر بالقرب من صخور الحمام الشهيرة في رأس بيروت، وقتلت ثلاثة من قادة منظمة التحرير الفلسطينية في حي فردان العصري، وهربت من دون أن تلاقي أي مقاومة[77].

كان اللبنانيون البعيدون كل البعد عن الأنانية أكثر ارتباطا من الناحية العاطفية بقضية فلسطين من أي شعب عربي آخر. لذلك صاحبت جنازة القادة الثلاثة أكبر مظاهرة في تاريخ المدينة، ربما شارك فيها ربع مليون شخص. كان شعور كثير من اللبنانيين، على حد تعبير الروائي إلياس خوري، أن «فلسطين ليست بلدا، بل حالة، وكل عربي فلسطيني، وفلسطين حالتنا جميعا». لكن في المقابل، كان هناك آخرون على استعداد لإثبات كراهيتهم للفلسطينيين بالأفعال. من ذلك أن الملك حسين سحق منظمة التحرير الفلسطينية في الأردن في العامين 1970 و 1971، وانتقل عرفات ونحو مائة ألف فلسطيني إلى لبنان، ولم تكن الدولة اللبنانية قادرة على منع

دخولهم بسبب شعبيتهم. وأصبحت بيروت عاصمة منظمة التحرير الفلسطينية[78]. وبحلول العام 1975 بلغ إجمالي عدد الفلسطينيين على التراب اللبناني نحو أربعمائة ألف شخص، أي 15 في المائة من عدد سكان الدولة اللبنانية.

أصبح الفلسطينيون عدوانيين نحو لبنان بدرجة لا تقل عن عدوانيتهم نحو إسرائيل نفسها. كما أنهم بفضل الإعانات المالية الآتية من الحكومات العربية كانوا أغنياء وجيدي التسليح (في الأغلب بأسلحة سوفييتية مشتراة بأموال ليبية). كانت المخيمات تضم مصانع ذخيرة خاصة بها. ومع وجود مخازن أسلحة وذخيرة مخبأة في دهاليز وممرات تحت الأرض، كان في مقدور منظمة التحرير الفلسطينية أن تنشر عشرين ألف مسلح، وكانت في بعض الأحيان - وفقا لكثير من تقارير المخابرات العسكرية - قادرة على هزيمة الجيش اللبناني. وتحول جزء من بيروت، بالمعنيين الحرفي والمجازي، إلى برميل بارود[79].

وفي الثالث من مايو 1973 اختطف الفلسطينيون ثلاثة جنود لبنانيين. فقصفت قوة جوية لبنانية المخيمات. فأطلق الفلسطينيون نيران مدافعهم على مطار بيروت من مخيم برج البراجنة القريب. وبدأوا يسيطرون على غرب بيروت ويرسلون جنودا إلى المقاهي لطلب المال. وغدت إضرابات العمال أمرا شائعا. وردا على ذلك، بدأ الجيش في تسليح الكتائب وقوات مارونية أخرى سرا، وبدأ المسيحيون يشترون «الكلاشينات»، كما يطلق العرب على بنادق الكلاشينكوف، مباشرة من تجار في المخيمات الفلسطينية[80]. تحتوي رواية «الموت في بيروت» للكاتب توفيق يوسف عواد، التي نُشِرت هناك في العام 1975، تحذيرات من الكارثة: «بيروت تغلي مثل قِدر على نار». وتنتهي الرواية والنيران تأكل بيروت «من أحد طرفي المدينة إلى طرفها الآخر»[81].

في معظم أنحاء بيروت استمرت الأعمال التجارية كالمعتاد. فكان المؤرخ مايكل جونسون Michael Johnson، على رغم التحذيرات من الاغتصاب والسطو التي تلقاها من أصدقائه المسيحيين، يشعر بالأمان على زوجته وهي تسير وحدها ليلا في غرب بيروت أكثر منها في لندن[82]. وفي العام 1974 افتُتِح فندق هوليداي إن Holiday Inn ذو العشرين طابقا بالقرب من ساحة الشهداء. سبّب تشييد هذه البناية التي يعلوها مطعم دوار في هدم بعض آخر بنايات القرن السادس عشر ببيروت.

في يوم الأحد الموافق الثالث عشر من أبريل 1975 قتل الفلسطينيون أربعة أشخاص، منهم أحد حراس بيار الجميل خارج كنيسة في الضاحية المسيحية عين الرمانة في أثناء تكريسها، وردا على ذلك، هوجمت حافلة محملة بالفلسطينيين، قتل منهم سبعة وعشرون، وأصيب تسعة عشر[83]. فبعد أن ذبح اللبنانيون المدينة، بدأ بعضهم يذبح البعض الآخر. وبدأت الحرب. وأثبت الاستثمار في فندق هوليداي أنه قرار سيئ.

17

رقصة الموت

يا هوى بيروت

...

قولك رح تنساني يا حبي المقهور

رجعت على بيتي ما لقيتو لبيتي

دخان وزوايا، لا ورد ولا سور

فيروز

خارجها قتلت

ميشال فاني

«على امتداد الحرب الأهلية، ظلّت بيروت، على نحو بطولي، مدينة الكتب والصحف والناشرين والطباعين الذين قدموا التحليل والوصف والتخليد للحرب»

في أبريل 1975 بدلت بيروت هويتها. فغدت نقيض نفسها، أي مدينة الموت وليس الربح. وطفت الحماسة إلى السطح بديلا من الصفقات. وكما هي الحال في أوقات الثورات - مثل باريس في العام 1830 أو العام 1848،

أو أوروبا الشرقية في العام 1989 - كان الزمن يتسارع. تعد بيروت في العام 1975 درسا بشأن مدى سرعة انحلال المدن. لقد حدث تدمير سميرنا على أيدي حكومات وجيوش. وتقزمت الإسكندرية بسبب أزمة السويس والاشتراكية. أما بيروت، آخر الموانئ المشرقية الكبرى، فكانت ضحية البيروتيين أنفسهم.

تغيرت خلفية الصوت في المدينة. ففي أجزاء من وسط المدينة، أصبحت الأصوات أكثر حدة وسرعة، مثل أبواب السيارات التي تغلق بعنف أو البنادق التي تُسحَب أجزاؤها للإطلاق. وغدا صفير الرصاصات وقعقعة الكلاشينكوف وأزيز الصواريخ وانفجار القنابل اليدوية أصواتا مألوفة، وكذلك هدير مولدات الكهرباء الخاصة عندما أصبح انقطاع الكهرباء أكثر تكرارا[1]. وتعرضت طبلات أذن البيروتيين لتلف دائم.

يتمثل السبب المباشر للحرب الأهلية في أن لبنان بدرجة أكبر منه في العام 1958 كان يمتلك جيشا ولا يمتلك جيشا في آن معا. فقد خشي جنرالاته من أن يؤدي استخدام الجيش اللبناني ضد الميليشيات إلى تفككه، إذ سيرفض جنوده قتال أبناء دينهم. ولم تكن هناك عبقرية عسكرية تعطي الجيش إحساسا بالهدف والانفصال عن المجتمع، كما حدث في النمسا، وهي دولة أخرى تتكون من طوائف متنافسة، أنقذها الجيش («يمكنك أن تفعل أي شيء بالحراب، إلا أن تجلس عليها» على نحو ما تبجح رئيس الوزراء الأمير شوارزنبيرغ Schwarzenberg) من التفكك في العامين 1848 و1949، أو على نحو ما فعل فؤاد شهاب بدرجة أقل في لبنان في الأعوام 1958 - 1964.

في السبعينيات بدأ النزاع السياسي في إسطنبول يحرض شارعا ضد آخر وشاربا ضد آخر، إذ كان اليساريون يربون شوارب عريضة، بينما يحتفظ اليمينيون القوميون بشوارب رفيعة، ويطلق الإسلاميون اليمينيون اللحى. لكن الجيش التركي المكون من ثمانمائة ألف جندي، والذي كان يستحوذ على 25 في المائة من موازنة الدولة، كان المؤسسة الأقوى في البلاد، وكان يضم هيئة ضباط مستعدة لإعطاء الأوامر بإطلاق النار على المدنيين. ومن خلال الانقلاب العسكري في الثاني عشر من سبتمبر 1980، حال هذا الجيش دون تصاعد حرب أهلية أولية[2]. بينما ظل الجيش اللبناني في ثكناته «ينتظر الأوامر» بتعقل. كان الموارنة يهيمنون على الجيش، على الرغم من أن جزءا مسلما منه يطلق على نفسه الجيش العربي اللبناني انفصل عنه في يناير 1976[3]. وبدأت الكتائب في قتال منظمة التحرير الفلسطينية وحلفائها السُّنة.

وعلى نحو ما تسرد أندريه شديد في روايتها «العودة إلى بيروت» (1985)، فإن الناس في بادئ الأمر قالوا: «لا أحد يريد كارثة، فنحن نستمتع بالحياة... لا شيء يستدعي الخوف». لكن:

> أخذت حلقة شريرة تلف المدينة تدريجيا. وأضحت الجدران مغطاة برسوم الغرافيتي. وأخذ الكلام عن جرائم القتل والاختطاف يتزايد. وبدأت الأسلحة من كل الأحجام تظهر. وخرجت أسلحة الحرب والدبابات والسيارات الجيب ذات المدافع من باطن الأرض. وأطلقت بضع قذائف. وصعد الأطفال إلى أسطح العمارات العالية لتتبع الرصاصات الخطاطة ورؤية وميض طلقات المدافع. كان الأمر أشبه بعرض ألعاب نارية، ولم يكن الخوف قد نشر أجنحته بعد.

أصبحت عمليات الاختطاف وجرائم القتل والمذابح، التي لم يحاول أحدهم وقفها، وتفاهمات وقف إطلاق النار، التي لم ينوِ أحدهم الالتزام بها، جزءا من الحياة اليومية[4]. وصارت المحطات الإذاعية تحذر المستمعين من القناصة وليس من أماكن الازدحام المروري. وغدت السيارات فخاخا للموت جاهزة للانفجار، وتحوّلت البنايات إلى مواقع عسكرية. ولم يكن أحد يعرف أين ستظهر نقاط التفتيش أو الحواجز المبنية من أجولة الرمال والأسمنت والعربات في اليوم التالي. وأصبح من الممكن أن يتحول صديقك في الصباح إلى قاتلك في المساء. وغدت زيارات التعازي الشكل الرئيس للحياة الاجتماعية. وحتى خارج مبنى البرلمان، كانت الجثث تُترك في الشوارع مثل زجاجات البيرة الفارغة، وأصبحت مشهدا معتادا حتى إن بعض الناس صاروا نباتيين في طعامهم. باختصار، تحوّلت «المعجزة اللبنانية» إلى كابوس[5].

وفي البلد الذي تباهى سابقا بالتسامح، صار من الممكن أن تُجَرّ من سيارتك وتُسرَق أو تُختَطَف أو تُقتَل إذا كنت من أتباع دين غير دين المسلحين الواقفين على حواجز الطرق، حتى إن بعض الناس حاولوا محو خانة الهوية الدينية التي كانت تسجل بموجب القانون اللبناني في بطاقات هويتهم. كانت الطائفية التي تشكل أساس البلد تقتل أهلها بالمعنى الحرفي للكلمة. كانت الحرب الأهلية في هذه المرحلة حربا دينية. وبحلول شهر نوفمبر 1976 كان أربعون ألف شخص قد قُتلوا، وفرّ أربعمائة ألف لبناني أو أكثر للعمل في أوروبا وأمريكا الشمالية أو

الخليج العربي. وصار البلد الذي كان حتى وقت قريب يفتح ذراعيه للمنفيين، يصدّر منفييه. وأغلق كازينو لوكاف دوروا Les Caves du Roy الشهير أبوابه وانتقل إلى سان تروبيه[6](*).

تحوّلت ناطحتا السحاب برج المر وفندق هوليداي إن في بيروت بمنظرهما الأخاذ إلى معاقل للميليشيات ونسخ خرسانية من القلاع الصليبية التي هيمنت على مشهد بيروت والريف المحيط قبل سبعمائة عام[7]. إذ كان وقوع الفنادق الكبرى على طول الكورنيش في غرب بيروت، الذي أريد به أن يعطي السياح مناظر أفضل، يفيد في إمكانية إمداد المتمركزين فيها بالأسلحة والمؤن بسهولة من البحر من جانب ميليشيات مسيحية مثل «النمور»، وهو الاسم الذي أُطلِق على ميليشيا عائلة شمعون، أو من جانب الكتائب التي كانت تقودها عائلة الجميل.

في أثناء «حرب الفنادق» في خريف 1975 استولى المسلمون السُّنة عليها بقيادة إبراهيم قليلات، القبضاي زعيم ميليشيا المرابطين السُّنية المتحالفة مع منظمة التحرير الفلسطينية. قال إبراهيم في مؤتمر صحافي إن «النظام القائم بمؤسساته الفاسدة القائمة على الطائفية السياسية الذي جعل من لبنان بلدا يحابي الطائفة المارونية لم يعد مقبولا بالمرة». وكان المسلحون الذين يرتدون كوفيات تخفي وجوههم وكانوا قريبين في الشبه من الهيبيز، يلتقطون صورا لأنفسهم وهم يدخنون القنب في بار فندق سان جورج(**). وكانت صور عبد الناصر (الذي استُقبِل نبأ وفاته في العام 1970 بحالة من الحزن الجماعي في لبنان والويل لأولئك الذين لم يلبسوا عصابة ذراع أو رابطة عنق سوداء أو يربطوا شريطا أسود إلى هوائي سياراتهم) تطل على أنقاض فندق فينيقيا.

صمد فندق هوليداي إن فترة أطول من غيره. وكان مسلحو الكتائب يلقون بالجثث من النوافذ كلما تراجعوا من طابق إلى آخر. وقد خلّد المرابطون ذكرى سقوط الفندق في الحادي والعشرين من مارس 1976 بملصق لهم يبيّن مقاتلا يهدم

(*) سان تروبيه Saint - Tropez، مدينة ريفية تبعد خمسة وستين ميلا شرق مارسيليا، تعد منتجعا بحريا عالميا يشتهر بدور السينما والكازينوهات والمقاهي. [المترجم].

(**) كان تدخين الماريغوانا وتعاطي المخدرات إحدى الممارسات التي شاعت بين الشباب المنضوين في الغرب ضمن صفوف حركة الهيبيز Hippies. [المترجم].

الفندق بمؤخرة بندقيته فوق نص باللغة العربية يقول «في الحادي والعشرين من مارس دمر المرابطون رمز الخيانة الفاشية، وأقسموا على مواصلة الطريق مهما كانت الكلفة - إبراهيم قليلات». وقد دُمّر فندق بيروت هيلتون قبل أن يفتتح[8].

***

كانت الحرب من أجل النهب، إضافة إلى الدين. فعلى رغم أنها لم تكن حربا بين الأغنياء والفقراء، فإنها كانت حربا بين عصابات متنافسة تريد المزيد. وأصبحت بيروت جنة اللصوص. زعمت بعض الميليشيات أنها «طليعة الثورة» و«رأس حربة الطبقة العاملة اللبنانية». لكنها هي الأخرى، على نحو ما يشير رشيد الضعيف في نسخته اللبنانية من رواية «مزرعة الحيوانات» Animal Farm المعنونة «عزيزي السيد كاواباتا» (1995)، كانت تمارس القتل أو السرقة بدافع الجشع أو الدين، وليس الطبقة الاجتماعية أو الأيديولوجيا[9]. إذ لم تكن هناك أجندة اشتراكية. وعلى رغم أن الاقتصاد الذي كان ينمو بمعدل نحو 4 في المائة في السنة تقلص بنحو 19 في المائة في العام 1975 و57 في المائة في العام 1976[10]، فقد نجا «النظام القديم» الاقتصادي اللبناني، إذ واصل كثير من الأغنياء أعمالهم التجارية في أمان من لندن أو باريس أو نيويورك.

فُجّرت الأسواق الواقعة في وسط المدينة، وذلك جزئيا لإخفاء النهب الذي أفرغ محلاتها. كانت السلع الكهربائية رائجة عن غيرها في عمليات السرقة. وكان اللصوص يعملون بطريقة منهجية في أثناء القتال. حتى مراكز الشرطة كانت تتعرض للنهب. ولم تكن البنوك في مأمن من السرقة. فمن الكنيسة الكابوشية، حفر اللصوص نفقا إلى مقر البنك البريطاني للشرق الأوسط وسرقوا محتويات كل الخزائن[11]. وعندما نُهِب سوبر ماركت سبينيز Spinneys، خاب أمل اللصوص لما وجدوا أنهم سرقوا علب أطعمة قطط[12]. وأحيانا كان أطفال في عمر الثامنة ينتقلون من باب إلى باب بأجولة من الأشياء المسروقة بغية بيعها. وكان من الممكن شراء سجادة فارسية بسعر رغيف خبز[13].

أدى فندق كارلتون المطل على الكورنيش في غرب بيروت دورا سلميا أكثر من منافسيه، إذ نُهِب البرلمان، وأُحرِق السراي الكبير، ولذلك أُجريت في فندق كارلتون الانتخابات الرئاسية للعام 1976 التي وقع اختيار النواب فيها في الثامن من مايو على المصرفي والسياسي المعتدل إلياس سركيس ليحل محل سليمان فرنجية، وحينها كان جنود من منظمة التحرير الفلسطينية يوفرون الحراسة للنواب اللبنانيين. قضى

سركيس جزءا من رئاسته في سرداب السراي الرئاسي في بعبدا خارج بيروت بلا ماء أو كهرباء، في لعب الورق مع حراسه، بينما كان بلده يدمر نفسه[14].

أصبحت بيروت مرادفا للفوضى. فكما حدث في سميرنا في العام 1922، والإسكندرية في عهد عبدالناصر، كشفت المدينة عن هشاشة الثراء. فمهما كان ثراء المدينة، فإنها تحتاج إلى جيش لحماية ثرائها. ومن دون جيش، لا توجد أرباح.

في هذه الأثناء، كانت الجيوب الدينية المغلقة على الجانبين كليهما تزال. فردا على مقتل أربعة من مسلحي الكتائب في «السبت الأسود» في السادس من ديسمبر 1975، ومرة ثانية في التاسع عشر من يناير 1976، نفذ مسلحو الكتائب مذبحة لمئات المسلمين العاملين في منطقة الميناء في الكرنتينا، وكانوا يتحققون من ديانة ضحاياهم من بطاقات هويتهم. وفي العشرين من يناير 1976 اجتاحت منظمة التحرير الفلسطينية بلدة الدامور المسيحية في الجنوب وقتلت خمسمائة ماروني.

وفي الثاني عشر من أغسطس 1976 محت الكتائب والنمور مخيم الزعتر للاجئين الفلسطينيين القريب من شرق بيروت المسيحي، ونفذت مذبحة بحق نحو ثلاثة آلاف فلسطيني، من بينهم أطفال. وشُرِبت الشمبانيا احتفالا بذلك في الحفلات في تلك الليلة في شرق بيروت، وكذلك في كازينو ريجين وغيره في باريس التي كانت قد أصبحت وطنا لكثير من اللبنانيين[15]. أعجب جيمس موريس في كميل شمعون «كوزموبوليتانيته السلسة وواسعة الاطلاع». كانت هيئته رائعة وهو يرتدي ربطة عنق بيضاء وسترة مذيّلة ويسير خلف زوجته الجميلة وهو يستقبل رؤساء الدول الآتين إلى لبنان، لكن يده لم تكن أقل تلطخا بالدماء من الزعماء الآخرين[16].

أصبحت بيروت مدينة مقسمة، ولم تعد باريس الشرق الأوسط، بل نيقوسيا أو بلفاست الجديدة(*). وبين الغرب المسلم والشرق المسيحي، كانت توجد منطقة انتقالية تعرف باسم الخط الأخضر الذي سُمي على اسم الخط الأخضر الفاصل

(*) بعد اندلاع عنف طائفي في نيقوسيا عاصمة قبرص في العام 1963، قُسمت المدينة إلى جنوب يسكنه القبارصة اليونانيون وشمال يسكنه القبارصة الأتراك، وتكرس التقسيم بعد انقلاب عسكري في الخامس عشر من يوليو 1974 من جانب اليونانيين القبارصة وإعلان ضم الجزيرة إلى دولة اليونان، تلاه احتلال من جانب الجيش التركي في العشرين من الشهر نفسه. ولاتزال نيقوسيا العاصمة الوحيدة المقسمة في العالم. وبعد أعمال شغب لنيل الحكم الذاتي من إنجلترا، قسمت بلفاست، وفي الأعوام 1920 - 1922 أصبحت المدينة عاصمة الكيان السياسي الجديد: أيرلندا الشمالية التابع لإنجلترا بعد تقسيم الجزيرة بينه وبين جمهورية أيرلندا. [المترجم].

بين قبرص اليونانية والتركية منذ العام 1963، الذي سُمي هو نفسه على اسم خط الهدنة بين القوات الإسرائيلية والأردنية الذي رسمه الكولونيل موشيه ديان على خريطة فلسطين بقلم شمع أخضر في العام 1948[17].

كان الخط الأخضر بطول خمسة أميال ونصف الميل وعرض ما بين عشرين ومائة ياردة، يمتد من الميناء إلى ساحة الشهداء التي أصبحت في ذلك الحين اسما على مسمى، وصولا إلى طريق دمشق والمطار. كانت هناك ثلاث نقاط عبور للخط الأخضر: في الميناء، والمتحف الوطني، والمطار. وسرعان ما تحول الخط الأخضر إلى شريط أخضر بالمعنى الحرفي. وكما حدث في يوكاتان بعد انهيار حضارة المايا[*]، عادت المدينة إلى حالة الطبيعة. فكان الخط الأخضر والبيوت المجاورة له مكسوة بشريط أخضر من العشب والحشائش والأجمات والنباتات المعترشة. وتحولت ساحة الشهداء التي كانت في السابق صرة المدينة، إلى قفر للأعشاب والخرائب.

وإلى جانب النباتات، جذب الخط الأخضر الحيوانات أيضا. ففي أثناء حالات وقف إطلاق النار، كانت الكلاب والجرذان تخرج للبحث عما تقتات عليه. ويقال إنها كانت تلتهم الجثث التي لم يجد أحدهم الوقت أو الشجاعة لدفنها، وكانت الكلاب أحيانا تهاجم النساء والأطفال. ومع زيادة كثافة الأعشاب والحشائش، حلت قطعان من الأغنام محل السيارات والحافلات في ساحة الشهداء، كما ظهرت الأبقار في شارع كليمنصو. وصوّر أحدهم حصانا هرب من إسطبلات سباق الخيل وهو يتجول خلال صالة انتظار مهجورة بالمطار. وظهر كثير من الطيور والأنواع الأخرى في المدينة أكثر من أي وقت سابق. إذ لم يعد اللبنانيون يصطادون الطيور، بعد أن تحوّلوا إلى اصطياد بعضهم بعضا[18].

كان الخط الأخضر جنة القناصة. وكما يحدث في جذوع الأشجار التي يأكلها النمل، تآكلت البنايات بفعل الثقوب الناتجة من الطلقات، كما نسف القناصة فتحات خلال جدران العقارات المجاورة للخط الأخضر حتى يتمكنوا من السير من بيت إلى آخر لمسافة أميال من دون أن يظهروا في الشارع[19].

(*) يوكاتان Yucatan، حاليا إحدى ولايات جمهورية المكسيك، كانت شبه جزيرة مهمة ضمن إمبراطورية المايا، استغرق الإسبان عقدين من الحروب مع هذه الإمبراطورية للاستيلاء عليها والذي اكتمل في العام 1543. [المترجم].

أظهرت بيروت تكاملا بين القنص والعمارة. فأُعِدت مواقع قنص محصنة داخل البنايات، تتمتع في الأغلب بـ«مجال رؤية» جيد لإعطاء القناصة رؤية أفضل لضحاياهم. وكانت مواقع القنص تُزيّن بشعارات دموية، كانت عبارة عن الشعارات المطبوعة للميليشيات المختلفة، الأرز أو الصليب للكتائب، أو الاختصار العربي لاسم منظمة التحرير الفلسطينية، أو ميليشيا أمل الشيعية التي تأسست في العام 1976[20].

كان بيت بركات بنوافذه المقوسة وصف أعمدته الفخمة، يتمتع بتصميم جيد جعله معقلا لقناصة الكتائب، وقد متّنوا أبوابه وجدرانه بدعائم خرسانية. وكانت أجولة الرمل الخاصة بالقناصة وفرشهم وصحونهم ومخلفاتهم لاتزال ملقاة كما تركوها وراء نقاط القنص المثالية في الواجهة المثقبة عندما زرت البيت في العام 2002، بعد اثني عشر عاما من صمت البنادق. وكانت الصلبان لاتزال مرسومة على الجدران[21].

ففي بيروت، كان الصليب - رمزا للحرب هنا وليس الحب - يظهر على الجدران وعلى البزات الرسمية ومعلقا حول رقاب المسيحيين وحول معاصم أيديهم وموشما على أجسادهم، وفي بعض الحالات محفورا على جثث المسلمين. وفي أحياء مسيحية مثل الجميزة والأشرفية في شرق بيروت، لاتزال صلبان من كل الأشكال والألوان تنتشر في كل مكان: بيضاء على خلفية سوداء، وسوداء على خلفية بيضاء، وخضراء على خلفية بنية، وحمراء على خلفية بيضاء، بعضها مطبوع بقوالب معيارية، وبعضها يمكن تمييزه بصعوبة. وتُستخدَم الصلبان في معظمها رموزا للقوات اللبنانية (وهو الاسم الذي أُطلق على الميليشيات المسيحية المختلفة بعد أن أدمجها بشير الجميل معا في العام 1980) والموارنة[22].

لم تكن الصلبان زينة الجدران الوحيدة. ففي مختلف أنحاء المدينة علقت ملصقات وشعارات تعلي من شأن الحرب و«الشهادة»، في الأغلب تحت صورة «شهيد». وكان كثير من الملصقات يخلّد ذكرى أبطال معينين، مثل عبدالناصر وكمال جنبلاط وبشير الجميل وآية الله الخميني، أو أحداثا مثل نكبة فلسطين في العام 1948. وثمة شعارات كان يمكن أن تستخدمها أي طائفة، مثل «يا أم الشهداء، أنشدي أغنية الفرحة! فكلنا هنا أبناؤك»، «سنعبر بحر الدماء لنصل إلى النصر المؤزر من الله»، «خالد في وعي الشعب والأمة»، «معا حتى النصر»، «لبناننا في حاجة إليك»[23].

تُظهِر الصور الفوتوغرافية أن المقاتلين عموما كانوا من الشباب (والشابات في البداية) بين عمر السابعة عشرة والسابعة والعشرين، مثل «أولاد الحي» في أي مكان بالعالم، يقفون على نواصي الشوارع لإظهار قوتهم، ممسكين بـ«كلاشيناتهم» الحبيبة(*). وأحيانا كانت وجوههم تأخذ هيئة الابتسام بفعل لفافات الحشيش التي يدخنونها[24].

كانت مكاتب الميليشيات توجد في الطوابق الأرضية بالعمارات. وعلى جدرانها كانت تُعلق صور «الشهداء» وتكتظ بالشباب الداخلين إليها والخارجين منها. لم يكن الشباب يعلقون البنادق على أكتافهم في الشوارع فقط، بل أيضا في أثناء الصلاة (المسيحيون والمسلمون على حد سواء)، وفي أثناء صيد السمك، وفي البارات، حتى إنها كانت تُترك في حجرات الإيداع مثل الشمسيات[25].

تكشف بيروت كيف يمكن أن يتحول البشر بسهولة إلى وحوش، وكيف يمكن أن تتقطع سريعا الأواصر الاجتماعية والاقتصادية التي تربط مدينة معا. في روايتها «تحولات سعيد»، تصف مي غصوب، التي غادرت بيروت لتنشئ دار الساقي للنشر، وهي أفضل مكتبة عربية في لندن، كيف يتحول شاب إلى الاستمتاع برؤية الخوف الذي يبثه الكلاشينكوف في عيون المارة، وكيف يوسع الناس الطريق له في المحلات ويبدأون في طلب وده، وكيف تنهال عليه السجائر فجأة. ويتعلم الشاب كيف يقفز إلى السيارات ومنها «على طريقة الرجال». ويغدو وجهه مشرقا ومتفائلا[26].

على امتداد الحرب الأهلية، ظلت بيروت، على نحو بطولي، مدينة الكتب والصحف والناشرين والطباعين الذين قدموا التحليل والوصف والتخليد للحرب. وبفضل كُتابها، أصبحنا نعرف ما كان قتلة بيروت يفكرون فيه أو ما قالوا إنهم يفكرون فيه في ذلك الوقت. تكشف تعليقات هؤلاء القتلة شيئا من الطابع المتفرد للمدينة، فضلا على رغبة عامة في الحرب من نوع الرغبة التي سادت أوروبا في العام 1914. من ذلك قول بعضهم «الحرب هي صديقي الوحيد. إنها كزوجتي. وأنا أحبها، ومجرد فكرة السلام تخيفني»، أو «أعتقد أنني في يوم واحد حللت كل

(*) يشير مصطلح «أولاد الحي» area boys، إلى عصابات الأطفال والشباب الذين يجوبون شوارع الأحياء الفقيرة تحديدا، يبتزون المال من المارة ويبيعون المخدرات ويعملون حراس أمن، وغير ذلك من الأعمال في مقابل المال. [المترجم].

مشكلاتي المتعلقة بالهوية. فبمجرد أن وقفت خلف الحاجز... أصبحت مندمجا بالكامل»[27].

في العام 1979 نشر مارون بغدادي ونايلة دو فريج في صحيفة «النهار» مقابلات أجرياها مع ما أسمياه «جيل الكلاشينكوف»، وهي عينة مكونة من تسعمائة طالب جامعي بين عمر السادسة عشرة والثانية والعشرين، كانوا يقاتلون في الحرب الأهلية. وجد الكاتبان أن 76 في المائة من الشباب و 21 في المائة من الشابات كانوا يمارسون الجنس، لا فرق في النسب بين المسلمين والمسيحيين، وأن 32 في المائة حملوا السلاح: 43 في المائة من الشباب و13 في المائة من الشابات. كان الشباب من الجنسين مسيسين إلى أقصى حد، ما يفند الفكرة النمطية القائلة إن اللبناني لا يفكر إلا في الربح والمتعة. وكانت تتملكهم الرغبة في أن «يصيروا أكثر انخراطا في الواقع». شارك هؤلاء الشباب في الحرب، ليس بسبب الضغوط العائلية، بل من أجل أنفسهم ومن أجل «هذا المزيج من الثقافات، وهذه الحياة الحلوة، والبحر الأبيض المتوسط، ذلك البحر الأزرق». وفيما يلي بعض الاقتباسات من تعليقات الشباب:

> تعلمت كل شيء فجأة. قبل ذلك لم نكن نفهم أي شيء عنها، وكان هناك كثير من المجموعات، وها هي الحرب أوضحت كل شيء.
>
> خلف دوشكتي، وجدت استقلاليتي(*).
>
> وجدت أبي خائرا ومثيرا للشفقة. أما أنا فكنت قويا جدا، نعم قوي. هل تفهم هذا الإحساس بالقوة، القوة المفاجئة، أن تكون حياتك وموتك في يدك أنت؟

بعد مذابح تل الزعتر والدامور، ومع ذكريات الدم والوحل، شعر البعض بالذنب وأنكره آخرون. تذكّر سمير وجهاد: «عندما تطلق صاروخا وتسمع صراخ الأطفال بعدها. إنني على يقين من أن ذلك كان وهما في رأسي. نعم وهما... فلم أكن أستطيع أن أتعامل مع ذلك من دون قوة الحبوب». إنني «اليوم عندما أفكر في ذلك، أجده كابوسا».

نالت اللبنانيات الحق في القتال بعد غيابهن الإجباري عن الحرب الأهلية في العام 1860. قالت جومانا: «أخيرا مشيت في الشوارع أحمل السلاح وشاركت في

(*) الدوشكا Dshk، رشاش سوفييتي ثقيل مضاد للطائرات. [المترجم].

القتال. ولا أخجل من أن أعترف بأن أنوثتي تفتحت في أثناء الحرب... كان كل ما يعنيني هو أن أحصل على الحقوق نفسها التي يتمتع بها أي رجل... كانت فتنتي ومتعتي الوحيدة في الكلاشينكوف، وكل ما عدا ذلك كان أمورا ثانوية».

كانت الحرب بالنسبة إلى البعض مجرد حفلة: «فجأة أصبحنا سادة مدينة طالما احتقرتنا... وكنا في كل مكان، وكنا الملوك. وفجأة شعرت بأن كل شيء يمكن أن يصير ملكي، فكنا ندخل بيوتا فخمة، أماكن من تلك التي تراها في السينما. كانت بيروت تحت أقدامنا».

وفيما يلي عينة من الإجابات التي قدموها عندما سُئلوا عن سبب اشتراكهم في القتال:

فريد: «نريد أن نحيا كراما».

جهاد: «إنها حربنا نحن المحرومين، إنها حرب الفقراء».

سمير: «من أجل البلد، ومن أجل عائلتي، ومن أجل سيادة لبنان».

مارسيل: «من أجل البلد ضد الإقطاع والفساد والأجانب».

مروان: «من أجل الديموقراطية ووحدة لبنان».

ناجي: «من أجل العلمانية والوحدة والديموقراطية».

جمال: «من أجل عروبة لبنان ووحدته».

نايلة: «من أجل الاشتراكية والنساء».

فادية: «من أجل الشرف».

خليل: «من أجل نفسي»[28].

كان الشباب الذين أجريت معهم المقابلات جميعا من الطلاب الجامعيين. ولم يكن من بينهم مرتزقة أو مقاتلون فقراء. يرى بعض المراقبين أن القنص بالنسبة إلى 60 في المائة منهم كان من أجل المتعة. إذ كان لعبة مثل لعبة البلي أو النرد[29]. سمع مؤرخ التصوير الفوتوغرافي في لبنان ميشال فاني صديقا له يتفاخر بأنه وضع قنبلة يدوية منزوعة الفتيل في فم أسير، وفي النهاية سقطت القنبلة من فم الضحية بعد أن وهنت عضلات فمه وقتلته. وكان كثير من القناصة يحصلون على أجر نظير عدد الرؤوس التي يحصدونها، وقد زعموا أنهم كـ«رجال شرفاء» لم يكذبوا قط في

عدد الرؤوس. وكانت أغلبية الضحايا من المدنيين، وليس المقاتلين. فشوارع بيروت اليوم مملوءة بالقتلة، أصبح بعضهم حاليا قبضايات في النوادي الليلية، ومنهم أيضا من صاروا وزراء. وفي حالة واحدة من حالات كثيرة مشابهة، جاء فني كهرباء للعمل في شقة، فإذا بصاحب الشقة يجد أمامه الشخص الذي عذبه واختطفه قبل عدة سنوات. تجمد الرجلان ولم ينبس أحدهما ببنت شفة[30].

يبتكر كل عصر أهوالا جديدة. كان الحكام العثمانيون يعبرون عن حماسهم بعدد الرؤوس المملحة التي يرسلونها إلى السلطان. وفي منطقة البلقان، كان «قطع أنوف» الجثث شائعا. أما الحرب الأهلية اللبنانية، فكانت الآذان اختصاصها، إذ قيل إن المسلحين كانوا يصنعون منها أكاليل[31]. وكان من الأسباب التي جعلت القناصة يتعاطعون المخدرات إلى جانب تخفيف السأم، أنهم أرادوا أن ينسوا الذكريات التي تعذب حتى أشد القتلة قسوة[32].

***

مع نهاية العام 1976 كان الفلسطينيون وحلفاؤهم يسيطرون على 80 في المائة من البلد. أما الجيب الماروني الواقع في شمال بيروت، المطابق تقريبا لمنطقة جبل لبنان قبل العام 1918، وما فيه من مليون شخص أغلبيتهم مسيحيون، فربما كان صغيرا، لكنه كان مؤثرا. ومن خلال ميناء جونية، كانت السفن الإسرائيلية تأتي بالأسلحة الحديثة إلى الكتائب. وكانت الكنيسة المارونية والكتائب تعتنيان باللاجئين المسيحيين من بقية لبنان، مع العلم أنه في أثناء الحرب الأهلية غادر معظم المسيحيين صيدا وطرابلس. وسرعان ما ضمت «مارونستان» Marounistan معظم الجيش اللبناني والوزارات والصناعة. وانهارت تجربة التعايش العظيمة[33].

كان شرق بيروت وغربها أشبه بدولتين مختلفتين، تكتظ الأولى بمراكز التسوق وميناء كثيف الحركة ودور سينما تفوح منها رائحة العطور وليس القمامة، وفي الثانية يقف الناس طوابير في شوارع تغطيها الحفر من أجل الخبز والماء. حتى إن الناس في غرب بيروت لم يكونوا يغتسلون في الشوارع وحسب، بل كانوا أحيانا - كما تبيّن الصور - يشربون من الماء الطافح في الشوارع. وتراكمت القمامة أكواما في شوارع «باريس الشرق الأوسط» حتى جذبت القطط والجرذان. كانت هناك ثلاثون ميليشيا مختلفة تتبع قيادة الجبهة القومية في غرب بيروت، كان كثير منها،

بما في ذلك منظمة التحرير الفلسطينية، يرتبط بالجريمة المنظمة، تماما مثل جيش الجمهورية الأيرلندية IRA وجيش التحرير الوطني الأيرلندي INLA في بلفاست. وكانت الشوارع والأرصفة تكتظ بعربات وطاولات تُباع عليها السلع المنهوبة من المحلات ومخازن الميناء. وكان حظر التجوال يبدأ في الثامنة مساء.

في بادئ الأمر، ساعدت تجارة السلاح والمخدرات وإعادة البناء (إعادة تركيب ألواح زجاج جديدة للنوافذ، وهو العمل الذي كانت تقوم به على أفضل نحوٍ العصابات أنفسها التي حطمت النوافذ) والحوالات المالية من اللبنانيين المقيمين في الخارج في الإبقاء على الاقتصاد متماسكا. وظهرت أرصفة شحن خاصة للمهربين على طول الساحل. وكانت سفن تجار السلاح تحوم قبالة الشاطئ تنتظر اللحظة المناسبة لإنزال حمولاتها. وأصبح الويسكي أرخص منه في أي مكان آخر في العالم. كتب جوناثان راندل Jonathan Randal مراسل «نيويورك تايمز» أن المشرق لفظ أنفاسه الأخيرة في لبنان في العام 1975، وهو يشير تحديدا إلى التوليف القديم الذي حققته الصفقات بين الوجهاء والطوائف الدينية. لكن من الناحية الاقتصادية كان المشرق يزدهر[34].

كان الناس في غرب بيروت يقضون المساء في الاستماع للأخبار على الإذاعات والحياكة ولعب الورق ومشاهدة ألسنة اللهب والصواريخ وهي تضيء سماء الليل من شرفات بيوتهم. وكان أصحاب البيوت يوفرون مناظير إضافية إن كانوا ينتظرون ضيوفا على العشاء. بعد عشاء من هذا النوع، وبعد أن تشاجرت مع صديقتها المقربة المسيحية، تذكرت لينا طباره المسلمة التي كانت تعمل في وزارة الخارجية أنها أخذت تقول في عقلها: «أشعر بأن بذور الكراهية والرغبة في الانتقام تتجذر في أعماقي... لا بد من وضع حد لهذه اللامبالاة الجبانة». لقد أرادت لينا أن يرد المسلمون «الصاع صاعين على الأقل». نفدت نسخ القرآن والصلبان من المحلات بسبب الإقبال على شرائها[35]. لاحظ إدوارد سعيد أن «الأطفال كانوا ينتقلون في الحديث من ألعاب الحاسوب إلى كرة القدم إلى المذابح، وصاروا يتحدثون ببرود عن الفروق بين صواريخ الغراد والآر بي جي والكاتيوشا[36].

***

إن للحرب الأهلية اللبنانية وجوها كثيرة يمكن للمرء أن يفسرها على الوجه الذي يريد، إذ يمكن النظر إلى الحرب باعتبارها دينية أو سياسية أو عسكرية

أو دولية في جوهرها. كما انطوت الحرب على جانب عائلي(*). لقد شهد الشرق الأوسط في أواخر القرن العشرين انبعاث العائلات السياسية التي كانت تخفي سلطتها وراء الشعارات الجمهورية والدساتير. فمصر تسيطر عليها عائلة مبارك، واليمن يسيطر عليه علي عبدالله صالح وعائلته، وتوجد عائلة الأسد التي تنتمي إلى الأقلية العلوية في السلطة في سورية منذ العام 1970. وخوفا من الأغلبية السُّنية الساخطة في سورية، وثّق النظام السوري صلاته بشيعة لبنان (كان الإمام موسى الصدر قد أصدر فتوى بأن العلويين مسلمون)، وكذلك مع عائلة فرنجية المارونية بسبب صداقة عائلية[37].

وإلى جانب وجودها في قمة هرم السلطة، ظلت هذه العائلات نشطة أيضا دون هذا المستوى. فكان في مقدور العائلات في لبنان أن تعمل باعتبارها هيئات للضمان الاجتماعي والتوظيف. فكما كان القناصل يفعلون في الماضي، كان في مقدور الوجهاء أو الزعماء من العائلات البارزة أن يتجاوزوا النظام الرسمي الضعيف. فمن خلال مكالمة هاتفية واحدة يمكن للزعيم أن يرتب لأحد أبناء طائفته الحصول على خط هاتف أو تأشيرة. حتى إن البعض رأى أن الوجهاء أقوى تأثيرا وأطول بقاء من الثوار[38].

كان كمال جنبلاط مؤسس الحزب الاشتراكي التقدمي بنزوعه الشخصي اشتراكيا يقدّر غاندي. فاز كمال بجائزة لينين للسلام وتبرع بمعظم أراضيه. لكنه مع ذلك كان أيضا زعيما وراثيا للطائفة الدرزية، كما كان أسلافه منذ القرن السابع عشر. ومن أجل حل مشكلات أتباعه، خصص كمال يومي الثلاثاء والخميس لاستقبالهم في قصره ببيروت ويومي السبت والأحد لاستقبالهم في معقله في بلدة المختارة في وادي الشوف[39].

حتى ذلك الحين، ظل الزعماء يعملون باعتبارهم قوة كابحة، مثلما عملت عائلة سلام في العام 1958. وفي ذلك رأى ميشال شيحا أن أزمات لبنان يمكن دائما

(*) على رغم أن الأمر لا يخلو من اختزال، يمكن رد أعمال العنف الطائفية، والطائفية نفسها، في منطقة الشرق الأوسط على امتداد العصر الحديث الذي يتطابق تقريبا مع ظهور المشرق «العثماني»، إلى العائلية وحتى الشخصانية - إذا جاز التعبير، بمعنى المصلحة الشخصية وليس بالمعنى الفلسفي للمصطلح - ورغبة رؤوس عائلات أو أفراد لا يتعدون في كل حالة عدد أصابع اليدين في الوصول إلى السلطة والمال أو الحفاظ على ما تراكم لهم منها، من خلال تجييش طوائفهم ورفع الحس الطائفي لدى أفرادها، في الأساس من أجل مصالح شخصية وعائلية، حتى إن بدا «أمراء الطوائف» أو «أمراء الحرب» لأنفسهم أنهم يدافعون عن قضية عادلة. يوجد تأكيد لهذه النظرية في كتاب ماريو أبوستولوف «العلاقات الحضارية المسيحية - الإسلامية بين احتمالات التعاون والصراع» الذي ترجمه المترجم للمركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010. [المترجم].

تسويتها في النهاية بين الوجهاء. لكن بعد العام 1975 حل الحماس محل الصفقات. فربما نتيجة للضغوط القادمة من أسفل السلم الاجتماعي، صار الوجهاء الجدد أكثر قسوة من أسلافهم وأقل استعدادا منهم لتقاسم المناصب السياسية والفرص التجارية مع منافسيهم. وفي الصراع من أجل السيطرة على الموارنة، أخذ أتباع عائلة الجميل يقتلون منافسيهم الموارنة، حتى إنهم لم يستثنوا النساء والأطفال، وكان من بين ضحاياهم أفراد من عائلة فرنجية في العام 1978، وحراس كميل شمعون في العام 1980، وداني شمعون وزوجته وابناه الصغيران في الحادي والعشرين من أكتوبر 1990. يعكس داني شمعون «تحول بيروت» من المتعة إلى القتل (والعودة إلى الحالة السابقة في بعض الحالات). فقبل أن يتولى قيادة ميليشيا النمور ويشارك في المذابح، كان «شخصا عذبا» و«آخر شخص في العالم يمكن أن تعتقد أنه يمكن أن يصير مقاتلا» بتعبير أحد أصدقائه[40]. بيد أنه في حالة الشيعة، أفسحت العائلات الإقطاعية القديمة مثل عسيران والأسعد الطريق ليس لعائلات جديدة، بل لحزبين جديدين: حركة أمل «اليسارية» التي تأسست في العام 1976، ومنافسها ذي الطابع الديني حزب الله الذي تأسس في العام 1982[41].

اجتمع الوجهاء أيا كان دينهم على عادة واحدة. فمهما كانت سياساتهم دموية، كان الزعماء اللبنانيون يرتدون بدلات جيدة الحياكة وجيدة الكي، قاتمة في الشتاء وبيضاء لامعة في الصيف، لا يستثنى من ذلك غير منظمة التحرير الفلسطينية وحزب الله. ذلك أن العنف لم يقضِ على خيلاء الزعماء.

***

كان العام 1982 عام أهوال خاصة. كانت الكتائب في حلف متقطع مع إسرائيل منذ أربعينيات القرن، بسبب عداء الطرفين للعرب المسلمين. وفي أوقات الأزمات، كان جنود الكتائب عادة يوفرون الحماية للحي اليهودي ببيروت. غير أن الأصوات المتعقلة في وزارة الخارجية الإسرائيلية حذرت مما نسيته الحكومات الإسرائيلية لاحقا، وهو أن الموارنة لم يكونوا في حقيقة الأمر يسيطرون على لبنان، فضلا على أنهم لم يكونوا موحدين[42].

وبداية من العام 1980 كان أمير الحرب ذو الوجه الطفولي بشير الجميل و«ذئابه الصغيرة» الذين كان بعضهم يطلقون على أنفسهم اسم «الدرزينة القذرة»

المستوحى من الفيلم الأمريكي، عازما على الاستيلاء على السلطة في لبنان وطرد منظمة التحرير الفلسطينية وترحيل الفلسطينيين جميعا بعدما. وحّد الجميل جميع الميليشيات المسيحية في القوات اللبنانية القوية التي بلغ عدد أفرادها عشرين ألفا والتي لاتزال موجودة إلى اليوم ويوجد مكتبها بالقرب من ساحة الشهداء. رأى الجميل أن «مشكلتنا الوحيدة تكمن في وجود السوريين والفلسطينيين». وعُقدت اجتماعات منتظمة في لبنان وإسرائيل جمعته مع وزير الدفاع الإسرائيلي أرئيل شارون. عرضت إسرائيل عليه تدريب قواته وتزويدهم بالأسلحة، إذ كانا يشتركان في الأهداف عينها. وفي كثير من المناسبات كشفت إسرائيل عن عدائها للمدينة المشرقية الكوزموبوليتانية التي تختلف روحها كليا عن روح إسرائيل. وفي السابع عشر من يوليو 1981 هاجمت إسرائيل غرب بيروت بغارات جوية[43].

شنت إسرائيل، سيدة الجو بلا منازع، مزيدا من الغارات الجوية في يونيو 1982، كانت طائراتها تصنع خطوطا فضية في السماء وهي تنقض لقصف المدينة. وغزا ستة وسبعون ألف جندي إسرائيلي لبنان، وصلوا بيروت في أغسطس 1982. طلبت الحكومة الإسرائيلية من المدنيين مغادرة المدينة - «لا نريد إيذاءكم» - علما بأن عدد سكان المدينة كان قد تضخم بسبب توافد اللاجئين من الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان. طال القصف العنيف من الجو والبحر العمارات السكنية ومقرات الصحف والمقرات الوزارية (ومنها مكتب رئيس الوزراء) والسفارات والمستشفيات والمعبد اليهودي الرئيس ببيروت في وقت كان يغص فيه بلاجئين نائمين[44]. وصف السفير الأمريكي أعمال إسرائيل بالقول إن «قصف غرب بيروت لا يقل عن قصف لندن»[45].

في أثناء الفواصل بين طلعات القصف، كانت السيارات والناس يهرعون في حالة من الذعر خلال الخط الأخضر عند نقطة عبور المتحف لدخول ملاذ شرق بيروت المسيحي الذي كان آمنا بفضل تحالفه مع إسرائيل. ففي بيروت، حتى ماركسي فدائي مثل حازم صاغية كان يفرح بالسلام و«الفترات الطويلة بلا معارك بالأسلحة»[46]. وبالنسبة إلى جين سعيد مقدسي، أخت إدوارد سعيد وزوجة الأستاذ بالجامعة الأمريكية ببيروت أسامة مقدسي، كان صوت المعارك يشبه شياطين تدق طبولا تحت الأرض. وقد كشف القصف في رأيها عن «دافع تدميري مجنون إلى القتل واستئصال كل شيء حي وعدم ترك شيء سليما ومحو المدينة». ورغما عنها، انتقلت

إلى شرق بيروت هي الأخرى. وبحلول شهر أغسطس، كان خمسة وثلاثون ألف جندي إسرائيلي على أبواب بيروت[47].

وأخيرا، وافقت منظمة التحرير الفلسطينية على مغادرة بيروت، المدينة التي أسهمت المنظمة في تدميرها. وفي الثاني عشر من أغسطس، وبينما كان القصف الإسرائيلي متواصلا، انفجر رئيس الوزراء اللبناني قائلا: «كان الاتفاق صعبا في التوصل إليه، لكننا أنجزناه. ماذا يريدون؟ فلم يبق غير شيء واحد وهو أن يقتلونا جميعا. فليقتلونا جميعا... هذا يكفي»[48]. تؤكد الصور الفوتوغرافية مدى الموت والدمار. وثمة تقدير لمايكل جونسون يذهب إلى أنه في ذلك الصيف إجمالا، وبعيدا عن خسائر الفلسطينيين، قُتل خمسة عشر ألف لبناني وجرح أربعون ألفا وشرد ثلاثمائة ألف[49].

باتفاق دولي، نزلت قوات أمريكية وفرنسية وإيطالية للحفاظ على النظام في أثناء انسحاب منظمة التحرير الفلسطينية. كان عرفات يقضي الوقت متنقلا بين عدد من سيارات رينج روفر خضراء داكنة كانت تتنقل حول المدينة حتى لا يمكث في مكان واحد فترة طويلة ويكون هدفا لعملاء إسرائيل. وعندما غادر عرفات في مراسم رئيس دولة في الثلاثين من أغسطس يرافقه إلى الميناء رئيس الوزراء، رفع يده بشارة النصر في تحدٍ للواقع، وودّع بيروت بكلمة ود كثير من البيروتيين ألا يقولها: «إني أغادر هذه المدينة، لكن قلبي سيظل دائما في بيروت». وبفضل اتفاق كل الأطراف، تمكن الجيش اللبناني للمرة الأولى من العمل بفعالية من خلال السيطرة على غرب بيروت، وسط فرحة السكان. وأعلن رئيس الوزراء في الأول من سبتمبر: «من اليوم لم يعد هناك بيروت الشرقية والغربية»[50].

***

بينما كانت القوات الفلسطينية والسورية تنسحب من لبنان، وصل النواب بطائرات حوامة إلى المدينة لاستكمال النصاب لانتخاب رئيس جديد. كان بشير الجميل حريصا على اتباع الأشكال الدستورية، بدلا من تنفيذ انقلاب عسكري. اجتمع النواب في ثكنة الفياضية القريبة من نقطة عبور الخط الأخضر عند المتحف، حتى يستطيع النواب أن يتوافدوا من جانبي المدينة كليهما. بعثر بعض النواب شعرهم أو أخذوا لأنفسهم صورا بجانب الحراس المسلحين للقوات اللبنانية لإثبات أنهم «أُجبِروا» على

التصويت. وفي الثاني من سبتمبر انتخب بشير الجميل رئيسا، فعمّت الفرحة شرق المدينة المسيحي الذي كان متيما ببشير، وأطلقت بنادق الكلاشينكوف نيرانها، ودقت الكنائس أجراسها[51]. وغادرت القوات الأجنبية قبل الموعد المقرر - سواء عن قصد أو لا - وتُرِكت المدينة تحت سيطرة إسرائيل والقوات اللبنانية.

على أي حال، فإن من بين قواعد السياسة اللبنانية أن من يخرج أقوى من أي نزاع يوحّد الأطراف الأخرى ضده. وفي الرابع عشر من سبتمبر ذهب بشير الجميل كعادته في عصر كل يوم ثلاثاء إلى مكتبه بالأشرفية للتحدث إلى أتباعه. انفجرت قنبلة فيه وفي حاشيته، على الأرجح بتدبير عملاء سوريين من حزب الشعب السوري. ولاحقا، أطلق سراح الجناة من السجون اللبنانية بضغط من سورية. أثار بشير إعجابا كبيرا لدى الصحافيين المحترفين فضلا على الموارنة الموالين حتى أقسم بعضهم إنه رآه يخرج حيا من بين الأنقاض[52](*).

وفي الصباح التالي وبذريعة مقتله، نُفّذت مذابح في مخيمات الفلسطينيين على الحافة الجنوبية للمدينة في صبرا وشاتيلا، بتدبير القوات اللبنانية والجيش الإسرائيلي الذي كان يحرس محيط المخيمات ويراقبها من مقره الواقع فوق بناية للجيش اللبناني بارتفاع ستة طوابق. كان الجيش الإسرائيلي، وعلى وجه التحديد وزير الدفاع أرئيل شارون، يعرف المخيمات جيدا من الاستطلاع الجوي ومن العملاء على الأرض ومما تنقله لهم مراقبة المخيمات بالمناظير. كان الجناة الرئيسون في الموجات المتتالية هم القوات الخاصة الإسرائيلية، وجنودا شيعة من جيش لبنان الجنوبي الممول من إسرائيل، نُقِلوا بالطائرات لهذا الغرض تحديدا، و«ميليشيا الأباتشي» التابعة للقوات اللبنانية بقيادة إيلي حبيقة(**). كانت العملية مخططة بدقة. استمر القتل طوال ليلة الخامس عشر/ السادس عشر من سبتمبر بمساعدة القنابل المضيئة الإسرائيلية.

(*)أثيرت إشاعات مفادها أن بشير نجا من عملية الاغتيال، حتى خرج رئيس الوزراء شفيق الوزان وأكد أنه قُتِل. [المترجم].

(**) في السنوات الأولى للحرب الأهلية اللبنانية سادت الفوضى وعدم الانضباط بين ميليشيات الكتائب والقوات اللبنانية التي تميّز بعض أفرادها بالعصيان والقيام بأعمال نهب وجرائم أخرى لحساب أنفسهم، فأرادت قيادتهم إعادة الانضباط باستبعاد هذه العناصر. لكن رئيس جهاز الأمن والمعلومات بالقوات اللبنانية إيلي حبيقة رفض استبعادهم، وكوّن منهم قوة سرية بقيادته باسم «الشباب» أو «القوات الخاصة» لتتولى «الأعمال الخاصة» القذرة السرية. لذلك كان أفراد ميليشيا القوات اللبنانية ينظرون إلى أفراد هذه القوة بعين الاحتقار وأطلقوا عليهم بسبب وحشيتهم وهمجيتهم اسم «الأباتشي»، نسبة إلى قبائل الهنود الحمر التي تحمل هذا الاسم. [المترجم].

لم يُظهِر الجناة أي رحمة، فبعد أن سُئل حبيقة لأول مرة عما يجب فعله مع النساء والأطفال، جاء رده أنه لا يريد أن يسمع هذا السؤال ثانية[53].

كان ضمان أمان المدنيين في المخيمات الفلسطينية الذي تعهدت به الحكومتان الأمريكية والإسرائيلية مجرد كذب وخداع. قُتِل كثير من الضحايا وهم ممسكون ببطاقات هويتهم، كأنهم كانوا يحاولون إثبات شرعيتهم. ووجدت بجوار بعض الجثث زجاجات بيرة وحقن، ما يثبت أن القتلة كانوا في حاجة إلى منبهات لمساعدتهم على القتل. تمثلت أهداف هذه العملية «الإرهابية» في أي فلسطيني يقع تحت أيديهم. بلغ إجمالي عدد الضحايا ألفا وثلاثمائة وستة وعشرين شخصا[54].

وفي عصر الخامس عشر من سبتمبر، وبينما كانت المذابح متواصلة، كانت تجري في عالم آخر، هو بلدة بكفيا المسيحية مقر البطريرك الماروني، جنازة بشير الجميل بأبهة الدولة اللبنانية والكنيسة المارونية، وسط مواكب من الفتيات المنشدات، وخطب دينية، وموسيقى عسكرية، وسرب من طائرتين إسرائيليتين. وفيها شبّه أحد الرهبان الموارنة القتيل بالسيد المسيح[55].

تواصلت حلقات اللعبة اللبنانية. فعندما أخبرت إحدى الناجيات من المذبحة السياسي السُّني صائب سلام أنها تعرفت على مقاتلي الكتائب المتورطين في المذبحة من الشارات الموجودة على بزاتهم، رد عليها باحتقار الوجيه للفقراء: «منذ متى وأنتم تعرفون القراءة؟»[56].

في ديوانه «كتاب الحصار»، كتب الشاعر أدونيس:

المدائن تنحل، والأرض قاطرة من هباء.

...

وجدوا أشخاصا في أكياس:

شخص لا رأس له،

شخص دون يدين، ودون لسان،

شخص مخنوق.

والباقون بلا هيئات وبلا أسماء

- أجننت؟ رجاء لا تكتب عن هذه الأشياء[57].

وفي مثال كلاسيكي للعائلية، انتُخِب أخو بشير - أمين الجميل - الرئيس التالي للبنان. وبدأ في تنصيب موارنة متطرفين في المناصب الرئيسة. وسحبت إسرائيل قواتها إلى الجنوب من دون معاهدة السلام التي طالبت بها طويلا، بعد أن استنتجت من «هذا الصيف البيروتي»، كما قال أحد جنرالاتها، أن اللبنانيين آفات وأفاعٍ وعقارب[58].

ترتبت على الغزو الإسرائيلي نتيجة طويلة المدى غير متوقعة. فمثل كثير من العرب، كانت عائلة بن لادن تزور بيروت كثيرا في العطلات. وضَمِن التلفزيون أن يتابعوا القصف الإسرائيلي للمدينة. وألقوا باللائمة على حليف إسرائيل وجامع التبرعات لها ومزوّدها بالأسلحة: الولايات المتحدة. معنى ذلك أن أحداث أغسطس 1982 كانت من القوى الدافعة وراء هجمات سبتمبر 2001. قال أسامة بن لادن لاحقا «بينما أنا أنظر إلى تلك الأبراج المدمرة في لبنان، أتى إلى ذهني أن نعاقب الظالم بالمثل، وأن ندمر أبراجا في أمريكا لتذوق بعض ما ذقنا، ولترتدع عن قتل أطفالنا ونسائنا»[59].

***

كان المستفيدون الأوائل من الاحتلال الإسرائيلي هم سورية والشيعة الذين يشكلون حاليا ثلث سكان بيروت. يرتبط شيعة لبنان بروابط وثيقة قديمة بإيران الذين ساعدوا إبان القرن السادس عشر في تحويلها من دولة سُنية إلى دولة شيعية. وبعد العام 1979 كان الشيعة اللبنانيون يحصلون على سلاحهم وتمويلهم من حكومة إيران الثورية الجديدة. وذهب أمين الجميل لزيارة الرئيس الأسد في دمشق في فبراير 1984. وبما يعكس مخاوف عائلة الأسد من الأغلبية السُّنية في سورية التي قمعوها أخيرا في الاعتداءات على حلب وحماة، فضلت الحكومة السورية الشيعة والدروز وحتى القوات اللبنانية على السُّنة اللبنانيين[60].

وفي العام 1984 سيطرت حركة أمل على غرب بيروت. وعلى غرار الكتائب في شرق بيروت، كانت أمل أكثر من مجرد ماكينة عسكرية، إذ كانت كذلك منظمة ضمان اجتماعي ساعدت بكفاءة أكبر من الدولة اللبنانية في توفير الطعام والإسكان والكهرباء والماء لأتباعها، حتى إنها بالنسبة إلى بعضهم حلت محل العائلة بوصفها الوسيلة الأساسية لإعالتهم[61]. وسرعان ما أظهر الشيعة، الذين كان بعضهم أفقر حتى من الفلسطينيين، أن الوحشية ليست حكرا على إسرائيل والكتائب. وفيما

سُمي «حرب المخيمات»، أخذت قوات أمل تقصف جيرانها الفلسطينيين بلا انقطاع. ووفقا لكلمات زعيمها نبيه بري الذي يشغل اليوم منصب رئيس البرلمان اللبناني، فقد تمثل دافعهم إلى ذلك في «الانتقام لمعارك قديمة»، ربما كان يشير بذلك إلى قتل حفيدي النبي الحسن والحسين في العامين 670 و680 على التوالي، وهو الحدث التاريخي الذي دشن الشقاق الديني السُني - الشيعي[62]. وتحت قصف النيران كان اللاجئون الفلسطينيون يصطفون في طوابير في وسط مياه المجاري للحصول على جرايتهم. إجمالا، قُتِل نحو ألفي ومائة شخص. وبحلول العام 1988 لم تكن ثمة بناية واحدة منتصبة في مخيم شاتيلا. وفي العام 1987 ألغي رسميا اتفاق القاهرة للعام 1969 الذي أضفى شرعية على الوجود المسلح لمنظمة التحرير الفلسطينية في لبنان. وعلى رغم أن زهاء ثلاثمائة ألف فلسطيني مازالوا يعيشون في المخيمات هناك، فقد هرب كثيرون منهم إلى أوروبا، بعد أن أغلقت الدول العربية أبوابها في وجههم[63].

عمدت الحكومة السورية وحزب الله، اللذان انتحلا صفة حملة لواء الجهاد الإسلامي، إلى استخدام القتل والاختطاف كأدوات سياسية. كان هدف سورية - ولايزال - إقامة «علاقات تحظى فيها بامتيازات» مع لبنان و«التنسيق» معها في كل المجالات، بما في ذلك «اللجان الوزارية المشتركة»، بمعنى تحقيق الهيمنة عليها[64]. هُوجمت السفارة العراقية في العام 1981، والفرنسية في العام 1982، والأمريكية في العام 1983، ومقر قوات البحرية الأمريكية وثكنات فرنسية في العام 1983، وفي الحالتين الأخيرتين قُتِل مائتان وواحد وأربعون شخصا وثمانية وخمسون شخصا على التوالي، ما دفع الدولتين إلى الإسراع بسحب بقية قواتهما. وذكر ضابط بوكالة المخابرات المركزية أن وكالته لم تتعاف كليا من فقدان كثير من عملائها في بيروت[65].

لم يكن أحد في مأمن من عنف بيروت. إذ اغتيل السفير الأمريكي في العام 1976، وكمال جنبلاط في العام 1977، والسفير الفرنسي في العام 1981، ورئيس الجامعة الأمريكية ببيروت في العام 1984، ورئيس الوزراء في العام 1987، ومفتي بيروت بسيارة مفخخة (قتلت اثنين وعشرين وجرحت مائة وخمسين) في العام 1989، والرئيس اللبناني رينيه معوض بسيارة مفخخة أخرى في السنة نفسها في أثناء مرور سيارته في شارع الحمراء. كان المفتي ومعوض يشكلان تهديدا للحكومة السورية لأنهما سعيا إلى التفاوض مع أعدائها، الجنرال ميشال عون

ووليد جنبلاط، الذي خلف أباه كمال زعيما للدروز. وعندما قُتِل المفتي، استقبل البطريرك الماروني زيارات العزاء وأمر بأن تدق أجراس الكنائس كما يحدث مع الوجهاء المسيحيين[66].

***

وأخيرا، بعد العام 1988 بدأ الجيش يتدخل في السياسة بقيادة الرجل الذي اعتبره أتباعه ديغول لبنان: الجنرال ميشال عون، إذ كان على اقتناع بأن «الجيش وحده يستطيع أن يحرر بلدنا الأسير من سجن المصالح الأجنبية». وأدى مزيد من القتال إلى مزيد من عمليات إعادة الاصطفاف غير المفهومة. فحاصرت سورية شرق بيروت المسيحي الذي تدخلت لحمايته في العام 1976. وفي ذروة نهائية للعنف، انقسمت الدولة بين العامين 1988 و 1990 إلى رئاستين للوزراء: ميشال عون في شرق بيروت، وسليم الحص في غربها. وكأن المعارك بين الطوائف لم تكن كافية، فاندلعت المعارك داخل الطائفة الواحدة: بين الموارنة ضد الموارنة، والشيعة ضد الشيعة (حركة أمل ضد حزب الله مع دعم سورية للأولى) والفلسطينيين ضد الفلسطينيين. وقُسمت المدينة إلى خمس مناطق عسكرية منفصلة: إسرائيلية في الجنوب، ودرزية، وسورية، ومارونية، وعونية[67].

أخذت القوات السورية وقوات الجنرال عون تقصف أجزاء مختلفة من المدينة. وغُطيت الشوارع بالقمامة والزجاج المهشم والسيارات المهجورة، وبدت البنايات المترنحة التي تغطيها لافتات مكسرة وأسلاك متدلية وثقوب من أثر الطلقات، كأنها تؤدي رقصة للموت[68]. وفي العام 1987 تعرض للنهب فندق كومودور الذي يرتاده الصحافيون الأجانب الذين يغطون الحرب، الذي كان يوجد في باره ببغاء يقلّد صوت سقوط القذائف، وأُغلق الفندق في العام 1987[69].

كانت سميرنا واحدة من أوليات المدن التي تواجه موت المدن الجزئي إبان القرن العشرين. بينما كانت بيروت واحدة من أوليات المدن التي تواجه فوضى المدن. فعلى غرار أجزاء من لاغوس ومكسيكو سيتي اليوم، شهدت بيروت تجربة تقيس مقدار الزمن الذي يمكن للمدينة أن تعيشه بلا حكومة أو بلدية فعالة. ودخلت كلمة libanisation (اللبننة) في معجم لاروس الكبير لوصف «عملية تشظي الدولة الناتجة من المواجهة بين الطوائف المختلفة»[70].

بحلول العام 1990 كان كثير من اللبنانيين قد هربوا من البلد، ربما ثلث السكان أو أكثر. احتفظ هؤلاء ببيوتهم في لبنان، لكنهم عملوا في الخارج، وشكلوا بسبب الحرب الأهلية الجيل العالمي الأول الذي عاش بين عدة دول في آن معا. لقد كُتِب الكثير عن غربنة Westernization الشرق الأوسط، حتى احتجبت مشرقة Levantinization أوروبا(*). وبما يوضح الأخيرة، وبما يؤكد استمرار القوة الناعمة لباريس ولندن حتى بعد وقت طويل من رحيل القوات الفرنسية والبريطانية عن الشرق الأوسط، فتحت العاصمتان اللتان رحبتا بآلاف اللاجئين من مصر ذراعيهما إبان سنوات حرب بيروت لكُتاب لبنانيين مثل حنان الشيخ وأمين معلوف، والمصرفيين والمهندسين وأصحاب مطاعم الوجبات السريعة والصيادلة، ومن هنا جاء اسم صيدليات بلس Bliss pharmacies (التي سُميت على اسم شارع بيروتي سُمي بدوره على اسم المبشر الأمريكي الذي أسهم في تأسيس الجامعة الأمريكية ببيروت) ومطاعم مروش Maaroush المنتشرة في لندن اليوم.

كان ريمون إده - ابن إميل إده - نائبا برلمانيا لفترة طويلة وزعيم الكتلة الوطنية. كان ريمون المعروف باسم «ضمير لبنان» السياسي الوحيد الذي عارض اتفاق القاهرة للعام 1969. ولكونه السياسي المسيحي الكبير الوحيد الذي كان يعيش في غرب بيروت، فقد جعل من بيته هناك مركز أخبار لمحاولة تحديد مكان المختطفين وتقديم القهوة لسيل من الزوار، كانت من بينهم «عناصر مسلحة»، منهم عرفات نفسه (ولكن ريمون نفسه فقد تماسكه عندما أُتي له بجثة متعفنة لامرأة عجوز لم يعرف أحدهم ما الذي يمكن أن يفعلوه معها. وكان كلما علا صياح ريمون، علت ضحكات مساعدته لينا طباره). وفي العام 1976، بعد المحاولة الثالثة لاغتياله، انتقل إلى باريس، ولم يرجع. ومات في فندق برنس دي غال Hotel Prince de Galles في العام 2000، وهو على اقتناع بأن لبنان تحت الاحتلال السوري لم يستعد سيادته[71].

***

(*) بمعنى أن انتقال هؤلاء المشرقيين إلى عواصم الغرب أدى إلى مشرقتها، وإن كانت عواصم الغرب، بما في ذلك مدن الولايات المتحدة الأمريكية، ستشهد في العقود الأخيرة من القرن العشرين ميلاد مشارق جديدة، عرج إليها المؤلف في خاتمة الكتاب. [المترجم].

على أي حال، فقد بقيت بيروت على رغم الفوضى والقتل والهجرة. كان السائقون المدنيون والممرضات والأطباء والعمال الذين واصلوا عملهم معرضين حياتهم للخطر، هم أبطال الحرب الحقيقيون، وكانوا أحيانا يعبرون الخط الأخضر للوصول إلى مقار عملهم. من ذلك على سبيل المثال - لا الحصر - أن ثلاثة موظفين كانوا يقطعون الرحلة يوميا عبر الخط الأخضر للوصول إلى مقر عملهم في مكتب الخطوط الجوية السويسرية الواقع في غرب بيروت[72]. وفي أوقات توقف القتال، كان الناس يذهبون إلى المكاتب والمطاعم ودور السينما. وكذلك بقيت بنية الدولة والحدود الوطنية.

يرى الروائي ربيع علم الدين أنه حتى في زمن الحرب «ربما كانت بيروت أعظم مدينة في العالم». إذ يمكنك فيها أن تشم «عبير الحرية» أكثر من أي مكان في العالم العربي. ولذلك السبب عينه أحب السوريون بيروت. وفي تحدٍ للحرب الأهلية، ظل البعض يأتون للتمتع بكورنيش بيروت الأسطوري بين النساء المرتديات عباءات الشادور أو الفساتين القصيرة والعمال والمتسكعين، لتنسم جو أكثر حرية من جو بلادهم أو لتسوق سلع غير متوافرة فيها[73].

وكما حدث في لندن في أثناء تعرضها للقصف، رفع الخطر من شهية الناس للمتع. ومثل النبلاء الفرنسيين الذين يتذكرون «حلاوة الحياة» أيام «النظام القديم»، تحدث بعض المثليين البيروتيين عن زمن الحرب بصفته عصرا ذهبيا، إذ كان رجال الميليشيات يأتون إلى شققهم بحمية المعارك. وكذلك وجدت النساء الحب «تحت النيران» مثيرا. و«من أجل التخلص من البقايا الأخيرة للتعاليم الأخلاقية التي تلقينها من أمهاتهن»، وفقا للروائية هدى بركات، كان بعض النساء يذهبن إلى مكاتب الصحف ليلا لمقابلة الصحافيين الشباب، عندما تكون عاطفتهن متقدة[74].

اعتاد البيروتيون على التعايش مع الخطر. فحتى بعد انفجار سيارة مفخخة بالقرب من فندق سمرلاند، أقام الفندق بين صفارات الإنذار والصراخ عرض أزياء لفساتين الزفاف. وظل في مقدور هواة الحمامات الشمسية أن يقولوا «لا ضير»، ويرتدون نظاراتهم الشمسية، ويواصلون التشمس[75]. وحتى في أثناء القتال، كان بعض البيروتيين يستأجرون سيارات إسعاف، وهي أفضل وسيلة للتنقل في بيروت إبان الحرب الأهلية للوصول إلى الحفلات. ورفض كثير من المسنين مغادرة بيروت،

مثل مارغريت شيحا وإيفون كوكرين. قالت إيفون لاحقا: «لا يمكنك أن تتخلى عن بلدك وهو راكع على ركبتيه. ولم أستطع أن أترك الموظفين». ونجا سراي سرسق من الحرب بلا أضرار[76].

واصل هنري فرعون، الأقبح شكلا والأكرم وفادة بين الجميع، محاولة التوسط بين المسلمين والمسيحيين، ومشاهدة خيوله في مضمار سباق الخيل - إذ كانت السباقات تقام في أثناء وقف إطلاق النار - وإقامة حفلات عشاء سريالية على الرغم من إطلاق النار في الخارج، قدم فيها لضيوفه كبد الإوز والكمأة والحلوى. وبعد انهيار الليرة اللبنانية في العامين 1983 و 1984، عندما تحولت بيروت «إلى الدولار»، تعرض فرعون لخراب مالي. وبدأ التجار يشترون منه بأثمان بخسة النفائس التي سبق أن باعوها له بالغالي قبل الحرب. وقتل مسلحون مسيحيون عنصرين ميليشياويين مسلمين كانا لاجئين في بيته أمام عينيه وهما يشربان قهوته، بعد أن تعهد كميل شمعون شخصيا بضمان أمانهما عندما هاتفه فرعون.

وفي النهاية، اقتنع هنري فرعون بتسليم بيته إلى ابنه الذي لايزال يدير بنك العائلة إلى اليوم. وباع الابن البنك للصائغ روبرت معوض، وأثار الابن اشمئزاز أصدقاء أبيه حين نقله إلى فندق كارلتون في وقت كان الأب فيه قد فقد بصره تقريبا. كان من بين أسباب سوء العلاقات بينهما اشمئزاز الابن من تفضيل أبيه هنري فرعون للرجال، وهو أمر كان معروفا للمعاصرين في بيروت، ما أسهم في تدمير عمله السياسي في أوروبا والدول العربية الأخرى. كان الأمر بينهما ينطوي على شيء من الغيرة أو الرغبة في المال. وفي عمر الثانية والتسعين، قُتِل أحد آباء استقلال لبنان في غرفته بالفندق على يد أحد محبيه السابقين. ولم تُذكَر ملابسات موته عندما أُعلِن عبر إذاعة لبنانية[77].

في العام 1977 والعامين 1983 و 1984، عندما شهد القتال فترات هدوء، بدأت المدينة في التعافي. ففي العام 1983 قاد أمين الجميل سيارته من شرق بيروت إلى غربها معلنا بتفاؤل لا أساس له أنه «لم تعد هناك بيروت غربية أو شرقية»[78]. وفي العام 1984، على نحو ما كتب عميل وكالة المخابرات المركزية روبرت باير Robert Baer: «لم تكن هناك بناية لا تُدهن أو تُصلح أو تُهدم لإقامة بناية أخرى في مكانها». وتحوّلت المدينة إلى «موقع تشييد فسيح». وأعيد فتح المطار[79]. بل إن

الحرب رافقها ازدهار في البناء في ضواحي بيروت، نتج من توافد اللاجئين الفارين من الاحتلال الإسرائيلي في الجنوب أو القتال في وسط المدينة. وتحوّلت البساتين إلى عمارات سكنية، مجهزة في أغلبها بوسائل خاصة لزمن الحرب، مثل مولدات الكهرباء والآبار والملاجئ تحت الأرض. وكتب الجغرافي الحضري مايكل ديفي Michael Davie أن كل الأرض الزراعية تقريبا الواقعة بين المدينة والمطار «اختفت في غضون أشهر»[80].

***

وأخيرا في العام 1989، وعلى غرار ما حدث في العام 1860، تدخلت القوى العظمى. وبعد أن قصفت طائرات سورية ميشال عون في السراي الرئاسي، نقلته السفارة الفرنسية إلى باريس. وبعد أن لُدِغت الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية وسورية من «العقارب» البيروتية، اتفقوا على الحاجة إلى إيجاد تسوية. وعُقِد اجتماع للنواب في الطائف بالمملكة العربية السعودية، إذ لم يشعروا بالأمان في بيروت. وعلى نحو ما اقترحت سورية سابقا في العام 1975، فرضت قاعدةٌ جديدة التساوي في عدد النواب بين المسيحيين والمسلمين، بدلا من نسبة ستة إلى خمسة السابقة، في تنازل كبير لمصلحة الموارنة، على رغم أن نسبة كلّ المسيحيين من إجمالي السكان كانت منذ فترة طويلة أقرب إلى 30 في المائة منها إلى 50 في المائة. وانتُخِب رئيس جديد. وأعطي رئيس البرلمان الشيعي مزيدا من السلطات.

ساد شعور بأن استمرار وجود الجيش السوري يشكل ضمانة للقانون والنظام، على رغم أن اختيار أشد أمراء الحرب المسيحيين قسوة، الذي كان في ذلك الوقت نائبا عن بيروت، وهو إيلي حبيقة، كوزير دولة للمبعدين كشف عن سخرية واضحة، إذ عُيّن الشخص الذي سبّب «إبعاد» كثيرين وزيرا لإعادتهم. فُجّر إيلي حبيقة مع حراسه بسيارة مفخخة في بيروت في العام 2002، قبل أن يمثل أمام محاكمة في بروكسل تتعلق بمسؤولية أرئيل شارون عن مذابح العام 1982[81]. تكشّف هوس جديد بهوية لبنان العربية - بما يعني إقصاء الآخرين - في العبارة الواردة في اتفاق الطائف بأن «لبنان عربي في انتمائه وهويته، تربطه بكل الدول العربية علاقات إخاء حقيقية»، كأن لبنان كان أقرب إلى اليمن منه إلى فرنسا التي تشكل حاليا وطنا ثانيا لمئات الآلاف من اللبنانيين[82]. وماتت الفينيقية المُحْدَثة.

استأنف لبنان عملية إعادة البناء التي حاول أن يطلقها في العام 1976 والعام 1982. وكما تفعل الدول الأخرى بعد أهوال مماثلة، أراد لبنان النسيان، وأصدر قانون عفو في 26 أغسطس 1991. وكما يحدث مع تلاميذ المدارس المشاغبين الذين يُضبطون متلبسين بإساءة التصرف، صُفّ مسلحو الميليشيات بحقائبهم في طوابير وصُوّروا وهم يسلمون أسلحتهم، وأعطيت لهم وظائف في الجيش أو الأمن أو الشرطة. وهكذا انتهت حفلتهم[83].

18

مشارق جديدة
بدلا من المشرق القديم

أود أن أطمئن المسيحيين إلى أننا
واحد، وأن التساوي سيبقى إلى الأبد.
سعد الحريري، رئيس وزراء لبنان،
21 فبراير 2010

«المدن المشرقية هي المستقبل، تماما كما كانت في الماضي. والعولمة تعني أننا جميعا في الوقت الراهن مشرقيون»

على غرار ما حدث في العام 1975، اتخذ لبنان تحولا آخر، هذه المرة من رقصة الموت إلى السعي وراء الربح. فعلى رغم أهوال الحرب، لم تأخذ مدينة أخرى - لا أثينا ولا عمان ولا دبي - مكانة بيروت كعاصمة إقليمية. ذلك لأن جمعها للأدمغة والمتع والحرية لم يكن له نظير. لقد أُعيدت ولادة التوليف المشرقي. وفي العام 1992، أُعيد افتتاح مضمار سباق الخيل في بيروت باحتفالات كبيرة، وتعانق زعماء الطوائف المختلفة الذين ظلوا يحارب بعضهم

بعضا خمسة عشر عاما، كأن حربا لم تقع[1]. وفي العام 1996، بعد ثلاث عشرة سنة، أُعيد فتح البورصة.

كان أوسمان بيروت يدعى رفيق الحريري(*). كان الحريري مشرقيا بطبيعته، يعيش بسلاسة في عوالم مختلفة، حتى إن موقعه على شبكة الإنترنت يشير إلى الماضي الفينيقي للبنان[2]. ولد الحريري في صيدا في العام 1944، ودرس في جامعة بيروت العربية، ثم انتقل إلى إلدورادو اللبنانية(**): المملكة العربية السعودية. وبحلول العام 1982، كانت شركة التشييد والبناء المملوكة للحريري والعاملة في المملكة العربية السعودية، قد جعلت منه واحدا من أغنى أغنياء العالم وصديقا لكل من العائلة المالكة السعودية و - من خلال مصالح تجارية مشتركة - جاك شيراك، وامتلك بيوتا في باريس وجنسية ثنائية لبنانية وسعودية. كان شيراك والحريري يتبادلان الزيارات كثيرا. وفي إشارة إلى مَشْرَقة باريس، قيل إن الحريري أسهم في تمويل حملة شيراك لرئاسة فرنسا في العام 1995. وأصبح الحريري كذلك قناة لضخ المال السعودي في السياسة اللبنانية، ومنه في إحدى المرات خمسمائة ألف دولار في الشهر لإيقاف الجنود اللبنانيين عن ترك الجيش للالتحاق بالميليشيات[3]. وظل الحريري أغلب الفترة من 1992 إلى 2004 رئيسا لوزراء لبنان. وفي محاولة منه لجعل بيروت منافسا لدبي وهونغ كونغ، أوضح أنها تمتلك واحدة من سمات المدن العظيمة، وهي القدرة على إعادة اختراع نفسها.

من خلال شركته سوليدير Solidere، بدأ الحريري من العام 1994 برنامجا ضخما لهدم وإعادة بناء مساحة أربعمائة وخمسين هكتارا في وسط المدينة وعلى الأراضي المستردة من البحر. وعلى مدار عدة سنوات، ظل وسط المدينة مشهدا لرافعات البنّائين وأصوات مثاقب الهدم التي كانت أعلى حتى من أذان المساجد

(*) تشبيها لرفيق الحريري بجورج أوجين أوسمان Georges - Eugene Haussmann (من 27 مارس 1809 إلى 11 يناير 1891) الذي كان حاكم مقاطعة السين في فرنسا واختاره الإمبراطور نابليون الثالث لتنفيذ برنامج ضخم لإعادة بناء باريس بشوارع وحدائق وأشغال عامة جديدة عُرف عموما باسم إعادة بناء أوسمان لباريس Haussmann's renovation of Paris. ومع أن النقاد اضطروا أوسمان إلى الاستقالة بسبب إسرافه في الإنفاق، فإن رؤيته لاتزال تهيمن على وسط باريس. [المترجم].

(**) إلدورادو Eldorado مدينة أسطورية أو منطقة تاريخية في العالم الجديد، يعتقد عادة أنها تقع في أمريكا الجنوبية، اشتهرت بثرائها الكبير من حيث الذهب والجواهر النفيسة، دوّخت فاتحي القرن السابع عشر بحثا عنها. [المترجم].

أو أجراس الكنائس التي أصبحت أشد صريرا منذ الحرب الأهلية[4]. وعلى رغم أن الشوارع حول البرلمان احتفظت بواجهاتها الأصلية، فقد فزع روبرت فيسك Robert Fisk، الصحافي الذي أقام في المدينة طوال الحرب الأهلية ومؤلف الكتاب الكلاسيكي «ارحموا الأمة» Pity the Nation (2001)(*) من «طقوس العربدة الهدامة» للبنايات القديمة التي عاينها وسمعها بنفسه: «كانت البنايات تنهار من تلقاء نفسها»[5]. ونال اليأس من علماء الآثار بسبب ضياع فرص التنقيب.

شُيّدت أبراج سكنية عالية بارتفاع خمسين طابقا، أعلى حتى من تلك التي أفزعت زوار بيروت في الستينيات. أعاقت هذه البنايات في بعض أجزائها المنظر الأسطوري لثلوج جبل لبنان من الكورنيش. وعلى أي حال، فإن شركة سوليدير أعطت الكثير من اللبنانيين والسياح ما أرادوه: أحواضا لرسو السفن ومحلات ومقاهي حديثة في المناطق العادية، أي «سان تروبيه مشرقية»(**). وبلا خطة كبرى من نوع خطة الحريري، لربما ظلت المنطقة خرابا على مدى عقود. وتتمثل حجة مقنعة مؤيدة لهذا الرأي في صور شارعي فوش واللنبي «ما قبل» و«ما بعد» إعادة البناء. ويقول بعض البيروتيين إنه لولا سوليدير لما حدث شيء من قبيل هذا الإعمار. ومهما كانت اصطناعيته، فقد أصبح وسط المدينة، بعد الكورنيش بالطبع، أحد أماكن الالتقاء الرئيسة بالمدينة وبؤرة لذلك المرح الذي يعتبره بعض اللبنانيين سمتهم الأساسية[6].

***

في مقابل هذه الرؤية الاحتفائية بعملية إعادة الإعمار، تذمر الكثير من البيروتيين من أن هذه العملية نُفِّذت على أيدي الأغنياء ومن أجل الأغنياء. حتى إن البعض يصفونها بـ«الكارثة الحضرية» و«الشكل الحضري لليبرالية الجديدة». وفي عهد الحريري، تراكم على لبنان دين حكومي هائل. ومما يؤكد رأي هؤلاء أن الكثير من الأبراج السكنية الجديدة (برج بلاتينيوم وبرج بيروت وبرج مارينا وبرج فور سيزونز) لا تضاء ليلا، وأن الشقق المكونة من طابقين وشقق الأسطح في هذه الأبراج تستخدم لبضعة أسابيع في السنة فقط[7]. أما الكثير من الملاك أو المستأجرين

(*) صدرت طبعته الأولى في سنة 1990. [المحررة].

(**) راجع حاشية سابقة حول مدينة سان تروبيه. [المترجم].

الفقراء الذين لم يشتروا أسهما في شركة سوليدير بالسعر المتفق عليه، فقد خسروا مالا أو تعرضوا للتهديد أو انتقلوا إلى حافات المدينة. وبسبب معارضة ملاك فندق سان جورج للخطة، لم يُعَد بناء الفندق إلى الآن. كانت الدولة اللبنانية - كالعادة - الخاسر الأكبر، إذ باعت بأسعار منخفضة أراضي تساوي الكثير حاليا(8).

كما بنى الحريري في غرب ساحة الشهداء جامع محمد الأمين المملوكي العثماني ذا القباب الزرقاء، بتمويل جزئي من الوليد بن طلال، الأمير السعودي صاحب الطموحات في لبنان لكونه حفيد رياض الصلح من خلال أمه. يعد هذا الجامع، الذي بُني في مكان مصلى إسلامي سابق، تأكيدا فخما على قوة المسلمين وتقواهم في الساحة العامة الرئيسة بالمدينة، وقد أدى وجوده إلى تقزيم الكاتدرائيات المارونية والكاثوليكية والأرثوذكسية والأرمنية القريبة منه. ويعد الجامع الأكبر من نوعه في بيروت ويضم أربع مآذن، وهو شرف كان في السابق مقصورا في القسطنطينية على الجوامع التي يشيّدها السلطان وحده، وكان الحريري في حاجة إلى إقناع لكي لا يضيف مئذنة خامسة(9).

على أن بيروت ليست مدينة أعيد بناؤها فقط. إذ يمكن للزائر أن يلاحظ من خلال عدد الشفاه المنتفخة والأنوف المضمدة أن بيروت أصبحت إحدى عواصم جراحة التجميل في العالم. وفي إشارة جلية إلى مرونة الهوية، يقال إنه تُجرى مليون ونصف مليون عملية تجميل في السنة الواحدة فيما يسمى في بيروت «مراكز التجميل». تقول امرأة أُعيد نحتها «إنني أفعل ما بوسعي فقط»(10).

رافق إحياء وسط المدينة بعد العام 1997 ازدهار للنوادي الليلية على الجانب الآخر من ساحة الشهداء بالقرب من الخط الأخضر السابق، فيما بات يُعرَف باسم شارع مونو الأسطوري (الذي سُمي على اسم الجزويتي الذي أسس جامعة القديس يوسف) وشارع غورو، بنحو مائة بار وكازينو. ويعد كازينو باسيفيكو Pacifico بموسيقاه الكوبية، الأقدم في المنطقة. كما صمم المهندس برنار خوري كازينو بو 18 (في مكان مجزرة الكرنتينا بحق الفلسطينيين) كمخبأ غائر في الأرض بسقف متحرك بحيث يشبه مقبرة كبيرة. يعد الكازينو بمقاعده التي تتخذ شكل توابيت، احتجاجا على «النسيان الساذج». وتتخذ الطاولات فيه شكل أضرحة المقتولين الذين تظهر صورهم مخفية بين القناني(11).

بالنسبة إلى بعض الزوار تتمثل بيروت في تلك الملاهي، أكثر بكثير مما تتمثل في شركات المدينة أو جامعاتها. يصفها بادي كوكرين، حفيد إيفون سرسق، الشريك في ملكية كازينو «ذي أليواي» The Alleyway وكازينو «غوش كافيار» Gauche Caviare بأنها «شريان الحياة الرئيس لبيروت». يحجز بعض الزوار تذاكر في كازينو «نيويورك» قبل حتى أن تحط طائراتهم على أرض بيروت، ويسافر آخرون من عمان أو دمشق لقضاء ليلة واحدة في «أسِد» Acid، أول ملهى ليلي علني للمثليين في الشرق الأوسط. وفي عطلات نهاية الأسبوع الصيفية، يرتاد النوادي والملاهي نحو عشرين ألف شاب[12].

في البداية، كان البعض يرقصون لمحاولة نسيان الماضي. في مذكراتها «بيروت أحبك» (2009) كتبت زينة الخليل: «أذلت الحرب الناس وكسرتهم، وكان الشيء الوحيد الذي بوسعهم أن يفعلوه هو أن ينسوا... وكل ما أرادوا أن يفعلوه هو الاحتفال... وبيروت حرية كاملة ومطلقة... فأصبح الحب والجنس والمخدرات والكحول قانوننا ونظامنا الجديدين... فبعد أن تقتل بشرا، لا يهمك ما تشربه مادُمتَ تسكر»[13].

تصاعد هوس المتع بفعل الكابوس السابق، وكذلك بفعل التعارض مع الحياة فيما يسميه غسان تويني المحرر السابق لصحيفة النهار، السجن العربي الكبير، الذي يشير به إلى الدول العربية الأخرى ومدن لبنان الأخرى مثل صيدا وطرابلس اللتين هيمن التزمت عليهما. تلتقي الطوائف جميعا في الملاهي الليلية، ومنها الشيعة من الضواحي الجنوبية ومنهم أفضل منسقي الموسيقى (دي - جيز) DJ's في بيروت. والثقافة الشعبية غير طائفية، وإذا وقعت شجارات، فإنها تكون في الأغلب حول النساء[14].

***

لكن كما كانت الحال في العام 1975، ظلت بيروت تكشف عن هشاشة الثراء. ظل ثلاثون ألف جندي سوري يحتلون أجزاء من لبنان وبيروت. وكان الرئيس إميل لحود الذي انتُخِب في العام 1998 من المحسوبين على سورية، ولذلك عزز الهيمنة السورية بتقوية الجهاز الأمني الموالي لسورية في الشرطة والجيش. وتمثلت مهمة الحريري في تشجيع النمو وضمان تدفق الأموال الأجنبية، وبتعبير وليام هاريس William Harris «الحفاظ على النظام البنكي اللبناني حتى تتمكن سورية من

الحفاظ على ماليتها المتداعية طافية وتتمكن النخبة الأمنية السورية/اللبنانية من أن تبتلع عشرات الملايين من الدولارات في جيوبها»[15]. رأى الكثيرون أن رئيس شعبة الأمن السياسي السوري في لبنان رستم غزالة، الذي يشبه شخصيات أفلام الإثارة بالسبعينيات، ونائب مدير المخابرات العسكرية اللبنانية جميل السيد، كانا الحاكمين الفعليين للبلد. كانت الهيمنة السورية عملية تتضمن مليارات الدولارات يموّلها نصيب من العائدات من تجارة المخدرات والجمارك والتشييد وكازينو لبنان[16].

ومع تجدد النزاع بين بيروت ودمشق، بدأ الحريري في محاولة تحجيم الهيمنة السورية. وفي السابع والعشرين من أغسطس 2004، استدعاه الرئيس الأسد إلى دمشق وأجرى معه مقابلة مدتها خمس عشرة دقيقة، هدده خلالها. عن تلك المقابلة، أخبر الحريري صديقا له لاحقا «أننا جميعا مجرد نمل» في نظر الحكومة السورية. كان من النقاط محل النزاع تقسيم الغنائم وإصرار الأسد على إعطاء الرئيس لحود مدّا غير دستوري لفترة حكمه. فاستقال الحريري من رئاسة الوزراء احتجاجا على ذلك.

استخدم الحريري أحدث التقنيات الأمنية. فكانت قصوره قلاعا محصنة. ولم يكن يذهب إلى أي مكان بلا كتيبة من الحراس المدربين. ومع ذلك، ففي عيد الحب في الرابع عشر من فبراير 2005، وبعد حضور البرلمان وتناول القهوة في مقهى لاتويل، كان الحريري يمر بالقرب من أيقونة السياحة ببيروت - فندق سان جورج - في قافلة من سيارات المرسيدس المدرعة، حين تعرض موكبه لتفجير سيارة مفخخة. قُتِل الحريري وثمانية عشر من حرسه والمارة. كانت الحفرة الناتجة عن الانفجار كبيرة جدا، كأن نيزكا ضرب المدينة. وكان صوت الانفجار يشبه الرعد الذي كانت تحدثه الطائرات الإسرائيلية التي تكسر حاجز الصوت فوق المدينة. لم يهشم الانفجار نوافذ فندق فينيقيا فقط، بل هز جدران مستشفى الجامعة الأمريكية ببيروت أيضا[17].

***

ظلت بيروت تكتسي ثوب الحداد عدة أسابيع، كما يتذكر كل من عايشوا الحدث. فأيا كانت عيوب الحريري، فقد أنعش الاقتصاد، وكانت يده غير ملطخة بالدماء على خلاف معظم الزعماء اللبنانيين الآخرين. وأدت موجة من الانفعال والامتعاض إلى تقريب الطوائف من بعضها. وفي السادس عشر من فبراير، توافد

على جنازته بجامعه الذي لم يكتمل بعد، الأغنياء والفقراء والمسلمون والمسيحيون والدروز من كل مناطق المدينة وهم يحملون الشموع والأعلام التي رسم على بعضها هلال وصليب متعانقان. وللمرة الأولى، ظهرت النساء المسلمات في موكب جنائزي. وقُرِعت أجراس الكنائس في الوقت نفسه الذي رُفِع فيه أذان الصلاة. وكان بعض المعزين يحملون القرآن في يد والصليب في اليد الأخرى. وأصبح قبره ضريحا تحيطه الشموع وصور لمريم العذراء والقديس الماروني مار شربل. وتحولت ساحة الشهداء إلى بحر من صور الحريري والأعلام اللبنانية الحمراء والبيضاء.

رأى الكثيرون أن هذه اللحظة أعلى لحظات بيروت، مثل الإسكندرية في العام 1956 أو سالونيك في العام 1908، وهو ما عُرِف باسم «ثورة الأرز» أو «ربيع بيروت» أو «ربيع العرب» الذي صرخت فيه لبنان: لا للدكتاتورية والقتل. أعلن المفتي أن الاغتيال هجوم على كل السُنّة. وحضر الكاردينال صفير البطريرك الماروني الجنازة لإعلان تضامنه. ووصل الرئيس شيراك وزوجته من باريس لحضور جنازة صديقهما، بينما رفضت عائلة الحريري حضور الرئيس لحود وكل ممثلي الحكومة اللبنانية، فكما كانت الحال دائما في المشرق، كانت حكومة أجنبية مؤتمنة أكثر من الحكومة المحلية[18].

وعلى مدار الأسابيع التالية، امتدت في ساحة الشهداء مدينة من الخيام تضم محتجين يطالبون بـ«الاستقلال الخامس»(*). وظهرت رسومات جرافيتي كثيرة بالعربية والفرنسية والإنجليزية على حوائط خاصة من القماش نُصِبت بجوار القبر بين قلوب وصلبان وأهلة متعانقة، مكتوب عليها «فلترحل سورية!» و«لبنان للبنانيين!» و«الحرية أو الموت!» و«نريد القاتل المحترف!» و«لن ننساك أبدا» و«نحبك»[19].

ومع ذلك، وفي اعتراف غير شعوري بالمسؤولية السورية عن الجريمة وتوكيد علني للطائفية، ومن خلال وضع الطائفة قبل البلد، فصل الحزبان الشيعيان أمل وحزب الله أنفسهما عن بقية اللبنانيين، ووضعا أنفسهما في صف راعيتهما سورية. وفي الثامن من مارس، نُظِّمت مظاهرة ضخمة في ساحة رياض الصلح بجانب ساحة

(*) توالت على لبنان احتلالات كثيرة، أولها العثماني، ثم المصري بقيادة إبراهيم باشا، ثم العثماني مجددا، ثم الفرنسي الذي يمكن تقسيمه إلى فرنسا الفيشية وفرنسا الحرة، ثم الإسرائيلي. [المترجم].

الشهداء، مع شحن الكثير من الشيعة بالحافلات من الضواحي الجنوبية للمدينة للتعبير عن الامتنان للدور السوري في البلد[20]. وفي الرابع عشر من مارس، نُظِّمت مظاهرة مضادة أضخم من جانب السُنة والدروز والمسيحيين وهم يحملون رايات مكتوبا عليها «الاستقلال الخامس» و«الحرية» و«مَنْ التالي يا سورية؟» و«ارحلوا الآن» و«فلترحل سورية!» وشعارات مماثلة. (يقال إن سيدة من الأشرفية اصطحبت خادمة فلبينية تحمل لوحة مكتوبا عليها «سيدتي تريد أن ترحل سورية»)(*). وبدت لبنان بلدين للمرة الثانية.

وفي السادس والعشرين من أبريل 2005، وبفضل ضغوط اللبنانيين والضغوط الدولية، غادر آخر الجنود السوريين لبنان. وهرب الكثير من العمال السوريين خوفا من عداء العامة. ومما يكشف مجددا التفضيل المشرقي للمؤسسات الأجنبية على المؤسسات المحلية، لم يُجرَ تحقيق لبناني في جريمة قتل الحريري. ووجهت محكمة دولية الاتهام لأربعة جنرالات موالين لسورية، منهم جميل السيد، وحتى وقت كتابة هذا الكتاب، لم يمثل أحد منهم أمام المحكمة[21].

وعلى رغم رحيل الجيش السوري، فقد بقي عملاؤه. وعلى مدار السنوات الخمس التالية، وقعت تفجيرات عشوائية في مناطق بيروت المسيحية وقُتِل ثمانية كُتاب ونواب معادين لسورية - كما قُتِل نظراؤهم في العامين 1915 و1916 على أيدي العثمانيين - لإرهاب بيروت واللبنانيين. كان من بين الضحايا الكاتب الكبير فلسطيني الأصل سمير قصير الذي كان يدرِّس في جامعة القديس يوسف، وكان يكتب باللغتين الفرنسية والعربية بالجودة نفسها، والذي اتهم الحكومة السورية بقتل الحريري في صحيفة النهار. وكان من الضحايا الآخرين زميله جبران تويني وبيار الجميل ابن أمين الجميل. في جنازة بيار الجميل، رددت الحشود شعارات معادية لحزب الله[22].

***

لم يكن النظام السوري التحدي الوحيد الذي واجه لبنان. إذ غدا حزب الله، جيد التمويل والتسليح والتنظيم بمقره في الضاحية الجنوبية لبيروت، دولة داخل الدولة،

(*) لم يكن المصريون - إذن - أول من رفع لافتات طريفة وساخرة في مظاهراتهم التي كان من بينها «انجز عشان أحلق» و«ارحل بقى عايز أروح استحمى» و«ارحل مراتي وحشتني – متزوج من 20 يوما»، وغيرها الكثير! [المترجم].

مثل منظمة التحرير الفلسطينية قبل العام 1982، وإن كان لبنانيا وأقوى وأقل فسادا منها. كان للحزب ثلاثة وثلاثون مقعدا في البرلمان (أقل مما تستحقه نسبة الشيعة في السكان التي تبلغ أربعين في المائة)، ووزراء في الحكومة، ونظام للضمان الاجتماعي لا يقل فعالية عن قواته.

يتمتع الحزب كذلك بداعمين ومزوّدين أجانب بالأسلحة ممثلين في سورية وإيران. ولد الأمين العام للحزب الشيخ حسن نصر الله في العام 1960 لأب يعمل بقالا في بيروت. ومن خلال رفع راية «المقاومة الوطنية»، نال الحزب تقديرا واسعا من مشاركته في الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان في العام 2000. وبسبب ملصقاته الموجودة في كل مكان (يد مقاتل خضراء على خلفية صفراء أو أئمة إيرانيين أو لبنانيين) والحراس المسلحين، أصبح جنوب المدينة أشبه بضاحية لطهران، وإن كان بتنورات نسائية قصيرة. حتى مطار رفيق الحريري الدولي الجديد الذي يعد محورا للسفر الدولي، بسبب قربه من منطقة حزب الله، ينتمي عماله في أغلبيتهم إلى أنصار حزب الله الذين يراقبون حركته لمصلحة الحزب.

يحشد حزب الله أنصاره في احتفال الشيعة السنوي الكبير: عاشوراء. وعلى أنغام أناشيد حزينة ودق إيقاعي على الطبول، تحيي ذكرى مقتل حفيدي الرسول الحسين والحسن حشودا هائلة من كل الأعمار، مثل نهر من اللونين الأسود والأخضر، منفصلين إلى جماعات من الرجال والنساء، تسير في مواكب خلال أحياء الشيعة وهم يلطمون على صدورهم ويهتفون «يا حسن!»، «يا حسين!»، «الموت لإسرائيل! الموت لأمريكا!».

وعلى رغم التحذيرات، واصل حزب الله شن هجمات على إسرائيل من معاقله في جنوب البلاد. وبعد أن اختطف الحزب جنديين إسرائيليين وقتل ثمانية آخرين في العام 2006، كررت إسرائيل ما فعلته في العام 1982، بأن شنت حملة انتقامية هائلة، كأنها ترد بضربات مطرقة على وخز دبوس. أظهرت العملية رغبة إسرائيل في إضعاف حزب الله، وقبل ذلك وفق كلمات رئيس هيئة الأركان الإسرائيلي دان حالوتس Dan Halutz رغبتها في «إعادة عقارب الساعة في لبنان عشرين سنة إلى الوراء... إن الحكومة اللبنانية مسؤولة. وسيدفع لبنان كله الثمن»[23].

وعلى مدار ثلاثة أسابيع في شهري أغسطس ويوليو 2006، دمرت إسرائيل لبنان ثانية من البر والبحر والجو. ومجددا، ارتفعت غيوم الدخان فوق بيروت. وكان

بمقدور الناس من مقاهي شارع الحمراء أن يسمعوا القذائف تدك جنوب المدينة الذي فر معظم سكانه. وعلى رغم أن معظم الهجوم استهدف مؤيدي حزب الله فقط، ما أظهر فعالية المخابرات الإسرائيلية، فإن مدى الدمار كان هائلا. وتحولت عمارات سكنية ومحلات ومكاتب إلى كتل من الخرسانة المدمرة والأسلاك المتشابكة والأنقاض، جعلت أجزاء من المدينة تبدو كمنطقة ضربها زلزال[24].

استهدفت إسرائيل أيضا البنية التحتية اللازمة لإعادة البلد إلى ما قبل القصف: الجسور والطرق ومصافي النفط والمصانع. كان لبنان ملوما من الطرفين، من حزب الله لأنه لم يعطه مزيدا من القوة، ومن إسرائيل لأنها أعطته قوة أكثر مما ينبغي.

وعلى غرار هجمات منظمة التحرير الفلسطينية من قبل، لم يلحق حزب الله بإسرائيل أضرارا تتناسب مع الأضرار الفادحة التي ألحقتها إسرائيل بلبنان، وكثيرا ما تسببت صواريخ الحزب في قتل الفلسطينيين بدلا من الإسرائيليين. وفي مقابل مليون لبناني أبعِدوا مؤقتا عن مناطقهم، أبعِد خمسمائة ألف إسرائيلي. من باريس التي هاجر إليها، قال الشاعر أدونيس إن الكثيرين شعروا بأن بيروت تموت للمرة الثانية[25].

بعد وقف إطلاق النار، أثبت حزب الله الممول بسخاء من إيران أنه أكثر فعالية من الحكومة اللبنانية في بادئ الأمر في تقديم المال والإغاثة والماء والكهرباء لسكان الضواحي الجنوبية عندما عادوا إلى بيوتهم المدمرة. وفي الثالث والعشرين من سبتمبر، وفي استعراض هائل احتفالا بما اعتبره الحزب «نصرا إلهيا وتاريخيا واستراتيجيا» على الولايات المتحدة وإسرائيل، قال نصر الله إنه «لا يوجد جيش في العالم يستطيع أن ينزع سلاحنا»، ودعا إلى حكومة وحدة وطنية. وقال أيضا إنه لو توقع رد الفعل الإسرائيلي - مع أن الأمر لم يكن يحتاج إلى خيال واسع - لما أمر باختطاف الجنديين الإسرائيليين. وعندما قيل لناطق بلسان حزب الله إن الموسم السياحي دُمِّر، علما بأن السياحة إحدى الركائز الأساسية لاقتصاد لبنان، أجاب بأن السياحة «حمص ودعارة» لا أكثر[26].

تمثلت إحدى النتائج غير المقصودة للهجوم الإسرائيلي في القضاء على المستقبل السياسي لتوني بلير. إذ رد الشرق الأوسط الضربة – كعادته - لرؤساء الوزراء البريطانيين العدوانيين. فكما أسهمت تركيا في تدمير لويد جورج، ومصر في تدمير

إيدن، أسهم لبنان في تدمير بلير. فعندما كانت الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وإسرائيل - الذين اعتبرهم بعض اللبنانيين «محور الشر الجديد» - تعارض وحدها وقف إطلاق النار في العام 2006، غدا حزب العمال «مقززا». وحل براون محل بلير بعد سنة[27](*).

وبعد أن تكبد لبنان هجمات من سورية وإسرائيل في العامين 2005 و2006، تعرض لضربة من جهة أخرى، حين حاول حزب الله أن يسقط حكومة فؤاد السنيورة أو أن يحصل على مزيد من السلطة والوزراء فيها. وعلى مدار سبعة عشر شهرا بداية من ديسمبر 2006، أقام مؤيدو حزب الله مخيما مسلحا بالقرب من البرلمان وفي ساحة الشهداء. واضطرت المقاهي والأعمال التجارية العاملة في وسط المدينة إلى أن تغلق أبوابها، ما حرم الآلاف من مصدر رزقهم. وفي يناير 2007، وقعت اشتباكات بين السُنة والشيعة، كان من السهل التعرف على الشيعة فيها من انضباطهم وملابسهم السوداء التي يلبسونها في عاشوراء، وقع فيها قتلى، ودخلت أجزاء من غرب بيروت في حالة من الفوضى. وقطع رجال مقنّعون وإطارات مشتعلة طريق المطار. وأُحرِقت صور الحريري. ومجددا، ارتفعت سحب الدخان فوق المدينة. فُرِض حظر تجوال من جانب الجيش الذي وصل عدده إلى ستين ألف جندي وصار أفضل تسليحا من قبل (لكنه يتكون من شيعة بالدرجة الأولى). وأعلن أحد نواب حزب الله أنه «احتجاج ديموقراطي كما في أي بلد آخر». كتب روبرت فيسك: «لم يخالجني شك على الإطلاق في أن لبنان يمكن أن يصبح مجددا ساحة لحرب طائفية». وأحس الكثيرون بأن البلد يتجه إلى الحرب الأهلية وبأن حزب الله سيكون الفائز[28].

وفي العام 2007، وكأن لبنان لم يتكبد ما يكفي من كوارث ومحن، سيطرت مجموعة سُنية متطرفة جديدة تسمي نفسها «فتح الإسلام» على بعض مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، إلى أن سحقها الجيش اللبناني. كان زعيمها أبو سالم قد أعلن: «إن أهدافنا أوسع من لبنان. فنحن نسعى إلى أن يحكم الإسلام المشرق مجددا، ومن بعده العالم أجمع»[29].

(*) كان من سخرية السياسة الدولية أو الغربية إزاء الشرق الأوسط أو سخافاتها أن يُعيّن توني بلير في اليوم نفسه الذي استقال فيه من رئاسة الحكومة، في السابع والعشرين من يونيو 2007، المبعوث الدولي للجنة الرباعية للشرق الأوسط التي استقال منها قبل أيام من كتابة هذه الحاشية. [المترجم].

وفي مايو 2008، وقع نزاع سُني-شيعي محدود. ولكي يُظهِر حزب الله قوته، سيطر فترة قصيرة على غرب بيروت. ووقع نحو مائة قتيل ومائتي مصاب، وهوجمت المكاتب والمؤسسات الخيرية ودُمِّرت. وأغلق الكثير من الأعمال التجارية. وأوقف بث محطة الإذاعة التابعة لدار الفتوى السُنية وثلاث قنوات تلفزيونية مملوكة للحريري. وبدا لبعض الوقت أن الشيعة يمكن أن يسقطوا الدولة، كما أسقطت حشود الشيعة الشاه في طهران في العامين 1978-1979. رأى البعض أن هذه النزاعات القصيرة، مضافا إليها الحرب الإسرائيلية الأخيرة وفورة الاغتيالات السورية، كانت أكثر إزعاجا من الحرب الأهلية نفسها. وذهبوا إلى أن أحدا لم يتعلم دروس الحرب الأهلية. كتب الدكتور أنطوان قربان الذي يكتب بانتظام في صحيفة لوريون لوجور L'Orient— Le Jour [الشرق اليوم] والمؤمن المتحمس بالكوزموبوليتانية المشرقية: «إنها النهاية، إنني على يقين من أنها النهاية. فمثلما حدث مع مملكة كاميلوت(*)، كان وياما كان، في سالف العصر والأوان، كان فيه بلد حلو اسمه لبنان»[30].

على أن قربان لم يكن الوحيد صاحب نبوءة الهلاك. إذ طفت آراء أخرى مثل: «لا أمل في هذه العقليات. لبنان هالك لا محالة»، و«بلا حماية دولية، لن يبقى لبنان»[31]، و«سيذبحون الجميع»، و«إن ما يحتاج إليه لبنان هو خميني جديد»[32].

وعلى أي حال، فقد استمر النظام. ولم تتغير الطائفية، مع أن توازن القوة السكانية أصبح يميل حاليا إلى مصلحة الشيعة. وعلى رغم أن الطائفة الدينية لم تعد تكتب في بطاقات الهوية، فإنها لاتزال عاملا حاسما في الوظائف والتعليم. ولاتزال الوظائف في الحكومة وبلدية بيروت من رئيس البلدية إلى ما دونه «طائفية».

ينقسم المجلس البلدي بالتساوي بين اثني عشر مسلما واثني عشر مسيحيا، وعلى رغم الوجود الكبير للشيعة في الضواحي، فإن تمثيلهم منخفض[33]. وحتى الآن لا يُعمَل بصيغة الزواج المدني. يندب الروائي اللبناني الكبير أمين معلوف الذي عاش في باريس منذ العام 1976 حال «لبنان الذي أدمن الطائفية. إنها خراب، سم يدمر الدولة، مخدر أدمنه البلد برمته». وينادي معلوف بإزالة خانة الهوية الدينية من كل السجلات[34].

(*) كاميلوت Camelot قلعة وبلاط ملكي يرتبطان بالملك الأسطوري أرثر King Arthur، تحدد الروايات مكانها في بريطانيا العظمى وتربطها أحيانا بمدن فعلية، يرى الدارسون أنها مملكة لا وجود لها إلا في الأدب. [المترجم].

إن بيروت على رغم سطحها الحداثي الخادع، لاتزال تخضع لجغرافيا الخوف. إذ يفضل الكثير من الناس الإقامة في المنطقة نفسها أو الشارع نفسه الذي يقيم فيه أبناء طائفتهم. ولا يوجد غير القليل من الوسطاء العقاريين، لأن ما بقي من السوق العقارية يسيطر عليه الدين والمال. توجد حاليا تسع عشرة طائفة دينية تعترف الدولة بها، وخمسة عشر نظاما قانونيا دينيا مختلفا معمولا بها في لبنان. وكذلك تحدد مكان إقامة آلاف اللاجئين العراقيين الذين استقروا في بيروت منذ الاحتلال البريطاني - الأمريكي لبلادهم في العام 2003، وفقا لدينهم وليس الجنسية، إذ آثر العراقيون الشيعة الأحياء الشيعية، والسُنة الأحياء السُنية، والمسيحيون الأحياء المسيحية.

لاتزال العائلية تحافظ على قبضتها، كما هي الحال في سورية في حكم عائلة الأسد. ولذلك ورث سعد الحريري قاعدة السلطة السياسية لأبيه بناءً على مطالب شعبية، وليس بسبب رغبة شخصية منه. ولذلك أيضا يُعَدُّ مصطفى بري وتيمور جنبلاط ونديم الجميل لخلافة آبائهم. ولايزال أفراد عائلتي الخازن وسلام وزراءً ونوابا. ولاتزال الحالة الأمنية كارثية. ففي خريف 2007، وجد بعض النواب أنهم مضطرون إلى أن يجتمعوا ويناموا في فندق فينيقيا في غرف تحجبها الستائر دائما خوفا من الاغتيال[35]. وكانت بيوت السياسيين البارزين تحرسها كلاب شمّامة في البداية، ثم جنود لبنانيون، ثم كتل خرسانية، وأخيرا حراس من ميليشياتهم الخاصة.

***

تواجه بيروت الاختيار بين إعادة النظام القبَلي وإعادة النظام المشرقي. فيمكن أن تصير مثل مدن أخرى مقسمة قبَليا. فبغداد اليوم مقسمة إلى مناطق سُنية وشيعية. وفي القدس أيضا، يحدث انفصال متزايد بين الفلسطينيين والإسرائيليين، حتى إن المدينة نفسها تشكل إحدى العقبات الأساسية أمام السلام بين إسرائيل وفلسطين.

في الأعوام 1992-1995، تكبدت سراييفو التي كانت في السابق ذات «طابع فريد» بوصفها «مركزا متعدد الثقافات والأقوام والأديان» وفق كلمات قرار الأمم المتحدة 824، حيث كانت توجد فيها المساجد والمعابد والكنائس جنبا إلى جنب، حربا أهلية قُتل فيها مائة ألف شخص، في الأغلب بأسلحة بقيت من الحرب الأهلية اللبنانية. قال اللبنانيون وهم يشاهدون النزاع في البوسنة على شاشات التلفزيون إنهم - أي اللبنانيين - كانوا ملائكة بالمقارنة بالبوسنة[36]. وسرعان ما بدت سراييفو

مدينة تتدلى أحشاؤها. كان نصف سكان سراييفو قبل الحرب مسلمين، أصبحوا الآن يشكلون تسعين في المائة من سكانها. وتُبنى حاليا مساجد بتمويل سعودي. وانقسمت اللغة، مثل المدينة نفسها، إلى صربية وكرواتية وبوسنية، ويشهد البوسنيون عودة متنامية إلى الدين[37]. حتى عاصمة أوروبا بروكسل، آخر منطقة للتعايش بين الوالون والفلمنكيين(*)، لم تعد مدينة ثنائية اللغة، بل مدينة تقطنها جماعتان متنافستان تتحدثان لغتين متنافستين. وتتراجع فيها المكاتب المختلطة والزيجات المختلطة، فـ«كل شيء تحكمه اللغة». والبلاد على حافة التقسيم. ويطمح بعض الفلمنكيين إلى أن تصير بروكسل - التي يسمونها «قدسنا» - في النهاية مدينة فلمنكية[38].

على الجانب الآخر، شهدت مدن أخرى إبان أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين، عملية إعادة مشرقة أو عولمة. فقد انتهى الوداع المشرقي الطويل. وترد الجغرافيا الضربة للتاريخ. إذ ترجع مدن مثل شنغهاي وأوديسا وسانت بطرسبورغ ثانية إلى موانئ كوزموبوليتانية كبرى كما كانت في السابق.

ربما تثبت القومية المتطرفة الآتية من القرن العشرين أنها حائل. لكن في عصر معولم، لم تعد المدن الدولية - ولا يمكن أن تعود - عبيدا للدول القومية التي استعبدتها في السابق. من ذلك أن رئيسة بلدية دلهي شيلا ديكشيت Sheila Dikshit ترى أنهم يبدأون التحول إلى ما يشبه الدول المدينية القديمة[39].

بثلاثمائة وخمسين لغة، وسكان ثلثهم مولودون خارج المملكة المتحدة، أصبحت لندن مدينة عالمية، أشاد بها بعض أبناء نيويورك وباريس بوصفها عاصمة القرن الحادي والعشرين[40]. وعلى غرار باريس، توفر لندن فضاءات لتنوع الآراء والأديان والعادات للقادمين من الشرق الأوسط أكثر من أي مدينة شرق أوسطية، ربما باستثناء بيروت. وفيها يسهم المدرسون وغياب الطائفية أو المحاصصة في الحيلولة دون النزاعات العرقية. ففي مدرسة سوذفيلدز كميونيتي Southfields Community School في واندزويرث Wandsworth، كما في الكثير من المدارس الأخرى، يوجد تلاميذ يتحدثون أكثر من سبعين لغة[41]. ويتجلى طابع لندن الكوزموبوليتاني في تنوع أولئك الذين قُتِلوا في تفجيرات يوليو 2005 في مترو الأنفاق.

(*) الوالون Wallon شعب ناطق بالفرنسية يعيش في بلجيكا، خصوصا في منطقة والونيا Wallonia، يشكل مجموعة إثنية مميزة ترتبط دينيا ولغويا وثقافيا وتاريخيا بالشعب الفرنسي. [المترجم].

كما ترجع إسطنبول هي الأخرى إلى كونها مدينة دولية كبرى ومركزا اقتصاديا للبلقان والبحر الأسود مرة أخرى. تولّد إسطنبول التي تضم اثنين وعشرين بالمائة من سكان تركيا (ستة عشر مليونا من ثلاثة وسبعين مليونا)، وفقا لأحد الإحصاءات، ثلاثة وأربعين بالمائة من تجارة تركيا الدولية. وصارت الهيئة القنصلية في إسطنبول حاليا أكبر من السلك الديبلوماسي في أنقرة. وفي العام 2009، أقيم الكرنفال ثانية للمرة الأولى في الشارع منذ منعه في العام 1943، بالقرب من آخر حانة يونانية، حانة مدام ديسبينا Madame Despina[42].

تراجعت إزمير من حيث الأهمية الاقتصادية. فكانت تسهم بثلاثة وثلاثين في المائة من صادرات تركيا في العام 1977، انخفضت إلى ثلاثة عشر في المائة في العام 2001. فنتيجة لعوامل الجذب التي تتمتع بها إسطنبول، أخذت الشركات الكبرى والشباب في مغادرة إزمير. لكنها مع ذلك تحتفظ بشيء من طابعها القديم. وإزمير أكبر مدينة في تركيا لا تصوّت لمصلحة الحزب الديني (حزب العدالة والتنمية)، ولا ينتمي رئيس بلديتها إلى ذلك الحزب، ولذلك يسميها رئيس وزراء تركيا رجب طيب أردوغان «إزمير الكافرة». يريد رئيس البلدية أن يجعل من إزمير «ماركة عالمية». كما تربط المدينة حاليا رحلات مباشرة إلى أثينا، وتضم مقهى يونانيا يدعى «ذي آيلند أوف ماستيك» The Island of Mastic [جزيرة المصطكاء] على الكردون، الذي يعد أول مشروع يملكه يونانيون في المدينة منذ العام 1922. يتحدث نيكوس Nicos مالك المقهى بلسان الكثيرين عندما يقول: «إننا من داخلنا نريد أن نتعايش كجيران. فنحن مثل فرعين لشجرة واحدة»[43].

تعاود الإسكندرية هي الأخرى الارتباط بالعالم الخارجي. في الرابع من نوفمبر 1990، افتتحت جامعة فرنسية للمسؤولين الحكوميين المستقبليين مكرّسة «للتنمية الأفريقية»، سُميت على اسم الشاعر الرئيس السنغالي ليوبولد سنغور، بحضور الرئيسين مبارك وميتران ورئيس السنغال وجمهورية الكونغو الديموقراطية وسنغور نفسه(*). في يوم الافتتاح، تعطل مصعد يحمل الرؤساء الخمسة. أمضى

(*) اسم الجامعة هو «الجامعة الدولية الفرنسية للتنمية الأفريقية - جامعة سنغور»، وليوبولد سنغور Leopold Senghor (1906-2001) المعروف باسم الشاعر الرئيس هو أول رئيس للسنغال (1960-1980)، تنازل عن الرئاسة طوعا للرئيس عبده ضيوف. يعد سنغور أديبا وشاعرا عالميا مرموقا وأحد أهم المفكرين الأفارقة إبان القرن العشرين. [المترجم].

مبارك الوقت في الحديث باللغة الإنجليزية حول نهضة الإسكندرية. وثمة خطط لإنشاء جامعة بحرية عربية في أبي قير وجامعة يابانية(*)، وافتتحت جامعة فاروس Pharos University الخاصة في العام 2006[44].

وتحت الأرض وتحت الماء - في الفرصة السانحة بين الهدم والبناء - ينتعش علم السكندريات. ومنذ العام 1990، بدأ فرانك غوديديو Franck Godidio وجان-إيف أومبير Jean-Yves Empereur مؤسس مركز الدراسات السكندرية Center d'Etudes Alexandrines التنقيب تحت الأرض وتحت الماء في أول كوزموبوليس في العالم(**). وتتمتع المدينة بإمكانات أثرية وسياحية هائلة[45]. ومع ذلك، فإن المشهد الوارد في فيلم يوسف شاهين «إسكندرية كمان وكمان» الذي يهدم فيه بلدوزر قبر الإسكندر الأكبر، لايزال واردا بشدة.

ومجددا، ضمت الإسكندرية مؤسسة دولية، هي مكتبة الإسكندرية المستلهمة من نسختها القديمة، التي افتُتِحت في العام 2002 على الكورنيش بالقرب من قصر دولة البطالمة. ويقف تمثال ضخم لبطليموس الثاني انتشل من البحر وتمثال نصفي حديث للإسكندر الأكبر بجانب مدخل المكتبة المصممة بالزجاج والألمنيوم. وهي المكتبة الأولى التي تؤسس منذ البداية كمؤسسة دولية برعاة وممولين دوليين ومصريين، وتتبع رئاسة الجمهورية مباشرة وليس وزارة التعليم أو الثقافة.

لقد أُريد بمكتبة الإسكندرية، كما تبيّن اللوحة التأسيسية، أن تكون «مشعلا للمعرفة وملتقى للحوار بين الشعوب والثقافات»، تربط الإسكندرية بكل من العالم الخارجي وماضيها. وفي العام 2009، استضافت المكتبة مؤتمرا دوليا حول داروين، وهو تحرك جريء في مدينة يتكرس طابعها الإسلامي أكثر فأكثر[46]. كما تؤدي المكتبة وظيفة إنسانية حيوية، إذ توفر أحد الفضاءات العامة القليلة التي

(*) الجامعة البحرية العربية الكائنة في أبي قير هي الأكاديمية العربية للعلوم والتكنولوجيا والنقل البحري التي أنشئت في العام 1972 باعتبارها كيانا تابعا لجامعة الدول العربية، ولم يجد المترجم شيئا عن جامعة بحرية عربية أخرى أنشئت في العقد الأول من القرن العشرين. [المترجم].

أنشئت الجامعة اليابانية بقرار جمهوري في العام 2009 باسم الجامعة المصرية اليابانية للعلوم والتكنولوجيا. [المترجم].

(**) الكوزموبوليس Cosmopolis هي المدينة التي يتألف سكانها من عناصر اجتمعت من مختلف أرجاء العالم، وهي الكلمة التي تشتق منها الصفة التي تترجم إلى «كوزموبوليتاني» والاسم «كوزموبوليتانية» على طول هذا الكتاب. [المترجم].

يلتقي فيها الشباب والشابات بعيدا عن أعين ذويهم وجيرانهم. وغالبا ما تكون كل الكراسي في غرفة المطالعة الفسيحة مشغولة[47]. كأحد السكندريين، يقول جو بولاد Jo Boulad: «في مدينة بحر متوسطية، لا تفقد الأمل أبدا. فالبحر دائما يجلب شيئا ما»[48].

***

على الرغم من نبوءات الهلاك من جانب بعض سكانها، ربما تجد بيروت فرصة للانضمام ثانية إلى المدن العالمية الأخرى. إن الرئيس ميشال سليمان مصمم على الدفاع عما يسميه على نحو متفائل «التفاعل الحيوي الجميل بين الطوائف اللبنانية ... إننا نرفض الطائفية السياسية بأشكالها كافة»[49]. ولاتزال المدينة وفية لدورها باعتبارها نافذة على العالم. وفي كل عام، تقام فيها معارض عربية وفرنسية للكتاب. وتبيّن «الأجندة الثقافية» Agenda Culturel (http://www.agendaculturel.com/fr-Accueil) في كل أسبوع عددا من الأفلام والمسرحيات والمعارض والمطبوعات الجديدة باللغة العربية والفرنسية والإنجليزية في بيروت أكثر من أي مدينة عربية أخرى. وتغلب الروايات حول الحرب الأهلية وتاريخ لبنان على قوائم ناشري بيروت. وتنظم جمعية «أمم» الثقافية لقاءات وتصوّر أفلاما حول الحرب ضمن برنامج يسمى «ذكريات متعارضة». لم يعتذر إلا قليلون من القتلة علنا عن أفعالهم. ومع ذلك فقد أنقذت البلدية بيت بركات من الهدم وتحوّله حاليا إلى متحف للحرب باسم بيت بيروت[50]. وبدلا من أن تكون مدينة للغتين متعاديتين مثل بروكسل، تستخدم في بيروت ثلاث لغات - العربية والفرنسية والإنجليزية - على نحو ثابت في الوقت نفسه، حتى ضمن الجملة الواحدة، مثل Yallah, bye-bye, mon vieux [يلا، باي، يا صديقي].

وكذلك تشهد بيروت تحدي آخر المحظورات، كما يتجلى في نشر الرواية الأولى باللغة العربية لبطل مثلي بعنوان «حجر الضحك» (1990) لهدى بركات، وتأسيس مجموعات لحقوق المثليين، الذي نوقش في فيلم «شقة بيروت» (2007) Beirut Apartment، وتأسيس جمانة حداد في العام 2009 مجلة للثقافة الجنسية للنساء باسم «جسد»[51]. وفي العشرين من أبريل 2010،

نُظّمت مسيرة تحت شعار «الزواج المدني وليس الحرب الأهلية» مطالبة بالعلمانية في المدينة(*).

وعلى خلاف ما تمناه رئيس هيئة الأركان الإسرائيلي بإعادة لبنان عشرين عاما إلى الوراء، وضعت صحيفة نيويورك تايمز في العام 2009 لبنان على رأس الأماكن التي يمكن الذهاب إليها، وهو ما يعد أمرا مذهلا للبيروتي الذي يمثل جواز السفر وحقيبة السفر الجاهزة إحدى ضرورات الحياة بالنسبة إليه[52]. ينبع سحر بيروت، كما كانت الحال في المدن المشرقية في الماضي، من جمعها بين متعة الحياة والضعف والتنوع. إنها ملاذ من سجن القومية. من ذلك أن وارين سينغ براديت Warren Singh-Bardett الذي يعمل في صحيفة «ديلي ستار» Daily Star اللبنانية، يحب في لبنان «حافته الضارية» جنبا إلى جنب مع «الرؤى المختلفة جدا للحياة». إنه مزيج من باريس وطهران ودمشق ويريفان وسان تروبيه في مدينة واحدة(**). عاد غسان سلهب مخرج أفلام عن الحرب، مثل «الرجل الأخير» Le Dernier Homme (2006)، من باريس إلى بيروت في العام 2003. لم تكن باريس مزيحة له: «بيروت تلهمني. فهي تضعنا دائما على الحافة. فنكون مضطرين دوما إلى أن نسأل أنفسنا»[53].

«إنني في لبنان الآن لأنني يجب أن أعيش في بلد متحضر»، هكذا يقول الروائي سعودي المولد محمد رشيد. وفي رأي صاحب محل ليبي، فإن «بيروت متحضرة! إذ يختلط الرجال والنساء بحرية في لبنان». وقال بيتر غريمزديتش Peter Grimsditch مدير التحرير بريطاني المولد لصحيفة «ديلي ستار» في العام 2005 إنه لا يوجد مكان آخر يفضل أن يعيش فيه: «لم أشعر في أي مكان آخر في العالم بأن سلطة الدولة عليّ أقل منها في لبنان. حتى أوروبا لا تطاق بالمرة». فبيروت تتمتع بميزة ضعفها. فمع أن ضعف الدولة كاد يدمرها في الأعوام 1975-1990، لكنك تشعر في بيروت بالحرية من رقابة الدولة أكثر منك في القاهرة أو إسطنبول أو لندن[54].

(*) لاحظ أن كلمتي «مدني» في مصطلح «الزواج المدني» و«أهلي» في مصطلح «الحرب الأهلية» ترجمة للكلمة الإنجليزية نفسها: civil. [المترجم].

(**) يريفان Erevan أو Yerevan عاصمة أرمينيا وأكبر مدنها. [المترجم].

إن الميناء المشرقي العظيم الأخير بما يميّزه من «نسيم الحرية» والتوازن السكاني بين طوائفه، تهدده الحكومات القومية المتطرفة في طهران ودمشق وتل أبيب ودولة حزب الله المضادة الساخطة. ومن غير الممكن التنبؤ بما إذا كانت ستكبده كارثة جديدة. وبيروت بنزاعاتها وارتباطاتها، وجامعاتها ومخيمات اللاجئين فيها، ووقوعها على خطوط الفصل بين الشرق والغرب، والدينية والعلمانية، والمدينة والدولة، والساحل والمنطقة الداخلية، التي تتسم في الوقت نفسه بالضعف والمرونة، لاتزال في قلب «السجال العالمي»، وتمثل مختبرا تجريبيا لمستقبل الشرق الأوسط. وعلى هذه المدينة يعتمد أمن كل جيرانها.

ترجع معضلة بيروت إلى صميم المشرق. في أوقات معينة - مثل سميرنا إبان القرن التاسع عشر والإسكندرية وبيروت في فترات من القرن العشرين - تستطيع المدن المشرقية أن تجد إكسير التعايش، وتضع الصفقات قبل الأيديولوجيا، واحتياجات المدينة قبل مطالب القومية. لكن كما هي الحال في كل المدن، كانت المدن المشرقية تحتاج إلى قوة مسلحة لحمايتها. قام الجيش العثماني أو البريطاني أو الفرنسي بهذه المهمة، ولم يقم بها مواطنو هذه المدن، لعدم رغبتهم في إطلاق النار على إخوتهم في الدين. لم تنشئ أي مدينة مشرقية قوة شرطة أو حرسا وطنيا فعالا خاصا بها. فالسمات التي أعطت هذه المدن الطاقة والحرية والتنوع هي نفسها التي هددت وجودها. مع أنه بلا جيش، لا توجد مدينة.

إن الورثة الحقيقيين للمشرق هم بعض من أغنى المدن اليوم: لندن وباريس ونيويورك، وكذلك دبي وبومباي وسنغافورة. يجعل سكان هذه المدن المتنوعون (كثيرون منهم جاءوا في الأصل من المشرق) منها مختلفة على نحو متزايد عن المناطق الداخلية لكل منها، لكنها تتمتع بحماية جيوش وقوات شرطة وطنية. كان بن غوريون أعمى البصيرة حين ندَّد بـ «روح المشرق التي تخرّب الأفراد والمجتمعات». فالمدن المشرقية هي المستقبل، تماما كما كانت في الماضي. والعولمة تعني أننا جميعا في الوقت الراهن مشرقيون.

الهوامش

الفصل الحادي عشر

(1) Goff and Hugh A. Fawcett, Macedonia: A Plea for the Primitive (1921), p. 128.

(2) Griffin Tapp, Stories of Salonica and the New Crusade (1922), p. 14.

(3) H. Collinson Owen, Salonica and After: The Sideshow that Ended the War (1919), pp. I, 22; Mary A. Walker, Through Macedonia to the Albanian Lakes (l864-), pp. 34-5·

(4) Pierre Loti, Aziyade (Livre de Poche, 1970), p. 21.

(5) Elias Petropoulos, La Présence ottomane á Salonique (Athens, 1980), passim; Victor Berard, La Macédoine (1897), pp. l64, 16); G. F. Abbott, The Tale of a Tour in Macedonia (1903), p. 29.

(6) Paul Risal, La Ville convoitée: Salonique (l914), p. 14-3·

(7) Veinstein, Salonique, pp. 28-32; Risal, p. 34-7·

(8) Veinstein, Salonique, pp. 71, 2l I, 2 I 7; Rena Molho, Salonica and Istanbul: Social, Political and Cultural Aspects if Jewish Life (Istanbul, 2(05), p. 135·

(9) Antoine Scheikevitch, Hellas? ... Hélas! Souvenirs de Salonique (1922), p. 12; Edgar Morin, p. 47n; Leon Sciacky, Farewell to Ottoman Salonica (Istanbul, 2000), p. 91. Ferdinand Schirza in Istanbul still has some of the Viennese furniture of his father, an Austrian who worked for the Ottoman railways in Salonica before 1912.

(10) Wratislaw, p. 212.

(11) Veinstein, Saloniquc, pp. 34-5, 171-4-; Héléne Desmet-Grégoire. Cafés d'orient revisités (1997), pp. 83, 86.

(12) Veinstein, Salonique, p. l07. 131.

(13) Risal, p. 24-7·

(14) Veinstein, Salonique, pp. 187, 189; Sam Levy, Salonique a la fin du xixe siécle (Istanbul, 2000), pp. 26-S.

(15) Mark Mazower, Salonica, City of Ghosts: Christians, Muslims and jews 1430-1950 (2004), p. 250.

(16) Veinstein, Salonique, pp. 105, 116.

(17) Elias Petropoulos, Old Salonica (Athens, 1980), pp. 66-8.

(18) I. Canudo, Combats d'Orient (1917), p. 78.

(19) Sciacky, p. 37-8; Risal, pp. 251-3; Apostolos E. Vacalopoulos, A History of Thessalanilei (Thessaloniki, 1972), p. 116; the execution provides the opening scene of Pierre Loti's novel Aziyade.

(20) Bérard, pp. 151, 153, 162; H. Collinson Owen, p. 19·

(21) Veinstein , Salonique, pp. 132, 135; Sciacky, p. 72.

(22) Sciacky, p. 81.

(23) Allen Upward, The East End of Europe (1908), p. 63·

(24) Douglas Dakin, The Greek Struggle in Macedonia 1897-1913 (Thessaloniki, 1966), P·336.

(25) Mark Levene, 'Port Jewry of Salonika between neo-colonialism and the nation state', in David Cesarani, ed., Port jews: jewish Communities in Cosmopolitan Maritime Trading Centres 1550-1950 (2002), pp. 123, 128, 133, 141, 158.

(26) Mazower, p. 283.

(27) Aykut Kansu, The Revolution of 1908 in Turkey (Leiden, 1997), p. 82; Kechr iotis, 'The Greeks of Izmir', pp. I6r-72.

(28) Smyrna, Metropolis, p. 104·

(29) Kansu, The Revolution of 1908, p. 89·

(30) Mehmet Hacisalihoglu, 'The negotiations for the solution of the Macedonian question', Turcica, 36 (2004), pp. 168-9; Sciacky, p. 120; A. J. Panayotopoulos, 'Early relations between the Greeks and the Young Turks', Balkan Studies, 21 (1980), 87-')5, p. 88.

(31) Desmet-Gregoire, pp. 88, 89·

(32) Dakin, pp. 211-12, 377·

(33) Veinstein, Salonique, pp. 232-3; Osman Koker, Souvenir of Liberty: Postcards and Medals from the Collection of Orlando Carlo Calumeno (Istanbul, 2008), pp. 18-19.

(34) Kansu, The Revolution of 1908, p. 95·

(35) Veinstein, Salonique, p. 236.

(36) Mert Sandalci, Max Fuchtermann Kartpostallari, 3 vols. (Istanbul, 2000), III, 853-70.

(37) Koker, Souvenir, pp. 20, 46-7; Edgar Morin, p. 59·

(38) Cumali, p. 274·

(39) Veinstein, Salonique, pp. 114, 238; CumaJi, p. 27 I, report of Louis Steeg, Uskup, 20 July 1908.

(40) Heath Lowry, 'The Evrenos dynasty of Yenice Vardar', journal of Ottoman Studies, 32 (2008), p. 147·

(41) Aykut Kansu, Politics in Post-Revolutionary Turkey 1908-1913 (Leiden, 2000), pp.7I, 90, II8.

(42) Kansu, The Revolution of 1908, pp. 108).

(43) Kechriotis, 'The Greeks of Izmir", pp. 176, 180, 181; Koker, Śouvenir, pp. 27-8; Bahattin Oztuncay, ed., 100h Anniversary of the Restoration of the Constitution (Istanbul, 2008), p. 23·

(44) Koker, Souvenir, pp. 68, 106-7·

(45) Kechriotis, 'The Greeks of Izmir', p. 177·

(46) Ibid., pp. 184, 198, 200; Georgelin, p. 173·

(47) Kansu, The Revolution of 1908, pp. 170, 177, 223.

(48) Ibid., p. 213.

(49) Molho, p. 249·

(50) Veinstein, Salonique, p. 204.

(51) Ibid., p. 193.

(52) Kechriotis, 'The Greeks of lzmir', pp. 871-91.

(53) Kansu, Politics, pp. 349, 366.

(54) Parmaksiz, pp. 157, 158, 161.

(55) Çalislar, pp. 27, 29, 32, 34, 45.

(56) Kontente, p. 653; Pannuti, p. 229, quoting Courrier de Smyrne, 6 Aug. 1910.

(57) Colonas, p. 114.

(58) Çalislar, pp. 31, 35.

(59) Georgelin, p. 205, Benaroya to Alliance Israelite Universelle, 18 Sept. 1922, complaining of the destructions of Jewish shops and houses in Christian districts of the city.

(60) Nahum, Juif, de Smyrne, p. 145: La Boz del Pueblo, 1911.

(61) Kontente, p. 584.

(62) Kechriotis, 'The Greeks of Izmir', pp. 149n (Amalthea, 17 Nov. 1910), 151, 159, 274-5.

(63) Ibid., pp. 204-5, 216.

(64) Ahmad, I, 112; Karabiber Bey, director of political affairs in the vilayet, was another Greek opposed to Greek nationalism.

(65) Vangelis Kechriotis, 'Greek Orthodox, Ottoman Greek or just Greek) Theories of coexistence in the aftermath of the Young Turk Revolution', Etudes balleaniques, I (2005), 51-72.

(66) Elias Petropoulos, Old Salonica, p. 178.

(67) Oztuncay, tooth Anniversary, p. 28; Sciacky, p. 149.

(68) Kechriotis, 'The Greeks of Izmir', pp. 274-5; Ahmad, I, 110.

(69) Dakin, pp. 407, 44I.

(70) libert, I, 427-32; Floresca Karanasou, 'The Greeks in Egypt from Mohammed Ali to Nasser 1805-1961', in Richard Clogg, ed., The Greek Diaspora in the Twentieth Century (1999), pp. 30, 35, 36; Sturdza, p. 174.

إنني مدين بهذه المعلومة إلى أمير يانر Emir Yaner. إن أفيروف، زوج أخت توسيزا، تبرع لليونان ببناء إستاد أولمبي وأسهم في تمويل المدارس ومعهد موسيقي ومعهد متعدد الفنون. وفي الإسكندرية التي عاش فيها من العام 1865 حتى وفاته في العام 1899، أنشأ مدرسة ومستشفى يونانيين.

(71) زيارة إلى البارجة أفيروف التي تشكل حاليا متحفا بحريا راسيا في بيروس، 20 فبراير 2009.

(72) Jean Leune, Une revanche, une étape (1914), pp. 338, 344.

(73) Edward J. Erickson, Defeat in Detail: The Ottoman Army in the Balkans 1912-1913 (Westport, 2(03), pp. 223-5; Leune, p. 363.

(74) Veinstein, Salonique, pp. 250-53.

(75) Leune, pp.31I, 316-17.

(76) Paschalis M. Kitrornilides, ed., Eleftherios Venizelos: The Trials of Statesmanship (Edinburgh, 20(6), p. 148.

(77) Winston Churchill, The World Crisis: The Aftermath (1929), p. 391; Giles Milton, Paradise Lost: Smyrna 1922 (2008), PI'· 43, 45, quoting Stavrides's diary, Nov. I912.

(78) Machiel Kiel, Studies on the Ottoman Architecture of the Balkans (Aldershot, 1990), p.145.

(79) Oztuncay, 100th Anniversary, pp. 26-7·

(80) Edgar Morin, pp. 90, 115, 120; Sciacky, p. 157; Molho, p. 46.

(81) René Darques, Salonique au vingtiéme siécle (2000), PP. 61, 69·

(82) Risal, p. 365; Molho, PI'· 175-7, 190, 365.

(83) إنني مدين بهذه النقطة إلى الأستاذ الدكتور ظافر طبرق Zafer Toprak.

(84) Justin McCarthy, Death and Exile: The Ethnic Cleansing of Ottoman Muslims 1821-1922 (Princeton, 1995), 1'1'.141-2, 145, 156, 159, 261.

(85) Kontente, p. 600.

(86) Ibid., pp. 668-70.

(87) John Presland, Deedes Bey (1941), p. 102.

(88) Nahum, Juifs de Smyrne, pp. 67, 240.

(89) Ebru Boyar, Ottoman Turks and the Balkans: Empire Lost, Relations Altered (2007), pp. II8, 143; Dakin, p. 244·

(90) Ugur U. Ugur, 'A reign of terror: CUP rule in Diyarbekir province 1913-1919, MA thesis (University of Amsterdam, 2005), p. 18.

(91) Andrew Mango, Ataturk (2000), P: 217.

(92) Paschalis M. Kitromilides, Enlightenment, Nationalism, Orthodoxy: Studies in the Culture and Political Thought of South-Eastern Europe (I994), XIII, 8.

(93) Kontente, p. 606.

(94) Victoria Solomonidis, 'Greece in Asia Minor: the Greek administration of the vilayet of Aydin, 1911-1922', PhD thesis (University of London, 1984), pp. 16, 20.

(95) Smyrna, Metropolis, P: 122; Dakin, pp. 142, 328.

(96) Kechriotis, 'The Greeks of Izmir', pp. 165, 25 1, 259, 274-5; Ahmad, I, 110.

(97) Vangelis Kechriotis, 'Between professional duty and national fulfillment: the Smyrniot medical doctor Apostolos Psaltoff 1862-1923', in Merope Anastassiadou and Paul Dumont, eds., Médecins et ingénieurs ottomans á I'age des nationalismes (1998), pp. 338, 340, 42, 346.

(98) Milton, pp. 57-9· .

(99) Georgelin, pp. 184, 190n, 194, 195; Solomonidis, pp.20-21.

(100) Ray Turrell, Scrap Book 1809-1922 (Englefield Green, 1987), pp. 7, 9, 16.

(101) Paul Jeancard, L'Anatolie (1919), pp. 24, 26, 102.

(102) Trading in the Levant (Manchester, 1912), unpaginated.

(103) Scherzer, p. 170.

(104) Çalislar, p. 29·

(105) Antony Wynn, Three Camels to Smyrna: The Story of the Oriental Carpet Manufacturers Company (2008), pp. 27-30, 48, 86, letter of Jan. 1914 from Mr Edwards; Çalislar, pp. 27-8.

(106) Smyrnelis, Smyrne, P: 206.

(107) إنني مدين بهذه النقطة إلى الأستاذ الدكتور ظافر طبرق.

(108) Schmitt, pp. 383, 388, 414-18.

(109) Schmidt, Through the Legation Window, P: 16n, Oscar van Lennep, 5 Apr. 1914; cf. Senior, pp. 207-8, 219 (8, 11 Nov. 1857), for a previous van Lennep's belief in a future Greek takeover, shared by Mr Whittall and the British and Prussian consuls.

(110) Sursock Archives (hence forward referred to as SA: consulted by kind permission of Yvonne Lady Cochrane), Ibrahim Kfouri to Alfred Sursock, 11, 16 Oct. 1905.

(111) George Antonius, The Arab Awakening (1938), pp. 54, 79, 89-90.

(112) Kayali. pp. 33-4; National Archives, London, FO 195/1306, G. Dickson to J. Goschen MP - I am grateful for this reference to Alan Rush.

(113) Kayali, P: 91.

(114) Kamal S. Salibi, 'Beirut under the Young Turks as depicted by the political memoirs of Salim Ali Salam 1868-1938', in Jacques Berque, ed., Les Arabes par leurs archives (1976), pp. 193-211, passim.

(115) Eliezer Tauber, The Emergence of the Arab Movement (1993), p. 275; Geraldine Hodgson, The Life of James Elroy Flecker (Oxford, 1925), p. 174, letter of Feb. 1912; Debbas, pp. 219-23 for photographs.

(116) William W. Haddad and Wilham Ochsenwald, Nationalism in a Non-National State: The Dissolution of the Ottoman Empire (Columbus, Ohio, 1977), pp. 215-16, 226-7; Kayali, pp. 106, 111-18, 128, 132, 135, 138; Tauber, PP·135-9·

(117) Kayali, p. 176.

(118) Ibid., pp. 127, 185; Hurewitz, I, 566.

(119) Salibi, 'Beirut under the Young Turks', pp. 193-21 I, passim; Johnson, Class and Client, p. 64; Kassir, Beyrouth, p. 244.

(120) James L. Gelvin, Divided Loyalties: Nationalism and Mass Politics in Syria at the Close of Empire (Berkeley, 1995).

(121) SA, Alfred Sursock to Mehmed V, 17 Sept. 1912 and drafts in Alfred Sursock's hand.

(122) SA, letter of Amélie Comtesse Studenitz, 5 Mar. 1912.

(123) Hector Dinning, Nile to Aleppo with the Lioht-Horse in the Middle East (1920), pp. 115, 118.

(124) Kouyoumdjian, p. 25.

(125) Cf. Carla Edde, Beyrouth: naissance d'une capitale 1918-1924 (2009), p. 25·

الفصل الثاني عشر

(1) Y T. Kurat, 'How Turkey drifted into World War I', in Kenneth Bourne and D. C. Watt, eds., Studies in International History (1960), pp. 297, 300, 303.

(2) Schmitt, p. 227.

(3) Mansel, Constantinople, pp. 354, 371.

(4) Olivier Bouquet, 'Du haut de Péra: étude du jeu diplomatique de l'Europe dans l'Empire Ottoman 1909-1914' thesis (Paris, 1993), pp. 153, 155, 157, 162, 164, 174.

(5) Mansel, Constantinople, pp. 371-3.

(6) Schmidt, From Anatolia to Indonesia, pp. I 7()-7 1.

(7) Sir Robert Graves, Storm Centres oj the Near East (1933), p. 295; Lowry, p. 159.

(8) Milton, p. 53.

(9) http://www.levantineheritage.com/. Grace Williamson diary, 9 Mar., 28 Apr. 1915.

(10) Wynn, p. 122.

(11) Ibid., p. 123.

(12) EUSC, MSS 259, Whittall Papers, Captain W.R. Hall, director of naval intelligence, to Commodore Roger Keyes, chief of staff Dardanelles (copy, n.d.).

(13) Horton, p. 92; http://www.levantineheritage.com/, Grace Williamson diary, 5 Mar., 11 Apr. 1915.

(14) Wynn, pp. 127-8.

(15) Presland, p. 153, diary for 13 Mar. 1915; Wynn, p. 127; Milton, pp. 103-4; http://www.levantineheritage.com/. Grace Williamson diary, 9 Mar. 1915.

(16) Milton, p. 97.

(17) SA, Albert Bassoul to Alfred Sursock, 12, 17 Nov. 1917.

(18) Nahum, Juifs de Smyrne, P: 159; Solomonidis, p. 18.

(19) Gérard D. Khoury, La France et l'Orient arabe: naissance du Liban modernc (2009 edn), pp. 77, 117, 283\; Debbas, p. 66.

(20) Khoury, La France et I' Orient arabe, pp. 66, 68; Kouyoumdjian, pp. 15, 68, 135·

(21) Antonius, pp. 187, 189; photograph of the hanged men in Michel Fani, Une histoire de La photographie au Liban (Beirut, 2005), p. 317.

(22) Joseph G. Chami, Du Mont Liban a l'independence (Beirut, 2002), p. 59.

(23) Kouyoumdjian, p. 145; Jafar al-Askari, A Soldier's Story: From Ottoman Rule to Independent Iraq (2003), p. 105.

(24) Salibi, 'Beirut Under the Young Turks', p. 214·

(25) Linda Schatkowski Schilcher, 'The famine of 1915-1918 in Greater Syria', in John p. Spagnolo, ed., Problems of the Modem Middle East in Historical Perspective (Reading, 1992), PP. 234, 249; Kouyoumdjian, pp. 123, 136; SA, Isabelle Bustros to Alfred Sursock, Nov. 1918.

(26) SA, letters to Alfred Sursock from Jernal Pasha, 2 Apr. 1915; from Madame Saoud Chebab, 7 Feb. 1917; from Michel Bustros, in Sivas, 22 Mar. 1917.

(27) Falih Rifki Atay, Le Mont des oliviers (2009), p. 118; Khoury, La France et l'Orient arabe. pp. 79-81; H. E. Chehabi, 'An Iranian in the First World War', in id. ed., Distant Relations: Iran and Lebanon in the Last 500 Years (2006), pp. 126-31.

(28) Wratislaw, p. 332.

(29) Scheikevitch, pp. 10, 174.

(30) H.Collinson Owen, pp. 1, 13, 19, 21, 31.

(31) Ibid., p. 29.

(32) Ibid., p.23; Gotrand Fawcett, pp.141-3.

(33) Darques, p. 149; Goff and Fawcett, pp. 161, 163; Wratislaw, p. 343; Mazower, pp. 320, 324.

(34) Kitromilides, Eleftherios Venizelos, pp. 158, 187.

(35) Milton, p. 127.

(36) L'indépendant (Smyrna), 20, 27 Jan. 1919.

(37) Kontente, pp. 696, 701; Bahattin Oztuncay, Hatira-i uhuvvet Portre Fotograflarin Cazibesi 1846-1950 (Istanbul, 2005), p. 63.

(38) Mansel, Constantinople, p. 385.

(39) Kontente, p. 707.

(40) Stanford J. Shaw, From Empire to Republic: The Turkish War of National Liberation 1918-1923, . A Documentary Study, 5 vols. (Ankara, 2000), I, 50l, 505-6, 506.

(41) Ibid., I, 478, 482; Kontente, pp. 70S, 709.

(42) Smyrna, Metropolis, p. I26.

(43) Nahum, Juifs de Smyrne, p. 162.

(44) Boogert, p. 114; Kontente, pp. 720-2I; Solomonidis, pp. 50-59, 60-69, 73-5; Milton, pp. 153-9; Shaw, I, 516.

(45) McCarthy, p. 266, dispatch of 17 May 1919; he also referred to 'constant shooting, looting and hunting down of Turks'.

(46) Solomonidis, p. 57.

(47) Les Atrocités grecques en Asie mineure: rapport de la commission interalliée d'enquôte sur l'occupation greeque de Smyrne et des territoires adjacents 12 octobre 1919 (Constantinople, 1922), signed Bristol, Bunoust, Hare, Dallolio.

(48) Shaw, I, 539, 522, dispatch of 21 July 1919; Nahum, Juifs de Smyrne, p. 164; Michael Llewellyn Smith, Ionian Vision: Greece in Asia Minor 1919-1922 (2nd edn, 1998), p. 9I.

(49) Solomonidis, pp. 235, 264; Llewellyn Smith, Ionian Vision, p. 5 I.

(50) Llewellyn Smith, Ionian Vision, p. 133.

(51) Smyrna, Metropolis, pp.217, 219.

(52) Smyrna before the Catastrophe, pp. 89, 137, 170; Milton, pp. 179, 182.

(53) Nahum, Juifs de Smyrne, p. 256.

(54) Shaw, II, 559; Halide Edib, The Turkish Ordeal (I928), pp. 25-34; Mango, p. 217.

(55) Llewellyn Smith, Ionian Vision, p. I07; Shaw, II, 582 (reports of admirals Calthorpe and Webb, 31 July, 17 Aug. 1919, 649, 651, 667, 671.

(56) Kontente, pp. 719, 732, 7'39, 745.

(57) Ibid., PP.7II, 735, 748; Nahum, Juifs de Smyrne, pp. 116-18.

(58) Henri Nahum, La Grande Guerre et la guerre greco-turque vues par les instituteurs de l'Alliance Israélite Universelle d'Izmir (Istanbul, 2003), p. 52; Smyma, Metropolis, p.229.

(59) Solomonidis, pp. 134, 152-7, 222-3; Milton, p. 173.

(60) Dakin, p. 225.

(61) Solomonidis, p. I44; Milton, p. 123.

(62) Milton, pp. 195, 20I, quoting Eldon Giraud's memoirs.

(63) Ibid., p. 144; Solornonidis, p. 205; cf. Shaw, II, 565, report of 17 June 1919, for British 'hostility and apprehension' towards the Greek occupation.

(64) Schmitt, pp. 230-32.

(65) Solomonidis, pp. 39, 44; Milton, p. 145. 66.

(66) Shaw, II, 581.

(67) Dakin, pp.229, 231, 237.

(68) Letter of 24 Mar. 1920, 'private and secret', to Lloyd George, in Martin Gilbert, ed.,Winston Churchill, vol 4: 1917-1922. Companion Documents, 3 vols. (1977), III, 1053, 1324; Shaw, III, 13I7, Churchill letter of 25 June I92I.

(69) Smyrna, Metropolis, p. 234.

(70) Kontente, p. 747.

(71) Turrell, p. 204.

(72) King Constantine, A King's Letters to a Friend (I927), pp. 190-93, letters of 18 June, 9 Aug. I92I; HRH Prince Andrew of Greece, Towards Disaster: The Greek Army in Asia Minor in 1921 (I930), p. 107.

(73) Ibid., p. 107.

(74) Solornomdis, pp. 100, 106, I28; Smyrna, Metropolis, p. 237.

(75) Milton, p. 231.

(76) Jean Morin, Souvenirs d'un banquier français (I983), p. 254.

(77) Llewellyn Smith, Ionian Vision, pp. 175, I77.

(78) Shaw, III, 1641, Prince Andrew to Metaxas, jan. 1922.

(79) Kontente, p. 752; L'Independant (Smyrna), 6 Apr. 1922; L'Echo de France 3, 5, 14 Mar. 1922.

(80) Smyrna, Metropolis, p. 240-44; Kontente, p. 754; Solomonidis, p. 237.

(81) Llewellyn Smith, Ionian Vision, pp. 275, 277.

(82) Brian Giraud Archives, Izmir (henceforward referred to as BGA: consulted by kind permission of Brian Giraud), diary of Hortense Woods, 2 Sept. 1922; Milton, p. 257.

(83) Turrell, p. 211; Nahum, La Grande Guerre, p. 8, letter of E. Nabo n , 5 Oct. 1914.

(84) BGA, Woods diary.

(85) Andrew, p. 41.

(86) Nahum, La Grande Guerre, pp. 65, 66, 70, letters of v. 8, 29 Sept. 1922.

(87) Edib, pp. 365, 367; Bilal N. Şimşir, ed., British Documents on Ataturk, 8 vols. (Ankara, 1984-2006), IV, 391, protest of 7 Sept. 1922.

(88) Edib, p. 363.

(89) Llewellyn Smith, Ionian Vision, pp. 299-305.

(90) Smyrna, Metropolis, pp. 229, 246; Solomonidis, pp. 188, 216; Dakin, p. 256n.

(91) Milton, p. 245; http://www.levantineheritage.com/. Grace Williamson diary, 6 Sept. 1922.

(92) Nahum, La Grande Guerre, p. 65, letter of 7 Sept. 1922; Lord Kinross, Ataturk.: The Rebirth of a Nation (Nicosia, 1981 edn), p. 322.

(93) Solomonidis, pp. 216-23, 246, 248; Kontente, p. 758; Milton, pp. 240, 254, 261.

(94) Fahretrin Altay, 10 Yil Savas ve Sonrasi 1912-1922 (Istanbul, 1970), p. 351.

(95) Kinross, p. 321; Milton, p. 268; BGA, Woods diary, 10 Sept. 1922.

(96) http://www.levantineheritage.com/. Grace Williamson diary. o Sept. 1922.

(97) Ibid.. 11 Sept. 1922.

(98) Kontente, p. 762; Milton, p. 265.

(99) Mango, pp. 344, 349; Kinross, p. 322; Edib, p. 38l.

(100) Altay, pp. 360-61.

(101) Georgelin, p. 217; Kontente, p. 764.

(102) Kontente, p. 765.

(103) Edib, p. 385; Milton, pp. 273, 276.

(104) Milton, pp. 277-80, 295, 30I-2.

(105) Simsir, IV, 403, consul to Curzon, 11 Sept. 1922.

(106) Milton, p. 313.

(107) Ibid., pp. 321-4.

(108) Kontente, p. 770n; Georgelin, pp. 209, 212-14.

(109) Kontente, pp. 777-8.

(110) Boogert, p. 226, quoting Nieuws van den Dag; Milton, p. 340, quoting George Ward Price on HMS Iron Duke.

(111) Lawrence Durrell, preface to Bias Venezis, Aeolia (1949), p. v.

(112) BGA, Woods diary, 14 Sept. 1922.

(113) Georgelin, pp. 215, 222.

(114) Ibid., p. 222, dispatch of 14 Sept. 1922; Smyrna, Metropolis, p. 269.

(115)Smyrnelis, Smyrne, p. 199; Kontente, p. 771.

(116) Kontente, p. 761.

(117) Smyrnelis, Smyrne, p. 197; http://wvvw.levantineheritage.com/. Wallace account.

(118) Mango, p. 344.

(119) Kinross, p. 325, Captain Thesiger on HMS George V on 'the most awful scream one could ever imagine'; Kenneth Edwards, The Grey Diplomatists (1938), pp 47-53·

(120) Milton Chater, 'History's greatest trek', National Geographic (Mar. 1923), p. 538.

(121) Milton, pp. 338, 349, 354, 381. 122.

(122) Ibid., p. 366.

(123) Kinross, p. 326; Milton, pp. 333, 337.

(124) Milton, pp. 333. 342, 381, 389.

(125) Ibid., p. 336.

(126) Georgelin, p. 223; Kontente, p. 769; Milton, pp. 340, 351, 354·

(127) Milton, p. 355; Morin, Souvenirs, pp. 259, 272.

(128) ŞimŞir, IV, 427, 437, telegrams of 17, 18 Sept. 1922; Milton, p. 357·

(129) Milton, pp. 367, 374, 376, 386.

(130) Ibid., pp. 158, 367-78, 381; Shaw, IV, 1736-8, reports of 24-28 Sept. 1922.

(131) Alexander and Helen Karnikas, Elias Venezis (New York, 1969), p. 14; cf. Schmidt, Ottoman lzmir, p. 146, for the account of Panyotis Marselis; Georgelin, p. 220, dispatch of Graillet, II) Sept. 1922.

(132) Dimitir Pentzopoulos, The Balkan Exchange of Minorities and its Impact on Greece (2002 edn), pp. 47.100; Stratis Doukas, A Prisoner of War's Story (Birmingham, 1991), p. 2.

(133) Milton, p. 387; Kontente, p. 780; BGA, Woods diary, 1, 2 Oct. 1922.

(134) Kontente, p. 781.

(135) Milton, p. 392.

(136) تواصل شخصي مع أليكس بالتازاي Alex Baltazzi، في 13 مايو 2009.

(137) Gillian Bardsley, lssigonis: The Official Biography (Thriplow, 2005), pp. 12, 28, 42, 51.

(138) Nicholas Gage, Greek Fire (2001), pp. 117-51, 236.

(139) Georgelin, p. 207.

(140) http://en.wikipedia.org/wiki/Great_Fire-of_Smyrna.

(141) Shaw, Ill, 1739.40.

(142) Georgelin, p. 203.

(143) Wynn, pp. 154-6.

(144) Georgelin, p. 210.

(145) ŞimŞir, IV, 404, 410, notes and telegrams of 13, 14 Sept. 1922.

(146) BGA, Woods diary, 29 Oct., 2 Nov. 1922.

(147) Kahri Dikkaya et al., Avrupali mi, Levanten mil (Istanbul, 2006), p. 148, on Huseyin Kurnaz

الذي تقول روايته إنه أحرق بيته وهو يحاول أن يحرق بيت جاره.

(148) Çalislar, pp. 57, 64.

(149) بمعنى: هل ساعد تدمير بنايات المسيحيين في الحفاظ على إزمير التركية؟

(150) http://en.wikipedia.org/wiki/Great-Fire_of_Smyrna. 15 I.

(151) Kinross, pp. 3 26-7·

(152) ÇaliŞlar, pp. 18, 54, 80, letter of 26 Oct. 1922. 153.

(153) Ibid., pp. 53-8, 64; Mango, p. 346.

(154) ÇaliŞlar, p. 98.

(155) Edib, pp. 387-8.

(156) http://en.wikipedia.org/wiki/Great_Fire_of_Smyrna.

(157) W. Bruce Lincoln, Sunlight at midnight: St Petersburg and the Making of Modern Russia (2001), pp. 233, 245, 252-3.

(158) Mango, p. 345; BGA, Woods diary, 6 Sept.: 'More refugees are coming in, both Greek and Turkish, with thousands of camels and sheep, with no idea of where they are going to go.'

(159) Nahum, La Grande Guerre, pp. 95-9, undated letter of Mr Canetti.

(160) قال تشيرشل لاحقا إن «جيش مصطفى كمال احتفل بالانتصار بحرق سميرنا عن بكرة أبيها وبمذبحة موسعة لسكانها المسيحيين»، وهو «نذير للمصير الذي يمكن أن تؤول إليه القسطنطينية».

The World Crisis: The Aftermath (1922), p. 4 r o.

(161) Harry J. Psomiades, The Eastern Question: The last Phase (Thessaloniki,1968), P. 89.

(162) National Archives, London, FO 371/7917, Henderson to Curzon, 28 Nov. 1922.

(163) Schmidt, Through the Legation Window, pp. 216-17.

(164) Mansel, Constantinople, PP. 407, 410.

(165) Nahum, Juifs de Smyme, p. 167; Nahum, La Grande Guerre, p. 85; Smyrnelis smyrne, .p.222.

(166) Smyrna, Metropolis, p. 295.

(167) Turkish Daily News, 19 Mar. 2007, p. 5.

(168) BGA, Woods diary, 27 Mar 1923·

(169) Nahum, Juifs de Smyrne, p. 183; cf. Kontente, PP. 816-17; personal cormmumcations, Ergun Cagatay, Istanbul, 14 May 2009, Guy Pagy, 21 May 2009.

(170) Nahum, La Crande Guerre, p. 79, 28 Jan. 1923.

(171) Kontente, p. 810.

(172) تواصل شخصي في 3 مايو 2010.

(173) Calislar, pp. 95, 99, 106-13.

(174) Cumali, pp. 12, 40-41.

(175) Ayhan Aktar, 'Turkifying the economy', in Renee Hirschon, ed., Crossing the Aegean (Oxford, 2004), p. 84.

(176) Kontente, p. 800.

(177) Aktar, p. 80.

(178) Nahum, Juifs de smyrne, p. 259, letter of 17 Sept. 1924; Çalislar, p. 292.

(179) Aktar, p. 91.

(180) Annuaire oriental (Constantinople, 1922), pp. 1392-1418, for lists of businesses and institutions in Smyrna. Before the fire, there were many firms selling 'assurances contre I'mcendie'.

(181) Caglar Keyder, The Definition of a Peripheral Economy: Turkey 1923-1929 (Cambridge, 1981), pp. 89-90.

(182) Çalislar, PI'. 288-91; Edib, p. 387.

(183) Milton, pp. 286-9; http://www.levantineheritage.com/. de Jongh testimony and Grace Williamson diary, 12 Sept. 1922.

(184) http://www.levantineheritage.com/, de Jongh testimony.

(185) Schmidt, Through the Legation Window, pp. 153, 207, 214, 219; Jean Morin, pp. 255-6.

(186) Schmitt, PI'· 153, 207, 406, 410.

(187) Smyrna, Metropolis, p. 275; Kontente, p. 825.

(188) Pannuti, p. 489.

(189) Turrell.pp. 137, i57;Dikkaya, p. 147.

(190) BGA,Woods diary, 29 Oct., 1,15 Nov., 9 Dec. 1922,14 Feb. 1923.

(191) Jean Morin, pp. 277-80.

(192) مقابلة في 9 فبراير 2006.

(193) Wynn, pp. 278, 281.

(194) يننا مدين مذهب النقطة إلى أمريكا رنايد.

(195) Kinross, pp. 420,431; Mango, pp. 445-7,451; Kontente, p. 814.

(196) Smyrna, Metropolis, p. 275; Nahumjwi/s de Smyrne, pp. 197-9.

(197) Nahnm, Juifs de Smyrne,p. 238.

(198) Smyrnelis, Smyrne, pp. 208—9.

(199) Kontente, p. 815.

(200) Smyrna, Metropolis, p. 275; Kontente, p. 819.

(201) Michael Woodbine Parish, Aegean Adventures 1940 - 1943 (Lewes, 1993), pp. 172,177.

(202) George Seferis, A Poet's Journal: Days of 1945-1951 (Cambridge, Mass., 1974), pp. 164-5,1,2 July 1950; Roderick Beaton, p. 50.

(203) Roderick Beaton, pp. 288—91.

(204) Georgios A.Yiannakopoulos, ed., Refugee Greece: Photographs from the Archive of the Centre for Asia Minor Studies (Athens, 1992), pp. 19, 32, 53, 59.

(205) Pentzopoulos.p. 206.

(206) Ibid., p. 210.

(207) Renée Hirschon, Heirs of the Greek Catastrophe (1988), p. 30; Pentzopoulos, P- 193.

(208) Peter Mackridge, 'The myth of Asia Minor in Greek fiction', in Renee Hirschon, ed., Crossing the Aegean (Oxford, 2003), pp. 235-46.

(209) Dido Sotiriou, Farewell Anatolia (Athens, 1991), pp. 21, 58, 61,265.

(210) Kosmas Politis, 'At Hadzifrangos', The Charioteer, 11 (1969-1970), pp. 75, 85.

(211) Cf. Andy Garcia's film The Lost City (2005), with its haunting pre-Castro music.

(212) Mazower, pp. 3, 3 70.

(213) Gauntlett, pp. 250-55; Smyrna, Metropolis, p. 251.

(214) Kinross, p. 336.

(215) Pentzopoulos, p. 119.

(216) Ibid., p. 115,166.

(217) Nea Smyrna (map with history) (Athens, 1999), passim; interview, 24 Feb. 2009.

(218) Cumali, pp. 183, 221-4.

(219) Mazower, p. 344.

(220) Bruce Clark, Twice a Stranger: How Mass Expulsion Forged Modem Greece and Turkey (2006), pp. 158-9,162-5,178.

(221) Mazower, p. 3 51.

(222) Molho, p. 26; Mazower, pp. 412,428.

(223) Yorgos Ioannou, Refugee Capital: Thessaloniki Chronicles (Athens, 1997), pp. 105,116.

(224) Ibid., pp. 85, 87, 93; Mazower, p. 440.

(225) Mazower, p. 428; Ioannou, pp. 131,137.

الفصل الثالث عشر

(1) Karanasou, pp. 24-57; David Marr, Patrick White: A Life (I99I), p. 217.

(2) Haag, Alexandria, p. 110; thus Durrell exaggerated when he wrote, in the preface to Elias Venevis's Aeolia (1948), 'The flames of Smyrna illuminated the whole Levant': in reality they were soon forgotten.

(3) Janice J. Terry, The wafd (Beirut, 1981), pp. 75, 76.

(4) Ibid., pp. 79, 102-3; Ilbert, ll, 653.

(5) C. W R. Long, British Pro-Consuls in Egypt 1914-1929: The Challenge of Nationalism (2005), p. 1I8.

(6) Ibid., pp. r 57, 164.

(7) كما يتضح من أسماء الذين سقطوا قتلى في حرب الأعوام 1916 - 1922 على لوح رخامي في جبانة كاتدرائية سان مارك الأرثوذكسية.

(8) Ilbert, II, 641, 647, 652-3; Malak Badrawi, Political Violence in Egypt 1910-1924 (2000), p. 194; Haag, Alexandria, pp.) 112-I3.

(9) E. M. Forster, Alexandria, pp. 6, 191.

(10) Marilyn L. Booth, Bayram al-Tunisi's Egypt: Social Criticism and Narrative strategies, (Exeter, 1990), pp. 33-7, 4I, 50, 59, 69, 589; Mediterraneans, 8 (2006), pp. I25-6.

(11) Gratrtey-Smith, p. 47; Sholto Douglas, Years of Command (1966), p. 190.

(12) Awad, Italy in Alexandria, pp. 38-40, 142, 181, 254.

(13) See the map in Haag, Alexandria, p. xiv,

(14) Booth, p. 59.

(15) Lionel Dawson, Mediterranean Medley (1933), p. 189.

(16) Sir David Kelly, The Ruling Few (1952), p. 226; Morin, Souvenirs, p. 308.

(17) MEC, Vaux, Egyption and other episodes'.

(18) Sir Stewart Symes, Tour of Duty (1946), p. 28.

(19) Gudrun Kramer, The jews in Modem Egypt 1914-1952 (1989), p. 194
تواترت هذه المشاعر في مقابلات أجراها مولي توبي Molly Tuby في 14 مايو 2004 وسولومون غرين Solomon Greene في 1 مايو 2006: «استبد بنا إحساس بأن كل شيء سينتهي ويتبدد».

(20) Sir Miles Lampson, Politics and Diplomacy in Egypt: The Diaries of Sir Miles Lampson 1935- 1937 (Oxford, 1991), pp. 290-9I, 16, 19 July 1935.

(21) Malak Badrawi , Ismail Sidqi 1875-1950 (1996), pp. 61, 100, 113; Vice-Amiral Godefroy, L'Aventure de la Force X á Alexandrie, 1940-1943 (1953), p. 126; Ilbert, II, 587.

(22) Jacques Berque, L'Egypte: imperialisme et revolution (1967), pp. 262, 553.

(23) Mohamed Awad and Sahar Hamouda, eds., Voices from Cosmopolitan Alexandria (Alexandria, 2006), p. 71; cf. the inscription in the Orthodox cemetery: "Ci-gît Ivan Oumno né Ie 15 mars 1883 á Kazan, décédé Ie 7 mars 1961 a Alexandrie, priez pour lui.' Another Russian Alexandrian, who lived by giving piano lessons, was Evkodia Kutuzov, descendant of the conqueror of Napoleon and subject of a film by Asma al-Bakri.

(24) Zananiri , p. 37.

(25) Ilbert et Yannakakis, p. 171.

(26) el-Kayem, p. 54; Zananiri, pp. 247, 256.

(27) Jacqueline Carol, Cocktails and Camels (Alexandria, 2008), pp. 92-4; id., Scribbles (Geneva, 2004), p. 21.

(28) Terry, p. 234·

(29) Nathan J. Brown, 'The precarious life and slow death of the mixed courts of Egypt', Intemationaljournal of Middle East Studies, 25 (1993), p. 46.

(30) Mediterraneans.B (2006), pp. 128-), Mahfouz interview of 1996.

(31) Daniel Rondeau, Alexandrie (1997), P. 29.

(32) Lutfi A. W. Yehya, 'Alexandria reminiscences of an old historian', Mediterraneans, 8 (2006), pp. 365-7; G. Philippou Pierides. Memories and Stories from Egypt (Nicosia, 1992), p. 84; Awad and Hamouda, Voices, pp. 34, 58, 99, 103, I08-9·

(33) مقابلات في 18 و26 أغسطس 2007.

(34) Zananiri, p. 298.

(35) Fernand Leprette, Egypte: terre du Nil (1939), pp. 11, 108.

(36) Robert L. Tignor, State, Private Enterprise and Economic Change in Egypt 191-1952 (Princeton, 1984), pp. 136-7·
(37) Ilbert, 1, 537·
(38) Claude Avelin, La Promenade égyptienne (1934), p. 42; Haag, Alexandria, p. 163; Charles-Roux, Souvenirs, p. 158.
(39) Frédéric Abécassis, 'Alexandrie, 1929, Cahiers de la Mediterranee, 67 (2003).
(40) Zrmmerli Hardmann, pp. 16, 30, 78.
(41) Haag, Alexandria, pp. 235, 324·
(42) Jacqueline Cooper, Tales from Alexandria (Geneva, 1994), p. 6.
(43) Jean Naggar, Sipping from the Nile: My Exodus from Egypt (New York, 2008), pp. 31, 122.
(44) Mediterraneans, 8 (2006), pp. I I 5-18; Haag, Alexandria, p. 164.
(45) Omar Sharif, L'Eternel masculin (1977), pp. 57, 76, 102; Mohamed Awad and Sahar Hamouda, The Birth of the Severuli Art in Alexandria (Alexandria, 2007), pp. xi i, 223.
(46) Leprette, Egypte, p. l06.
(47) Le Mondain égyptien (Cairo, 1939), p. 66; Jean Franco is Bouvier, L'Ordre du Nil: vie et combats dAntoine Arcache Bey (ri.d.), unpaginated.
(48) Haag, Alexandria, p. 132.
(49) Fausta Cialente, The Levantines (1963), p. 116.
(50) Haag, Vintage Alexandria, p. 50; interview of Mr Salvago, La Patrie: journal des héllénes, 20 Oct., IO Dec. 1929.
(51) Ian S. MacNiven, ed., The Durrell Miller Letters 1935-1980 (1988), p. 168, Durrell to Miller, May 1944; Cialente, pp. 58, 81.
(52) Baron Firmin van den Bosch, Vingt années d'Egypte (1932), pp. 161-6.
(53) Carol, Cocktails and Camels, p. 26.
(54) Shirley Johnston with Sherif Sonbol, Egyptian Palaces and Villas (2006), pp. l06, 135; Haag, Vintage Alexandria, pp. 54-5; Lc Livre d'or du journal La Reforme, pp. 292-3.
(55) Leprette, Egypte, p. 122.
(56) Bosch, p. 166; cf. D. J. Enright, Academic Year (1984 edn), p. 89.
(57) Robin Fedden, ed., Personal Landscapet: An Anthology of Exile (1945), p. 11.
(58) Mediterraneans, 8 (2006), p. 227·
(59) William Stadiem, too Rich (1992), p. 126; Barne St Clair McBride, Farouk of Egypt (1967), pp. 63, 85; Hugh McLeave, The Last Pharaoh: The Ten faces of Farouk (1969), pp. 16, 99.
(60) مقابلة مع أليكس القايم Alex el-Kayem في 14 فبراير 2010.
(61) Haag, Alexandria, p. 154.
(62) La Bourse Égyptienne, 6 Jan. 1940, consulted thanks to Madame Fernande Nissaire.

(63) Le Livre d'or du journal la réforme p. 5.

(64) Steven Morewood, The British Defence of Egypt 1935-1940: Conflict and Crisis in the Eastern Mediterranean (2005), pp. 21, 25, 27, 53, 98; Artemis Cooper, Cairo in the War 1939-1945 (I989), p. 48.

(65) Lawrence R.. Pratt, East of Malta, West of Suez (1975), pp. 121-2.

(66) Margret Boveri, Mediterranean Cross Currents, tr. Louisa Mane Sieveking (1938), p. 4I7; Admiral of the Fleet Viscount Cunningham of Hyndhope, A Sailor's Odyssey (195I), p. I76.

(67) Adel Sabit, 'Life in Alexandria in the 1940s', unpublished typescript (Cairo, 2000), consulted by kind permission of Mahmud Sabit.

(68) Margaret Forster, Daphne du Maurier I993, pp. I23-8, 133-4·

(69) Olivia Manning, The Levant Trilogy (2003 edn), p. 71.

(70) Henry Colyton, Occasion, Chance and Change.·A Memoir 1902-1946 (Wimborne, 1993), p. 112; John Winton, Cunningham 1998, p. 74.

(71) Viscount Cunningham, p. 207; Haag, Vintage Alexandria, p. r 22.

(72) Nigel Hamilton, Monty: The Making of a General 1887-1942 (1981), p. 234·

(73) Sir Miles Lampson, Politics and Diplomacy in Egypt, pp. 301, 877, 931, 2 Nov. 1935, 21 July 1936, 22 Nov. 1937; Morewood, p. 87.

(74) Morewood, pp. 158, 169·

(75) Count Patrice de Zogheb, Red Cross and Red Crescent: Work in Alexandria under the Patronage of HRH Prince Mohammed Ali (Alexandria, 1943), pp .. 74, 88, 95, 158.

(76) Winton, p. 79·

(77) Fernand Leprette, La Muraille de silence: notes d'un francais d' Egypt pendant la guerre (Cairo, 1942), p. 65.

(78) Viscount Cunningham, pp. 233, 241.

(79) Morewood, pp. 140, 169-70.

(80) Haag, Alexandria, pp. 178, I90; Hanna F. Wissa, Assiout: The Saga of an Egyptian Family (Lewes, f)94), p. 340.

(81) Alan Moorehead, African trilogy (I944), p. I2I;

يتذكر جورج موستاكي «جماعا لفظيا خادعا وساخرا» مع مومس نادته ودعته إلى «أن تمتزج بشرتك البيضاء ببشرتي السمراء».

Georges Moustak i, Les Filles de la mémoire (1989), pp. 21-2.

(82) Victor Selwyn et al., eds., Return to Oasis: War Poems and Recollections from the Middle East 1940-1946 (I980 edn).

(83) Viscount Cunningham, pp. 399-400.

(84) Awad and Hamouda, Voices, pp. 99, 103, 107.

(85) Field Marshal Lord Wilson, Eight Years Overseas (1948), pp. 19, 25, 3 I, 33, 34; Morewood, pp. 176, 211.

(86) Terry, pp. 240, 247.

(87) Eve Curie, Journey among Warriors (1943), p. 68.

(88) Artemis Cooper, p. 192.

(89) Evelyn Waugh, The Letters or Evelyn Waugh, ed. Mark Amory I980, p. 152, May 1941. 92.

(90) Winton, pp. 79.

(91) Godefroy, p. 6.

(92) Winton, pp. 82, 88; Colyton, p. 211.

(93) Artemis Cooper, p. 53·

(94) EUSC, Barker MSS, 'Historical notes on Egypt'.

(95) Auchterlonie, 'A British family'; Barker photograph albums consulted by kind permission of Mrs Michael Barker and Craig Encer, Aug. 2009.

(96) Egyptian Gazette, 30 Apr. I940.

(97) EUSC, MSS 238/1/2.

(98) Gabriella Barker, Desert Angels (1956), pp. xiii, 3, 5, 16, 18, 41, 80; Zananiri, P·276.

(99) Jacqueline Cooper, pp. 88-9.

(100) Michael Simpson, ed., 'The Cunninoham Papers, 2 vols. (Aldershot, 1999-2006), I, 17, 152, Cunningham to Pound, 22 Sept. 1940; Winton, p. 74.

(101) Douglas Austin, Malta and British Strategic Policy 1925-1943 (2004), p. 94.

(102) Winton, pp. 99, 105, z z y.Viscounr Cunningham, p. 281; Marshal of the RAF Lord Tedder.

(103) Tedder, p. 151.

(104) Haag, Alexandria, p. 11.

(105) Roderick Beaton, pp. 198-201.

(106) Winton, p. 211.

(107) John Connell, Wavell: Soldier and Scholar (I964), pp. 474-5; Viscount Cunningham, p. 389. 110

(108) Winton, p. 22 I.

(109) Ibid., p. 248; Viscount Cunningham, p. 176. 112.

(110) Zananiri, p. 41.

(111) David Marr, ed., Patrick White Letters (1994), pp. 47, 49, 57, letters of 15 Aug., 13 Nov. 1941 to Jean Scott Rogers; a more negative portrait is in White's antobiography, Flaws in the Glass: A Self-Portrait (1983 edn), pp. 98-9.

(112) Nigel Hamilton, pp. 608-9; John Connell, Auchinleck (1959), p. 653, Churchill to Auchinleck, 3 July 1942.

(113) Myles Hildyard, It is Bliss Here: Letters Home 1939-1945 (2005), p. 179, letter of 6 July 1942.

(114) Sir Edward Spears, fulfillment of a Mission: The Spears Mission to Syria and Lebanon, 1941-1944 (1977), p. 22; Michael Carver, Dilemmas of the Desert War (1986), pp. 133, 137·

(115) Personal communication, Princess Catherine Aga Khan, r o Dec. 2009.

(116) Haag, Alexandria, p. 175.

(117) تواصل شخصي مع الأميرة نسرين طوسون Nesrine Toussoun في 22 ديسمبر 2009.

(118) تواصل شخصي مع يولاند ويتال Yolande Whittall في 9 مارس 2010.

(119) Moorehead, pp. 357-8.

(120) Cecil Beaton, The Years Between (I965), pp. 183-6, June 1942.

(121) Haag, Alexandria, P: 197; EUSC, Barker MSS, 'Historical notes on Egypt', 2 July 1942.

(122) Francois Sureau, Les Alexandrins (2003), p. 26.

(123) Haag, Alexandria, p. 197; Artemis Cooper, pp. 193-5.

(124) Simon Sebag Montefiore, Stalin: The Court of the Red Tsar (2003), pp. 349-52.

(125) Centre d'Etudes Alexandrines, Alexandria (henceforward referred to as CEA), diary of Mary de Zogheb, consulted thanks to Jean-Yves Empereur and Dominique Gogny.

(126) Nigel Hamilton, p. 577, note of 6 Aug. 1942.

(127) F. W de Guingand, Operation Victory (1978), p. 151.

(128) Ibid., pp. 5, 8; Viscount Montgomery, The Memoirs of Field-Marshal the Viscount Montgomery of Alamein, KG (1958), p. I.

(129) Keith Douglas, Alamein to Zem Zem (I966 edn) , p. 76; Guingand, p. 162.

(130) Haag, Alexandria, pp. 212-14.

(131) Winston Churchill, The Second World War, vol. 4: The Hinge of Fate (1951), p. 541.

(132) The Sphinx, 13 Feb. 1943.

(133) Zananiri, P. 277.

(134) Ibrahim Ibrahim, 'Taha Husayn: the critical spirit', in John P. Spagnolo, ed., Problems of the Modern Middle East in Historical Perspective (Reading, 1992), pp. 105-18; Gordon Waterfield, Egypt (1967), pp. 129-30, 136.

(135) Haag, Alexandria, p. 29I; el-Kayem, p. 70, letter of Durrell, 10 Apr. 1944.

(136) Pierides, pp. 30, 46, 54, 63, 78.

(137) Berque, p. 603.

(138) Cf. Eve Cohen: 'We thought it would go on for ever and ever. . Egypt seemed so solid', in Haag, Alexandria, p. 239.

(139) Godefroy, p. 206.

(140) Stelios Hormouzios, No Ordinary Crown (1972), p. 149.

(141) C. L. Sulzberger, A Long Row of Candles: Memoirs and Diaries 1934-1952 (I969), p.441.

(142) Ali Vasib Efendi, Bir Sehzadenin Hatirati (Istanbul, 2004), p. 369.

(143) Le Livre d'or du journal La Réforme, p. 387.

(144) Wissa, p. 322.

(145) Noël Coward, Middle East Diary (1944), pp. 53, 58; cf. Sholto Douglas, P.199.

(146) McBride, p. 135.

(147) CEA, Zogheb diary.

(148) Stadiem, pp. 55-6, 213; McLeave, pp. 145, 165, 180.

(149) Haag, Alexandria, pp. 140, 145-6, 257.

(150) Cooper, Cocktails and Camels, pp. 256-8.

(151) Awad and Hamouda, Seventh Art, p. 199.

(152) تبنى والدا جون ناخمان - اليهودي والأرثوذكسي اليوناني - الجنسية السويسرية حتى يتمكنا من الزواج.

(153) Valeurs, I (Apr. 1945).

(154) Mediterraneans, 8 (2006), p. 27; Awad and Hamouda, Voices, p. 40.

(155) Rees, p. 207.

(156) مقابلة مع الكاهن ليتون توماس Rev. Leighton Thomas في 6 ديسمبر 2004.

(157) Tignor, State, p. 225.

(158) D. J Enright, Season Ticlect (Alexandna, 1948), p. 13,
مقابلة مع مادلين إنرايت Madeleine Enright في 30 سبتمبر 2006.

(159) John Heath-Stubbs, Hindsight (1993), p. 210; el-Kayem, pp. 93, 99, 101, 109, 112.

(160) Jean Cocteau, Maalesh (1949), pp. 125, 126.

(161) Haag, Alexandria, p. 236; interview with Princess Catherine Aga Khan, 19 Dec. 2009; Le Phare égyptien, 18 Feb. 1950, lists nightclubs.

(162) Cf. CEA, Zogheb diary, 30 Sept. 1944: 'cocktail chez le prince Said Toussoun. assez de monde.'

(163) Personal communicarion, Princess Nesrine Toussoun, 22 Dec. 2009; Journal d'Egypte du dimanche, Jan. 1949.

(164) Harry F. Tzalas. Farewell to Alexandria (Cairo, 2003 edn), p. 28; Selma Borman, Egypt from Independence to Revolution 1919-1952 (Syracuse, NY, 1991), pp. 47-9; interview with Princess Catherine Aga Khan, 19 Dec. 2009. Bryan Hornsby also witnessed the incident: interview, 13 Feb. 2010.

(165) Peter Elliott, The Cross and the Ension: A Naval History of Malta 1798-1979 (Carnbridge, 1980), p. 175.

(166) Kramer, pp. 146, 162, 215.

(167) P. J. Vatikiotis, Nasser and his Generation (1978), pp. 55, I02, 105.

الفصل الرابع عشر

(1) John Sykes, The Levantine (1952), pp. 5, 11, 14.

(2) مقابلة مع قدرية فودة في 13 فبراير 2007، ومع عبدالقادر النجار في 14 يونيو 2009.

(3) مقابلة مع جاكي رولو Jackie Rolo في 29 أغسطس 2009: «أي شخص طائش يتسبب في القيل والقال».

(4) Enright, Academic Year, pp. 157, 207.

(5) Marr, Letters, p. 51, letter of 26 June 1942.

(6) Marr, Patrick White, pp. 239, 241.

(7) Marius Deeb, 'The socio-economic role of the foreign minorities in Egypt 1805-1961', International Journal of Middle East Studies, 19 (1978), p. 22; Kramer, p. 207.

(8) Auctioned by Sotheby's Monaco, 7 Dec. 1991. 9.

(9) Awad and Harnouda, Seventh Art, pp. 33-46.

(10) Zananir i, pp. 23, 327, 329.

(11) Ibid., p. 67.

(12) Ibid., pp. 15, 24, 212, 247, 256. 13.

(13) Hamouda and Clement, p. 97. 14.

(14) Zananiri, pp. 55, 98-100.

(15) Ibid., p. 342.

(16) Moustaki, pp. 19, 26, 38, 80; Cécile Barthélémy, Georges Moustaki (Paris, 1970), p. 18.

(17) مقابلة مع الأمير نيكولاس رومانوف في 2 أكتوبر 2008.

(18) مقابلة في 17 سبتمبر 2008.

(19) مقابلات في 20 و23 سبتمبر 2008.

(20) Ilbert and Yannakakis, p. I 4 r .

(21) Mohammed Neguib, Egypt's Destiny (1955), p. 97. 22.

(22) Berque, p. 694; Vatikiotis, p. 122.

(23) Naguib Mahfouz, Autumn Quail (l990), p. 19.

(24) Robert Tignor, Capitalism and Nationalism at the End of Empire (Princeton, 1998), p. 60.

(25) Joel Gordon, Nasser's Blessed Movement: Egypt's Free Officers and the July Revolution (New York, 1992), pp. 27, 35.

(26) Foregn Relations of the United States 1952-1954, IX, 2 (Washington, 1986), p. 1800, dispatch from Caffery, 8 May 1952.

(27) McLeave, p. 266; McBride, p. 189.

(28) Jean Lacouture and Simone Lacouture, L'Egypte en mouvement (1957), pp. 124, 143-4; Anwar el-Sadat, Revolt on the Nile (1957), pp. 102, 111.

(29) Vatikiotis, pp. l08, 122.

(30) Neguib, p. 115; Lacouture and Lacouture, p. 148. 31.

(31) McLeave, pp. 271-2.

(32) Jean-Yves Empereur, Alexandrie: hier et demain (2001), p. 118.

(33) McBride, p. 193·

(34) el-Sadat, p. 125; G. Vaucher, Camal Abdel Nasser et son équipe, 2 vols, (1959), I, 289.

(35) في وقت كتابة الكتاب الحالي (2010)، كانت شعبية ناصر قد تآكلت. وجزئياً بسبب مسلسل تلفزيوني عرض أخيرا، غدا الكثيرون يعتبرون عهد فاروق عصراً ذهبياً.

(36) Neguib, pp. l29-33; el-Sadat, p. lI9. 37.

(37) McBride, pp. I95-7.

(38) McLeave, p.276.

(39) Gilbert Sinoué, Le Colonel et l'enfant roi (2006), pp. 144-5.

(40) Hassan Hassan, In the House of Mohammed Ali: A Family Album 1805-1952 (Cairo, 2000), p. 132; Adel M. Sabit, A King Betrayed (1989), pp. 218, 2 19.

(41) Neguib, p. 145.

(42) مقابلة مع العميد البحري رشيدي في 16 نوفمبر 2008.

(43) McLeave, p.279.

(44) Jason Tomes, King Zog: Self-Made Monarch of Albania (2003), pp. 277, 279.

(45) Neguib, p. 140.

(46) RogerVailland, Choses vues en Egypte (I982 edn), pp. 170, 172.

(47) Mahfouz, Autumn Quail, pp. 83, 85, 88.

(48) CEA, Zoghreb diary.

(49) Elia Mss, letters of I Aug. 1952.

(50) Tignor, Capitalism, pp. 65-6.

(51) Takydromos (Alexandria), 16 Sept. 1952, translated by Matilda Pyrli, to whom many thanks.

(52) Elia Mss, letters from the president of the Cornmunauté Hellénique d'Alexandrie to Minister of Education, 29 Nov. 1952, to Mahmoud el-Sisy, secretary-general of the press department of the Ministry of the Interior, 2 Jan. 1953·

(53) EUSC, Barker MSS; el-Kayem, p. 119.

(54) Personal communication, Mimi Awad, 5 Jan. 2010.

(55) Vatikiotis, p.144.

(56) Le Portrait á Alexandrie dans les collections particuliércs (Alexandria, 1955).

(57) Beinin, p. 19.

(58) Leila Ahmed, Border Passage (1999), pp. 149-50; Tzalas, pp. 132-7; Barry Turner, Suez 1956 (2007 edn), p. 180; Lacouture and Lacouture, p. 450.

(59) James Morris, Farewell the Trumpets i An Imperial Retreat (1998 edn), p. 526.

(60) CEA, Zogheb diary.

(61) Hugh Thomas, The Suez Affair (1986 edn), pp. 82, 92; Barry Turner, pp. 203, 255.

(62) CEA, Zogheb diary, 31 Oct., 4 Nov. 1956.

(63) EUSe, Barker MSS; Tignor, Capitalism, pp. 131-2.

(64) Lucette Lagnado, The Man in the White Sharkskin Suit (New York, 2007), p. 173·

(65) CEA, Zogheb diary.

(66) Naggar, p. 262.

(67) Carol, Cocktails and Camels (1960 edn), pp. 31, 232, 234, 239, 243-4.

(68) EUSC, Barker Mss 238/112.

(69) Munevver Eminoglu, A Beyoglu Photo-Romance (Istanbul, 2000 edn), p. 57; Parmuti , pp. 488-9.

(70) Tignor, Capitalism, pp. 130-31.

(71) EUSC Barker MSS; Christopher Hampton, White Chameleon (1991), p. 17; Gabriel Josipovici, A Life (2001), p. 140.

(72) Horowitz's 100-volume library on jewellery was sold on 18 Nov. 1997 in Geneva.

(73) EUSe, MSS 238/1/2.

(74) Ibid. and Marina Barker interview at http://www:levantineheritage.com/.

(75) Hamounda and Clement, pp. 194-5.

(76) تواصل شخصي مع جورج وارين George Warren المدير السابق للبنك العثماني، في 24 نوفمبر 2009.

(77) Beinin, pp. 19, 21, 27.

(78) مقابلة مع أي ليفي A. Levy في 16 يونيو 2009. قارن ذلك بالشعور الذي عبر عنه كريستيان أيوب Christian Ayoub في كلمته

'Le francais comme langue au moyen orient' (unpublished typescript, Montreal, 1971): 'My fatherland is the language I speak.'

(79) Kramer, p. 195; Tziana Carlino, 'The Levant: A Transmediterranean Literary Category' (online, 2006), passim.

(80) Lagnado, -227.

(81) مقابلة مع ميكي بيناكي Micky Benaki ودافني كرامبز Daphne Krambs في فبراير 2009.

(82) Francois Sureau, Lcs Alexandrins (2003), p. 432; Tom Bower, Fayed (1998), pp. 7, 9, 16-17.

(83) Catalogues des collections de Madame Lina Gabriel Aghion, 15 Rue des Pharaons, 18 Sept. 1959, de feu César Aghion, 28 Rue des Pharaons, 10-1 I July 1959; consulted by kind permission of Max Karkagi.

(84) مقابلة مع دافني كرامبز في 12 ديسمبر 2008.

(85) مقابلة مع إم إتش إس M.H.S. في 12 ديسمبر 2008.

(86) CEA, Zogheb diary.

(87) مقابلة مع أليكس بيناكي Alex Benaki في 6 أغسطس 2009.

(88) تواصل شخصي في 7 فبراير 2007.

(89) مقابلة مع لوسيت دي صعب Lucette de Saab في 10 ديسمبر 2008.

(90) مقابة في 10 ديسمبر 2008.

(91) CEA, Zogheb diary, 25 Sept., 23 Oct., 20 Nov., 3 Dec. 1961 and passim.

(92) Tignor, Capitalism, pp. 135, 165-6, 174.

(93) Lagnado, p. 106.

(94) Personal information, André Aciman and Leslie Croxford, 7 Jan. 2010.

(95) مقابلة مع عزة هيكل في 15 يونيو 2009.

(96) Lagnado, p. 93.

(97) Hugh H. Walker, The Anglo-American Guide Book to Alexandria (Cairo, 1938), p. 127.

(98) Lawrence Durrell, The Alexandria Quartet (1968 edn), pp. 484, 552.

(99) David Holden, 'Letter from Alexandria 1963', in Christopher Pick, ed., Egypt: A Travellers' Anthology (1991), pp. 27-31.

(100) مقابلة في خيوس في 24 يوليو 2007.

(101) Visited 24 Feb. 2009: info@synaige.gr.

(102) http://www.elia.org.gr.

(103) Deborah Starr, Remembering Cosmopolitan Egypt: Literature, Culture and Empire (2009), p. 33.

(104) معلومات شخصية، ليلى نجيب، القاهرة، 31 ديسمبر 2009. قارن ذلك بـ

Gina Alhadeff, The Sun at Midday (New York, 1997), p. 189: 'Where the garden once was three apartment blocks and a mosque have been built.'

(105) CEA, Zogheb diary.

(106) مقابلة مع ميكي بيناكي Micky Benaki في 21 فبراير 2009.

(107) Azza Heikal, L'EducationAlexandrine (Alexandria, I996), p. 41.

(108) Josipovici, p. 25.

(109) Cahiers d'Alexandrie (1965), p. 39; ibid. (1966), p. 58.

(110) James Morris, Among the Cities (1985), pp. 18-19.

(111) Anthony Sattin, Lifting the Veil: British Society in Egypt 1768-1956 (1988), pp. 55, 151.

(112) مقابلة مع عزة هيكل، في 15 يونيو 2009.

(113) تواصل شخصي مع جون استيفانيديس John Stefanidis، 2 أكتوبر 2009.

(114) Zananiri, p. 85; MacNiven, p. 159, Durrell to Miller, 8 Feb. 1944.

(115) تواصل شخصي مع مدام أركاش Madame Arcache وجين كوريمي Jean Choremi.

Rpbert Liddell, Unreal City (1993 edn), p. 99

(116) Naguib Mahfouz, Miramar (2000 edn), pp. 8, 67, 95.

(117) Morris, Among the Cities, p. 18.

(118) Jacqueline Cooper, p. 145.

(119) Robert Mabro, 'Nostalgic literature on Alexandria', in Jill Edwards, ed., Historians in Cairo (Cairo, 2002), p. 240.

(120) Alexandrie Info, 21 (Dec. 2003); cf., for more food nostalgia, Victoria Thompson, Losing Alexandria (Sydney, 1998), pp. 28, 53, 174.

(121) John Carswell, 'Kutahya ware', Hali, 121 (Mar. Apr. 2002), 78-9, p. 79.

(122) مقابلة مع جون ناخمان John Nahman في 14 أكتوبر 2008.

(123) مقابلة مع ميشيل هاغ Michael Haag في 10 أغسطس 2007.

(124) CEA, Zogheb diary, 10 Sept. 1942.

(125) Zananiri, p. 319.

(126) مقابلة مع سام لوك Sam Lock في 20 يناير 2010.

(127) Hala Halim, 'Waiting tor the Zervudachis', Mediterraneans, 8 (1996), pp. 374-9:

مقابلة مع جو بولاد Jo Boulad في 10 ديسمبر 2008.

(128) زيارة في 16 ديسمبر 2008.

(129) Morris, Among the Cities, p. 21.

(130) Eric Denis, 'Alexandrie: seconde ville d'Egypte ou metropole méditerranéenne',

Revue géographique de l'Est, 2-3 (1997), pp. 173, 182, 183.

(131) مقابلة مع إم بي B.M. في 8 ديسمبر 2008.

(132) تواصل شخصي مع كولين كليمنت Colin Clement في 9 فبراير 2007، ولوسيت دي صعب Lucette de Saab وميمي عواد Mimi Awad في يناير 2010.

(133) Holden, p. 27.

(134) مقابلات مع نيشا سرسق Nisha Sursock في 11 فبراير 2007، وكولين كليمنت Colin Clement في 16 فبراير 2007، ودكتور تادروس Dr Tadros في 24 يوليو 2008.

(135) David Hirst and Irene Beeson, Sadat (1981), p. 328.

(136) International Herald Tribune, 14 Oct. 2009, p. 2.

الفصل الخامس عشر

(1) Chami, Du Mont Liban, pp. 46-7.

(2) Salibi, A House of Many Mansions, p. 168; Edde, p. 45; Khoury, La France et l'Orient arabe, pp. 133, I37.

(3) Dinning, Nile to Aleppo, p. I22; Khoury, La France et l'Orient arabe, pp. 132, 136; Edde, pp. 64-6.

(4) Eddc, pp. 75, 79.

(5) Khoury, La France et l'Orient arabe, p. 224; Kassir, Bcyrouth, p. 339.

(6) Edde, p. 79.

(7) Ibid., pp. 9I, 18I, 340.

(8) Ibid., pp. 31, 80, 82, 85; Khoury, La France et l'Orient arabe, pp. 267, 268.

(9) SA, Isabelle Bustros to 'Alfred Cheri', Nov. 1918.

(10) Edd-p-4I, 57, 83.

(11) Patrick Seale, The Struggle for Arab Independence: Riad al-Solh and the Makers of the Modern Middle East (Cambridge, 2010), p. 129.

(12) Edde, pp. 264-5. 13.

(13) Ibid., pp. 49, 99.

(14) Chami, Du Mont Liban, p. 65.

(15) Edde, p. 89, 90, 94.

(16) Chami, Du Mont Liban, P: 63; Khoury, La France et l'Orient arabe, p. 397.

(17) SA, Fayyad to Sursock, 7 Sept. 1922.

(18) Kassir, Beyrouth, pp. 307, 3 15.

(19) Pierre Fournie and Jean-Louis Riccioli, La France et Ie Proche-Orient 1916-1946 (1996), p. 104; Edde, p. 237.

(20) Debbas, p. 66; Kassir, Beyrouth, p. 345.

(21) Chami, Du Mont Liban, p. 123.

(22) Seale, Struggle, p. 329.

(23) Edde, pp. 118, 120, 132, 134, 141; Kassir, Beyrouth, p. 261.

(24) Edde, pp. 62, 225, 226, 230.

(25) SA, letters to Alfred Sursock from Vlado, 6 January 1919, from Georges Fayyad, 18 Dec. 1919.

(26) Chami, Du Mont Liban, p. 8 I; Edde, p. 176.

(27) SA, Georges Fayyad to Sursock, 7 Sept. 1922.

(28) Edde, p. 124.

(29) SA, Alfred Sursock to Louis Garchey, 18 Mar. 1924, and 'Resultats du voyage de M. Sursock á Paris, 15 janvier au 22 fevrier 1924'.

(30) Tarif Khalidi, 'Unveiled: Anbara Salam in England 1925-1927', in The Arabs and Britain: Changes and Exchanges (Cairo, 1999); Kassir, Beyrouth, P·378.

(31) Khalaf, p.210.

(32) Kassir, Beyrouth, pp. 406-7; Asher Kaufinan, Reviving Phoenicia: In Search of Identity in Lebanon (2004), pp. 128, 181.

(33) Edde, pp. 149, 164, 171.

(34) Gerard Khoury, ed., Selim Takla 1895-1945: une contribution á l'indépendancc du Liban (Beirut, 2004), p. 216.

(35) Khoury, Seiim Takla, p. 253·

(36) Mark LeVine, Overthrowing Geography: Jaffa, 'Iel Aviv and the Struggle for Palestine (2005), p. 206.

(37) Kassir, Beyrouth, pp. 387, 392; Kaufman, p. 192.

(38) Marwan Buheiry, Beirut's Role in the Political Economy of the French Mandate 1911-39 (Oxford, 1990), pp. 18-19.

(39) Khoury, Selim "lakla, p. 216.

(40) Fournié and Riccioli, p. 225; Kassir, Beyrouth; pp. 331-2.

(41) Chami, Du Mont Liban, p. 94; Kassir, Beyrouth, p. 308.

(42) Chami, Du Mont Liban, p. 159; cf. Seale, Struggle, p. 321.

(43) Buheiry, pp. lS-19; Kassir, Beyrouth, p. 401; Chami, Du Mont Liban, p. 163.

(44) Johnson, Class and Client, p. 72; May Seikaly, Haifa: The Transformation of an Arab Society 1919-1939 (1998 edn), p. 219.

(45) Kaufinan, pp. 159, 167, 195·

(46) Salibi, A House of Many Mansions, p. 179; Kaufman, p. 236.

(47) Kaufman, pp.39, 109, 131, 132, 163·

(48) Farid el-Khazen, The Making and Politics of the 1943 National Pact (Oxford, 1991), passim; Kaufman, p. 176.

(49) Mai Ghoussoub, Leaving Beirut: Woman and the Wars Within (1998), p. 126.

(50) Curie, pp. 79, 85·

(51) Seale, Struggle, pp. 424-5.

(52) Chami, Du Mont Liban, p. 187; Max Egremont, Under Two Flags (1997 edn), p.225·

(53) Mary Borden, Journey Down a Blind Alley (1946), p. I43; Henri de Wailly, Syrie 1941: la guerre occultée (2006), P: 389.

(54) Spears, p. 169.

(55) Moorehead, pp. I72-3; Wailly, p. 385.

(56) Simpson, I, 487, 49I; Egremont, pp. 228-9, 232.

(57) B. Gaunson, The Anglo-French Clash in Lebanon and Syria 1940-45 (I987), p. 62.

(58) Ibid., pp. 67, 82, 96; Eyal Zisscr, Lchanon: The Challenge of Independence (2000), p.89.

(59) Spears, p. 171.

(60) Philip Mansel, 'The Siren of the Nile' (unpublished typescript, 1998).

(61) Charles Mott-Radclyff, Foreign Body in the Eye: A Memoir of the Foreign Service, Old and New (1975), p. 96.

(62) Colyton, p. 196.

(63) Mansel, 'The Siren of the Nile'; Egremont, p. 234·

(64) Gaunson, p. 90; Spears, pp. 174--9, 193; Egremont, pp. 235-9.

(65) Chami, Du Mont Liban, p. 15 I; Zisser, p. 15; Scale, Struggle, passim.

(66) Seale, Struggle, pp. 387, 651; Igor Timofeev, Kamal Joumblatt et le tragique destin du Liban (Beirut, 2000), p. 54.

(67) Gaunson, p.125·

(68) Egremont, pp. 239, 241, 248, 251.

(69) Zisser, pp. 57, 66; Salibi, A House of Many Mansions, p. 186; Scale, Struggle, Pp·504-6·

(70) Gaunson, pp. 120-2 I; Selim Abou, Le Bilinguisme Arabe-Francais au Liban (1962), pp. 119, 132n.

(71) Spears, pp. 226, 227, 230, 240, 256; Gaunsori, pp. 123; 132.

(72) Spears, pp. 236-7, 245; Borden, pp. 225-6.

(73) Gaunson , p. 139; Spears, p. 274·

(74) Zisser, p. 88.

(75) 75· Gaunson, pp. 124, 147, 153; Egrernont, p. 254·

(76) Buheiry, p. 23; Spears, pp. 297-8; Zisser, p. 94·

(77) Gaunson, pp. 171-6.

(78) Ibid., pp. 178, ISO; Seale, Struggle, pp. 597-8.

الفصل السادس عشر

(1) Zisser, pp. 159, 183, 187, 202; Seale, Struggle, pp. 680-82, 730.

(2) Joseph G. Chami, Le Mandat Fouad Chehab (Beirut, 2003), p. 168.

(3) Andree Chedid, The Return to Beirut (1989), pp. 10, 126.

(4) See the photograph in Michael Gilsenan, Lords of the Lebanese Marches: Violence and Narrative in an Arab Society (1996).

(5) Timofeev, pp. 80-83.

(6) Zisser, p. 197.

(7) Jonathan Randal, The Tragedy of Lebanon (1990 edn), p. 50.

(8) Youmna Asseily and Ahmad Asfahani, A Face in the Crowd: The Secret Papers of Emir Farid Chehab OBE 1942-1972 (2007), p. 150; Desmond Stewart, Turmoil in Beirut: A Personal Account (1958), p. 57, 25 May 1958; Salibi, Many Mansions, p. 198; Timofeev, p. 93.

(9) Timofeev, p. 194·

(10) Johnson, Class and Client, pp. 68, 75-6.

(11) Stewart, Turmoil, pp. 30-31, 35, 38, 39.

(12) Ibid., pp. 46, S7, 117; Robert Murphy, Diplomat among Warriors (1964), p. 486.

(13) Zisser, p. 239·

(14) Johnson, Class and Client, pp. 84, 14 L

(15) Kirsten E. Schulze, Tile Jews of Lebanon: Between Coexistence and conflict (Brighton, 2001), pp. 6, 71, 76, 87, 96; I am grateful for this reference to Cecil Hourani.

(16) Chami, du Mont Liban, p. 157; Rosemary Sayigh, Too Many Enemies: The Palestinian Experience in Lebanon (1994), p. 163.

(17) Kassir, Beyrouth, pp. 425, 43 1, 432.

(18) Personal communication, Fouad Nahas, February 2010.

(19) Khalaf, p.233.

(20) Kassir, Beyrouth, pp. 494, 501.

(21) Theo Larsson, Seven Passports for Palestine: Sixty Years in the Levant (Pulborough, 1995), p. 111.

(22) Chami, Du Mont Liban, p. 206.

(23) Kassir, Beyrouth, p. 5 r 5·

(24) Carolyn Gates, The Merchant Republic, if Lebanon: Rise of an Open Economy (1998), p. xv,

(25) James Morris, The Market of seleukia (1957), pp. 109, 112, 113·

(26) Chami, Le Mandat Fouad Chehab, p. 237.

(27) Ibid., p. 72:

(28) Ibid., p. 298.

(29) تواصل شخصي في 12 يونيو 2009، مع بيتر دي روس Peter de Roos في 24 يناير 2006، ومع أليكس سرسق Alex Sursock في 18 أبريل 2005، ومع روز عيسى Rose Issa في 10 أبريل 2009؛

Albert Manguel, 'Once again Troy', in Anna Wilson, ed., Lebanon, Lebanon (2006), p. 118.

(30) Khalaf, p. 237·

(31) تواصل شخصي مع إتش بي H.B. في 24 يونيو 2009.

(32) Fournié and Riccioli, p. 149.

(33) Asseily and Asfahani, p. 48.

(34) James Craig, Shemlaan: A History of the Middle East Centre for Arab Studies (1998), passim.

(35) Bruce Page, David Leitch and Phillip Knightley, Philby: The Spy who Betrayed a Generation (1968), pp. 271, 274; Glencairn Balfour-Paul, Bagpipes in Babylon: A Lifetime in the Arab World and Beyond (2006), p. 183; Patrick Seale and Maureen McConville, Philby: The Long Road to Moscow (rev. cdn , 1978), p. 284.

(36) Elizabeth Monroe, Philby of Arabia (1973), pp. 292, 295·

(37) Desmond Stewart, Orphan with a Hoop: The Life of Emile Bustani (1967), p. 83; Said K. Aberish. The St George Hotel Bar (1989), pp. 9, 11, 21, 22, 77, 78, 182, 192.

(38) Alec Waugh, The Mule on the Minaret (1964), p. 88; Kassir, Beyrouth, p. 513.

(39) Charni, Le Mandat Fouad Chehab, p. 100.

(40) Asma Freiha andViviane Ghanem, Les Libanais et la vie au Liban, de l'indėpendance á la guerre 1943-1975, 2 vols. (Beirut, 1992), I, 172.

(41) Kassir, Beyrouth, p. 533.

(42) Asseily and Asfahani, pp. 191-2.

(43) Salibi, A House if Many Mansions, p. 169. Red and white were also the colours of Austria, the former protecting power of pharaon's community, the Greek Catholics.

(44) Zisser, p. 101.

(45) Caroline Attie, Struggle in the Levant: Lebanon in the 1950s (2004), pp. 145, 160.

(46) Freiha and Ghanem, II, 426-8, 430-31.

(47) John Carswell, 'Henri Pharaon', obituary, The Independent, 8 Aug. 1993; Chami, Du Mont Liban, p. 219.

(48) Debbas, p. 138; Dorothea Duda, Innenarchitektur syrischer Stadtháuser des 16 bis 18 Jahrhunderts: Die sammlung Henri Pharaon in Beirut (Beirut, 1971), pp. 173-4·

(49) تواصل شخصي مع إم آر .M.R في 15 أكتوبر 2005.

(50) Saliba, pp. 2I, 39, 45, 53·

(51) Kassir, Bevrouth; p. 499·

(52) Kaelen Wilson Goldie, 'City limits', Daily Star (Beirut), 23 Apr. 2009.

(53) Chami, Le Mandat Fouad Chehab, p. 93.

(54) John Gunther, Twelve Cities (1968), pp. 281-2.

(55) Kassir, Beyrouth, p. 521; Khalaf, pp. 17 1-8; Charles Glass, Tribes with Flags (1999), p. 402.

(56) Khalaf, pp.212, 215. 57.

(57) Ghoussoub, p. 34.

(58) Margot Badran and Miriam Cooke, eds., An Anthology of Arab Feminist Writing (2nd edn, Bloomington, 2004), pp. 7, 15, 17; Timofeev, p. 34.

(59) Chami, Le Mandat Fouad Chehab, p. 21.

(60) Merrnier, pp. 46-7, 49, 56-7, 72-4.

(61) Kaufman, p. 232.

(62) Nizar Kabbani, Republic of Iove (2003), p. 18; Tawfiq Yusuf Awwad, Death in Beirut (1992 edn), pp. 80-81.

(63) Nizar Kabbani, Sand and Other Poems, tr. Rana Kabbani (1986), PP·19, 58; Kassir, Bevrouth, p. 597.

(64) Edward Said, 'Cairo and Alexandria', in id., Reflections OIl Exile (2001), pp. 337, 343, 339·

(65) Awwad, p. 5; Edward Said, After the Last Sky: Palestinian Lives (1986), pp. 171, 173-4; Jean Said Makdisi, Beirut Fragments: A War Memoir (New York, 1990), P·79·

(66) Chami, Le Mandat Fouad Chehah, p. 22.

(67) Seale, Struggle, p. 191.

(68) Christopher Stone, Popular Culture and Nationalism in Lebanon: Fairuz: and the Rahbani Nation (2008), p. 80.

(69) Zisser, p. 229; Sayigh, pp. 23, 30, 37·

(70) Chedid, pp. 10, 75.

(71) قال أيضا في العام 1954، وهو وقت مبكر، إن الولايات المتحدة والمملكة المتحدة أسيرتان لإسرائيل: Michel Chiha, Palestine (Beirut, 1957), pp. 1 (5 Dec. 1947), 282 (6 Nov. 1954).

(72) Joseph G. Charni, Le Mandai Charles Helou (Beirut, 2004), pp. II I, 168, 202, 219; Kassir, Beyrouth, pp. 563, 569.

(73) Asseily and Asfahani, pp. 95-6.

(74) Joseph G. Chami, Chronicle of a War 1975-1990 (Beirut, 2005), p. 15·

(75) Kassir, Beyrouth, pp. 573-4.

(76) Ibid., pp. 575, 608; Glass, p. 339·

(77) Alain Menargues, Les Secrets de La Guerre du Liban (2004), p. 464.

(78) Amiel Alcalay, After Jews and Arabs: Remaking Levantine Culture (Minneapolis, 1993), p. 95; Kassir, Beyrouth, p. 578.

(79) Chami, Chronicle, pp. 228-9.

(80) Farid el-Khazen, The Breakdown of the State in Lebanon 1967-1976 (2000), pp. 189-192, 203, 211; Timofeev, pp. 271-6.

(81) Awwad, pp. 66, 182.

(82) Michael Johnson, All Honourable Men (2001), p. 53.

(83) Timofeev, p. 287; Charm, Chronicle, p. 24.

الفصل السابع عشر

(1) Tony Hanania, Unreal City (2000), p. 140; Michel Fani, Alphabet de Beyrouth (2000), p. 140.

(2) See Mehmet Ali Birand, Shirts of Steel: An Anatomy of the Turkish Armed Forces (I99I), passim.

(3) Chami, Chronicle, p. 68.

(4) Chedid, pp. 123, 131.

(5) Chami, Chronicle, pp. 26, 27, 39, 41; Rashid al-Daif, Dear Mr Kawabata (1995), p. 132.

(6) Chami, Chronicle, p. 43.

(7) Sayigh, p. 268.

(8) Johnson, cLass and Client, pp. 183, 185-6; Lina Mikdadi Tabbara, Survival in Beirut: A Diary of Civil War (1979), p. 104; poster reproduced in Zeina Maasri, Off the Wall: Political Posters of the Lebanese Civil War (2009), 5:4.

(9) al-Daif, pp. ro6, 141.

(10) Calame and Charlesworth, p. 60.

(11) Tabbara, p. 72; Chami, Chronicle, pp. 35, 61.

(12) Jean Said Makdisi, p. 29. 13.

(13) Tabbara, pp. 46, 76.

(14) Menargues, pp. 36, 62; Chami, Chronicle, p. 175.

(15) Tabbara, p. 145; el-Khazen, Breakdown, pp. 306, 325.

(16) Morris, Seleukia, p. 112.

(17) Calame and Charlesworth, pp. 93, 123.

(18) al-Daif, pp. 127, 132; Hanania, p. 199; Glass, p. 404; Chami, Chronicle, p. 92.

(19) Calame and Charlesworth, pp. 38-40, 217; Larry Pintak, Beirut Outtakes (Lexington, 1988), p. 60.

(20) Calame and Charlesworth, pp. 38, 50-51.

(21) Visited 1 Oct. 2002.

(22) صور للصلبان التقطها أحمد الحسيني Ahmad al-Husseini في أغسطس 2004.

(23) Ghoussoub, pp. 105-6; Maasri, passim.

(24) Tabbara, p. 138.

(25) Jean Said Makdisi, p. 59; Chami, Chronicle, pp. 132, 141; Maasri , 5:2.

(26) Ghoussour pp. 81-3.

(27) James M. Malarkey, 'Notes on the psychology of war in Lebanon', in Halim M. Barakat, cd., 'Loumrds a Viable Lebanon 1988, pp. 291, 296.

(28) Maroun Baghdadi and Nayla de Freige, 'The Kalashnikov generation', in Elizabeth Warnock Fernea, ed., Women and the Family in the Middle East: New Voices of Chanoe (Austin, 1985), pp. 169-82.

(29) Pintak, p. 67.

(30) Michel Fani, Alphabet de Beyrouth (2000), p. 142; Jean Said Makdisi, p. 57, تواصل شخصي مع نور قاوقجي Nur Kaoukgi في 28 يناير 2010.

(31) Tabbara, p. 101; Hanania, p. 142.

(32) Hanan al-Shaykh, The Story of Zahra (1993 edn), pp. 139, 143.

(33) William Harris, The New Face of Lebanon. (2006), pp. 222-4.

(34) Johnson, Class and Client, pp. 197, 201; Pintak, pp. 52, 54, 56; Jean Said Makdisi, pp. 139; Tabbara, p. 128; Randal, p. 65.

(35) Alexandre Najjar, The School of War (2006), pp. 61, 99, 102; Tabbara, pp. 6, 8, 27, 54·

(36) Said, After the Last Sky, p. 170.

(37) Sayigh, p. 168.

(38) Johnson, Class and Client, p. 97; Sayigh, p. 41.

(39) Timofeev, p. 132.

(40) Pintak, p. 46; personal communication, H.B., 24 June 2008; cf. Glass, pp. 377-80.

(41) غير أن تشارلز غلاس Charles Glass رأى المتحدث السابق الواهن ابن الثانية والثمانين عادل بك عسيرين Adel Bek Osseiran وزير الدفاع والزراعة وهو يستقبل الأتباع والمستأجرين «ليل نهار» في بيروت في العام 1984؛ Glass, p. 445

(42) Zisser, pp. 162-3.

(43) Menargues, pp. 77, 180, 192, 217, 225.

(44) Robert Fisk, Pity the Nation: Lebanon at War (2001 edn), pp. 282, 286, 315; Daily Star Beirut), 29 Aug. 2003; Schulze, p. 137·

(45) David Gilmour, Lebanon: The Fractured Country (Oxford, T983), p. 166.

(46) Hazim Saghie, 'Crossings: Beirut in the eighties', in Malu Halas and Roseanne Saad Khalaf, eds., Transit Beirut: New Writings and Images (2004), p. 112.

(47) Jean Said Makdisi, pp. 162, 184.

(48) Menargues, p. 387; Jean Said Makdisi, p. 185.

(49) Johnson, Class and Client, p. 204n.

(50) Menargues, pp. 297-8, 4 12, 421.

(51) Ibid·, PP·374, 405, 409, 4II.

(52) Patrick Seale, Assad of Syria (1988), p. 391; Menargues, pp. 451, 457·

(53) Menargues, pp. 437, 469, 473-481. See also the 2005 film Massacre by Lokman Slim.

(54) Sayigh, pp. 114-22.

(55) Menargues, pp. 469-7 I; Fisk, p. 464.

(56) Menargues, p. 493·

(57) Abdallah al-Udhari, tr. and ed., Modern. Poetry of the Arab World (1986); Adonis, The Desert: The Diary of Beirut under Siege (1982), pp. 64-5.

(58) Sayigh, pp. 13 1-2.

(59) Interview in Daily Star (Beirut), 4 Nov. 2004, p. 11.

(60) Sayigh, pp. 142, 149, 164; Seale, Assad, pp. 334, 328.

(61) Michael Davie and Elaine Gebrane, Beyrouth, regards croisés (1997), pp. 130-40.

(62) Sayigh, p. zoor lohnson, Class and Client, pp. 213, 222.

(63) Sayigh, pp. 191, 197, 222, 317, 322, 324.

(64) William Harris, p. 200; Menargues, p. 148.

(65) Robert Baer, See No Evil (2002 edn), pp. roo, 188.

(66) Charni, Chronicle, pp. 90, 284, 288, 298, 300; Johnson, All Honourable Men, p. 24I.

(67) Sayigh, p. 194; William Harris, pp. 23 I, 244, 254, 269.

(68) Jean Said Makdisi, pp. 48, 2 I I; Fisk, p. 633; Chami, Chronicle, passim, for photographs.

(69) Fisk, pp. 217, 433-4.

(70) William Harris, p. I.

(71) Tabbara, pp. 88, 99, 106, 125, 161; Fani, LA Photographie au Liban, pp. 392, 394.

(72) Cf. for one such case Jean Said Makdisi, p. I83n.

(73) Rabih Alameddine, Koolaids (1999 edn) , p. 201; Najjar, p. 60; Elizabeth Picard, 'Les Syriens, l' envers du decor', in Jad Thabet, ed., Beyrouth: la brûlure des réves (2001), p. 95.

(74) Hoda Barakat, The Stones of Laughter (Northampton, Mass., ـu06), pp. 38, 85.

(75) Jean Said Makdisi, p. 30.

(76) Personal communication, 25 Jan. 2008.

(77) Carswell, 'Henri Pharaon; interviews with John Carswell, 9 Aug. 2006, Jean de Freige, 23 Feb. 2005, and others who prefer anonymity.

(78) Chami, Chronicle, p. 240.

(79) Robert Baer, P·98.

(80) Michael E Davie, A Post- war Urban Geography of Beirut (1993), passim.

(81) Daily Star (Beirut), 25 Jan. 2002.

(82) Kaufman, p. 248.

(83) Nawaf Salam and Fares Sassine, Lebanon: A Century in Pictures (Beirut, 2003), p.280.

الفصل الثامن عشر

(1) Personal communication, Nabil Saidi, an eyewitness, 20 Apr. 2010.

(2) Kaufman, pp. 2, 24.

(3) Nicholas Blanford, Killing Mr Lebanon: The Assassination qf Rafik Hariri and its Impact on the Middle East (2006), pp. 31-2.

(4) Kassir, Beyrouth, p. 526n.

(5) Fisk, p. 665·

(6) Khalaf, pp. 138-9, 236.

(7) Associated Press, 22 Jan. 2010, quoting Iman Haidar; thanks for this reference to Aouni Abdul Rahim.

(8) Blanford, pp. 44-6.

(9) Khalaf, p. 31.

(10) Algerina video, IIApr. 2010.

(11) Suzanne Cotter et al., Out of Beirut (Oxford, 2006), pp. 29, 'n; Kassir, Beyrouth; P·627·

(12) مقابلات مع بادي كوكرين Paddy Cochrane في 8 فبراير 2008 و7 مايو 2010.

(13) Zeena el-Khalil, Beirut I Love You (2009), pp. 55, 79, 105.

(14) مقابلة مع بادي كوكرين في 7 مايو 2010.

(15) William Harris, pp. 289, 292.

(16) Blanford, pp. 63, 68.

(17) Wilham Harris, pp. 293, 298, 302-5; Blanford, pp. 6I2, 128.

(18) Daily Star (Beirut), r o, 25 Feb. 2005.

(19) Blanford, p. 147; Philip Mansel diary, 16 Feb. 2005.

(20) Blanford, p. 160.

(21) Ibid., pp. 162, 165, 177,

يقتبس نيكولاس بلانفورد (Nicholas Blanford, p. 158) من كلام لبشار الأسد يرجع المسؤولية «ربما إلى واحد من تلك الجيوب الاستخبارية التي تتبعنا».

(22) Ibid., p. 176; Tile Independent, 15 June 2007.

(23) Montreal Gazette, 13 July 2006; I arn grateful for this reference to Charles Bland.

(24) Laleh Khalili, 'Beirut's southern suburbs in the afterrnath of the July War', Middle East in London (Oct. 2006), 6-10, p. 12.

(25) Courrier International, 9 Aug. 2006.

(26) International Herald Tribune, 23 Sept. 2006.

(27) Andrew Rawnsley, The Party is Over (2010), pp. 382-5.

(28) Blanford, p. 5 I; Daily Star (Beirut), 25, 26 Jan., 1 Feb. 2007; The Independent, 24, 25 Jan. 2007; Courrier lnternational, 7 Dec. 2006, pp. 45-6.

(29) International Herald Tribune, 30 May 2007·

(30) تواصل شخصي في 23 مايو 2008؛ Daily Star (Beirut), 10, 21 May 2008.

(31) تواصل شخصي مع سمير ريبيز Samir Rebees في 16 يناير 2008، ومع توني نوفل Tony Naufal في 2 فبراير 2008.

(32) تعليقات شخصية من لبنانيين فضلوا ألا يُكشَف عن أسمائهم في 10 يونيو 2005 و5 يناير 2003.

(33) تواصل شخصي مع منى حرب وسامي نصار في 12 فبراير 2008.

(34) Daily Star (Beirut), 22 Feb.2010

(35) Ibid., 24 Oct. 2007.

(36) Robert Donia, Sarajevo: A Biography (2006), p. 3; Samir Kassir, 'Entre chien et loups', in Jad Thabet, ed., Beyrouth: la brulure des rcues (200 I), p. 140.

(37) Courrier International, 2 Oct. 2008, p. 20.

(38) Anke van Nugteren and Lienke van Nugteren, 'The Belgian language question' (unpublished typescript, Brussels, 2009); N. Eliot, Y. Mansfield and J. Kotek, Divided Cities (1999), pp. 232-3.

(39) Stefan Hertmans, Intercities (200r), pp. 4, 12; interview with Mayor Dikshit, International Herald Tribune, 26 Sept. 2005.

(40) See 'Londres capitale du xxi siécle ', Courrier International, 16 May 2007.

(41) The Times, 11 July 2005, 2 Sept. 2006.

(42) Hurriyet Weekend, 14 Mar. 2009, p. II.

(43) Turkish Daily News, Izmir issue.july 2007; The Guardian, 20 Oct. 2009.

(44) Olivier Poivre d'Arvor, Alexandrie Bazar: le roman d'une ville (2009), p. 60.

(45) Nicholas Woodsworth, the Liquid Continents, 3 vols, (2008), 1 (Alexalldri1), 106-7.

(46) International Herald Tribune, 27 Nov. 200,), p. 5·

(47) Arvor, pp. tlo-83, 86; Woodsworth, 1, 75.

(48) مقابلة مع جو بولاد Jo Boulnd في 8 ديسمبر 2008.

(49) Daily Star (Beirut), 14 July 2009, 6 Mar. 2010.

(50) International Herald Tribune, 17 Apr. 2010, re Asad Shafiari of the Phalange.

(51) Courtier International, 30 Apr. 2009, p. 58; http://www.asadmag.com.

(52) Courrier Intrrnational, 29 Jan. 2009, p. 25.

(53) Daily Star (Beirut), 28 Dec. 2003; Warrell Singh-Bartlett 11. Finnncial Times, Aug. 2006.

(54) Michael J. Totten, 'From Baghdad to Beirut', City Journal, 10 Jan. 2010 (online).

ببليوغرافيا

Manuscript sources

BGA: Brian Giraud Archives, Izmir: diary of Hortense Woods, June 1922–May 1923
BL: British Library Add. MSS 38591, J. O. Hanson, 'Recollections of Smyrna and Greece 1813'
CEA. Centre d'Etudes Alexandrines, Alexandria: diary of Mary de Zogheb
DA. Debbas Archives, Beirut: journal of Madame de Perthuis 1854–61; 'Autobiographie de Dimitri Youssef Debbas'
ELIA (Hellenic Literary and Historical Archive), Athens: Cavafy Archive (consulted online at http://www.elia.org.gr)
EUSC: Exeter University, Special Collections: Barker and Whittall family papers
George Hawthorn journal (sold by Sotheby's, 18 May 2004)
John Cam Hobhouse, diary of 1810, at http://www.hobby-o.com
R. Lang of the Ottoman Bank, unpublished memoirs (n.d.)
MEC: Middle East Centre, St Antony's College, Oxford: diary of Andrew Ryan, 1895; Sir Richard Vaux, 'Egyptian and other episodes, personal, political and legal' (1941)
National Archives, London, documents FO 195/1306 and FO 371/7917
SA. Sursock Archives, Beirut: papers of Alfred Sursock

Unpublished typescripts

Auchterlonie, Paul, 'A British family in the Middle East: the Barkers of Smyrna, Aleppo and Alexandria' (c.2009)
Ayoub, Christian, 'Le français comme langue au moyen orient' (Montreal, 1971)
Kechriotis, Vangelis, 'Allons, enfants de la ville! National celebrations and political mobilisation and urban space in Izmir at the turn of the 20th century' (*c.*2008)
Mansel, Philip, 'The Siren of the Nile' (*c.*1998)
Nugteren, Anke van, and Nugteren, Lienke van, 'The Belgian language question' (typescript, Brussels, 2009)
Sabit, Adel, 'Life in Alexandria in the 1940s' (Cairo, *c.*2000)
Salmeri, Giovanni, 'The contribution of Greeks to the local historiography of Smyrna' (2006)

Books

Unless otherwise stated, all books in English are published in London, all books in French in Paris.

Abbas Hilmi II, *The Last Khedive of Egypt: Memoirs*, ed. Amira Sonbol (Cairo, 2006)
Abbott, G. F., *The Tale of a Tour in Macedonia* (1903)
Abécassis, Frédéric, 'Alexandrie, 1929', *Cahiers de la Méditerranée*, 67 (2003)
Abou, Selim, *Le Bilinguisme arabe–français au Liban* (1962)
Aburish, Said K., *The St George Hotel Bar* (1989)
Adonis, *The Desert: The Diary of Beirut under Siege* (1982)
Ahmad, Feroz, *From Empire to Republic: Essays on the Late Ottoman Empire and Modern Turkey*, 2 vols. (Istanbul, 2008)
Ahmed, Leila, *Border Passage* (1999)
Akarli, Engin, *The Long Peace: Ottoman Lebanon 1861–1920* (Berkeley, 1993)
Aksan, Virginia, *Ottoman Wars 1700–1800: An Empire Besieged* (2007)

—— and Goffman, Daniel, eds., *The Early Modern Ottomans: Remapping the State* (Cambridge, 2007)
Aktar, Ayhan, 'Turkifying the economy', in Renée Hirschon, ed., *Crossing the Aegean* (Oxford, 2004)
Alameddine, Rabih, *Koolaids* (1999 edn)
Alcalay, Amiel, *After Jews and Arabs: Remaking Levantine Culture* (Minneapolis, 1993)
Alhadeff, Gina, *The Sun at Midday* (New York, 1997)
Ali Vasib Efendi, *Bir Sehzadenin Hatirati* (Istanbul, 2004)
Alsayad, Nezar, *Cities and Caliphs: On the Genesis of Arab Muslim Urbanism* (1991)
Altay, Fahrettin, *10 Yil Savas Ve Sonrasi 1912–1922* (Istanbul, 1970)
Anderson, Sonia, 'The Anglo-Dutch "Smyrna fleet" of 1693', in A. Hamilton et al., eds., *Friends and Rivals in the East: Studies in Anglo-Dutch Relations in the Levant from the Seventeenth to the Early Nineteenth Century* (Leiden, 2000)
—— *An English Consul in Turkey: Paul Rycaut at Smyrna 1667–1678* (Oxford, 2001 edn)
Andrew, of Greece, HRH Prince, *Towards Disaster: The Greek Army in Asia Minor in 1921* (1930)
Andrews, Walter G., and Kalpakli, Mehmet, *The Age of Beloveds: Love and the Beloved in Early Modern Ottoman and European Culture and Society* (2005)
Annuaire oriental (Constantinople, 1922)
Antonius, George, *The Arab Awakening* (1938)
Armagnac, Baron d', *Nezib et Beyrout: souvenirs d'Orient de 1833 à 1841* (1844)
Arundell, F.V. J., *Discoveries in Asia Minor*, 2 vols. (1834)
Arvieux, Chevalier d', *Mémoires*, 6 vols. (1735)
Arvor, Olivier Poivre d', *Alexandrie Bazar: le roman d'une ville* (2009)
al-Askari, Jafar, *A Soldier's Story: From Ottoman Rule to Independent Iraq* (2003)
Asseily, Youmna, and Asfahani, Ahmad, *A Face in the Crowd: The Secret Papers of Emir Farid Chehab OBE 1942–1972* (2007)
Atay, Falih Rifki, *Le Mont des oliviers* (2009)
Athanasi, Giovanni d', *A Brief Account of the Researches and Discoveries in Upper Egypt made under the direction of Henry Salt Esq.* (1836)
Atiyah, Edward, *An Arab tells his Story: A Study in Loyalties* (1946)
Atiyeh, George N., 'The book in the modern Arab world' in id., ed. *The Book in the Islamic World* (Albany, 1995)
Les Atrocités grecques en Asie mineure (Constantinople, 1922)
Attie, Caroline, *Struggle in the Levant: Lebanon in the 1950s* (2004)
Auchterlonie, Paul, 'A Turk of the West. Sir Edgar Vincent's career in Egypt and the Ottoman Empire', *British Journal of Middle Eastern Studies*, 27, 1 (2000), 49–67
Augustinos, Gerasimos, *The Greeks of Asia Minor: Confession, Community and Ethnicity in the Nineteenth Century* (1992)
Austin, Douglas, *Malta and British Strategic Policy 1925–1943* (2004)
An Authentic Narrative of the Russian Expedition against the Turks by Sea and Land (1772)
Avelin, Claude, *La Promenade égyptienne* (1934)
Avennes, Prisse d', *Mémoires secrets sur la cour d'Egypte* (1930)
Awad, Mohamed, *Italy in Alexandria: Influences on the Built Environment* (Alexandria, 2008)
—— 'The metamorphoses of Mansheyeh', *Mediterraneans*, 8 (2006)
—— and Hamouda, Sahar, *The Birth of the Seventh Art in Alexandria* (Alexandria, 2007)
—— *The Zoghebs: An Alexandrian Saga* (Alexandria, 2005)
—— eds., *Voices from Cosmopolitan Alexandria* (Alexandria, 2006)
Awwad, Tawfiq Yusuf, *Death in Beirut* (1992 edn)
Bacqué-Gramont, Jean-Louis, Kuneralp, Sinan, and Hitzel, Frédéric, *Représentants*

permanents de la France en Turquie et de la Turquie en France (Istanbul, 1991)
Badran, Margot, and Cooke, Miriam, eds., *An Anthology of Arab Feminist Writing* (2nd edn, Bloomington, 2004)
Badrawi, Malak, *Ismail Sidqi 1875–1950* (1996)
—— *Political Violence in Egypt 1910–1924* (2000)
Baer, Gabriel, *Fellah and Townsman in the Middle East* (1982)
—— *Studies in the Social History of Modern Egypt* (Chicago, 1969)
Baer, Robert, *See No Evil* (2002 edn)
Baghdadi, Maroun, and de Freige, Nayla, 'The Kalashnikov generation', in Elizabeth Warnock Fernea, ed., *Women and the Family in the Middle East: New Voices of Change* (Austin, 1985)
Bakhit, Muhammad Adnan, 'The Christian population of Damascus in the sixteenth century', in Benjamin Braude and Bernard Lewis, *Christians and Jews in the Ottoman Empire*, 2 vols. (1982), II
Balfour-Paul, Glencairn, *Bagpipes in Babylon: A Lifetime in the Arab World and Beyond* (2006)
Barakat, Hoda, *The Stones of Laughter* (Northampton, Mass., 2006)
Bardsley, Gillian, *Issigonis: The Official Biography* (Thriplow, 2005)
Barker, E. B., *Syria and Egypt under the Last Five Sultans*, 2 vols. (1876)
Barker, Gabriella, *Desert Angels* (1956)
Barthélémy, Cécile, *Georges Moustaki* (Paris, 1970)
Basch, Lucien, 'Les jardins des morts', *Mediterraneans*, 8 (2006), 364–73
Bauffremont, Joseph de, *Journal de campagne de l'amiral de Bauffremont, prince de Listenois, dans les pays barbaresques (1766)* (1981)
Beaman, A. G. Hulme, *Twenty Years in the Near East* (1898)
Beaton, Cecil, *The Years Between* (1965)
Beaton, Roderick, *George Seferis: Waiting for the Angel* (2003)
Beinin, Joel, *The Dispersion of Egyptian Jewry: Culture, Politics and the Formation of a Modern Diaspora* (Cairo, 2005)
Bell, E. H. D. Moberly, *The Life and Letters of C. F. Moberly Bell* (1927)
Benedetti, Comte, *Essais diplomatiques* (nouvelle série), 2 vols. (1897)
Bent, J. Theodore, ed., *Early Voyages and Travels in the Levant* (1893)
Bérard, Victor, *La Macédoine* (1897)
Beresford, Admiral Lord Charles, *Memoirs*, 2 vols. (1914)
Berque, Jacques, *L'Egypte: impérialisme et révolution* (1967)
Berridge, G. R., 'Notes on the origins of the diplomatic corps: Constantinople in the 1620s', in *Discussion Papers in Diplomacy* (Clingandael, 2004)
Bertrand, Louis, *Le Mirage oriental* (1913)
Bibliotheca Alexandrina, *Alex-Med Newsletter*, 2004–
Biovès, Achille, *Français et Anglais en Egypte 1881–1882* (1910)
Birand, Mehmet Ali, *Shirts of Steel: An Anatomy of the Turkish Armed Forces* (1991)
Birch, W., *Journal of a Voyage up the Mediterranean* (Poulton, 1818)
Blanford, Nicholas, *Killing Mr Lebanon: The Assassination of Rafik Hariri and its Impact on the Middle East* (2006)
Blunt, W. S., *Gordon at Khartoum* (1911)
—— *Secret History of the English Occupation of Egypt* (1907)
Boal, F. W., 'Ethnic residential segregation, ethnic mixing and resource conflict: a study in Belfast, Northern Ireland', in Ceri Peach, Vaughan Robinson and Susan Smith, eds., *Ethnic Segregation in Cities* (1981)
Bond, Alvan, *Memoir of Rev. Pliny Fisk* (Edinburgh, 1828)
Boogert, Maurits van den, ed., *Ottoman Izmir* (Istanbul, 2007)
Booth, Marilyn L., *Bayram al-Tunisi's Egypt: Social Criticism and Narrative Strategies* (Exeter, 1990)
Borden, Mary, *Journey Down a Blind Alley* (1946)

Bosch, Baron Firmin van den, *Vingt années d'Egypte* (1932)
Botman, Selma, *Egypt from Independence to Revolution 1919–1952* (Syracuse, NY, 1991)
Bouquet, Olivier, 'Du haut de Péra: étude du jeu diplomatique de l'Europe dans l'Empire Ottoman 1909–1914', thesis (Paris, 1993)
Bouvier, Jean François, *L'Ordre du Nil: vie et combats d'Antoine Arcache Bey* (n.d.)
Boveri, Margret, *Mediterranean Cross-Currents*, tr. Louisa Marie Sieveking (1938)
Bower, Tom, *Fayed* (1998)
Boyar, Ebru, *Ottoman Turks and the Balkans: Empire Lost, Relations Altered* (2007)
Bramsen, John, *Letters of a Prussian Traveller*, 2 vols. (1818)
Braude, Benjamin, and Lewis, Bernard, *Christians and Jews in the Ottoman Empire*, 2 vols. (1982)
Breccia, E., *Alexandria ad Aegyptum* (Bergamo, 1914)
Brewer, David, *The Greek War of Independence* (New York, 2001)
Bromfield, William A., *Letters from Egypt and Syria* (1856)
Brown, Nathan J., 'The precarious life and slow death of the mixed courts of Egypt', *International Journal of Middle East Studies*, 25 (1993), 33–52
Buheiry, Marwan, *Beirut's Role in the Political Economy of the French Mandate 1919–39* (Oxford, 1990)
Bulent, Ari, 'Early Ottoman diplomacy', in Nuri Yurdusev, ed., *Ottoman Diplomacy: Conventional or Unconventional?* (Basingstoke, 2004)
Butler, Alfred J., *Court Life in Egypt* (1887)
Byron, Lord, *Letters and Journals*, 12 vols. (1972–82)
Cabanel, Patrick, ed., *Une France en Méditerranée: écoles, langue et culture française* (2006)
Cadalvène, Ed. de, and de Breuvery, J., *L'Egypte et la Turquie de 1829 à 1836*, 2 vols. (1836)
Cavafy, C. P., *Collected Poems* (Oxford, 2007)
Calame, Jon, and Charlesworth, Esther, *Divided Cities: Belfast, Beirut, Jerusalem, Mostar and Nicosia* (Philadelphia, 2009)
Çalislar, Ipek, *Latife Hanim* (Istanbul, 2006)
Calligas, Paul, *Voyage à Syros, Smyrne et Constantinople* (2004 edn)
Calvocoressi, Peter, *Threading My Way* (1994)
Camp, Maxime du, *Souvenirs et paysages d'Orient* (1848)
Canudo, I., *Combats d'Orient* (1917)
Carlino, Tziana, 'The Levant: A Transmediterranean Literary Category?' (online, 2006)
Carlisle, Earl of, *Diary in Turkish and Greek Waters* (1854)
Carol, Jacqueline, *Cocktails and Camels* (Alexandria, 2008)
—— *Scribbles* (Geneva, 2004)
Carswell, John, 'The Greeks in the East. Alexandria and Islam', in Stephen Vernoit, ed., *Discovering Islamic Art: Scholars, Collectors and Collections 1850–1950* (1999)
—— 'Henri Pharaon', obituary, *Independent*, 8 Aug. 1993
—— 'Kutahya ware', *Hali*, 121 (Mar./Apr. 2002), 78–9
Carver, Michael, *Dilemmas of the Desert War* (1986)
Cattaui, René, ed., *Le Règne de Mohamed Aly d'après les archive russes en Egypte*, 2 vols. (1931)
Çelebi, Evliya, *Seyahatnamesi*, 10 vols. (Istanbul, 1999–2007)
Çelik, Zeynep, *Urban Forms and Colonial Confrontations: Algiers under French Rule* (1997)
Celikkol, Zeki, de Groot, Alexander, and Slot, Ben. J., *It Began with the Tulip: Turkey and the Netherlands in Pictures* (Ankara, 2000)
Chaille-Long, Charles, *My Life in Four Continents*, 2 vols. (1912)
Chair, Admiral Sir Dudley de, *The Sea is Strong* (1961)
Chami, Joseph G., *Chronicle of a War 1975–1990* (Beirut, 2005)

—— *Le Mandat Charles Helou* (Beirut, 2004)
—— *Le Mandat Fouad Chehab* (Beirut, 2003)
—— *Le Mémorial du Liban* (Beirut, 2002)
—— *Du Mont Liban à l'indépendence* (Beirut, 2002)
Chandler, Richard, *Travels in Asia Minor and Greece*, 2 vols. (3rd edn, 1817)
Charles-Roux, François, *Le Projet français de conquête de l'Égypte sous le règne de Louis XVI* (Cairo, 1929)
—— *Souvenirs diplomatiques* (1956)
—— *La Syrie et Palestine au XVIIIe siècle* (1925)
—— *Thiers et Mehemet Ali* (1951)
Charmes, Gabriel, *Cinq mois au Caire et dans la basse Egypte* (1880)
—— *Voyage en Syrie: impressions et souvenirs* (1891)
Charrière, Ernest, *Négociations de la France dans le Levant*, 4 vols. (1848)
Chateaubriand, François-René, Vicomte de, *Itinéraire de Paris à Jérusalem et de Jérusalem à Paris*, 2 vols. (1846 edn)
Chater, Melville, 'History's greatest trek', *National Geographic* (Mar. 1923)
Chedid, Andrée, *The Return to Beirut* (1989)
Chehabi, H. E., 'An Iranian in the First World War', in id., ed., *Distant Relations: Iran and Lebanon in the Last 500 Years* (2006)
Chevallier, Dominique, *La Société du Mont Liban à l'époque de la révolution industrielle en Europe* (1971)
Chiha, Michel, *Palestine* (Beirut, 1957)
Chirol, Valentin, *Fifty Years in a Changing World* (1927)
Chishull, Edmund, *Antiquitates Asiaticae* (1728)
Churchill, Winston, *The Second World War*, vol. 4. *The Hinge of Fate* (1951)
—— *The World Crisis: The Aftermath* (1929)
Cialente, Fausta, *The Levantines* (1963)
Clark, Bruce, *Twice a Stranger: How Mass Expulsion Forged Modern Greece and Turkey* (2006)
Clarke, Hyde, *History of the British Community at Smyrna* (1862)
Clayer, Nathalie, et al., eds., *Presse turque et presse de Turquie* (1992)
Clogg, Richard, *The Movement for Greek Independence 1770–1821* (1976)
—— *Studies in Ottoman Greek History* (Istanbul, 2004)
Clot Bey, A. B., *Aperçu général sur l'Egypte*, 2 vols. (1840)
—— *Mémoires* (Cairo, 1949)
Cochran, William, *Pen and Pencil in Asia Minor; or, Notes from the Levant* (1887)
Cocteau, Jean, *Maalesh* (1949)
Cohen, Gary B., *The Politics of Ethnic Survival: Germans in Prague 1861–1914* (Princeton, 1981)
Cole, Juan, *Colonialism and Revolution in the Middle East: Social and Cultural Origins of Egypt's Urabi Movement* (Princeton, 1993)
Coles Pasha, *Recollections and Reflections* (1918)
Colonas, Vasilis, *Greek Architects in the Ottoman Empire (19th–20th Centuries)* (Athens, 2005)
Colyton, Henry, *Occasion, Chance and Change: A Memoir 1902–1946* (Wimborne, 1993)
Connell, John, *Auchinleck* (1959)
—— *Wavell: Soldier and Scholar* (1964)
Constantine, King, *A King's Letters to a Friend* (1927)
Cooper, Artemis, *Cairo in the War 1939–1945* (1989)
Cooper, Jacqueline, *Tales from Alexandria* (Geneva, 1994)
Coste, Pascal, *Toutes les Egyptes* (Marseille, 1998)
Cotter, Suzanne, et al., *Out of Beirut* (Oxford, 2006)
Courbage, Youssef, 'Situation démographique comparée du Bilad al cham au xviie et xixie siècles', in *Les Relations entre musulmans et chrétiens dans le bilad al cham. Actes du colloque de 2004* (Beirut, 2004)

Courmenin, M., *Voyage de Levant* (1629)
Coward, Noël, *Middle East Diary* (1944)
Crabbs, Jack A., *The Writing of History in Nineteenth-Century Egypt: A Study in National Transformation* (Cairo, 1984)
Craig, James, *Shemlaan. A History of the Middle East Centre for Arab Studies* (1998)
Crimmin, Patricia, 'The Royal Navy and the Levant trade *c.*1795–*c.*1805', in Jeremy Black and Philip Woodfine, eds., *The British Navy and the Use of Naval Power in the Eighteenth Century* (Leicester, 1988)
Cumali, Necati, *Macédoine 1900 nouvelles*, ed. Faruk Bilici (2007)
Cunningham, Allan, *Anglo-Ottoman Encounters in the Age of Revolution*, 2 vols. (1993)
—— ed., *The Early Correspondence of Richard Wood, 1831–1841* (1966)
Cunningham of Hyndhope, Admiral of the Fleet Viscount, *A Sailor's Odyssey* (1951)
Curie, Eve, *Journey among Warriors* (1943)
al-Daif, Rashid, *Dear Mr Kawabata* (1995)
Dakhlia, Jocelyne, *Lingua franca: Histoire d'une langue métisse en Méditerranée* (2008)
Dakin, Douglas, *The Greek Struggle in Macedonia 1897–1913* (Thessaloniki, 1966)
Dallaway, James, *Constantinople: Ancient and Modern* (1797)
Dankoff, Robert, *An Ottoman Mentality: The World of Evliya Çelebi* (Leiden, 2004)
Dapper, M., *Description exacte des isles de l'Archipel et de quelques autres adjacentes* (Amsterdam, 1703)
Dardaud, Gabriel, 'Un officier français du génie: Gallice Bey', *Revue des Conférences Françaises en Orient*, Dec. 1947, 657–70
Darques, René, *Salonique au vingtième siècle* (2000)
Davie, May, *Beyrouth 1825–1975: un siècle et demi d'urbanisme* (Beirut, 2001)
—— 'Les chrétiens dans l'espace et la société de Beyrouth', in *Les Relations entre musulmans et chrétiens dans le bilad al cham. Actes du colloque de 2004* (Beirut, 2004)
Davie, Michael F., *A Post-War Urban Geography of Beirut* (1993)
—— and Elaine Gebrane, *Beyrouth, regards croisés* (1997)
Davison, Roderick H., *Essays in Ottoman and Turkish History 1774–1923* (1990)
Dawson, Lionel, *Mediterranean Medley* (1933)
Debbas, Fouad C., *Beirut our Memory* (2nd rev. edn, Beirut, 1986)
Deeb, Marius, 'The socio-economic role of the foreign minorities in Egypt 1805–1961', *International Journal of Middle East Studies*, 19 (1978), 11–22
Degert, Abbé Antoine, 'Une ambassade périlleuse de François de Noailles en Turquie', *Revue Historique*, 159 (Nov. 1928), 225–60
Delanoue, Gilbert, *Moralistes et politiques musulmans dans l'Egypte du xixe siècle*, 2 vols. (Cairo, 1982)
Denis, Eric, 'Alexandrie: seconde ville d'Egypte ou métropole méditerranéenne', *Revue géographique de l'Est*, 2–3 (1997), 163–88
Deringil, Selim, 'There is no compulsion in religion; on conversion and apostasy in the late Ottoman Empire 1839–1856', in id., *The Ottomans, the Turks and World Power Politics* (2000)
Deschamps, Gaston, *A Constantinople* (1913)
Desmet-Grégoire, Hélène, *Cafés d'orient revisités* (1997)
Diamandouros, Nikiforos P., et. al., eds., *Hellenism and the First Greek War of Liberation: Continuity and Change* (Thessaloniki, 1976)
Diesbach, Ghislain de, *Ferdinand de Lesseps* (2004)
Dikkaya, Kahri, et al., *Avrupali mi, Levanten mi?* (Istanbul, 2006)
Dinning, Hector, *By-Ways on Service: Notes from an Australian Journal* (1918)
—— *Nile to Aleppo with the Light-Horse in the Middle East* (1920)
Dodwell, Henry, *The Founder of Modern Egypt: A Study of Muhammad Ali* (Cambridge, 1931)
Donia, Robert, *Sarajevo: A Biography* (2006)

Dornel, Laurent, 'Cosmopolitisme et xenophobie: Français et Italiens à Marseille 1870–1914' *Cahiers de la Méditerranée*, 67 (Dec. 2003)
Douglas, Keith, *Alamein to Zem Zem* (1966 edn)
Douglas, Norman, *Looking Back* (1934)
Douglas, Sholto, *Years of Command* (1966)
Douin, Georges, *L'Egypte de 1828 à 1830: correspondance des consuls de France en Egypte* (Rome, 1935)
—— *La Mission du Baron de Boislecomte: l'Egypte et la Syrie en 1833* (Cairo, 1927)
—— *Une mission militaire française auprès de Mohamed Aly: correspondance des généraux Belliard et Boyer* (1923)
—— *Navarin 6 juillet–20 octobre 1827* (Cairo, 1927)
Doukas, Stratis, *A Prisoner of War's Story* (Birmingham, 1991)
Dragoumis, Markos, 'The music of the rebetes', in id., ed., *From Byzantium to Rembetiko* (Kerkyra, 2007)
Driault, Edouard, *Mohamed Ali et Napoléon (1807–1814): correspondance des consuls de France en Egypte* (Cairo, 1925)
Drummond, Alexander, *Travels through Different Cities of Germany, Italy, Greece and Several Parts of Asia as far as the Banks of the Euphrates* (1754)
Du Mont, M., *Voyages*, 4 vols. (The Hague, 1699)
Duda, Dorothea, *Innenarchitektur Syrischer Stadthäuser des 16 bis 18 Jahrhunderts: Die Sammlung Henri Pharaon in Beirut* (Beirut, 1971)
Duparc, Pierre, *Recueil des instructions données aux ambassadeurs et ministres de France Turquie* (1969)
Durand-Viel, Vice-Amiral, *Les Campagnes navales de Mohammed Aly et d'Ibrahim*, 2 vols. (1935)
Durrell, Lawrence, *The Alexandria Quartet* (1968 edn)
Dursteler, Eric R., *Venetians in Constantinople: Nation, Identity and Coexistence in the Early Modern Mediterranean* (Baltimore, 2006)
Edde, Carla, *Beyrouth. Naissance d'une capitale 1918–1924* (2009)
Edib, Halide, *The Turkish Ordeal* (1928)
Edwards, Kenneth, *The Grey Diplomatists* (1938)
Egremont, Max, *Under Two Flags* (1997 edn)
Eliot, N., Mansfield, Y., and Kotek, J., *Divided Cities* (1999)
Elliott, C. B., *Travels in the Three Great Empires of Austria, Russia and Turkey*, 2 vols. (1838)
Elliott, Peter, *The Cross and the Ensign. A Naval History of Malta 1798–1979* (Cambridge, 1980)
Emerson, James, *Letters from the Aegean*, 2 vols. (1829)
Emerson, John E., *Letters from the East*, 2 vols. (3rd edn, 1830)
Eminoglu, Munevver, *A Beyoglu Photo-Romance* (Istanbul, 2000 edn)

Empereur, Jean-Yves, *Alexandrie: Hier et demain* (2001)
Enright, D. J., *Academic Year* (1984 edn)
—— *Season Ticket* (Alexandria, 1948)
Erdem, Hakan, 'Ottoman responses to the Greek war of independence', in Faruk Birtek and Thalia Dragonas, eds., *Citizenship and the nation-state in Greece and Turkey* (2005)
Erickson, Edward J., *Defeat in Detail: The Ottoman Army in the Balkans 1912–1913* (Westport, 2003)
Estourmel, Comte Joseph d', *Journal d'un voyage en Orient*, 2 vols. (1844)
Eudel, Paul, *Constantinople, Smyrne et Athènes: Journal de Voyage* (1885)
Evans, T. Simpson, ed., *The Life of Robert Frampton, Bishop of Gloucester* (1876)
Fagan, Brian, *The Rape of the Nile* (Boulder, 2004 edn)
Fahmy, Khaled, *All the Pasha's Men: Mehmed Ali, His Army and the Making of Modern Egypt* (Cambridge, 1997)

—— 'Towards a social history of modern Alexandria' in Anthony Hirst and Michael Silk, eds., *Alexandria, Real and Imagined* (Aldershot, 2009)
Fani, Michel, *Alphabet de Beyrouth* (2000)
—— *Une histoire de la photographie au Liban* (Beirut, 2005)
Farah, C. E., *Arabs and Ottomans: A Chequered Relationship* (Istanbul, 2002)
Farman, E. E., *Egypt and its Betrayal* (1908)
Faroqhi, Suryaiya, *Subjects of the Sultan. Culture and Daily Life in the Ottoman Empire* (2000)
Fawaz, Leila, *Merchants and Migrants in Nineteenth-Century Beirut* (2000 edn)
—— *An Occasion for War: Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860* (1994)
Fay, Eliza, *Original Letters from India* (1925)
Fedden, Robin, ed., *Personal Landscape: An Anthology of Exile* (1945)
Fellows, Sir Charles, *Travels and Researches in Asia Minor, More Particularly in the Province of Lycia* (1852)
Fermor, Patrick Leigh, *Roumeli: Travels in Northern Greece* (1966)
Field, James A., Jr, *America and the Mediterranean World 1776–1882* (Princeton, 1969)
Finkel, Caroline, *Osman's Dream: The Story of the Ottoman Empire 1300–1923* (2005)
Finnie, David H., *Pioneers East: The Early American Experience in the Middle East* (Cambridge, Mass., 1967)
Fisher, Jack, *Fear God and Dread Nought: The Correspondance of Admiral of the Fleet Lord Fisher of Kilverstone*, 3 vols. (1952–9)
Fisk, Robert, *Pity the Nation: Lebanon at War* (2001 edn)
Flaubert, Gustave, *Correspondance générale* (1973–)
—— *Voyage en Orient 1849–1851* (2006 edn)
Fleet, Kate, *The Muslim Bonaparte: Diplomacy and Orientalism in Ali Pasha's Greece* (Princeton, 1999)
Fletcher, Richard, *Moorish Spain* (1992)
Foreign Relations of the United States 1952–1954, IX, 2 (Washington, 1986)
Forster, E. M., *Alexandria: A History and a Guide: And Pharos and Pharillon* (2004 edn)
—— *Selected Letters*, ed. Mary Lago, 2 vols. (1983)
Forster, Margaret, *Daphne du Maurier* (1993)
Fournié, Pierre, and Riccioli, Jean-Louis, *La France et le Proche-Orient 1916–1946* (1996)
Frangakis-Syrett, Elena, *The Commerce of Smyrna in the Eighteenth Century* (Athens, 1992)
—— 'Commercial practices and competition in the Levant: the British and the Dutch in eighteenth-century Izmir' in A. Hamilton et al., eds., *Friends and Rivals in the East: Studies in Anglo-Dutch Relations in the Levant from the Seventeenth to the Early Nineteenth Century* (Leiden, 2000)
—— 'The economic activities of the Greek community of Izmir in the second half of the nineteenth and early twentieth centuries' in D. Gondicas and C. Issawi, eds., *Ottoman Greeks in the Age of Nationalism* (Princeton, 1999)
—— 'The making of an Ottoman port: the quay of Izmir in the nineteenth century' *Journal of Transport History*, 22, 1 (2001), 23–46
—— 'The Raya communities of Smyrna in the eighteenth century', *International Journal of Maritime History* (1998)
Freely, John, *The Lost Messiah* (2002 edn)
Freiha, Asma, and Ghanem, Viviane, *Les Libanais et la vie au Liban, de l'indépendance à la guerre 1943–1975*, 2 vols. (Beirut, 1992)
Gage, Nicholas, *Greek Fire* (2001)
Galland, Antoine, *Voyage à Constantinople 1672–1673*, 2 vols. (2002)
—— *Le Voyage à Smyrne*, ed. Frédéric Bauden (2000)

Gandossi, Christiane Villain, 'Les attributions du Baile de Constantinople dans le fonctionnnement des echelles du Levant au xvie siècle', in *Les Grandes Escales*, vol. 11 (Brussels, 1974)
Gardey, Louis, *Voyage du sultan Abd-ul-aziz de Stamboul au Caire* (1865)
Garreau, R., *Un angoumois homme de mer: Besson Bey* (Antibes, 1949)
Gates, Carolyn, *The Merchant Republic of Lebanon: Rise of an Open Economy* (1998)
Gaunson, A. B., *The Anglo-French Clash in Lebanon and Syria 1940–45* (1987)
Gauntlett, Stathis, 'Between orientalism and occidentalism', in Renée Hirschon, ed., *Crossing the Aegean* (Oxford, 2004)
Gaury, Gerald de, *Rulers of Mecca* (1951)
Gelvin, James L., *Divided Loyalties: Nationalism and Mass Politics in Syria at the Close of Empire* (Berkeley, 1998)
Genakopoulos, Deno J., 'The Diaspora Greeks', in Nikiforos P. Diamandouros et al., eds., *Hellenism and the First Greek War of Liberation: Continuity and Change* (Thessaloniki, 1976)
Georgelin, Hervé, *La Fin de Smyrne: du cosmopolitisme aux nationalismes* (2005)
Ghoussoub, Mai, *Leaving Beirut: Women and the Wars Within* (1998)
Gibbon, Edward, *The Decline and Fall of the Roman Empire*, 6 vols. (1776–88)
Giffard, Pierre, *Les Français en Egypte* (1883)
Gilbert, Martin, ed., *Winston Churchill*, vol. 4. 1917–1922. *Companion Documents*, 3 vols. (1977)
Gilmour, David, *Lebanon: The Fractured Country* (Oxford, 1983)
Gilsenan, Michael, *Lords of the Lebanese Marches: Violence and Narrative in an Arab Society* (1996)
Girard, B., *Souvenirs maritimes 1881–1883: journal de bord* (1895)
Gisquet, M., *L'Egypte, les Turcs et les Arabes*, 2 vols. (1846)
Glass, Charles, *Tribes with Flags* (1999)
Glass, Dagmar, and Roper, Geoffrey, 'The printing of Arabic Books in the Arab world' in Geoffrey Roper, ed., *Middle Eastern Languages and the Print Revolution* (Westhofen, 2002)
Goddard, J. K. L., *48!* (Tunbridge Wells, 2003)
Godefroy, Vice-Amiral, *L'Aventure de la Force X à Alexandrie, 1940–1943* (1953)
Godolli, Ezio, and Giacomelli, Milva, eds., *Italian Architects and Engineers in Egypt from the Nineteenth to the Twenty-first Centuries* (Florence, 2008)
Goff, A., and Fawcett, Hugh A., *Macedonia: A Plea for the Primitive* (1921)
Goffman, Daniel, *Britons in the Ottoman Empire 1642–1660* (Seattle, 1998)
—— *Izmir and the Levantine World 1550–1650* (Seattle, 1990)
—— 'Izmir, from village to colonial port city', in Edhem Eldem, Daniel Goffman and Bruce Masters, *The Ottoman City between East and West: Aleppo, Izmir and Istanbul* (Cambridge, 1999)
Goldoni, Carlo, *Four Comedies* (1922 edn)
Goldschmidt, Arthur, Jr, *The Egyptian Nationalist Party 1892–1919* (1968)
Gordon, Joel, *Nasser's Blessed Movement: Egypt's Free Officers and the July Revolution* (New York, 1992)
Goupil-Fesquet, M., *Voyage en orient fait avec Horace Vernet en 1839 et 1840* (1840)
Grafftey-Smith, Laurence, *Bright Levant* (1970)
Grange, Daniel J., *L'Italie et la Méditerranée 1896–1911*, 2 vols. (Rome, 1994)
Graves, Sir Robert, *Storm Centres of the Near East* (1933)
Greene, Rev. Joseph K., *Leavening the Levant* (Boston, 1916)
Gregory, Desmond, *Malta, Britain and the European Powers 1793–1815* (1996)
Griffith, Major and Mrs George Darby, *A Journey across the Desert from Ceylon to Marseilles*, 2 vols. (1845)
Groot, Alexander de, 'The dragomans of the embassies in Istanbul', in Geert Jan Van Gelder and Ed de Moor, eds., *Eastward Bound: Dutch Ventures and Adventures*

in the Middle East (Amsterdam, 1994)

—— *The Ottoman Empire and the Dutch Republic: A History of the Earliest Diplomatic Relations* (Leiden and Istanbul, 1978)

Guerville, A. B. de, *La Nouvelle Egypte* (1905)

Guichard, Sylvie, ed., *Lettres de Bernardino Drovetti, consul de France à Alexandrie 1803–1830* (2003)

Guingand, F. W. de, *Operation Victory* (1978)

Gunther, John, *Twelve Cities* (1968)

Guys, Henri, *Relation d'un séjour de plusieurs années à Beyrout et dans le Liban*, 2 vols. (1847)

Haag, Michael, *Alexandria: City of Memory* (2004)

—— *Vintage Alexandria: Photographs of the City 1860–1960* (Cairo, 2008)

Hacisalihoglu, Mehmet, 'The negotiations for the solution of the Macedonian question', *Turcica*, 36 (2004)

Haddad, William W., and Ochsenwald, William, *Nationalism in a Non-National State: The Dissolution of the Ottoman Empire* (Columbus, Ohio, 1977)

Hajjar, Joseph, *L'Europe et les destinées du Proche Orient*, 4 vols. (Damascus, 1988)

Halas, Malu, and Khalaf, Roseanne Saad, eds., *Transit Beirut: New Writings and Images* (2004)

Halim, Hala, 'Waiting for the Zervudachis', *Mediterraneans*, 8 (1996)

Halliday, Stephen, *The Great Stink of London* (1998)

Hamann, Brigitte, *Hitler's Vienna* (1999 edn)

Hamilton, A., et al., eds., *Friends and Rivals in the East: Studies in Anglo-Dutch Relations in the Levant from the Seventeenth to the Early Nineteenth Century* (Leiden, 2000)

Hamilton, Nigel, *Monty: The Making of a General 1887–1942* (1981)

Hamouda, Sahar, *Omar Toussoun: Prince of Alexandria* (Alexandria, 2005)

—— and Clement, Colin, *Victoria College: A History Revealed* (Cairo, 2004)

Hampton, Christopher, *White Chameleon* (1991)

Hanania, Tony, *Unreal City* (2000)

Hanssen, Jens, *Fin de Siècle Beirut: The Making of an Ottoman Provincial Capital* (New York, 2005)

—— 'Practices of integration', in Jens Hanssen, Thomas Philipp and Stefan Weber, eds., *The Empire in the City: Arab Provincial Capitals in the Late Ottoman Empire* (Beirut, 2002)

—— 'Your Beirut is on my desk: Ottomanizing Beirut under Sultan Abdulhamid II 1876–1909', in H. Sarkis and P. Rowe, eds., *Projecting Beirut* (Munich, 1998)

Harris, W.V., ed., *Rethinking the Mediterranean* (2005)

Harris, William, *The New Face of Lebanon* (2006)

Harvey, P., *Muslims in Spain 1500–1614* (Chicago, 2005)

Hasluck, F. W., *Christianity and Islam under the Sultans*, 2 vols. (New York, 1973 edn)

Hassan, Hassan, *In the House of Mohammed Ali: A Family Album 1805–1952* (Cairo, 2000)

Hassoun, Jacques, *Alexandrie et autres récits* (2001)

—— *Juifs d'Egypte: Images et textes* (1984)

Heath-Stubbs, John, *Hindsights* (1993)

Heikal, Azza, *L'Education Alexandrine* (Alexandria, 1996)

Hertmans, Stefan, *Intercities* (2001)

Hervé, Francis, *A Residence in Greece and Turkey*, 2 vols. (1837)

Hess, Andrew C., *The Forgotten Frontier: A History of the Sixteenth Century Ibero-African Frontier* (Chicago, 1978)

Heyberger, Bernard, *Les Européens vus par les Libanais à l'époque ottomane* (Beirut, 2004)

—— 'Livres et pratique de la lecture chez les chrétiens (Syrie Liban) xviie–xviiie

siècles', in Frédéric Hitzel, ed., *Livres et lecture dans le monde ottoman* (1999)
Hildyard, Myles, *It is Bliss Here: Letters Home 1939–1945* (2005)
Hirschon, Renée, *Heirs of the Greek Catastrophe* (1998)
Hirst, Anthony, and Silk, Michael, eds., *Alexandria, Real and Imagined* (Aldershot, 2009)
Hirst, David, and Beeson, Irene, *Sadat* (1981)
Hitzel, Frédéric, *Relations interculturelles et scientifiques entre l'Empire Ottoman et les pays de l'Europe occidentale* (thesis, Paris-IV, 1995)
—— ed., *Livres et lecture dans le monde ottoman* (1999)
Hodgson, Geraldine, *The Life of James Elroy Flecker* (Oxford, 1925)
Hogg, Edward, *A Visit to Alexandria, Damascus and Jerusalem during the Successful Campaign of Ibrahim Pasha*, 2 vols. (1835)
Hokayem, Antoine, *Les Provinces arabes de l'Empire Ottoman aux archives du Ministère des Affaires Etrangères de France 1793–1918* (Beirut, 1988)
Holden, David, 'Letter from Alexandria 1963 in Christopher Pick, ed., *Egypt: A Travellers' Anthology* (1991)
Honekamp-Mazgon, Marlies, *Palais de Hollande in Istanbul* (Istanbul, 2002)
Hope, Thomas, *Anastasius*, 2 vols. (1819)
Hopwood, Derek, *The Russian Presence in Syria and Palestine 1843–1914: Church and Politics in the Near East* (Oxford, 1969)
Hormouzios, Stelios, *No Ordinary Crown* (1972)
Horton, George, *The Blight of Asia* (Indianapolis, 1926)
Hourani, Albert, and Shehadi, Nadim, eds., *The Lebanese in the World: A Century of Emigration* (1992)
Hunter, F. Robert, *Egypt under the Khedives 1805–1879* (1984)
Hunter, W. P., *Narrative of the late Expedition to Syria under the Command of Admiral the Hon. Sir Robert Stopford GCB, GCMG*, 2 vols. (1842)
Hurewitz, J. C., *The Middle East and North Africa in World Politics*, 2 vols. (New Haven, 1975)
Husayn, Abdul Rahim Abu, *The View from Istanbul: Lebanon and the Druze Emirate in the Ottoman Chancery Documents* (2004)
Ibrahim, Ibrahim, 'Taha Husayn: the critical spirit' in John P. Spagnolo, ed., *Problems of the Modern Middle East in Historical Perspective* (Reading, 1992)
Ilbert, Robert, *Alexandrie 1830–1930*, 2 vols. (Cairo, 1996)
—— and Yannakakis, Ilias, *Alexandrie 1860–1960: un modèle éphémère de convivialité: communautés et identité cosmopolite* (1992)
Iljine, Nicolas V., ed., *Odessa Memories* (Seattle, 2003)
Imber, Colin, *Ebu's-su'ud and the Islamic Legal Tradition* (Stanford, 1997)
Ioannou, Yorgos, *Refugee Capital: Thessaloniki Chronicles* (Athens, 1997)
Israel, Jonathan I., 'Trade politics and strategy: the Anglo-Dutch Wars in the Levant' in A. Hamilton et al., eds., *Friends and Rivals in the East: Studies in Anglo-Dutch Relations in the Levant from the Seventeenth to the Early Nineteenth Century* (Leiden, 2000)
Issawi, Charles, 'British trade and the rise of Beirut 1830–1860', *International Journal of Middle East Studies* (Aug. 1977), 91–101
—— *The Fertile Crescent 1800–1914. A Documentary Economic History* (Oxford, 1988)
Jabarti, Abd al-Rahman, *Merveilles biographiques et historiques ou chroniques du Cheikh Abd-El-Rahman El Djabarti*, 10 vols. (Cairo, 1896)
Jeancard, Paul, *L'Anatolie* (1919)
Jenkins, Roy, *Gladstone* (1995)
Jennings, Ronald C., *Christians and Muslims in Ottoman Cyprus and the Mediterranean World 1571–1640* (New York, 1993)
Johnson, Michael, *All Honourable Men* (2001)

—— *Class and Client in Beirut* (1986)
Johnston, Shirley, with Sonbol, Sherif, *Egyptian Palaces and Villas* (2006)
Jolliffe, T. R., *Letters from Palestine* (2nd edn, 1820)
Josipovici, Gabriel, *A Life* (2001)
Kabbani, Nizar, *Republic of Love* (2003)
Kadi, Ismail Hakki, 'A silence of the guilds? Some characteristics of Izmir's craftsmen organizations in the 18th and early 19th century' in Maurits van den Boogert, ed., *Ottoman Izmir* (Istanbul, 2007)
Kamel, Leila, *Un quartier de Beyrouth. Saint Nicolas. Structures familiales et structures foncières*, 2 vols. (Beirut, 1998)
Kansu, Aykut, *Politics in Post-Revolutionary Turkey 1908–1913* (Leiden, 2000)
—— *The Revolution of 1908 in Turkey* (Leiden, 1997)
Karanasou, Floresca, 'The Greeks in Egypt from Mohammed Ali to Nasser 1805–1961', in Richard Clogg, ed., *The Greek Diaspora in the Twentieth Century* (1999)
Karnikas, Alexander and Helen, *Elias Venezis* (New York, 1969)
Kassab, Sawsan Agha, and Tadmouri, Khaled Omar, *Beirut and the Sultan: 200 Photographs from the Albums of Sultan Abdul Hamid II* (Beirut, 2003)
Kassir, Samir, 'Entre chien et loups' in Jad Thabet, ed., *Beyrouth: la brûlure des rêves* (2001)
—— *Histoire de Beyrouth* (2003)
Kaufman, Asher, *Reviving Phoenica: In Search of Identity in Lebanon* (2004)
Kay, E. de, *Sketches of Turkey in 1831 and 1832* (New York, 1833)
Kayali, Hasan, *Arabs and Young Turks: Ottomanism, Arabism and Islamism in the Ottoman Empire 1908–1918* (1997)
el-Kayem, Henri, *Par grand vent d'est avec rafles: mémoires d'un Alexandrin* (1999)
Kechriotis, Vangelis, 'Between professional duty and national fulfillment: the Smyrniot medical doctor Apostolos Psaltoff 1862–1923', in Merope Anastassiadou and Paul Dumont, eds., *Médecins et ingenieurs ottomans à l'âge des nationalismes* (1998)
—— 'Greek Orthodox, Ottoman Greek or just Greek? Theories of coexistence in the aftermath of the Young Turk Revolution', *Etudes balkaniques*, 1 (2005), 51–72
—— 'The Greeks of Izmir at the end of the empire: a non-Muslim community between autonomy and patriotism', DPhil thesis (Leiden University, 2005)
Kelly, Sir David, *The Ruling Few* (1952)
Keyder, Caglar, *The Definition of a Peripheral Economy: Turkey 1923–1929* (Cambridge, 1981)
Khalaf, Samir, *Heart of Beirut: Reclaiming the Bourj* (2006)
Khalidi, Tarif, 'Unveiled: Anbara Salam in England 1925–1927', in *The Arabs and Britain: Changes and Exchanges* (Cairo, 1999)
el-Khalil, Zeena, *Beirut I Love You* (2009)
Khalili, Laleh, 'Beirut's southern suburbs in the aftermath of the July War', *Middle East in London* (Oct. 2006), 6–10
el-Khazen, Farid, *The Breakdown of the State in Lebanon 1967–1976* (2000)
—— *The Making and Politics of the 1943 National Pact* (Oxford, 1991)
Khoury, Gérard D., *La France et l'Orient arabe: Naissance du Liban moderne* (2009 edn)
—— ed., *Selim Takla 1895–1945. une contribution à l'indépendance du Liban* (Beirut, 2004)
Kiel, Machiel, *Studies on the Ottoman Architecture of the Balkans* (Aldershot, 1990)
Kinglake, A. W., *Eothen* (1919 edn)
Kinross, Lord, *Ataturk: The Rebirth of a Nation* (Nicosia, 1981 edn)
Kitromilides, Paschalis M., ed., *Eleftherios Venizelos: The Trials of Statesmanship* (Edinburgh, 2006)

—— *Enlightenment, Nationalism, Orthodoxy: Studies in the Culture and Political Thought of South-Eastern Europe* (1994)
Knight, William, *Oriental Outlines, or, a Rambler's Recollections of a Tour in Turkey, Greece and Tuscany in 1838* (1839)
Kober, Marc, *Entre Nil et sable: écrivains d'Egypte d'expression française* (1999)
Koker, Osman, *Souvenir of Liberty: Postcards and Medals from the Collection of Orlando Carlo Calumeno* (Istanbul, 2008)
—— ed., *Bir zamanlar Izmir* (2009)
Kolodziejczyk, Dariusz, *Ottoman–Polish Diplomatic Relations 15th–18th Century: An Annotated Edition of Ahdnames and Other Documents* (Leiden, 2000)
Kontente, Léon, *Smyrne et l'Occident, de l'Antiquité au XXIe siècle* (Montigny, 2005)
Korais, A., *Mémoire sur l'état actuel de la civilisation en Grèce* (1803)
Kouyoumdjian, Ohannes Pacha, *Le Liban à la veille et au début de la guerre: mémoires d'un gouverneur 1913–1915* (2003)
Kramer, Gudrun, *The Jews in Modern Egypt 1914–1952* (1989)
Kupferschmidt, Iri M., 'Who needed department stores in Egypt? From Orosdi Back to Omar effendi' *International Journal of Middle East Studies*, 43, 2 (Mar. 2007), 175–92
Kurat, Y. T., 'How Turkey drifted into World War I', in Kenneth Bourne and D. C. Watt, eds., *Studies in International History* (1960)
Kusel Bey, Baron de, *An Englishman's Reminiscences of Egypt* (1915)
Kutluoglu, Muhammad H., *The Egyptian Question (1831–1840)* (Istanbul, 1998)
La Motraye, A. de, *Voyages du Sr. A. de La Motraye en Europe, Asie et Afrique*, 2 vols. (La Haye, 1727)
Lacouture, Jean, and Lacouture, Simone, *L'Egypte en mouvement* (1957)
Lagnado, Lucette, *The Man in the White Sharkskin Suit* (New York, 2007)
Lamartine, Alphonse-Marie-Louis de Prat de, *Correspondance Générale de 1830 à 1848*, 2 vols. (1943)
Lampson, Sir Miles, *Politics and Diplomacy in Egypt: The Diaries of Sir Miles Lampson 1935–1937* (Oxford, 1991)
Landes, David S., *Bankers and Pashas: International Finance and Economic Imperialism in Egypt* (1979 edn)
Larsson, Theo, *Seven Passports for Palestine: Sixty Years in the Levant* (Pulborough, 1995)
Laurens, Henry, 'La France et le califat', *Turcica*, 31 (1999)
—— *Les Origines intellectuelles de l'expédition d'Egypte. L'Orient islamisant en France* (Istanbul, 1987)
Le Bruyn, Corneille, *Voyages au Levant*, 6 vols. (The Hague, 1732)
Lees, Andrew and Lees, Lynn Hollen, *Cities and the Making of Modem Europe 1750–1914* (Leicester, 2007)
Lehmann, Joseph, *All Sir Garnett* (1964)
Lemos, Andreas G., *The Greeks and the Sea* (1976)
Leprette, Fernand, *Egypte: terre du Nil* (1939)
—— *La Muraille de silence: Notes d'un Français d'Egypte pendant la guerre* (Cairo, 1942)
Leon, Edwin de, *Egypt under its Khedives* (1882)
Leune, Jean, *Une revanche, une étape* (1914)
Levene, Mark, 'Port Jewry of Salonika between neo-colonialism and the nation state', in David Cesarani, ed., *Port Jews: Jewish Communities in Cosmopolitan Maritime Trading Centres 1550–1950* (2002)
LeVine, Mark, *Overthrowing Geography: Jaffa, Tel Aviv and the Struggle for Palestine* (2005)
Levy, Sam, *Salonique à la fin du XIXe siècle* (Istanbul, 2000)
Liddell, Robert, *Cavafy* (2002 edn)
—— *Unreal City* (1993 edn)

Lincoln, W. Bruce, *Sunlight at Midnight: St Petersburg and the Making of Modern Russia* (2001)
Le Livre d'or du journal La Réforme (Alexandria, 1945)
Llewellyn Smith, Michael, *Athens: A Cultural and Literary History* (2004)
—— *Ionian Vision: Greece in Asia Minor 1919–1922* (2nd edn, 1998)
Long, C. W. R., *British Pro-Consuls in Egypt 1914–1929: The Challenge of Nationalism* (2005)
Loti, Pierre, *Aziyade* (Livre de Poche, 1970)
Loucar, Anouar, *Voyageurs et écrivains français en Egypte* (Cairo, 1956)
Lowry, Heath, 'The Evrenos dynasty of Yenice Vardar', *Journal of Ottoman Studies*, 32 (2008), 1–192
Lushington, Mrs Charles, *Narrative of a Journey from Calcutta to Europe, by Way of Egypt, in the Years 1827 and 1828* (1829)
Lusignan, Livio Missir de, *Vie latine de l'Empire Ottoman* (Istanbul, 2004)
Maasri, Zeina, *Off the Wall: Political Posters of the Lebanese Civil War* (2009)
Mabro, Robert, 'Nostalgic literature on Alexandria', in Jill Edwards, ed., *Historians in Cairo* (Cairo, 2002)
McBride, Barrie St Clair, *Farouk of Egypt* (1967)
McCarthy, Justin, *Death and Exile: The Ethnic Cleansing of Ottoman Muslims 1821–1922* (Princeton, 1995)
MacGill, Thomas, *Travels in Turkey, Italy and Russia*, 2 vols (1808)
Mackridge, Peter, 'The myth of Asia Minor in Greek fiction', in Renée Hirschon, ed., *Crossing the Aegean* (Oxford, 2003)
McLeave, Hugh, *The Last Pharaoh: The Ten Faces of Farouk* (1969)
MacNiven, Ian S., ed., *The Durrell–Miller Letters 1935–1980* (1988)
Madden, R. R., *Travels*, 2 vols. (1827)
Maehler, Herwig, 'The Mouseion and Cultural Identity', in Anthony Hirst and Michael Silk, eds., *Alexandria, Real and Imagined* (Aldershot, 2009)
Mahfouz, Naguib, *Autumn Quail* (1990)
—— *Miramar* (2000 edn)
Makdisi, Jean Said, *Beirut Fragments: A War Memoir* (New York, 1990)
Makdisi, Ussama, *The Culture of Sectarianism: Community, History and Violence in Nineteenth-Century Ottoman Lebanon* (Berkeley, 2000)
Malarkey, James M., 'Notes on the psychology of war in Lebanon', in Halim M. Barakat, ed., *Towards a Viable Lebanon* (1988)
Malet, Sir Edward, *Egypt 1879–1883* (1907)
Malkin, Irad, and Hohlfelder, Robert L., *Mediterranean Cities: Historical Perspectives* (1988)
Mango, Andrew, *Ataturk* (2000)
Manguel, Albert, 'Once again Troy', in Anna Wilson, ed., *Lebanon, Lebanon* (2006)
Manley, Deborah, and Ree, Peta, *Henry Salt: Artist, Traveller, Diplomat, Egyptologist* (2001)
Manning, Olivia, *The Levant Trilogy* (2003 edn)
Mansel, Philip, *Constantinople: City of the World's Desire* (1995)
—— *Dressed to Rule: Royal and Court Costume from Louis XIV to Elizabeth II* (2005)
—— 'The grand tour in the Ottoman Empire' in Paul Starkey and Janet Starkey, eds., *Interpreting the Orient: Travellers in Egypt and the Near East* (Reading, 2001)
—— *Paris between Empires* (2001)
Marr, David, *Patrick White: A Life* (1991)
—— ed., *Patrick White Letters* (1994)
Marsot, Afaf Lutfi al-Sayyid, *Egypt in the Reign of Muhammad Ali* (Cambridge, 1984)
Matar, Nabil, *In the Lands of the Christians: Arab Travel Writing in the Seventeenth Century* (2003)
Maundrell, Henry, *A Journey from Aleppo to Jerusalem at Easter, A.D. 1697* (1810 edn)

Maurice, Colonel J. F., *Military History of the Campaign of 1882 in Egypt* (1887)
Mazower, Mark, *Salonica, City of Ghosts: Christians, Muslims and Jews 1430–1950* (2004)
Menargues, Alain, *Les Secrets de la Guerre du Liban* (2004)
Mengin, M., *Histoire de l'Egypte sous le règne de Mohammed Aly* (1823)
Mengous, Petros, *Narrative of a Greek Soldier* (New York, 1830)
Mermier, Franck, *Le Livre et la ville: Beyrouth et l'édition arabe* (2005)
Miéville, Sir Walter Frederick, KCMG, *Under Queen and Khedive: The Autobiography of an Anglo-Egyptian Official* (1899)
Millard, David, *Journal of Travels in Egypt, Arabia Petraea and the Holy Land during 1841–2* (Rochester, NY, 1843)
Millie, J., *Alexandrie d'Egypte et le Caire* (Milan, 1868)
Milton, Giles, *Paradise Lost: Smyrna 1922* (2008)
Minutoli, Baroness von, *Recollections of Egypt* (1827)
Missouma, Sakina, *Alger à l'époque ottomane* (Aix-en-Provence, 2003)
Molho, Rena, *Salonica and Istanbul: Social, Political and Cultural Aspects of Jewish Life* (Istanbul, 2005)
Mollenhauer, Anne, 'The Central Hall House: regional commonalities and local specificities: a comparison between Beirut and al-Salt', in Jens Hanssen, Thomas Philipp and Stefan Weber, eds., *The Empire in the City: Arab Provincial Capitals in the Late Ottoman Empire* (Beirut, 2002)
Le Mondain égyptien (Cairo, 1939)
Monroe, Elizabeth, *Philby of Arabia* (1973)
Montefiore, Simon Sebag, *Stalin: The Court of the Red Tsar* (2003)
Montgomery, Viscount, *The Memoirs of Field-Marshal the Viscount Montgomery of Alamein, KG* (1958)
Moorehead, Alan, *African Trilogy* (1944)
Morewood, Steven, *The British Defence of Egypt 1935–1940: Conflict and Crisis in the Eastern Mediterranean* (2005)
Morin, Edgar, *Vidal et les siens* (1989)
Morin, Jean, *Souvenirs d'un banquier français* (1983)
Morris, James, *Among the Cities* (1985)
—— *Farewell the Trumpets: An Imperial Retreat* (1998 edn)
—— *The Market of Seleukia* (1957)
Mott-Radclyff, Charles, *Foreign Body in the Eye: A Memoir of the Foreign Service, Old and New* (1975)
Moustaki, Georges, *Les Filles de la mémoire* (1989)
Murphy, Robert, *Diplomat among Warriors* (1964)
Murray, Hon. Sir Charles Augustus, KCB, *A Short Memoir of Mohammed Ali* (1898)
Murray, Eustace, *The Roving Englishman in Turkey: Sketches from Life* (1855)
Murray, John, *Handbook for Travellers in the Ionian Islands, Greece, Turkey, Asia Minor and Constantinople* (1840)
—— *Handbook for Travellers in Turkey in Asia*, 2 vols. (4th rev. edn, 1878)
Naff, Alixa, *Becoming American: The Early Arab Immigrant Experience* (Carbondale, 1985)
Naggar, Jean, *Sipping from the Nile: My Exodus from Egypt* (New York, 2008)
Nahum, Henri, *La Grande Guerre et la guerre greco-turque vues par les instituteurs de l'Alliance Israélite Universelle d'Izmir* (Istanbul, 2003)
—— *Juifs de Smyrne, xixe–xxe siècle* (1997)
Najjar, Alexandre, *The School of War* (2006)
Napier, Commodore Sir Charles, *The War in Syria*, 2 vols. (1842)
Napier, Lt-Col. Edward, *Reminiscences of Syria and Fragments of a Journal and Letters from the Holy Land*, 2 vols. (1843)
Napoléon III et l'Europe (2006)

Navet-Grenillet, Marie-Cécile, *Penelope Delta et Alexandrie: une femme grecque à la confluence des langues et des cultures* (unpublished thesis, Montpellier University, 1998)
Nea Smyrna (map with history) (Athens, 1999)
Neale, F. A., *Eight Years in Syria, Palestine and Asia Minor from 1842 to 1850*, 2 vols. (1851)
Neguib, Mohammed, *Egypt's Destiny* (1955)
Neumann, Christoph K., 'Decision-making without decision-makers: Ottoman foreign policy circa 1780', in Caesar E. Farah, ed., *Decision-Making and Change in the Ottoman Empire* (Kirksville, 1993)
Nicholls, David, *The Lost Prime Minister: A Life of Sir Charles Dilke* (1995)
Nicol, Martha, *Ismeer; or Smyrna and its British Hospital in 1855* (1856)
Nightingale, Florence, *Letters from Egypt* (1998 edn)
Ninet, John, *Lettres d'Egypte 1879–1882*, ed. Anoua Louca (1979)
Nostitz, Pauline, Countess, *Travels of Doctor and Madame Helfer in Syria, Mesopotamia*, 2 vols. (1878)
Nubar Pacha, *Mémoires* (Beirut, 1983)
Oikonomos, Constantino, *Etude sur Smyrne*, tr. and ed. Bonanventure F. Slaars (Smyrna, 1868)
Olin, Stephen, *Greece and the Golden Horn* (New York, 1854)
—— *Travels in Egypt, Arabia Petraea and the Holy Land*, 2 vols. (New York, 1843)
Olnon, M. Merlijn, 'Köprülü imperial policy and the refashioning of Izmir', in Maurits van den Boogert, ed., *Ottoman Izmir* (Istanbul, 2007)
Owen, H. Collinson, *Salonica and After: The Sideshow that Ended the War* (1919)
Owen, Roger, *Lord Cromer* (2002)
Oztuncay, Bahattin, ed., *100th Anniversary of the Restoration of the Constitution* (Istanbul, 2008)
—— *Hatira-i uhuvvet Portre Fotograflarin Cazibesi 1846–1950* (Istanbul, 2005)
Page, Bruce, Leitch, David, and Knightley, Phillip, *Philby: The Spy who Betrayed a Generation* (1968)
Panayotopoulos, A. J., 'Early relations between the Greeks and the Young Turks', *Balkan Studies*, 21 (1980), 87–95
Pannuti, Alessandro, *Les Italiens d'Istanbul au xxe siècle* (Istanbul, 2008)
Panzac, Daniel, *La Caravane maritime – marins européens et marchands ottomans en Méditerranée (1680–1830)* (2004)
—— *Les Corsaires barbaresques* (1999)
Papadopoulos, Stelios A., ed., *The Greek Merchant Marine, 1453–1850* (Athens, 1972)
Parish, Michael Woodbine, *Aegean Adventures 1940–1943* (Lewes, 1993)
Parmaksiz, Pinar M. Yarmakli, 'A Muslim family in infidel Izmir at the turn of the century: the Evliyazades', in Maurits van den Boogert, ed., *Ottoman Izmir* (Istanbul, 2007)
Paton, A. A., *The Modern Syrians* (1844)
Peach, Ceri, Robinson, Vaughan, and Smith, Susan, eds., *Ethnic Segregation in Cities* (1981)
Pentzopoulos, Dimitri, *The Balkan Exchange of Minorities and its Impact on Greece* (2002 edn)
Pernot, Maurice, *Rapport sur un voyage d'étude à Constantinople, en Egypte et en turquie d'Asie (janvier–août 1912)* (1912)
Peters, Rudolph, *Islam and Colonialism: The Doctrine of Jihad in Modern History* (The Hague, 1979)
Petropoulos, Elias, *Old Salonica* (Athens, 1982)
—— *La Présence ottomane à Salonique* (Athens, 1980)
—— and Emery, Ed, *Songs of the Greek Underworld: The Rebetika Tradition* (2000)
Petropoulos, John A., *Forms of Collaboration with the Enemy: Memoirs of Kanellos*

Delegiannes (n.d.)
Peyssonnel, Claude Charles de, *Examen du livre intitulé Considérations sur la guerre actuelle des Turcs* (Amsterdam, 1788)
Philip, John, *Reminiscences of Gibraltar, Egypt and the Egyptian War* (Aberdeen, 1893 edn)
Philipp, Thomas, *Acre: The Rise and Fall of a Palestinian City* (2001)
——*The Syrians in Egypt 1725–1975* (Stuttgart, 1985)
Philou, Christine, 'To be or not to be Roum in the 1820's', paper given at École Française d'Athenes, Feb. 2006
Picard, Elizabeth, 'Les Syriens, l'envers du décor', in Jad Thabet, ed., *Beyrouth: la brûlure des rêves* (2001)
Pierides, G. Philippou, *Memories and Stories from Egypt* (Nicosia, 1992)
Pillaut, Julien, *Les Consulats du Levant*, 2 vols. (Nancy, 1902)
Pintak, Larry, *Beirut Outtakes* (Lexington, 1988)
Playfair, Lt-Col. R. L., *Handbook to the Mediterranean. Its Cities, Coast and Islands* (1881)
Pococke, Richard, *A Description of the East*, 2 vols (1743)
Poffandi, S. E., *Indicateur égyptien* (Alexandria, 1892)
Poitou, Eugène, *Un hiver en Egypte* (1860)
Politis, Athanase G., ed., *Le Conflit turco-égyptien de 1838–1841 et les dernières années du règne de Mohamed Aly d'après les documents diplomatiques grecs* (Cairo, 1931)
Politis, Kosmas, 'At Hadzifrangos' *The Charioteer*, 11 (1969–70)
Polk, W. R., and Chambers, R., *The Beginnings of Modernization in the Middle East* (Chicago, 1968)
Le Portrait à Alexandrie dans les collections particulières (Alexandria 1955)
Poullet, M., *Nouvelles relations du Levant*, 2 vols. (1667)
Poumarède, Gérard, 'Négocier près la Sublime Porte: jalons pour une nouvelle histoire des capitulations ottomanes', in Lucien Bély, *L'Invention de la diplomatie* (1998)
—— *Pour en finir avec la croisade: Mythes et réalitiés de la lutte contre les Turcs aux XVIe et XVIIe siècles* (2004)
Pratt, Lawrence R., *East of Malta, West of Suez* (1975)
Presland, John, *Deedes Bey* (1941)
Prousis, Theophilus C., *British Consular Reports from the Ottoman Levant in an Age of Upheaval* (Istanbul, 2008)
—— 'Smyrna 1821: a Russian view', *Modern Greek Studies Yearbook*, 7 (1991)
Psomiades, Harry J., *The Eastern Question: The Last Phase* (Thessaloniki, 1968)
Pückler-Muskau, Prince, *Egypt under Mohammed Ali*, 2 vols. (1845)
Puryear, Vernon J., *Napoleon and the Dardanelles* (Berkeley, 1951)
Queiros, Eça de, *Les Anglais en Egypte* (2008)
Raafat, Samir W., *Cairo, the Glory Years: Who Built What, When, Why and for Whom* (Alexandria, 2003)
Rafeq, Abdul-Karim, *The Province of Damascus 1723–1783* (Beirut, 1966)
Raguse, Duc de, *Voyage de M. le Maréchal Duc de Raguse*, 5 vols. (1837)
Randal, Jonathan, *The Tragedy of Lebanon* (1990 edn)
Rawnsley, Andrew, *The Party is Over* (2010)
Rees, Tom, *Merchant Adventurers in the Levant* (Stawell, 2003)
Reimer, Michael J., *Colonial Bridgehead: Government and Society in Alexandria 1807–1882* (Boulder, 1997)
'Relation de l'île de Chio' (1747), in Antoine Galland, *Recueil des rits et ceremonies du pèlerinage de la Mecque* (Amsterdam, 1754)
Richardson, Robert, *Travels Along the Mediterranean and Parts Adjacent, in Company with the Earl of Belmore, during the years 1816–1817–1818*, 2 vols. (1822)
Ridley, Ronald T., *Napoleon's Proconsul in Egypt: The Life and Times of Bernardino Drovetti* (1998)
Riffier, Jean, 'Les Œuvres françaises et l'invention de la Syrie', in Bernard Delpal et

al., eds., *France–Levant, de la fin du xviie siècle à la Première Guerre mondiale* (2005)
Risal, P., *La Ville convoitée: Salonique* (1914)
Ristelhuber, René R., *Les Traditions françaises au Liban* (2nd edn, 1925)
Roe, Sir Thomas, *Negotiations of Sir Thomas Roe, in his Embassy to the Ottoman Porte, from the Year 1621 to 1628 Inclusive*, 2 vols. (1740)
Rogers, Michael, 'To and fro: aspects of Mediterranean trade and consumption in the 15th and 16th centuries', in *Villes au Levant: Hommage à André Raymond* (1990), 57–74
Rondeau, Daniel, *Alexandrie* (1997)
Ross, H. R., *Letters from the East* (1902)
Royle, Charles, *The Egyptian Campaigns 1882 to 1885* (rev. edn, 1900)
Rustum, A. J., *The Royal Archives of Egypt and the Disturbances in Palestine, 1834* (Beirut, 1938)
Sabit, Adel M., *A King Betrayed* (1989)
Sabry, M., *L'Empire Egyptien sous Mohammed Ali et la question d'Orient (1811–1849)* (1930)
Sacerdoti, Annie, *The Guide to Jewish Italy* (Venice, 2004)
Sacré, Amédée, and Outrebon, Louis, *L'Egypte et Ismail Pacha* (1865)
el-Sadat, Anwar, *Revolt on the Nile* (1957)
Sadgrove, Philip, *The Egyptian Theatre in the Nineteenth Century 1799–1882* (Reading, 1996)
—— 'Travellers' rendezvous and cultural institutions in Mohammed Ali's Egypt' in Paul Starkey and Janet Starkey, eds., *Interpreting the Orient: Travellers in Egypt and the Near East* (Reading, 2001)
Saghie, Hazim, 'Crossings: Beirut in the eighties' in Malu Halas and Roseanne Saad Khalaf, eds., *Transit Beirut: New Writings and Images* (2004)
Said, Edward, *After the Last Sky: Palestinian Lives* (1986)
—— 'Cairo and Alexandria', in id., *Reflections on Exile* (2001)
St John, Bayle, *Two Years' Residence in a Levantine Family* (1856)
St John, James Augustus, *Egypt and Mohammed Ali; or, Travels in the Valley of the Nile*, 2 vols. (1834)
Salam, Nawaf, and Sassine, Fares, *Lebanon: A Century in Pictures* (Beirut, 2003)
Saliba, Robert, *Beirut 1920–1940: Domestic Architecture between Tradition and Modernity* (Beirut, 1999)
Salibi, Kamal S., 'Beirut under the Young Turks as depicted by the political memoirs of Salim Ali Salam 1868–1938', in Jacques Berque, ed., *Les Arabes par leurs archives* (1976)
—— *A House of Many Mansions: The History of Lebanon Reconsidered* (2009 edn)
—— 'Maronite historians of Lebanon', in P. M. Holt and B. Lewis, eds., *Historians of the Middle East* (1962)
Sammarco, Angelo, *Les Règnes d'Abbas, de Said et d'Ismail* (Rome, 1935)
Sandalci, Mert, *Max Fuchtermann Kartpostallari*, 3 vols. (Istanbul, 2000)
Sandys, George, *Travels: Containing an History of the Original and Present State of the Turkish Empire* (6th edn, 1670)
Sattin, Anthony, *Lifting the Veil: British Society in Egypt 1768–1956* (1988)
Saulcy, Léon Caignart de, *Carnets de voyage* (1955 edn)
Savidis, George, ed., *C. P. Cavafy: Collected Poems* (rev. edn, 1992)
Sayek, Sybil Zandi, 'Fêtes et processions', in Marie-Carmen Smyrnelis, ed., *Smyrne, la ville oubliée?* (2006)
Sayigh, Rosemary, *Too Many Enemies: The Palestinian Experience in Lebanon* (1994)
Scheikevitch, Antoine, *Hellas? Hélas! Souvenirs de Salonique* (1922)
Scherzer, Charles de, *La Province de Smyrne considérée au point de vue géographique, économique et intellectuelle* (Vienne, 1873)
Schilcher, Linda Schatkowski, 'The famine of 1915–1918 in Greater Syria', in John P. Spagnolo, ed., *Problems of the Modern Middle East in Historical Perspective*

(Reading, 1992)
Schmidt, Jan, *From Anatolia to Indonesia: Opium Trade and the Dutch Community of Izmir 1820–1940* (Istanbul, 1998)
—— *Through the Legation Window: Four Essays on Dutch, Dutch Indian and Ottoman History* (Istanbul, 1992)
Schmitt, Oliver Jens, *Les Levantins: cadres de vie et identités d'un groupe ethno-confessionel de l'Empire Ottoman au 'long' 19e siècle* (Istanbul, 2007)
Scholch, Alexander, *Egypt for the Egyptians! The Socio-Political Crisis in Egypt 1878–1882* (Oxford, 1981)
Schroeder, Francis, *Shores of the Mediterranean*, 2 vols. (1846)
Schulze, Kirsten E., *The Jews of Lebanon: Between Coexistence and Conflict* (Brighton, 2001)
Sciacky, Leon, *Farewell to Ottoman Salonica* (Istanbul, 2000)
Scott, C. Rochfort, *Rambles in Egypt and Candia*, 2 vols. (1837)
Seale, Patrick, *Assad of Syria* (1988)
—— *The Struggle for Arab Independence: Riad al-Solh and the Makers of the Modem Middle East* (Cambridge, 2010)
—— and McConville, Maureen, *Philby: The Long Road to Moscow* (rev. edn, 1978)
Seferis, George, *A Poet's Journal: Days of 1945–1951* (Cambridge, Mass., 1974)
Sehnaoui, Nada, *L'Occidentalisation de la vie quotidienne à Beyrouth 1860–1914* (Beirut, 2002)
Seikaly, May, *Haifa: The Transformation of an Arab Society 1918–1939* (1998 edn)
Selwyn, Victor, et al., *Return to Oasis: War Poems and Recollections from the Middle East 1940–1946* (1980 edn)
Senior, Nassau William, *A Journal Kept in Turkey and Greece in the Autumn of 1857 and the Beginning of 1858* (1859)
Senoçak, Bulent, *Levant'in yildizi Izmir* (Izmir, 2003)
Shannon, Richard, *Gladstone: Heroic Minister 1865–1898* (2000 edn)
Sharif, Omar, *L'Eternel masculin* (1977)
Shaw, Stanford J., *From Empire to Republic: The Turkish War of National Liberation 1918–1923. A Documentary Study*, 5 vols. (Ankara, 2000)
al-Shaykh, Hanan, *The Story of Zahra* (1993 edn)
Shepherd's Oriental Yearbook for 1860 (Smyrna, 1859)
Simpson, Michael, ed., *The Cunningham Papers*, 2 vols. (Aldershot, 1999–2006)
Şimşir, Bilal N., ed., *British Documents on Ataturk*, 8 vols. (Ankara, 1984–2006)
Sinoué, Gilbert, *Le Colonel et l'enfant roi* (2006)
Skilliter, Susan A., 'An ambassador's tayin: Edward Barton's ration on the Egri campaign 1596', *Turcica*, 25 (1993)
Smyrna before the Catastrophe (Athens, 1992)
Smyrna, Metropolis of the Asia Minor Greeks (Athens, 2001)
Smyrne: Estudiantina nea ionia (compact disc: Athens, 2003)
Smyrnelis, Marie-Carmen, ed., *Smyrne, la ville oubliée?* (2006)
—— *Une ville ottomane plurielle: Smyrne aux xviie et xviiie siècles* (Istanbul, 2006)
Solomonidis, Victoria, 'Greece in Asia Minor: the Greek administration of the vilayet of Aydin, 1919–1922', PhD thesis (University of London, 1984)
Sonbol, Mira el-Azhary, ed., *Beyond the Exotic: Women's Histories in Islamic Societies* (Syracuse, NY, 2005)
Sonnini, Charles-Sigisbert, *Voyage en Grèce et en Turquie fait par ordre de Louis XVI* (1997 edn)
Sotiriou, Dido, *Farewell Anatolia* (Athens, 1991)
Soucek, Svat, 'The Strait of Chios and the Kaptanpaşa's navy', in Elizabeth Zachariadou, ed., *The Kapudan Pasha, his Office and his Domain* (Rethymnon, 2002)
el-Sousssi, Shadia, 'Borrowed words from Italian in Alexandrian Arabic' in

Bibliotheca Alexandrina, *Alex-Med Newsletter*, 7 (July 2007)
Spagnolo, John P., *France and Ottoman Lebanon 1861–1914* (1977)
—— ed., *Problems of the Modern Middle East in Historical Perspective* (Reading, 1992)
Spears, Sir Edward, *Fulfillment of a Mission: The Spears Mission to Syria and Lebanon, 1941–1944* (1977)
Spencer, Edmund, *Travels in European Turkey*, 2 vols. (1851)
Sperco, Willy, 'Lamartine et son domaine en Asie Mineure', *Revue de France*, 15 Oct. 1938, 1–22
Stadiem, William, *Too Rich* (1992)
Starkey, Paul, and Starkey, Janet, eds., *Interpreting the Orient: Travellers in Egypt and the Near East* (Reading, 2001)
Starr, Deborah, *Remembering Cosmopolitan Egypt: Literature, Culture and Empire* (2009)
Steensgaard, Niels, 'Consuls and nations in the Levant from 1570 to 1650', *Scandinavian Economic History Review*, 15, 1–2 (1967), 13–55
Stewart, Desmond, *Orphan with a Hoop: The Life of Emile Bustani* (1967)
—— *Turmoil in Beirut: A Personal Account* (1958)
Stochove, Fermanel, *Le Voyage d'Italie et du Levant* (Rouen, 1664)
Stone, Christopher, *Popular Culture and Nationalism in Lebanon: Fairuz and the Rahbani Nation* (2008)
Storrs, R., *Orientations* (def. edn, 1943)
Strachan, Michael, *The Life and Adventures of Thomas Coryate* (Oxford, 1962)
Sturdza, Mihail-Dimitri, *Dictionnaire historique et généalogique des grandes familles de Grèce, d'Albanie et de Constantinople* (1983)
Sulzberger, C. L., *A Long Row of Candles: Memoirs and Diaries 1934–1952* (1969)
Sureau, François, *Les Alexandrins* (2003)
Swan, Rev. Charles, *Journal of a Voyage up the Mediterranean, Principally among the Islands of the Archipelago, and in Asia Minor*, 2 vols. (1826)
Sykes, John, *The Levantine* (1952)
Symes, Sir Stewart, *Tour of Duty* (1946)
Tabbara, Lina Mikdadi, *Survival in Beirut: A Diary of Civil War* (1979)
Tancoigne, J. M., *Voyage à Smyrne, dans l'archipel et l'île de Candie en 1811, 1812, 1813 et 1814*, 2 vols. (1817)
Tapp, A. Griffin, *Stories of Salonica and the New Crusade* (1922)
Tauber, Eliezer, *The Emergence of the Arab Movement* (1993)
Tchentsova, Vera, 'Le fonds des documents grecs (F. 52. "Relations de la Russie avec la Grèce") de la collection des archives nationales des actes anciens de la Russie et leur valeur pour l'histoire de l'Empire Ottoman', *Turcica*, 30 (1998), 383–96
Tedder, Marshal of the RAF Lord, *With Prejudice: War Memoirs* (1966)
Tekeli, Ilhan, and Ilkin, Selim, 'The public works program and the development of technology in the Ottoman Empire in the second half of the nineteenth century, *Turcica*, 28 (1996)
Terhune, A. P., *Syria from the Saddle* (1896)
Terrades, Marc, *Le Drame de l'Héllenisme: Ion Dragoumis (1878–1920) et la question nationale en Grèce au début du xxe siècle* (2005)
Terry, Janice J., *The Wafd* (Beirut, 1981)
Testa, Marie de, and Gautier, Antoine, *Drogmans et diplomates européens auprès de la Porte Ottomane* (Istanbul, 2003)
Texier, Charles, *Description de l'Asie mineure faite par ordre du gouvernement français*, 3 vols. (1849)
Thabet, Jad, ed., *Beyrouth: la brûlure des rêves* (2001)
Thackeray, William Makepeace, *Notes of a Journey from Cornhill to Grand Cairo* (2nd edn, 1846)
Thomas, Hugh, *The Suez Affair* (1986 edn)

Thompson, Victoria, *Losing Alexandria* (Sydney, 1998)
Tignor, Robert, *Capitalism and Nationalism at the End of Empire* (Princeton, 1998)
—— *State, Private Enterprise and Economic Change in Egypt 1918–1952* (Princeton, 1984)
Timofeev, Igor, *Kamal Joumblatt et le tragique destin du Liban* (Beirut, 2000)
Toledano, Ehud R., *State and Society in Mid-Nineteenth-Century Egypt* (Cambridge, 2003 edn)
Tomes, Jason, *King Zog: Self-Made Monarch of Albania* (2003)
Totten, Michael J., 'From Baghdad to Beirut', *City Journal*, 10 Jan. 2010 (online)
Tournefort, M. Pitton de, *Relation d'un voyage du Levant, fait par ordre du Roy*, 2 vols. (1717)
Trading in the Levant (Manchester, 1912)
Travelos, John, and Kokkou, Angelike, *Hermoupolis* (Athens, 1984)
Trimi, Katerina, 'La famille Benakis: un paradigme de la bourgeoisie grecque alexandrine', in Meropi Anastassiadou and Bernard Heyberger, eds., *Figures anonymes, figures d'élite: pour une anatomie de l'Homo ottomanicus* (Istanbul, 1999)
Tucker, Judith E., *Women in Nineteenth Century Egypt* (1985)
Tulloch, Major-General Sir Alexander Bruce, *Recollections of Forty Years' Service* (1903)
Turner, Barry, *Suez 1956* (2007 edn)
Turner, William, *Journal of a Tour in the Levant*, 3 vols. (1820)
Turrell, Ray, *Scrap Book 1809–1922* (Englefield Green, 1987)
Tzalas, Harry F., *Farewell to Alexandria* (Cairo, 2003 edn)
al-Udhari, Abdallah, tr. and ed., *Modern Poetry of the Arab World* (1986)
Ugur, Ugur U., 'A reign of terror: CUP rule in Diyarbekir province 1913–1919', MA thesis (University of Amsterdam, 2005)
Upward, Allen, *The East End of Europe* (1908)
Ursu, J., *La Politique orientale de François Ier 1515–1547* (1908)
Uşakligil, Halid Ziya, *Kirk yil. Anilar* (Istanbul, 1987 edn)
Vacalopoulos, Apostolos E., *The Greek Nation 1453–1669* (New Brunswick, 1976)
—— *A History of Thessaloniki* (Thessaloniki, 1972)
Vailland, Roger, *Choses vues en Egypte* (1982 edn)
Valon, Alexis de, *Une année dans le Levant: voyage en Sicile, en Grèce et en Turquie*, 2 vols. (2nd edn, 1850)
van Droffelaar, Johan, '"Flemish Fathers" in the Levant', in Geert Jan Van Gelder and Ed de Moor, eds., *Eastward Bound: Dutch Ventures and Adventures in the Middle East* (Amsterdam, 1994)
Vatikiotis, P. J., *Nasser and his Generation* (1978)
Vaucher, G., *Gamal Abdel Nasser et son équipe*, 2 vols. (1959)
Veinstein, Gilles, 'Ayan de la region d'Izmir et le commerce du Levant', in id., *Etat et société dans l'Empire Ottoman, xviie–xviiie siècles* (Aldershot, 1994)
—— 'Retour sur la question de la tolérance ottomane', in Bartolome Bennassar and Robert Sauzet, eds., *Chrétiens et musulmans à la renaissance* (1998)
—— ed., *Salonique 1850–1918: la ville des juifs et le réveil des Balkans* (1992)
Velde, C. W. M. van de, *Narrative of a Journey through Syria and Palestine in 1851 and 1852*, 2 vols. (1854)
Verdeil, Chantal, 'Les écoles d'Orient: le réseau scolaire congréganiste en Syrie', in Bernard Delpal et al., eds., *France–Levant, de la fin du xviie siècle à la Première Guerre mondiale* (2005)
Viallon, Marie F., *Venise et la porte ottomane 1453–1566* (1995)
Wailly, Henri de, *Syrie 1941. la guerre occultée* (2006)
Walker, Hugh H., *The Anglo-American Guide Book to Alexandria* (Cairo, 1938)
Walker, Mary A., *Through Macedonia to the Albanian Lakes* (1864)
Walsh, Rev. R., *A Residence at Constantinople, during a Period including the Commencement, Progress, and Termination of the Greek and Turkish Revolutions*, 2 vols. (1836)

Wassef, Magda, ed., *Egypte: cent ans de cinéma* (1995)
Waterfield, Gordon, *Egypt* (1967)
Waugh, Alec, *The Mule on the Minaret* (1964)
Waugh, Evelyn, *The Letters of Evelyn Waugh*, ed. Mark Amory (1980)
White, Patrick, *Flaws in the Glass: A Self-Portrait* (1983 edn)
Wiet, Gaston, *Mohammed Ali et les beaux-arts* (Cairo, 1949)
Wilkinson, Sir Gardner, *Handbook for Travellers in Egypt* (1847)
Williams, H. Noel, *The Life and Letters of Admiral Sir Charles Napier KCB* (1917)
Wilson, Sir Charles Rivers, GCMG, CB, *Chapters from My Official Life* (1916)
Wilson, Field Marshal Lord, *Eight Years Overseas* (1948)
Wines, E. C., *Two Years and A Half in the Navy; or, Journal of a Cruise in the Mediterranean and the Levant*, 2 vols. (Philadelphia, 1832)
Winton, John, *Cunningham* (1998)
Wissa, Hanna F., *Assiout: The Saga of an Egyptian Family* (Lewes, 1994)
Woodruff, Samuel, *Journal of a tour to Malta, Greece and Spain in 1828* (Hartford, 1831)
Woodsworth, Nicholas, *The Liquid Continent*, 3 vols. (2008)
Wortabet, Gregory M., *Syria, and the Syrians: or, Turkey in the Dependencies*, 2 vols. (1856)
Wratislaw, A. C., *A Consul in the East* (1924)
Wright, Arnold, *Twentieth Century Impressions of Egypt* (1909)
Wynn, Antony, *Three Camels to Smyrna: The Story of the Oriental Carpet Manufacturers Company* (2008)
Yeğin, Ugur, ed., *Once Upon a Time Izmir from the Collection of Ugur Goktaş* (Izmir, 2009)
Yehya, Lutfi A. W., 'Alexandria reminiscences of an old historian' *Mediterraneans*, 8 (2006), 365–7
Yiannakopoulos, Georgios A., ed., *Refugee Greece: Photographs from the Archive of the Centre for Asia Minor Studies* (Athens, 1992)
Yurdusev, Nuri, ed., *Ottoman Diplomacy: Conventional or Unconventional?* (Basingstoke, 2004)
Zahlan, Rosemay Said 'George Baldwin', in Paul Starkey and Janet Starkey, eds., *Interpreting the Orient: Travellers in Egypt and the Near East* (Reading, 2001)
Zananiri, Gaston, *Entre mer et désert: mémoires* (1996)
Zimmerli Hardman, Esther, *From Camp de César to Cleopatra's Pool* (Alexandria, 2008)
Zisser, Eyal, *Lebanon: The Challenge of Independence* (2000)
Zogheb, Count Patrice de, *Red Cross and Red Crescent: Work in Alexandria under the Patronage of HRH Prince Mohammed Ali* (Alexandria, 1943)

المؤلف في سطور

فيليب مانسيل

- مؤرخ البلاطات والعائلات الحاكمة.
- من أهم أعماله «بلاط فرنسا 1789-1830»، وتاريخ «باريس بين الإمبراطوريات 1814-1852»، وحياة الأمير دي لاين «أمير أوروبا».
- يعد كتابه «القسطنطينية: المدينة التي اشتهاها العالم 1453-1924» (سلسلة عالم المعرفة - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، عددا يوليو وأغسطس 2015) من أمتع ما كتب عن تاريخ المدينة والإمبراطورية العثمانية.
- زميل «الجمعية التاريخية الملكية» ومعهد البحوث التاريخية، ومحرر مجلة «مؤرخ البلاط»، يكتب في مجلات وصحف كثيرة مثل «فاينانشال تايمز Financial Times» و«إنترناشونال هيرالد تريبيون» International Herald Tribune و«ملحق تايمز الأدبي» Times Literary Supplement و«سبكتاتور» Spectator.

المترجم في سطور

د. مصطفى محمد عبدالله قاسم

- مترجم مصري، حاصل على جائزة خادم الحرمين الشريفين العالمية للترجمة في دورتها السابعة 2014 في فرع العلوم الإنسانية من اللغات الأخرى إلى العربية عن كتابه «مأساة سياسة القوى العظمى».
- من أعماله المترجمة: «المملوك الأخير» - رواية (تحت النشر، المركز القومي للترجمة - مصر)؛ «الشبكة الإنسانية» - نظرة محلقة على التاريخ العالمي (تحت النشر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت)؛ «عباد الله - المسلمون بين العبيد الأفارقة في الأمريكتين» (تحت النشر، دار جامعة

الملك للنشر)؛ «حضارات السند البائدة» (مشروع كلمة للترجمة - الإمارات، 2016)؛ «من أجل المستقبل – تعليم الأطفال لعالم متغير» (دار جامعة الملك للنشر، 2016)؛ «مقدمة إلى ريادة الأعمال» (مركز الترجمة بوزارة التعليم العالي السعودية، 2015)؛ «القسطنطينية: المدينة التي اشتهاها العالم - 1453-1924» (سلسلة عالم المعرفة - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، عددا يوليو وأغسطس 2015)؛ «الوقاية من المشكلات السلوكية – برامج على مستوى المدرسة وممارسات على مستوى الصف» (الناشر الدولي للنشر والتوزيع، الرياض، 2015)؛ «القوة والوفرة – التجارة والحرب والاقتصاد العالمي في الألفية الثانية» (دار جامعة الملك سعود للنشر، 2015)؛ «الدِين والدم: إبادة شعب الأندلس» (هيئة أبوظبي للسياحة والتراث - مشروع كلمة، 2013)؛ «الحياة اليومية في مصر القديمة» (المركز القومي للترجمة - مصر، 2013)؛ «مأساة سياسة القوى العظمى» (مركز الترجمة بجامعة الملك سعود، 2012)؛ «مولد الوفرة – كيف تشكل رخاء العالم الحديث» (مركز الترجمة بجامعة الملك سعود، 2012)؛ «التقنية والثقافة في العصور القديمة» (هيئة أبوظبي للثقافة والتراث- مشروع كلمة، 2011)؛ «الاقتصاد السياسي لمصر: دور علاقات القوة في التنمية» (المركز القومي للترجمة، مصر، 2010)؛ «الفرض في التربية الليبرالية الجديدة» (المركز القومي للترجمة، مصر، 2010)؛ «الأطفال واللعب» (المركز القومي للترجمة، مصر، 2010)؛ «العلاقات الحضارية المسيحية - الإسلامية بين احتمالات التعاون والصراع» (المركز القومي للترجمة، مصر، 2010)؛ «صعود الصين» (المركز القومي للترجمة، مصر، 2010)؛ «الإعاقة العقلية: الماضي والحاضر والمستقبل» (دار الفكر للنشر والتوزيع، الأردن، 2010)؛ «مقدمة إلى التطور اللغوي» (دار الفكر للنشر والتوزيع، الأردن، 2010)؛ «التاريخ الاجتماعي للوسائط من غُتنبرغ إلى الإنترنت» (سلسلة عالم المعرفة، العدد 315 مايو 2005، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت). فضلا على تحكيم الكثير من الكتب المترجمة لعدد من مؤسسات وجوائز الترجمة في عدد من الدول العربية.

سلسلة عالم المعرفة

«عالم المعرفة» سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت - وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير العام 1978.

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة. ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفا وترجمة:

1 - الدراسات الإنسانية: تاريخ ـ فلسفة - أدب الرحلات - الدراسات الحضارية - تاريخ الأفكار.

2 - العلوم الاجتماعية: اجتماع - اقتصاد - سياسة - علم نفس - جغرافيا - تخطيط - دراسات استراتيجية - مستقبليات.

3 - الدراسات الأدبية واللغوية: الأدب العربي - الآداب العالمية - علم اللغة.

4 - الدراسات الفنية: علم الجمال وفلسفة الفن - المسرح - الموسيقى - الفنون التشكيلية والفنون الشعبية.

5 - الدراسات العلمية: تاريخ العلم وفلسفته، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء، كيمياء، علم الحياة، فلك) ـ الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم)، والدراسات التكنولوجية.

أما بالنسبة إلى نشر الأعمال الإبداعية ـ المترجمة أو المؤلفة ـ من شعر وقصة ومسرحية، وكذلك الأعمال المتعلقة بشخصية واحدة بعينها فهذا أمر غير وارد في الوقت الحالي.

وتحرص سلسلة «عالم المعرفة» على أن تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر.

وترحب السلسلة باقتراحات التأليف والترجمة المقدمة من المتخصصين، على ألا يزيد حجمها على 350 صفحة من القطع المتوسط، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدته وفي حالة الترجمة ترسل نسخة مصورة من الكتاب بلغته الأصلية كما ترفق مذكرة بالفكرة العامة للكتاب، وكذلك يجب أن تدوّن أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة، والسلسلة لا يمكنها النظر في أي ترجمة ما لم تكن مستوفية لهذا الشرط. والمجلس غير ملزم بإعادة المخطوطات والكتب الأجنبية في حالة الاعتذار عن عدم نشره. وفي جميع الحالات ينبغي إرفاق سيرة ذاتية لمقترح الكتاب تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه العلمي السابق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع ـ المؤلف أو المترجم ـ تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألفا دينار كويتي وللمترجم مكافأة بمعدل ثلاثين فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي (وبحد أقصى مقداره ألفان وخمسمائة دينار كويتي).

هذا الكتاب...

يشير المشرق إلى الأراضي الواقعة على الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، وهي تحديدا الدول الحديثة: اليونان وتركيا وسورية ولبنان وفلسطين ومصر، التي كانت من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين، جزءا من الإمبراطورية العثمانية.

في عصر الحروب الدينية، كان هذا المشرق، وتحديدا موانئه، بوتقة للتجاور بين مختلف الأديان والأقوام، وانتصبت فيه المساجد والكنائس والمعابد جنبا إلى جنب، وتجاورت فيه اللغات والثقافات والمواريث القومية. لكن هل كان هذا المشرق فعلا جنة للتعايش بين الأديان والأقوام، كما في المخيلة المعاصرة الميّالة إلى الحنين إلى الماضي وتمجيده، ونسيان أهواله وصفحاته المظلمة، وكما تصوّر الروايات السكندرية المشرقية العربية الكثيرة؟ وعلى نحو أوسع من ذلك السؤال، هل كان من الممكن - في هذا الجو العالمي «الجهادي» إسلاميا و«الصليبي» مسيحيا و«الاستعماري» و«المتعالي حضاريا» أوروبيا - أن يسود تعايش حقيقي قائم على الوئام والتعارف والاحترام؟

ينتمي الكتاب الحالي إلى نوعية الكتابات التي تتباكى على المشرق الكوزموبوليتاني، ومع ذلك فإن الحقائق التاريخية التي يقدمها تنقض فكرة «جنة التعايش»، وتبرز الانفصال بين الجماعات المشرقية، وحالة الاستغلال المعمم من جانب الجاليات الأوروبية بحق الأهالي في مدن المشرق. وإن لم يكن المشرق «المتوسطي» جنة الحرية والتعايش، فإن فكرة المشرق الكوزموبوليتاني قد كسرت حدود الزمان والمكان، وشقت طريقها إلى مدن الغرب والشرق في صورة العولمة، وإن كانت المشارق الجديدة أكثر تعايشا وحرية ومساواة وعدالة، وأبعد عن الاستغلال والاحتقار الديني والقومي، على الأقل مقارنة بمشرقنا القديم.

ISBN 978 - 99906 - 0 - 570 - 9

إصدارات المجلس متوافرة إلكترونيا على موقعنا:
WWW.NCCAL.GOV.KW/PUBLICATIONS